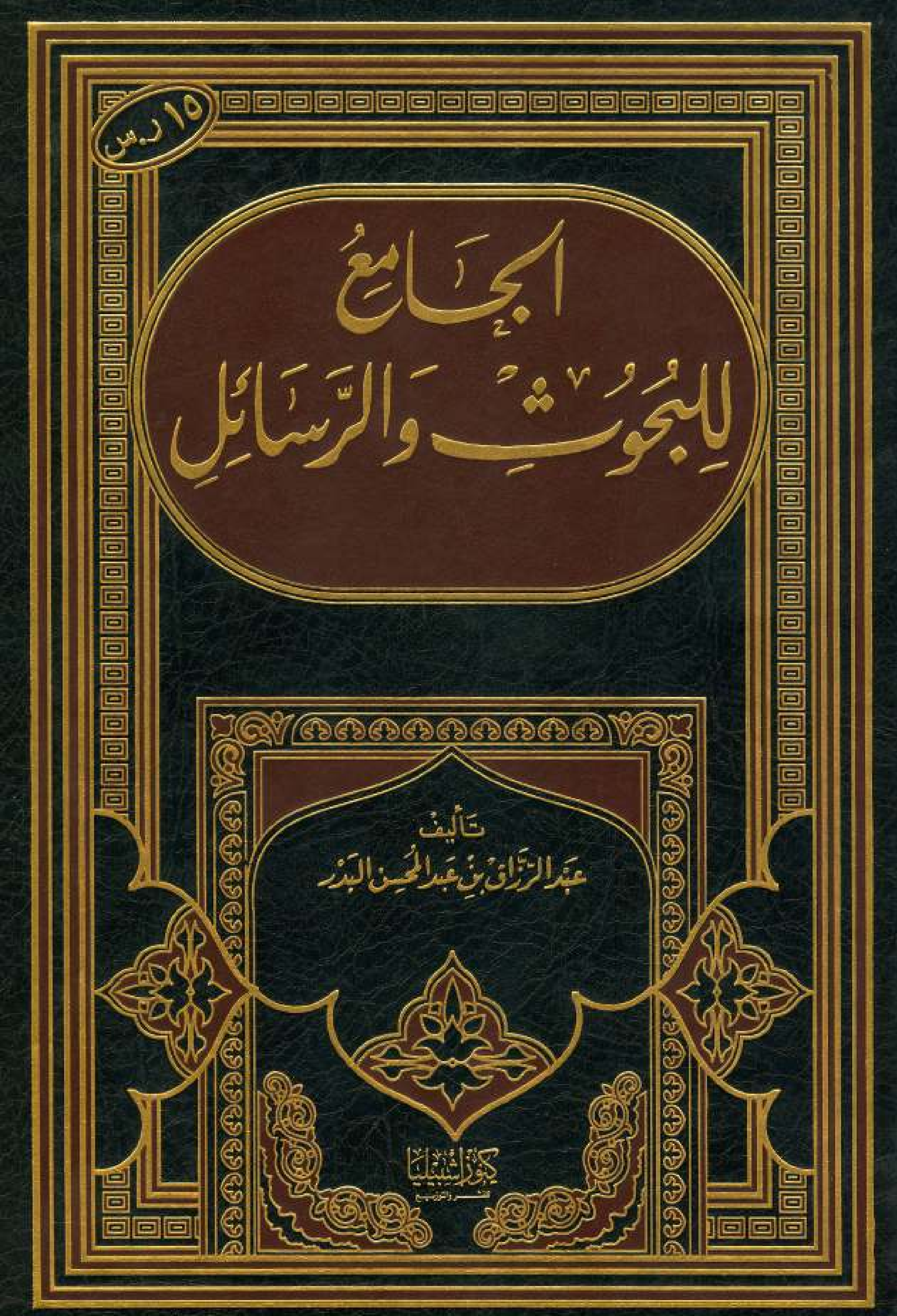


١٥ ر.س
الجامع للبحوث والرسائل
تأليف
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
كنوز إشبيليا

الجامع
للبحوث والرسائل

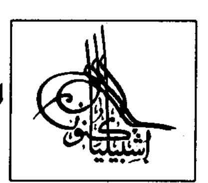
تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر



الطّبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



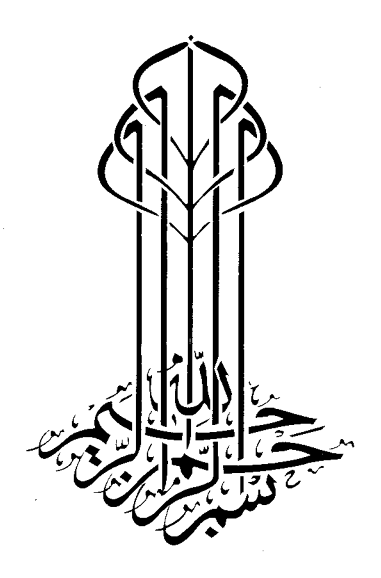
دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ١٣٣٧١ الرياض ١١٤٩٣

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨- ٤٧٧٣٩٥٩ -٤٠٧٠٤ ٢٩١ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com

الجامع
للبحوث والرسائل



ⓒ دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البدر، عبدالرزاق بن عبدالمحسن
الجامع للبحوث والرسائل/ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر
الرياض، ١٤٢٥هـ
٦٤٣ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٥-٢-٩٥٨٨-٩٩٦٠
١ - العقيدة الإسلامية - مجموعات ٢ - الأسماء الحسنى أ- العنوان
ديوي ٨، ٢٤٠ ٦٢٧٧/ ١٤٢٥

رقم الإيداع: ٦٢٧٧/ ١٤٢٥
ردمك: ٥-٢-٩٥٨٨-٩٩٦٠

المقـدمـة

الحمد لله عظيم الإحسان، واسع الفضل والجود والامتنان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكريم المنان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للإنس والجان، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان.

أما بعد: فهذا مجموع يحتوي على أربع عشرة رسالة كتبتها في أوقات مختلفة بعضها نشر في مجلات علمية، وبعضها طبع في غلاف مفرد، وقد رأيت من المناسب لمُّها في هذا المجموع وجمع شملها في هذا السفر، وأسأل الله أن ينفع بها، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم إنَّه سميع مجيب.

وقد حوى هذا المجموع الرسائل والبحوث التالية:

١- الرسالة الأولى: المختصر المفيد في بيان دلائل أقسام التوحيد.

٢- الرسالة الثانية: إثبات أنَّ المحسن من أسماء الله الحسنى.

٣- الرسالة الثالثة: الأثر المشهور عن الإمام مالك -رحمه الله- في صفة الاستواء.

٤- الرسالة الرابعة: الحوقلة مفهومها وفضائلها ودلالاتها العقدية.

٥- الرسالة الخامسة: فضائل الكلمات الأربع.

٦- الرسالة السادسة: دروس عقدية مستفادة من الحج.

٧- الرسالة السابعة: الحج وتهذيب النفوس.

٨- الرسالة الثامنة: تأملات في قوله تعالى: (وأزواجه أمهاتهم).

٩- الرسالة التاسعة: تأملات في مماثلة المؤمن للنخلة.

١٠- الرسالة العاشرة: ثبات عقيدة السلف وسلامتها من التغيرات.

١١- الرسالة الحادية عشرة: مكانة الدعوة إلى الله وأسس دعوة غير المسلمين.

١٢- الرسالة الثانية عشرة: تكريم الإسلام للمرأة.

١٣- الرسالة الثالثة عشرة: مفاتيح الخير.

١٤- الرسالة الرابعة عشرة: تنبيهات على رسالة محمد عادل عزيزة في الصفات.

وجميع هذه الرسائل جهد مقل وبضاعة ضعيف مقصر، يرجو من ربه العفو والغفران، ويأمل منه سبحانه القبول والرضوان، وهو عز وجل خير مرجو وأفضل مأمول، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه: عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر

في يوم الثلاثاء ١٦/٢/١٤٢٥هـ



الرسالة الأولى

المختصر المفيد

في بيان دلائل أقسام التوحيد



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخيرة ربِّ العالمين: نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فهذه رسالة مختصرة، وورقات يسيرة في بيان بعض البراهين والدلائل على أقسام التوحيد، وصحة تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، اختصرتها من كتابي الذي رددت فيه على من أنكر هذا التقسيم؛ تحقيقاً لرغبة عددٍ من الأفاضل، وأسأل الله أن ينفع بهذا المختصر وأصله بمنِّه وكرمه.

بيان مختصر لأقسام التوحيد

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأنَّ الله تعالى ربُّ كلِّ شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنَّه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كلُّه، وبيده الخير كلُّه، القادر على كلِّ شيء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر.

القسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات، وهو الإقرار بأنَّ الله بكلِّ شيء عليم، وعلى كلِّ شيء قدير، وأنَّه الحيُّ القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنَّه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنَّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبَّار المتكبِّر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والإيمان الجازم بها دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

القسم الثالث: توحيد الإلهية، ومبناه على إخلاص التأله لله تعالى، من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والدعاء لله وحده، وإخلاص العبادات كلِّها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، فلا يُجعل فيها شيءٌ لغيره، لا لِمَلَك مقرَّبٍ، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما. وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلاَّ الله؛ فإنَّ الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خُلقت الخليقة، وأُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار.

أضداد هذه الأقسام

ولكلِّ قسم من هذه الأقسام الثلاثة ضد ؛ «فإذا عرفت أنَّ توحيد الربوبية هو الإقرار بأنَّ الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور المتصرف في كلِّ مخلوقاته لا شريك له في ملكه، فضد ذلك هو اعتقاد العبد وجود متصرف مع الله غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وإذا عرفتَ أنَّ توحيد الأسماء والصفات هو أن يُدعى الله بما سمَّى به نفسه، ويُوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ، ويُنفى عنه التشبيه والتمثيل، فضد ذلك شيئان، ويَعمُّهما اسم الإلحاد:

أحدهما: نفي ذلك عن الله عز وجل وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة.

وثانيهما: تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[2].

وإذا عرفت أنَّ توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، ونفي العبادة عن كلِّ ما سوى الله تبارك وتعالى، فضد ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل، وهذا هو الغالب على عامة المشركين، وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها»[3].

---

(١) سورة الشورى، الآية ١١.

(٢) سورة طه، الآية ١١٠.

(٣) معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي (١/ ٤١٨).

توحيد الربوبية وحده لا يكفي

لقد حكى الله سبحانه في كتابه عن المشركين أنَّهم مُقرُّون بتوحيد الربوبية، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(١)، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ﴾(٢)، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(٤)، فهم كانوا يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره، ومع ذلك فإنَّ هذا الإقرار لا يكفيهم ولا ينجيهم، وما ذلك إلاَّ لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا إله إلاَّ الله، ولهذا قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٥)، قال ابن عباس: «من إيمانهم: إذا قيل لهم: مَن خلق السماء، ومَن خلق الأرض، ومَن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون».

وقال عكرمة: «تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض؟ فيقولون الله. فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره».

وقال مجاهد: «إيمانهم بالله قولهم: الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع

---

(١) سورة يونس، الآية ٣١.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٨٧.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٦٣.

(٤) سورة النمل، الآية ٦٢.

(٥) سورة يوسف، الآية ١٠٦.

شرك عبادتهم غيره)).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ((ليس أحد يَعبد مع الله غيرَه إلاَّ وهو مؤمن بالله ويعرف أنَّ الله ربُّه، وأنَّ الله خالقه ورازقه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] قد عرف أنَّهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك إلاَّ وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلاَّ شريك هو لك، تملكه وما ملك. المشركون كانوا يقولون هذا))[2].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((أي لا تشركوا بالله غيرَه من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنَّه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه))[4]. وقال قتادة: ((أي تعلمون أنَّ الله خلقكم وخلق السموات والأرض ثم تجعلون له أنداداً))[5].

وقد أورد ابن القيم رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[6]، أنَّه قال: ((يريد: عَدلُوا بي من خَلْقي الحجارة والأصنام بعد

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) انظر: جامع البيان (٧٩.٧٧/٨).

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢.

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره (١٦٤/١).

(٥) رواه ابن جرير في تفسيره (١٦٤/١).

(٦) سورة الأنعام، الآية ١.

أن أقروا بنعمتي وربوبيتي»[١].

ومن الشواهد على اعتراف المشركين بربوبية الله من كلامهم: قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتمنَّ الله ما في نفوسكم ليخفى فمهما يُكتم الله يعلم

يُؤخر فيوضَع في كتاب فيُدَّخر ليوم حساب أو يعجَّل فينقم

قال ابن كثير ـ وقد أورد هذين البيتين ـ: «فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة»[٢].

وقال ابن جرير: «وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يَمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجيلتنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق»[٣]

والشواهد على هذا كثيرة، ومع ذلك فهم مشركون؛ لأنَّهم يعبدون مع الله غيره.

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/٢٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٨).

(٣) جامع البيان (١/٥٨).

ذكر بعض دلائل هذه الأقسام

ولهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد دلائل كثيرة وبراهين عديدة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تحصر، يعرفها من لديه أدنى إلمام بنصوص الكتاب والسنة، بل إنَّ من يحفظ فاتحة الكتاب[(١)] وسورة الناس يجد فيهما ما يشفي ويكفي من وضوح دلالةٍ ونصوع برهانٍ على هذا التقسيم، بل هو أكبر الحقائق الشرعية المقررة في الكتاب والسنة.

١ـ فمن أدلة توحيد الربوبية: قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[(٦)]

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٤) وما بعدها قوله: فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة.

(٢) سورة الأعراف، الآية٥٤.

(٣) سورة الرعد، الآية ١٦.

(٤) سورة المؤمنون، الآيات ٨٤ـ٨٩.

(٥) سورة غافر، الآية ٦٤.

(٦) سورة الزمر، الآية ٦٢.

وغيرها من الآيات.

٢ـ ومن أدلة توحيد الألوهية: قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ الله معناه المألوه المعبود. وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[2]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[4]، وغيرها من الآيات.

٣ـ ومن أدلة توحيد الأسماء والصفات: قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[5]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[6]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[7]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[8]، وآخر سورة الحشر، وغيرها من الآيات.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١.

(٢) سورة الزمر، الآيتان ٢، ٣.

(٣) سورة الزمر، الآيتان ١٤، ١٥.

(٤) سورة البينة، الآية ٥.

(٥) سورة الإسراء، الآية ١١٠.

(٦) سورة مريم، الآية ٦٥.

(٧) سورة طه، الآية ٨.

(٨) سورة الشورى، الآية ١١.

من الآيات الجامعة لأقسام التوحيد الثلاثة

ومن الآيات التي جمعت أقسام التوحيد الثلاثة: قول الله تبارك وتعالى في سورة مريم: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[١].

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله مبيناً دلالة الآية على ذلك: ((اشتملت [أي الآية] على أصول عظيمة: على توحيد الربوبية وأنَّه تعالى ربُّ كلِّ شيء وخالقه ورازقه ومدبره، وعلى توحيد الألوهية والعبادة وأنَّه تعالى الإله المعبود، وعلى أنَّ ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده، ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ الدالة على السبب أي: فكما أنَّه ربُّ كلِّ شيء فليكن هو المعبود حقاً فاعبده، ومنه: الاصطبار لعبادته تعالى وهو جهاد النفس وتمرينها وحملها على عبادة الله تعالى فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر وهو الصبر على الواجبات والمستحبات والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات؛ فإنَّ الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ﴾. واشتملت على أنَّ الله تعالى كامل الأسماء والصفات، عظيم النعوت، جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي، بل قد تفرَّد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات))[٢].

---

(١) سورة مريم، الآية ٦٥.

(٢) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص٤٤، ٤٥).

القرآن كلُّه مقرِّرٌ لهذا التوحيد

وفي بيان دلالة القرآن على أنواع التوحيد يقول العلامة ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر أنَّ كلَّ طائفة تُسمِّي باطلها توحيداً: «وأمَّا التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك كلِّه، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدَّ الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[1] الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام. وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كليّاً: إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإنَّ القرآن إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كلِّ ما يُعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإمَّا أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإمَّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإمَّا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النَّكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كلُّه في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: توحيد، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: توحيد، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: توحيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: توحيد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد...»[١].

وقال الشوكاني رحمه الله في مقدمة كتابه القيم «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات»[٢]: «واعلم أنَّ إيراد الآيات القرآنية على إثبات كلِّ مقصد من هذه المقاصد، وإثبات اتفاق الشرائع عليها، لا يحتاج إليه من يقرأ القرآن العظيم؛ فإنَّه إذا أخذ المصحف الكريم وقف على ذلك في أيِّ موضع شاء، ومن أيِّ مكان أحب، وفي أيِّ محل منه أراد، ووجده مشحوناً به من فاتحته إلى خاتمته».

---

(١) مدارج السالكين (٣/٤٤٩، ٤٥٠).

(٢) (ص: ٤).

تقسيم التوحيد حقيقة شرعية معلومة بالاستقراء

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «وقد دلَّ استقراء القرآن العظيم على أنَّ توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جُبلت عليه فِطَرُ العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ...﴾[1]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[2]. وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] تجاهلٌ من عارفٍ أنَّه عبدٌ مربوبٌ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[5]، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[6]. والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

الثاني: توحيده جل وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى: «لا إله إلا الله» وهي متركبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت، في جميع أنواع العبادات

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٨٧.

(٢) سورة يونس، الآية ٣١.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢٣.

(٤) سورة الإسراء، الآية ١٠٢.

(٥) سورة النمل، الآية ١٤.

(٦) سورة يوسف، الآية ١٠٦.

كائنـة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[1].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد: قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ...﴾[2] الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[6] فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنَّ ما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنَّها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر النواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب. والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

---

(١) سورة ص، الآية ٥.

(٢) سورة محمد، الآية ١٩.

(٣) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٥) سورة الزخرف، الآية ٤٥.

(٦) سورة الأنبياء، الآية ١٠٨.

النوع الثالث: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه الله جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[1].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2] مع قطع الطمع عن إدراك كيفيَّة الاتصاف، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[3] وقد قدَّمنا هذا المبحث مستوفى موضحاً بالآيات القرآنية في سورة الأعراف.

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنَّه هو المستحق لأن يُعبد وحده، ووبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنَّه هو الرب وحده؛ لأنَّ مَن اعترف بأنَّه الربُّ وحده لزمه الاعتراف بأنَّه هو المستحق لأن يُعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾[4] إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، فلمَّا أقروا بربوبيته وبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) سورة الشورى، الآية ١١.

(٢) سورة الشورى، الآية ١١.

(٣) سورة طه، الآية ١١٠.

(٤) سورة يونس، الآية ٣١.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فلمَّا اعترفوا وبَّخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فلمَّا أقروا وبَّخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فلمَّا أقروا وبَّخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ فلمَّا صح الاعتراف وبَّخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فلمَّا صحَّ اعترافهم وبَّخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فلمَّا صح إقرارهم وبَّخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٤).

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فلمَّا صح

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات ٨٤، ٨٩.

(٢) سورة الرعد، الآية ١٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٦١.

(٤) سورة العنكبوت، الآية ٦٣.

اعترافهم وبَّخهم الله منكراً عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾ ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أنَّ القادر على خلق السموات والأرض وما ذكر معها خيرٌ من جمادٍ لا يقدر على شيء. فلمَّا تعين اعترافهم وبَّخهم منكراً عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾ ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله. فلمَّا تعين اعترافهم وبَّخهم منكراً عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ولا شك أنَّ الجواب كما قبله. فلمَّا تعين إقرارهم بذلك وبَّخهم منكراً عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ﴾ ولا شك أنَّ الجواب كما قبله. فلمَّا تعين إقرارهم بذلك وبَّخهم منكراً عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ولا شك أنَّ الجواب كما قبله. فلمَّا تعين الاعتراف وبَّخهم منكراً عليهم بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٥.

(٢) سورة النمل، الآيات ٥٩ ـ ٦٤.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ﴾، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا، أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء. فلمَّا تعين اعترافهم وبَّخهم منكراً عليهم بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(١)].

والآيات بنحو هذا كثيرة جداً، ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع: أنَّ كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منهم أنَّهم إذا أقروا رتَّب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأنَّ المقرَّ بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة؛ نحو قوله تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾[(٣)]، وإن زعم بعض العلماء أنَّ هذا استفهام إنكار؛ لأنَّ استقراء القرآن دلَّ على أنَّ الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار؛ لأنَّهم لا ينكرون الربوبية كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه.

والكلام على أقسام التوحيد ستجده إن شاء الله في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك بحسب المناسبات في الآيات التي نتكلم على بيانها بآيات أخر»[(٤)] اهـ كلامه رحمه الله.

وقد نقلت كلامه بطوله لأهميته، وقد نبَّه فيه رحمه الله إلى أنَّ أقسام التوحيد الثلاثة مأخوذة بالاستقراء لنصوص القرآن الكريم، وبهذا يُعلم أنَّ هذا التقسيم من

---

(١) سورة الروم، الآية ٤٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ١٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٦٤.

(٤) أضواء البيان (٣/٤١٠-٤١٤)

الحقائق الشرعية المستمدة من كتاب الله تعالى، وليس أمراً اصطلاحياً أنشأه بعض العلماء.

قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد حفظه الله: «هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرَّره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرَّره الزبيدي في تاج العروس، وشيخنا الشنقيطي في أضواء البيان في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فنٍّ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء»[1].

وما يؤمن بالتوحيد من لم يؤمن بهذه الأقسام الثلاثة المستمدة من نصوص الشرع؛ إذ التوحيد المطلوب شرعاً هو الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومن لم يأت بهذا جميعه فليس موحداً.

(١) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير (ص: ٣٠).

دلالة كلمة التوحيد على هذا التقسيم

بل إنَّ كلمة التوحيد ((لا إله إلا الله)) التي هي أصل الدين وأساسه قد دلَّت على أقسام التوحيد الثلاثة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات، وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أُنزل إليهم، وهي الأصول الكبار التي دلَّت عليها وشهدت بها العقول والفطر)).

وأمَّا وجه دلالة هذه الكلمة العظيمة على أقسام التوحيد الثلاثة فظاهر تماماً لمن تأملها، فقد دلَّت على إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه، كما دلَّت أيضاً على توحيد الربوبية؛ فإنَّ العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، ودلَّت على توحيد الأسماء والصفات؛ فإنَّ مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء بل هو عدم محض، كما قال بعض العلماء: المشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد يعبد إله الأرض والسماء[1].

فدلالة (لا إله إلا الله) على توحيد الألوهية بالمطابقة، ودلالتها على توحيد الربوبية بالتضمن، ودلالتها على توحيد الأسماء والصفات بالالتزام، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد (ص: ٩) وقد نقلت نص شيخ الإسلام عنه.

ذكر بعض أقوال السلف في تقرير هذه الأقسام

كُتبُ السلف الصالح مليئة بالتصريح تارة والإشارة تارة إلى هذه الأقسام، ولو ذهبتُ أنقل كلَّ ما أعلمه من أقوالهم في ذلك لطال المقام، لكن حسبي أن أورد هنا بعض النقول عن سلف هذه الأمة[1]، ونزراً يسيراً من النصوص المشتملة على ذكر أقسام التوحيد الثلاثة.

١- قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ في كتابه «الفقه الأبسط»[2]: «والله يُدعى من أعلى لا من أسفل؛ لأنَّ الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء».

فقوله: «يُدعى من أعلى لا من أسفل...» فيه إثبات العلو لله، وهو من توحيد الأسماء والصفات، وفيه رد على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم من نفاة العلو.

وقوله: «من وصف الربوبية» فيه إثبات توحيد الربوبية.

وقوله: «والألوهية»: فيه إثبات توحيد الألوهية.

٢- قال ابن منده في كتابه «التوحيد»: أخبرنا محمد بن أبي جعفر السرخسي ثنا محمد بن سلمة البلخي ثنا بشر بن الوليد القاضي عن أبي يوسف القاضي (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة ١٨٢هـ) أنَّه قال: «ليس التوحيد بالقياس، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل في الآيات التي يصف بها نفسها أنَّه عالم قادر قوي مالك ولم يقل: إنِّي عالم قادر، لعلة كذا أقدر، بسبب كذا أعلم، وبهذا المعنى أملك، فلذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يعرف إلا

---

(١) اقتصرت هنا على مَنْ كان قبل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تكذيباً لدعوى من ادعى أنَّ هذا التقسيم لم يعرف إلاَّ في زمنه رحمه الله.

(٢) الفقه الأبسط (ص: ٥١).

بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1] الآية، وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾[3] الآية.

قال أبو يوسف: لم يقل الله: انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر وكيف أنا الخالق، ولكن قال: انظر كيف خلقت. ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾[4]، وقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[5] أي: تعلَّمْ أنَّ هذه الأشياء لها رب يقلِّبها ويبديها ويعيدها، وأنَّك مُكوَّنٌ ولك مَنْ كونك. وإنَّما دلَّ الله عز وجل خلقه بخلقه ليعرفوا أنَّ لهم ربّاً يعبدوه ويطيعوه ويوحدوه، ليعلموا أنَّه مُكوِّنهم، لا هم كانوا. ثم تسمَّى فقال: أنا الرحمن وأنا الرحيم وأنا الخالق وأنا القادر وأنا المالك، أي هذا الذي كوَّنكم يُسمَّى المالك القادر الله الرحمن الرحيم بها يوصف.

ثم قال أبو يوسف: يُعرف الله بآياته وبخلقه، ويُوصف بصفاته، ويُسمَّى بأسمائه كما وصف في كتابه، وبما أدَّى إلى الخلق رسوله.

ثم قال أبو يوسف: إنَّ الله عز وجل خلقك وجعل فيك آلات وجوارح عجز بعض جوارحك عن بعض، وهو ينقلك من حال إلى حال، لتعرف أنَّ لك ربّاً، وجعل فيك نفسك عليك حجة بمعرفته تتعرف بخلقه، ثم وصف نفسه فقال: أنا

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٦٤.

(٤) سورة النحل، الآية ٧٠.

(٥) سورة الذاريات، الآية ٢١.

الرب وأنا الرحمن وأنا الله وأنا القادر وأنا المالك، فهو يوصف بصفاته ويُسمَّى بأسمائه، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[١]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾[٢]، وقال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٣] فقد أمرنا الله أن نوحده، وليس التوحيد بالقياس؛ لأنَّ القياس يكون في شيء له شبه ومثل، فالله تعالى وتقدس لا شبه له ولا مثل له تبارك الله أحسن الخالقين.

ثم قال: وكيف يُدرَك التوحيد بالقياس وهو خالق الخلق بخلاف الخلق، ليس كمثله شيء تبارك وتعالى. وقد أمرك الله عز وجل أن تؤمن بكلٍّ ما أتى به نبيه ﷺ فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٤] فقد أمرك الله عز وجل بأن تكون تابعاً سامعاً مطيعاً، ولو يوسَّع على الأمة التماس التوحيد وابتغاء الإيمان برأيه وقياسه وهواه إذاً لضلوا، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾[٥] فافهم ما فسر به ذلك))[٦].

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١١٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

(٣) سورة الحشر، الآية ٢٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

(٥) سورة المؤمنون، الآية ٧١.

(٦) التوحيد لابن منده (٣٠٤/٣-٣٠٦)

ورواه أيضاً الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم إسماعيل التيمي الأصبهاني المتوفى سنة ٥٣٥هـ في كتابه «الحجة في بيان المحجة وشرح التوحيد ومذهب أهل السنة»، ولأهميته عنده خصَّه بفصل مستقل فقال: «فصل في النهي عن طلب كيفية صفات الله عز وجل»، وذكره بإسناده من طريق السرخسي به[1].

وأثر أبي يوسف هذا الذي رواه هذان الإمامان عظيم القدر، مشتمل على أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

قال شيخنا الدكتور علي فقيهي في التعليق على هذا الأثر: «... وقد ذكر أبو يوسف كلاماً نفيساً في باب التوحيد، هو ظاهر في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات. فذكر أنَّ التوحيد لا يكون بالقياس، مبيناً أنَّ القياس لا يكون إلا إذا وُجدت علة، حيث قال: ألم تسمع إلى قول الله عز وجل في الآيات التي يصف بها نفسه أنَّه عالم قادر قوي ولم يقل إنِّي قادر عالم لعلة كذا، أو أقدر بسبب كذا، قال : ولذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يُعرف الله إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، ثم ذكر أدلة ذلك، ثم قال: لم يقل الله انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر، وإنَّما قال: انظر كيف خلقت ... الخ. إنَّ ما ذكره رحمه الله لا يحتاج لبيان، فراجعه تجد فيه الردَّ على الملحدين في الربوبية وفي الأسماء والصفات مستدلاً بذلك على توحيد العبادة والطاعة لله وحده»[2].

٣- قال ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[3]: «فاعلم يا محمد أنَّه لا معبود تنبغي أو

---

(١) انظر: الحجة للتيمي (١/١١١-١١٣).

(٢) انظر: هامش كتاب التوحيد لابن منده (٣/٣١٠).

(٣) سورة محمد، الآية ١٩.

تصلح له الألوهية، ويجوز لك وللخلق عبادته إلاّ الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كلِّ شيء، يدين له بالربوبية كلُّ ما دونه»[(١)].

٤- قال الإمام أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١هـ في مقدمة متنه في العقيدة المشهور بالطحاوية: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إنَّ الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره ...».

فقوله: «إنَّ الله واحد لا شريك له» شامل لأقسام التوحيد الثلاثة، فهو سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته، وواحد لا شريك له في ألوهيته، وواحد لا شريك له في أسمائه وصفاته.

وقوله: «ولا شيء مثله» هذا من توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: «ولا شيء يعجزه» هذا من توحيد الربوبية.

وقوله: «ولا إله غيره» هذا من توحيد الألوهية.

فهذه أقسام التوحيد الثلاثة صريحة واضحة في نصِّ هذا الإمام رحمه الله، وقد ذكر في مقدمة متنه المذكور أنَّه مشتمل على: «بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة: أبي حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، رضوان الله عليهم أجمعين، وما يعتقدون من أصل الدين، ويدينون به رب العالمين».

٥- قال أبو حاتم محمد بن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ في مقدمة كتابه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»: «الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العالم بآجالها، والعالم بتقلبها وأحوالها، المانِّ عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا

(١) جامع البيان (١١/٣١٧-٣١٨).

معين ولا مشير، وخلقَ البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بعزته إرادته...)).

فذكر الأقسام الثلاثة: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

٦- قال ابن أبي زيد القيرواني المالكي المتوفى سنة ٣٨٦هـ في مقدمة الرسالة: ((من ذلك: الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأنَّ الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير، ولا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء، لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون ... إلى أن قال: ... تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنىً، خالقاً لكل شيء، ألا هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم ...)).

٧- قال الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري، المتوفى سنة ٣٨٧هـ في كتابه ((الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة)): ((... وذلك أنَّ أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته؛ ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته؛ ليكون مبايناً بذلك لمذهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه.

إذ قد علمنا أنَّ كثيراً ممن يقرُّ به ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته فيكون إلحاده في صفاته قادحاً في توحيده.

ولأنَّا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه

الثلاث والإيمان بها.

فأمَّا دعاؤه إياهم إلى الإقرار بربانيته ووحدانيته فلسنا نذكر هذا هاهنا لطوله وسعة الكلام فيه، ولأنَّ الجهمي يدَّعي لنفسه الإقرار بهما وإن كان جحده للصفات قد أبطل دعواه لهما...))[١]. ثم أخذ يورد ما يدل على بطلان قول الجهمية في نفي الصفات.

وهذا نص في غاية الوضوح في ذكر أقسام التوحيد الثلاثة.

وتأمل -يا رعاك الله- قول ابن بطة: ((ولأنَّا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها)) ففيه أبلغ ردٍّ على من يزعم أنَّ هذا التقسيم لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ.

وتأمل قوله في بداية كلامه: ((وذلك أنَّ أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء...)) فقد نصَّ رحمه الله على أنَّ أقسام التوحيد الثلاثة هي أصل الإيمان الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان بالله، ومعنى ذلك أنَّه لا إيمان لمن لم يأت بهذه الأمور الثلاثة ولا توحيد؛ إذ الإيمان والتوحيد هو إفراد الله وحده بهذه الأمور الثلاثة، فمن لم يأت بتوحيد الربوبية فهو معطل للخالق مشرك في ربوبية الله، ومن لم يأت بتوحيد الألوهية فهو مشرك في ألوهية الله وعبادته كالمشركين عبدة الأصنام، ومن لم يأت بتوحيد الأسماء والصفات فهو كافر ملحد في أسماء الله وصفاته.

٨ ـ ذكر الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده المتوفى سنة ٣٩٥هـ. في كتابه ((كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد)) أقسام التوحيد، واستعرض كثيراً من أدلتها في الكتاب والسنة بشرحٍ وبسطٍ لا مزيد عليه.

---

(١) الإبانة لابن بطة (٦٩٣ـ٦٩٤) من النسخة الخطية، وفي مختصره (ق١٥٠).

فمن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الربوبية ما يلي:

١- ذِكرُ ما وصف الله عز وجل به نفسه ودلَّ على وحدانيته عز وجل وأنَّه أحدٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

٢- ذِكرُ معرفة بدء الخلق.

٣- ذِكر ما يدل على أنَّ خلق العرش تقدَّم على خلق الأشياء.

٤- ذِكرُ ما يدل على أنَّ الله قدَّر مقادير كلِّ شيء قبل خلقِ الخلْقِ.

٥- ذِكرُ ما يَستدل به أولو الألباب من الآيات الواضحة التي جعلها الله عز وجل دليلاً لعباده من خلقه على معرفته ووحدانيته من انتظام صنعته وبدائع حكمته في خلق السموات والأرض ...

٦- ذِكرُ ما بدأ الله عز وجل من الآيات الواضحة الدالة على وحدانيته.

٧- ذِكرُ الآيات المتفقة المنتظمة الدالة على توحيد الله عز وجل في صفة خلق السموات التي ذكرها في كتابه وبيَّنها على لسان رسوله ﷺ تنبيهاً لخلقه[1].

ثم ذكر أبواباً أخرى.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الألوهية ما يلي:

١ ـ ذِكرُ معرفة أسماء الله عز وجل الحسنة التي تَسمَّى بها وأظهرها لعباده للمعرفة والدعاء والذكر.

٢ ـ ذِكرُ معرفة اسم الله الأكبر الذي تَسمَّى به وشرَّفه على الأذكار كلِّها.

وذكر تحت هذا الباب، ما يلي:

أ ـ قول النبي ﷺ: ((أُمِرتُ أن أدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله)).

ب ـ قول النبي ﷺ: ((بُني الإسلامُ على شهادة أن لا إله إلا الله)).

---

(١) انظر هذه الأبواب في كتابه التوحيد (١/ ٦١ ـ ١١٦)

جـ ـ قول النبي ﷺ: ((مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت)).

د ـ قول النبي ﷺ لرجل: ((قل ربي الله، ثم استقم)).

هـ ـ قول النبي ﷺ لرجل: ((الله يمنعني منك)).

و ـ قول النبي ﷺ: ((من كان حالفاً فليحلف بالله عز وجل، ومن حلف بغير الله فقد أشرك)).

ز ـ قول النبي ﷺ: ((اذكروا الله على جميع الأمور، قال تعالى: +وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا"[1])) [2].

وذكر أموراً أخرى كثيرة متعلقة بتوحيد الألوهية.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الأسماء والصفات ما يلي:

ـ ذِكرُ معرفة صفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه، وأنزل بها كتابه، وأخبر بها الرسول ﷺ على سبيل الوصف لربه عز وجل مبيِّناً ذلك لأمته.

وذكرَ أبواباً أخرى كثيرة في توحيد الأسماء والصفات[3]، وكان قبل هذا ذكر جملة كبيرة من أسماء الله الحسنى[4].

قال شيخنا الدكتور علي بن ناصر فقيهي في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن منده المتقدم: ((ومؤلف هذا الكتاب عاش في القرن الرابع الهجري (٣١٠ - ٣٩٥هـ) وقد اشتمل كتابه على أقسام التوحيد التي ورد ذكرها في كتاب الله تعالى: توحيد الربوبية توحيد الألوهية توحيد الأسماء والصفات، فبدأ بقسم الوحدانية في الربوبية مستدلاً

---

(١) سورة الجمعة، الآية ١٠.

(٢) انظر هذه الأبواب في كتابه التوحيد (٢/ ١٤ ـ ٤٦)

(٣) انظر هذه الأبواب في كتابه التوحيد (٣/ ٧) إلى نهاية الكتاب.

(٤) انظر: كتابه التوحيد (٢/ ٤٧ ـ ٢٠٨)

به على توحيد الله في الألوهية، ثم ذكر عنواناً لتوحيد الأسماء ، ومنه دخل في توحيد الألوهية، وذلك من الفصل الثاني والأربعين إلى الفصل الخمسين، ثم عاد لتكميل أسماء الله تعالى، ثم أتبعه بتوحيد الصفات حيث بحثه مستقلاً عن أسماء الله عز وجل، ثم عاد إلى توحيد الربوبية بالتصريح بذلك في آخر الكتاب، ولم يخرج في استدلاله على ذلك عن كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ وأقوال السلف كما يجد ذلك القارئ في الكتاب))[١].

٩ ـ قال أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي المتوفي سنة ٥٢٠هـ في مقدمة كتابه سراج الملوك[٢]: ((وأشهد له بالربوبية والوحدانية، وبما شهد به لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والنعوت الأوفى)).

فذكر الأقسام الثلاثة.

١٠ ـ قال أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المتوفى ٦٧١هـ: ((فالله اسم للموجود الحقّ الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي لا إله هو سبحانه))[٣].

وقال أيضاً: ((أصل الشرك المحرَّم اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهية، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إنَّ موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلَهاً))[٤].

---

(١) انظر: مقدمة كتاب التوحيد لابن منده (١/٢٧ـ٢٨)، وانظر أيضاً ما ذكره شيخنا ـ حفظه الله ـ في وصف الكتاب ومباحثه (١/٢٣ ـ ٤٢).

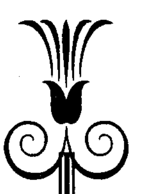
(٢) (١/٧).

(٣) تفسير القرطبي (١/٧٢).

(٤) تفسير القرطبي (٥/١١٨).

فهذه جملة من النصوص عن أئمة من السلف وعلماء المسلمين رحمهم الله في عصور مختلفة، مشتملة على أقسام التوحيد الثلاثة بغاية الجلاء والوضوح، دالة على أنَّ أهل السنة والجماعة متتابعون على مرِّ القرون على هذا التقسيم، ليس بينهم خلاف فيه، وذلك اتباع منهم للكتاب والسنة، ولزوم لما جاء فيهما، فهم يتبعون ولا يبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ومخالفوهم هم أهل البدع والأهواء، المُشاقُّون لله ولرسوله، المتَّبعون غير سبيل المؤمنين.

ونسأل الله أن يرزقنا التوحيد الخالص والإيمان الراسخ، وأن يوفقنا لاتباع هدي سيد المرسلين وإمام الموحدين: نبينا محمد صلى الله عليه وسلَّم وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.



الرسالة الثانية

إثبات أن المحسن

من أسماء الله الحسنى



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله عظيم الإحسان واسع الجود والامتنان، الذي أحسن كلَّ شيء خلقه، وبدأ من طين خلق الإنسان، وأُصلّي وأسلم على رسوله القائل: أحسنوا؛ فإنَّ الله يُحب الإحسان.

وبعد ...

فهذه فوائد متنوعة، ولطائف متفرقة، جمعت شتاتها من أماكن عديدة حول إثبات أنَّ المحسن اسم من أسماء الله الحسنى، وذكر الأدلة على ذلك من السنة بنقل الأحاديث الدالة على ذلك، وحكم أهل العلم عليها، وبيان جواز التعبيد لله به كغيره من أسماء الله الحسنى؛ لثبوته اسماً لله، ونقل أقوال أهل العلم ممن صرَّح بذلك، وذكر عدد مِمَّن سُمِّي بـ (عبد المحسن) إلى نهاية القرن التاسع، مع فوائد أخرى، سائلاً الله الكريم التوفيق والسداد.

والداعي لجمع هذا الموضوع ولَمِّ شتاته هو وقوع التردد عند أحد الأفاضل من أهل العلم في صحة إطلاق هذا الاسم على الله جل وعلا، ولقد جمعت ـ بحمد الله وتوفيقه ـ من الأدلة والنقول عن أهل العلم في صحة تسمية الله بذلك ما فيه كفاية ومقنع، وأسأله سبحانه أن يجعل عملي هذا لوجهه خالصاً، ولسنة نبيه محمد ﷺ موافقاً، ولعباده نافعاً، إنَّه جواد كريم.

وهذا أوان الشروع في المقصود، وقد رتَّبته حسب النقاط التالية:

(أ) لقد ورد تسمية الله بالمحسن في ثلاثة أحاديث عن النبي ﷺ، أحدها: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وثانيها: عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه، وثالثها: عن سَمُرة ابن جندب رضي الله عنه وبيانها كما يلي:

أولاً: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **((إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا؛ فإنَّ الله مُحسنٌ يُحبُّ المحسنين)).**

أخرجه ابن أبي عاصم في الديات (ص:٩٤)، والطبراني في الأوسط (رقم: ٥٧٣٥)، وابن عدي في الكامل(٦/٢١٤٥)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان(٢/١١٣) من طرق عن محمد بن بلال، ثنا عمران القطان، عن قتادة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٩٧): «ورجاله ثقات»، وكذا قال المناوي في التيسير (١/٩٠) ، وقال العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٧٦١): «وهذا إسناد جيد رجاله ثقات معروفون غير محمد بن بلال، وهو البصري الكندي. قال ابن عدي: أرجو أنَّه لا بأس به، وقال الحافظ: (صدوق يغرب)»، وقال في صحيح الجامع (١/١٩٤): «حسن».

ثانياً : حديث شداد بن أوس ﷺ قال: حفظت من رسول الله ﷺ اثنتين، قال: **«إنَّ اللهَ مُحسِنٌ يُحبُّ الإحسان إلى كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحِدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»**.

رواه عبد الرزاق في المصنف (٤/٤٩٢) ومن طريقه الطبراني في الكبير (٧/ ٣٣٢) عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد بن أوس ﷺ فذكره.

ورجال إسناده كلُّهم ثقاة، فمعمر بن راشد البصري ثقة ثبت فاضل من كبار السابعة[١]، وأيوب هو السختياني ثقة ثبت حجة من الخامسة[٢]، وأبو قلابة البصري هو عبد الله بن زيد الجرمي ثقة فاضل كثير الإرسال من الثالثة[٣]، وأبو

---

(١) التقريب (ص:٥٤١).

(٢) التقريب (ص:١١٧).

(٣) التقريب (ص:٣٠٤).

الأشعث الصنعاني هو شراحيل بن آده ثقة من الثانية[١]. فإسناد الحديث صحيح، وصحَّحه الألباني رحمه الله[٢]. إلاَّ أنَّ إسحاق الدَّبريَّ راوي المصنف عن عبد الرزاق خولف فيه، فقد رواه الإمام أحمد في المسند (رقم: ١٧١١٦) عن عبد الرزاق به بلفظ: «إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء». ورواه النسائي في سننه (رقم: ٤٤٢٥) عن محمد بن رافع النيسابوري، عن عبد الرزاق به بلفظ الإمام أحمد.

وللحديث طريق أخرى، فقد رواه البيهقي في سننه (٢٨٠/٩) من طريق عبد الوهاب بن عبد المجيد، ثنا خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن شداد بن أوس ﷺ فذكره، لكن لفظه: **«إنَّ الله محسان كتب الإحسان على كلِّ شيء»**.

لكن روى جماعة هذا الحديث عن خالد الحذَّاء بإسناده بلفظ: **«إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء»**[٣].

ثالثاً: حديث سمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إنَّ الله عز وجل مُحسنٌ فأحسنوا، فإذا قتل أحدكم فليُحْسن مقتُولَه، وإذا ذبَح فليحدَّ شَفرتَه وليُرح ذبيحتَه»**.

رواه ابن عدي في الكامل (٢٤١٩/٦) قال: ثنا محمد بن أحمد بن الحسين الأهوازي، ثنا جعفر بن محمد بن حبيب، ثنا عبد الله بن رشيد، ثنا مجاعة بن الزبير أو عبيدة، عن الحسن، عن سمرة فذكره.

---

(١) التقريب (ص: ٢٦٤).

(٢) انظر: صحيح الجامع (١٢٩/١)، والإرواء (٢٩٣/٧).

(٣) انظر شيئاً من هذه الطرق في تحفة الأشراف للمزي (رقم ٤٨١٧).

وقد ذكر ابن رجب هذا الحديث في جامع العلوم والحكم[١].

قلت: وإسناده ضعيف، عبد الله بن رشيد ليس بالقوي وفيه جهالة[٢]. ومجاعة بن الزبير مختلف فيه وضعفه الدارقطني وغيره[٣]. والحسن مختلف في سماعه من سمرة[٤]، وقال المناوي في التيسير (١/٩٠): ((إسناده ضعيف)).

لكن الحديث صحيح، يشهد له الحديثان قبله، وقد صحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١/١٢٩) وقال الوالد حفظه الله: ((الحديث بمجموع هذه الروايات صالح للاحتجاج به)).

قلت: فبهذه الأحاديث يعلم أنَّ المحسنَ اسمٌ من أسماء الله الحسنى والله أعلم.

(ب) وقد جاء تسمية الله بهذا الاسم في أقوال بعض المحققين من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد قال: ((وكان شيخ الإسلام الهروي قد سمَّى أهل بلده بعامة أسماء الله الحسنى[٥]، وكذلك أهل بيتنا غلب على أسمائهم التعبيد لله، كعبد الله وعبد الرحمن وعبد الغني والسلام والقاهر واللطيف والحكيم والعزيز والرحيم والمحسن ...))[٦].

وقال في موضع آخر: ((... لأنَّه سبحانه بَرٌّ جَوَادٌ مُحسنٌ يعطي العبد ما

---

(١) (ص: ١٤١).

(٢) انظر: المغني في الضعفاء للذهبي (١/٤٨١).

(٣) انظر: المغني في الضعفاء للذهبي (٢/١٤٥).

(٤) انظر: جامع التحصيل للعلائي (ص: ١٩٩).

(٥) قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في ذيل طبقات الحنابلة (١/٦٥): ((وهذا من جملة المحاسن التي أخذها أهل هراة عنه)).

(٦) مجموع الفتاوى (١/٣٧٩).

وسيأتي ذكر عبد المحسن بن علي الحراني من آل ابن تيمية وقد سُمِّي بعبد المحسن.

يناسبه))[١] .

وكذلك وقع في كلام العلامة ابن القيم تسمية الله بهذا الاسم في مواضع عديدة من مؤلفاته ، فقد قال في بدائع الفوائد في تفسيره لسورة الناس : ((فتأمَّل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق : (رب الناس ملك الناس إله الناس) وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى، أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى ؛ فإنَّ الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن ... إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى ...))[٢] .

وقال في مدارج السالكين وهو بصدد ذكره لأسماء الله وما تقتضيه : ((... واسم البر المحسن المعطي المنَّان ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها))[٣] .

وقال في طريق الهجرتين : ((وإقرار قلوبنا بأنَّ الله الذي لا إله إلا هو ... وأنَّه حكيم كريم جواد محسن ... ولا أحد أحب إليه الإحسان منه، فهو محسن يحب المحسنين ...))[٤] .

وقال في نونيته الكافية الشافية[٥] وهو بصدد ذكر أسماء الله وصفاته :

.... فالبر حينئذ له نوعان

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٢٣٨)، وانظر أيضاً: (١٦/٤٤٨).

(٢) البدائع (٢/٢٤٩)، وانظر: البدائع (٢/٢١١) ونقله الشيخ ابن سعدي في كتابه الحق الواضح المبين (ص٥٣).

(٣) المدارج (١/٤١٦).

(٤) طريق الهجرتين (ص: ١٢٠).

(٥) (ص: ١٥١).

وصــف وفعــل فهــو بــر محســن مــولى الجمــيل ودائــم الإحســان
وكذلــك الوهــاب مــن أسمائــه فانظــر مواهــبه مــدى الأزمــان

ونقل القرطبي وابن حجر عن ابن حزم عدَّه لأسماء الله الحسنى التي جمعها من القرآن والسنة، وكان من ضمن هذه الأسماء اسم المحسن، ولمَّا ساقها القرطبي نقلاً عن ابن حزم قال: ((وفاته الصادق ... إلخ)) مِمَّا يشعر أنَّ القرطبي مقرٌّ له فيما ذكر من أسماء، وكذلك كلام ابن حجر يشعر بأنَّه مقر له فيما ذكر من أسماء، حيث علَّق على الأسماء التي نقلها عن ابن حزم بأن سبعة وستين اسماً منها مأخوذة من القرآن، وباقيها ملتقط من الأحاديث(١).

وما نقلاه عنه موجود بتمامه في باب الأيمان من كتابه المحلى(٢)، حيث قال: ((وجاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين أسماء مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً، فإنما تؤخذ من نص القرآن ومما صحَّ عن النبي ﷺ، وقد بلغ إحصاؤنا منها إلى ما نذكره - ثمَّ عدَّ جملة من أسماء الله عز وجل إلى أن - قال: سبوح، وتر، محسان، جميل، ....)).

ثم إنَّني وقفت لابن حزم على قول آخر يخالف هذا، حيث قال في فصله: ((فلا يحل أن يُسمَّى الله عز وجل القديم ولا الحنان ... ولا المحسن ... ولا بشيء لم يسم به نفسه أصلاً وإن كان في غاية المدح)) فهذا يناقض قوله المتقدم. ولعل ابن حزم كان يرى أنَّ المحسن ليس اسماً من أسماء الله لعدم بلوغ النص إليه أو لعدم ثبوته عنده، ثم بلغه النص - أو ثبت عنده - الدال على صحة تسمية الله بالمحسن فصار إليه والله أعلم.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد: ((والله تعالى هو المحسن

(١) انظر: التلخيص الحبير (٤/١٧٣).

(٢) (٨/٣١).

المنعم على الإطلاق، الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده))[(١)].

(ج) ما صحَّ تسمية الله به جاز التعبيد لله به، بل اتفق أهل العلم على استحسان الأسماء المضافة إلى الله كعبد الله وعبد الرحمن وما أشبه ذلك، واتفقوا على تحريم كلِّ اسم معبد لغير الله كعبد العزى وعبد هبل وعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك، حكى ذلك ابن حزم، ونقله عنه ابن القيم[(٢)].

وقد سمِّي بـ (عبد المحسن) عدد من ذوي الفضل والعلم وغيرهم، وقد جمعت ما وقفت عليه ممن سمِّي بذلك إلى نهاية القرن التاسع ـ دون تقصٍّ دقيق ـ واقتصرت على الذين وُجِدت لهم تراجم، وقد يأتي في ذكر أحد المترجمين أن من آبائه من سُمِّي بعبد المحسن فلم أُعِد ذلك.

وها هي أسماؤهم:

١- عبد المحسن بن عمرو بن يحيى بن سعيد أبو القاسم الصفار، روى عن أبي بكر أحمد بن عمرو بن جابر الرملي ت سنة ٣٣٣هـ[(٣)].

٢- عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري الشاعر المشهور ت ٤١٩هـ[(٤)].

٣- عبد المحسن بن علي بن الحسن القزويني، سمع مع أبيه أبا منصور المقومي ت ٤٨٢هـ[(٥)].

٤- عبد المحسن بن محمد بن علي البغدادي المعروف بالشيحي، المحدث التاجر

---

(١) (ص: ٤٦١).

(٢) انظر: مراتب الإجماع لابن حزم (ص: ١٥٤)، وتحفة المودود لابن القيم (ص: ٨٠).

(٣) انظر ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠/٤٤٨).

(٤) انظر ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد (٣/٢١١).

(٥) انظر ترجمته في التدوين في أخبار قزوين (٣/٢٥٨).

السفار أبو منصور، ت ٤٨٩هـ[١].

٥- عبد المحسن بن صدقة بن عبد الله أبو المواهب المصري الشاعر، ت ٥٠٣هـ[٢].

٦- عبد المحسن بن غنيمة بن أحمد بن قاجه المقرئ، ت ٥٤١هـ[٣].

٧- عبد المحسن بن عبد المنعم بن علي الكفرطاي الشيرازي الشافعي، ت ٥٦٠ هـ[٤].

٨- عبد المحسن بن تريك الأزجي أبو الفضل، ت ٥٧٥هـ[٥].

٩- عبد المحسن (طغدي) بن ختلع بن عبد الله أبو محمد الأميري البغدادي الفرضي يسمَّى طغدي ويسمى عبد المحسن، وهو بطغدي أشهر ت ٥٨٩هـ[٦].

١٠- عبد المحسن بن علي الفراش، توفي بعد ٥٩٠هـ بقليل[٧].

١١- عبد المحسن بن أحمد بن وهب الزابي أبو منصور البزاز ت ٥٩٧هـ[٨].

١٢- عبد المحسن بن شفاء بن أبي المعالي التراسي الحميري، ت ٦٠١ هـ[٩].

١٣- عبد المحسن بن إسماعيل الوزير الصدر شرف الدين بن المحلى الفلكي،

---

(١) انظر ترجمته في العبر للذهبي (٢/٣٦٠)، وشذرات الذهب لابن العماد (٣/٣٩٢).

(٢) انظر ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠/٤٤٧).

(٣) انظر ترجمته في تكملة الإكمال لابن نقطة (٤/٥٩٢).

(٤) انظر ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠/٤٤٧).

(٥) انظر ترجمته في العبر للذهبي (٣/٦٨)، وشذرات الذهب لابن العماد (٤/٢٥١).

(٦) انظر ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي (وفيات سنة ٥٨٩هـ).

(٧) انظر ترجمته في المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي للذهبي (ص: ٢٨١).

(٨) انظر ترجمته في المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي للذهبي (ص: ٢٨١).

(٩) انظر ترجمته في تاريخ إربل لابن المستوفي (١/٨٠).

ت ٦٠٤هـ[1].

١٤- عبد المحسن بن يعيش بن إبراهيم بن يحيى الحراني الفقيه الحنبلي، ت ٦١١هـ[2].

١٥- عبد المحسن بن أبي القاسم عبد المنعم بن إبراهيم رشيد الدين أبو محمد ابن النقار المصري ت ٦١٣هـ[3].

١٦- عبد المحسن بن الأنماطي المصري الشافعي، ت ٦١٩هـ[4].

١٧- عبد المحسن بن نصر الله بن كثير الفقيه زين الدين ابن البياع، الشامي الأصل المصري الشافعي، ت ٦٢١هـ[5].

١٨- عبد المحسن بن خطيب الموصل أبي الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد أبو القاسم بن الطوسي الموصلي، ت٦٢٢هـ[6].

١٩- عبد المحسن بن أبي العميد بن خالد بن عبد الغفار الأبهري الشافعي، ت ٦٢٤هـ[7].

---

(١) انظر ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي (وفيات ٦٠٤هـ، ص:١٥٨).

(٢) انظر ترجمته في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/٨٢)، وشذرات الذهب لابن العماد (٥/٤٧).

(٣) انظر ترجمته في تكملة الإكمال لابن الصابوني (ص: ٣٣٩)، وتاريخ الإسلام للذهبي (وفيات سنة ٦١٣هـ، ص:٤٨).

(٤) انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/١٤٠٤).

(٥) انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي (٨/٣١٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (وفيات سنة ٦٢١هـ، ص:٦١).

(٦) انظر ترجمته في تاريخ إربل لابن المستوفي (١/١٨١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (وفيات سنة ٦٢٢، ص:١٠٧).

(٧) انظر ترجمته في العبر للذهبي (٣/١٩٣)، وشذرات الذهب لابن العماد (٥/١١٤).

٢٠- عبد المحسن بن عبد الكريم بن ظافر بن رافع الحصري المصري الحنبلي الفقيه، ت ٦٢٥هـ[(١)].

٢١- عبد المحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن علي الخزرجي المصري الشافعي، عُرِفَ بابن الدجاجي، ت ٦٢٦هـ[(٢)].

٢٢- عبد المحسن بن أبي عبد الله بن علي بن عيسى أبو محمد العشيشي، الشامي ثم المصري الفامي، ت ٦٣٣هـ[(٣)].

٢٣- عبد المحسن بن عبد الله الفاضلي الزمام، ت ٦٣٤هـ[(٤)].

٢٤- عبد المحسن بن أبي القاسم بن خلف بن رافع المسكي، ت ٦٣٦هـ[(٥)].

٢٥- عبد المحسن بن حمود التنوخي الحلبي الكاتب المنشئ، ت ٦٤٣هـ[(٦)].

٢٦- عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن أبي الحسن بن دويرة البصري المقرئ، ت ٦٤٩هـ[(٧)].

٢٧- عبد المحسن بن عبد الرحمن بن محمد الكندي الدشناوي، سمع الحديث من بهاء الدين ابن بنت الجميزي سنة ٦٥٤هـ[(٨)].

---

(١) انظر ترجمته في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١٧٢/٤)، وشذرات الذهب لابن العماد (١١٧/٥).

(٢) انظر ترجمته في تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني (ص:١٨٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (وفيات سنة ٦٢٦هـ، ص:٢٣٣).

(٣) انظر ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي (وفيات سنة ٦٣٣هـ، ص:١٣٦).

(٤) انظر ترجمته في التكملة لوفيات النقلة للمنذري (٤٣١/٣).

(٥) انظر ترجمته في التكملة لوفيات النقلة للمنذري (٥٢١/٣).

(٦) انظر ترجمته في العبر للذهبي (٢٤٦/٣)، وشذرات الذهب لابن العماد (٢٢٠/٥).

(٧) انظر ترجمته في المقصد الأرشد لابن مفلح (١٨٦/٢).

(٨) انظر ترجمته في الطالع السعيد لأبي الفضل الأدفوي (ص:٣٣٨).

٢٨- عبد المحسن بن عبد الله بن الحسين بن رواحة الأنصاري، تقلَّد كتابة الجيش للملك الظاهر بحلب، روى عنه ابن أخيه عبد الله بن الحسين، المتوفى ٦٤٦هـ[(١)]، وكانت وفاة الملك الظاهر سنة ٦١٣هـ.

٢٩- عبد المحسن بن أبي العلاء مرتفع بن حسن بن عبد الله الخثعمي المصري الشافعي الأثري السراج، ت ٦٥٦هـ[(٢)].

٣٠- عبد المحسن بن إبراهيم بن فتوح القوصي أبو محمد المشطاوي ، كان حياً سنة ٦٥٧هـ[(٣)].

٣١- عبد المحسن بن عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز الصيرفي الأنصاري المصري الوكيل، ت ٦٥٨هـ[(٤)].

٣٢- عبد المحسن بن علي بن أبي الفتوح بن إبراهيم الأنصاري المصري أبو محمد، المعروف بابن الزهر، ت ٦٦٥هـ[(٥)].

٣٣- عبد المحسن بن هبة الله بن أبي المنصور الفوي زكي الدين، توفي في عشر التسعين وستمائة[(٦)].

٣٤- عبد المحسن بن موسى بن سليمان المالكي المفتي نبيه الدين، كان حياً سنة ٦٨٧هـ[(٧)].

---

(١) انظر ترجمته في تاريخ إربل (٤١٧/١)، وانظر تعليق المحقق (٦٧٤/٢).

(٢) انظر ترجمته في تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني (ص: ١٦).

(٣) انظر ترجمته في الطالع السعيد لأبي الفضل الأدفوي (ص: ٣٣٥).

(٤) ذيل التقييد للفاسي (١٥٢/٢).

(٥) انظر ترجمته في تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني (ص: ١٨٤).

(٦) انظر ترجمته في درة الحجال لابن القاضي (١٦٤/٣).

(٧) انظر ترجمته في درة الحجال لابن القاضي (١٦٤/٣).

٣٥- عبد المحسن بن عبد الرحمن بن الحسين بن هارون البكري الأرمنتي، ت ٦٩٤هـ[(١)].

٣٦- عبد المحسن بن محمد بن أحمد هبة الله بن أحمد ابن يحيى بن جراده العقيلي، ت ٧٠٤هـ[(٢)].

٣٧- عبد المحسن بن عبد القدوس بن إبراهيم الشعراوي أبو أحمد الحنبلي، ت ٧١٩هـ[(٣)].

٣٨- عبد المحسن بن عيسى بن جعفر الأرمنتي، ت ٧٢٩هـ[(٤)].

٣٩- عبد المحسن بن علي بن محمد بن عبد الغني بن تيمية الحراني، ت ٧٣٠هـ[(٥)].

٤٠- عبد المحسن بن عبد اللطيف بن محمد بن الحسين ابن رزين، ت ٧٣٣هـ[(٦)].

٤١- عبد المحسن بن عبد العزيز المخزومي، ت ٧٣٥هـ[(٧)].

٤٢- عبد المحسن بن أحمد بن محمد بن علي بن الصابوني أبو الفضل ت ٧٣٦هـ[(٨)].

---

(١) انظر ترجمته في الطالع السعيد لأبي الفضل الأدفوي (ص: ٣٣٧).

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر (٢/٤١٣).

(٣) انظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر (٢/٤١٣).

(٤) انظر ترجمته في الطالع السعيد لأبي الفضل الأدفوي (ص: ٣٣٧).

(٥) انظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر (٢/٤١١).

(٦) انظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر (٢/٤١٢).

(٧) انظر ترجمته في ذيل العبر للذهبي (٤/١٠١).

(٨) انظر ترجمته في الدليل الشافي لابن تغري بردي (١/٤٢٩)، والدرر الكامنة لابن حجر (٢/٤١٣).

٤٣- عبد المحسن بن محمد القيصري فقيه حنفي عروضي من الروم، ت ٧٥٥هـ[(١)].

٤٤- عبد المحسن بن حمود الحلبي أمين الدين، كاتب السر للكامل سيف الدين أبي الفتوح المتوفى سنة ٧٤٦هـ[(٢)].

٤٥- عبد المحسن بن محمد بن عبد المحسن قوام الدين أبو مسلم الفالي الشافعي، ت ٨٢٤هـ[(٣)].

٤٦- عبد المحسن بن حسان البغدادي القطفني البطايني الأديب، كان حياً سنة ٨٣٥هـ[(٤)].

٤٧- عبد المحسن البغدادي ثم المكي، ت ٨٤٨هـ[(٥)].

٤٨- عبد المحسن بن عبد الصمد بن لطف الله بن محمد بن حسن الشرواني الشافعي، ت ٨٨٩هـ[(٦)].

٤٩- عبد المحسن بن أحمد بن البدر حسين بن الأهدل، اسمه محمد، وسمَّاه والده عبد المحسن تبركاً بعبد المحسن الشاذلي فلم يحسن بذلك صنعاً، كان حياً سنة ٨٩٣هـ[(٧)].

---

(١) انظر ترجمته في ذيل العبر للذهبي (٤/٥٣٩).

(٢) انظر ترجمته في حسن المحاضرة للسيوطي (٢/٢٣٣).

فائدة: أول من أحدث وظيفة كاتب السر هو الملك المنصور قلاوون، ذكر ذلك ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (٧/٣٣٢) وأطال في ذكر ما يشهد له.

(٣) انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي (٥/٩).

(٤) انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي (٥/٧٨).

(٥) انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي (٥/٧٨)، وإتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد (٤/٢٤٠).

(٦) انظر ترجمته في الضوء اللامع (٥/٧٨).

(٧) انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي (٥/٧٨)، (٦/٣٠٦).

٥٠- عبد المحسن بن أحمد بن أبي بكر عبد الله بن ظهيرة القرشي المكي، ت ٨٩٨هـ[(١)].

٥١- عبد المحسن بن الحسن بن سليمان الباريني جمال الدين من القرن الثامن[(٢)].

٥٢- عبد المحسن بن علي بن عمر اليماني، من القرن التاسع[(٣)].

٥٣- عبد المحسن بن محمد بن علي شهدايله[(٤)].

فهؤلاء من وقفت على ذكرهم إلى نهاية القرن التاسع ممن سمُّوا بعبد المحسن، ولم أقصد حصر من سُمِّي بذلك، ثم إنَّ هذا الذي جمعت هنا كَتَبَ في مثله غيرُ واحد من أهل العلم، وأفردوا فيه التصانيف، ومما صنف في ذلك:

- كتاب (من اسمه عطاء من رواة الحديث) للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ت ٣٦٠هـ، وهو مطبوع.

- كتاب (من اسمه صالح) لأبي موسى محمد بن أبي بكر المديني الأصبهاني ت ٥٨١هـ.

- كتاب (المحمدون من الشعراء وأشعارهم) لعلي بن يوسف القفطي ت ٦٤٦هـ، وهو مطبوع.

- كتاب (العقد المثمن فيمن اسمه عبد المؤمن) لعبد المؤمن بن خلف الدمياطي ت ٧٠٥هـ.

- كتاب (من اسمه حسين) لجمال الدين حسين بن علي السبكي ت ٧٢٢هـ.

---

(١) انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي (٥/٧٨).

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر (٢/٤١١).

(٣) انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي (٥/٧٨).

(٤) انظر : نزهة الألباب لابن حجر (١/٤٠٨).

ـ كتاب (الألماس فيمن اسمه عباس) لعباس بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسين السملالي، ت١٣٧٨هـ.

ـ وقال الذهبي في السير (١٤/١٠٦): ((فصل وفي العلماء جماعة اسمهم جعفر)) وذكرهم.

(د) إنَّ أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة مشتقة وغير جامدة، كما بيَّن ذلك ابن القيم -رحمه الله- في كتابه بدائع الفوائد واحتج له، وبيَّن أنَّ المراد بالاشتقاق هو أنَّ الاسم دال على صفة لله تعالى وليس علماً محضاً كما يزعم المعتزلة(١)، وقال في نونيته:

أسماؤه أوصاف مدح كلُّها　　　مشتقة قد حملت لمعان

وعليه فإنَّ المحسنَ مشتقٌّ من أحسنَ يُحسنُ إحساناً، ومعناه: أنَّ الإحسان وصف لازم له، لا يخلو موجود من إحسانه طرفة عين، فلابد لكلِّ مكون من إحسان إليه بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ((لا ريب أنَّ الله عند أهل الملل كريم جواد ماجد محسن عظيم المنِّ قديم المعروف، وأنَّ له الأسماء الحسنى التي يُثنى عليه فيها بإحسانه إلى خلقه))(٢).

والله جل وعلا يحب من خلقه أن يتقربوا إليه بمقتضى معاني أسمائه، فهو الرحمن يحب الرحماء، وهو الكريم يحب الكرماء، وهو المحسن يحب المحسنين.

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص: ٧٧].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/٢٢).

(٢) نقض التأسيس (١/١٨٩).

وقال تعالى : ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن : ٦٠].

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل : ١٢٨].

قال ابن القيم رحمه الله : «وهذا شأن أسمائه الحسنى، أحبُّ خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها ؛ ولهذا يُبغض الكفورَ الظالمَ والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستَّار يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز والمؤمن القوي أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكلُّ ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكلُّ ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها»[(١)].

والإحسان من العبد هو أعلى مقامات الدين وأرفعها، كما جاء ذلك في حديث جبريل المشهور، وفسِّر الإحسان في الحديث بأن يعبد العبد ربه كأنَّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنَّ الله جل وعلا يراه، لا يخفى عليه منه شيء.

(هـ) وأختم هذه النقاط بذكر ثلاث فوائد مهمة :

الأولى : أنَّ أسماء الله غير محصورة في عدد معين، وعليه فإنَّ جمع بعض أهل العلم لتسعة وتسعين اسماً من أسماء الله الحسنى المذكورة في الكتاب والسنة لا يعني أنَّهم يرون حصرها في تلك الأسماء التي ذكروها، وإنَّما مرادهم تقريب هذه الأسماء إلى الراغبين في حفظها وفهمها والعمل بما تقتضيه، حيث قال ﷺ : «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلاَّ واحداً من أحصاها دخل الجنة»[(٢)].

---

(١) عدة الصابرين (ص : ٢٤١).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٩/٨)، ومسلم (٣٠٦٢/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الثانية: أنَّ أسماء الله الحسنى المذكورة في الكتاب والسنة أكثر من تسعة وتسعين اسماً كما قرَّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)].

وعليه: فإنَّ مَن جمعَ من أهل العلم تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله، وجمع غيره أسماء أخرى، فتوافقا في بعضها واختلفا في بعض لا يعني ذلك أنَّ ما اختلفا فيه بعضه ليس من أسماء الله لتجاوز ذلك التسعة والتسعين، بل قد يكون ما جمعاه كلُّه من أسماء الله وإن تجاوز التسعة والتسعين، وعلى كلٍّ فالعبرة في صحة ذلك الاسم أو عدمها قيام الدليل عليه من الكتاب والسنة.

الثالثة: أنَّ أسماء الله توقيفية كما نصَّ على ذلك جمعٌ من أهل العلم، وهو الحق والصواب ولا ريب في ذلك؛ لأنَّ الله بالنسبة لنا غيب لم نره، فلا سبيل لنا إلى أن نسميه بغير ما سمَّى به نفسه أو سمَّاه به رسوله ﷺ، ولأنَّ تسميته بغير ذلك قول عليه بغير علم، وهذا من أعظم المحرمات، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣]، ولأنَّ تسميته بغير ما سمَّى به نفسه أو سمَّاه به رسوله ﷺ أحدُ أنواع الإلحاد في أسماء الله، وقد توعَّد الله الملحدين في أسمائه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠].

هذا ما أردت جمعه في هذا الموضوع، وأسأل الله أن أكون قد وفقت إلى الصواب، والله أعلم وصلى الله وسلَّم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤٨٢/٢٢).





الرسالة الثالثة

الأثر المشهور عن الإمام مالك رحمه الله
في صفة الاستواء
(دراسة تحليلية)



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد، فلا ريب في عِظم فضل وكبر شرف العلم بأسماء الله وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهمها فهماً صحيحاً سليماً بعيداً عن تحريفات المحرّفين وتأويلات الجاهلين؛ إذ إنَّ شرف العلم تابعٌ لشرف معلومه، وما من ريب أنَّ أجَلَّ معلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذي لا إله إلاّ هو رب العالمين، وقيّوم السموات والأرضين، الملك الحقّ المبين، الموصوف بالكمال كلّه، المنزَّه عن كلِّ عيب ونقص، وعن كلِّ تمثيل وتشبيه في كماله ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

ولا ريب أنَّ العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجَلُّ العلوم وأفضلُها وأشرفُها، ونسبة ذلك إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، والعلم به

(١) سورة الشورى، الآيتان: (١٠ - ١١).

-سبحانه- هو أصل كلِّ علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به، فالعلم به - سبحانه - عنوان سعادة العبد في الدنيا والآخرة، والجهل به أصل شقاوته في الدنيا والآخرة، ومن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربّه فهو لما سواه أجهل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1]، وقد دلّت هذه الآية على معنى شريف عظيم، وهو أنَّ من نسيَ ربَّه أنساه ذاتَه ونفسَه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطَّلاً مهملاً[2].

ولهذا فإنَّ العناية بفهم هذا العلم وضبطه وعدم الغلط فيه أمر متأكّد على كلِّ مسلم، وقد كان أئمّة المسلمين، الصحابة ومن تبعهم بإحسان على نهجٍ واحدٍ في هذا العلم وعلى طريقة واحدة، ليس بينهم في ذلك نزاع ولا خلاف، "بل كلُّهم [بحمد الله] على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمةً واحدةً من أوّلهم إلى آخرهم، لم يسوموها تأويلاً، ولم يحرّفوها عن موضعها تبديلاً، ولم يُبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحدٌ منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقّوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلّها أمراً واحداً، وأجرَوْها على سنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوا القرآن عِضين، وأقرّوا ببعضها وأنكروا بعضَها من غير فُرقان مبين"[3].

---

(١) سورة الحشر، الآية: (١٩).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيّم (ص:٨٦).

(٣) إعلام الموقعين (١/٤٩).

بل زاد المعطّلة على ذلك فجعلوا جحد الصفات وتعطيل الربّ عنها توحيداً، وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً، فسمّوا الباطل باسم الحق ترغيباً فيه، وزخرفاً ينفقونه به، وسمّوا الحقَّ باسم الباطل تنفيراً عنه، والناس أكثرهم مع ظاهر السكّة، ليس لهم نقد النقّاد[1].

ولا يأمن جانب الغلط في هذا الباب الخطير من لا يتعرّف على نهج السلف ويسلك طريقتهم، فهي طريقة سالمة مأمونة مشتملة على العلم والحكمة، وكلامهم في التوحيد وغيره قليلٌ كثيرُ البركة[2]، فهم لا يتكلّفون، بل يعظّمون النصوص، ويعرفون لها حرمتها، ويقفون عندها، ولا يتجاوزونها برأي أو عقل أو وَجْدٍ أو غير ذلك.

فهم بحقٍّ الأئمةُ العدول والشهود الأثبات، ولا يزال بحمد الله في كلِّ زمان بقايا منهم "يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون بنور الله أهلَ العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن عباد الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عِقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلّمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهّال الناس بما يشبّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلّين"[3].

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/٢٦، ٢٧).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/١٣٩)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص١٩).

(٣) مقتبس من مقدّمة كتاب الردّ على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

ولهذا فإنَّ دراسة آثار هؤلاء وأقوالهم المنقولة عنهم في نصر السنة وتقرير التوحيد والردّ على أهل الأهواء يُعدّ من أنفع ما يكون لطالب العلم، للتمييز بين الحقّ والباطل، والسنة والبدعة، والهدى والضلال؛ لأنَّ هؤلاء الأئمة قد مضوا في معتقدهم على ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته من بعده، فهم بنبيّهم محمد ﷺ مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، ولطريقته مقتفون، وعن الأهواء والبدع المضلّة معرضون، وعلى الصراط المستقيم والمحجّة البيضاء سائرون، يوصي بذلك أولُهم آخرَهم، ويقتدي اللاحقُ بالسابق؛ ولهذا "لو طالعتَ جميع كتبهم المصنّفة من أوّلهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم -مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كلّ واحد منهم قطراً من الأقطار- وجدتَهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمطٍ واحد، يجرون فيه على طريقة واحدة، لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، ونقلهم واحد، لا ترى بينهم اختلافاً، ولا تفرّقاً في شيء ما وإن قلّ، بل لو جمعتَ جميعَ ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنّه جاء من قلب واحد، وجرى على لسانٍ واحد"[١]، والسبب في ذلك هو لزوم الجميع سنة النبي ﷺ، وبُعدُهم عن الأهواء والبدع، فهم كما قال الأوزاعي - رحمه الله -: "ندور مع السنة حيث دارت"[٢]، فهذا شأنهم وديدنُهم، يدورون مع السنة حيث دارت نفياً أو إثباتاً، فلا يثبتون إلاَّ ما ثبت في الكتاب والسنة، ولا ينفون إلاَّ ما نفي في الكتاب والسنة، لا يتجاوزون القرآن والحديث.

وهؤلاء الأئمة لم يكفّوا عن الخوض فيما خاض فيه من سواهم لعجز منهم عن ذلك أو لضعف وعدم قدرة بل الأمر كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-:

---

(١) الحجة للتيمي (٢/٢٢٤، ٢٢٥)، وهو من كلام أبي المظفر السمعاني رحمه الله.

(٢) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١/٦٤).

"... فإنَّ السابقين عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفّوا، وكانوا هم أقوى على البحث ولم يبحثوا"[(١)] . ومن كان على نهج هؤلاء فهو في طريق آمنة وسبيل سالمة، قال محمد ابن سيرين - رحمه الله -: "كانوا يقولون: إذا كان الرجل على الأثر فهو على الطريق"[(٢)] .

ولما كان الأمر بهذه المثابة وعلى هذا القدر من الأهمية أحببت أن أقدّم دراسة لأحد الآثار المرويّة عن السلف الصالح -رحمهم الله- في تقرير التوحيد وردّ البدع والأهواء؛ ليكون -إن شاء الله- أنموذجاً للتدليل على عِظم فائدة العناية بآثار السلف وعظم ما يحصله من عُنيَ بها من فوائد وثمار ومنافع.

ولهذا نشطت في إعداد هذه الدراسة للأثر المشهور عن الإمام مالك -رحمه الله- عند ما جاءه رجل وقال له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، فتأثّر مالك -رحمه الله- من هذه المسألة الشنيعة وعلاه الرحضاء [أي العَرَق]، وقال في إجابته لهذا السائل: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وأمر بالسائل أن يُخرج من مجلسه، وهو أثر عظيمُ النفع جليلُ الفائدة.

ويمكن أن أحدِّد أهمّ الدوافع التي شجّعت لتقديم هذه الدراسة لهذا الأثر خاصة في النقاط التالية:

أوّلاً: أنَّ هذا الأثر قد تلقّاه الناس بالقبول، فليس في أهل السنة والجماعة من ينكره، كما يذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-[(٣)] ، بل إنَّ أهل العلم

---

(١) رواه ابن بطّة في الإبانة (١/٣٢١).

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (١/٣٥٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٩).

قد ائتمّو به واستجودوه واستحسنوه[١].

ثانياً: أنّه من أنبل جواب وقع في هذه المسألة وأشدّه استيعاباً ؛ لأَنَّ فيه نبذ التكييف وإثبات الاستواء المعلوم في اللغة على وجه يليق بالله عز وجل[٢].

ثالثاً: أنَّ قوله هذا ليس خاصّاً بصفة الاستواء، بل هو بمثابة القاعدة التي يمكن أن تُقال في جميع الصفات.

رابعاً: محاولة أهل البدع في القديم والحديث تبديل معناه وتحريف مراده بطرق متكلّفة وسبل مختلفة.

خامساً: محاولة أحد جهّال المعاصرين التشكيك في ثبوته والطعن في أسانيده.

سادساً: التنبيه إلى أنَّ بعض أتباع الأئمة في الفروع لم يوَفَّقوا إلى العناية بمذهب أئمّتهم في الأصول، ولهذا ترى في بعض من يتعصّبون إلى مذهب الإمام مالك - رحمه الله - في الفروع من يخالفه في أصول الدين، ويفارقه في أساس المعتقد بسبب غلبة الأهواء وانتشار البدع.

إلى غير ذلك من الأسباب، وقد جعلت هذه الدراسة بعنوان:

الأثر المشهور عن الإمام مالك -رحمه الله- في صفة الاستواء: دراسة تحليلية

أما الهدف من هذه الدراسة فهو إعطاء هذا الأثر مكانته اللائقة به واستخراج الدروس والقواعد العلمية المستفادة منه، والردّ على تحريفات المناوئين، وتشكيكات المحرّفين.

وقسمته إلى تمهيد وأربعة فصول وخاتمة على النحو التالي:

التمهيد، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام مالك بن أنس - رحمه الله -.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٥٢٠).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٠).

المبحث الثاني: في ذِكر معتقد أهل السنة والجماعة في صفة الاستواء بإيجاز.

المبحث الثالث: في بيان أهمية القواعد وعِظم نفعها في معرفة صفات الباري.

الفصل الأول: في تخريج هذا الأثر، وبيان ثبوته، وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تخريج الأثر، وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-.

المبحث الثاني: ذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة.

المبحث الثالث: ذكر نظائر هذا الأثر ممّا جاء عن السلف الصالح.

المبحث الرابع: ذكر كلام أهل العلم في التنويه بهذا الأثر، وتأكيدهم على أهميّته، وجعله قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الثاني: في ذكر معنى هذا الأثر، وبيان مدلوله وما يُستفاد منه من ضوابط في توحيد الأسماء والصفات، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: في معنى قوله: "الاستواء غير مجهول" والضوابط المستفادة منه.

المبحث الثاني: في معنى قوله: "الكيف غير معقول" والضوابط المستفادة منه.

المبحث الثالث: في معنى قوله: "الإيمان به واجب" والضوابط المستفادة منه.

المبحث الرابع: في معنى قوله: "السؤال عنه بدعة" والضوابط المستفادة منه.

الفصل الثالث: في إبطال تحريفات أهل البدع لهذا الأثر.

الفصل الرابع: في ذكر فوائد عامة مأخوذة من هذا الأثر، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ذكر ما في قولهم: "حتى علاه الرّحضاء" من فائدة.

المبحث الثاني: ذكر ما في قوله: "ما أراك إلاّ مبتدعاً" من فائدة.

المبحث الثالث: ذكر ما في قوله: "أخرجوه عنّي" من فائدة.

الخاتمة: وفيها خلاصة البحث وأهمّ نتائجه.

ولا يفوتني هنا أن أشكر كلّ من تفضّل عليّ بأيّ مساعدة في إنجاز هذا الكتاب، سواء برأي أو مشورة أو ملحوظة أو مراجعة أو غير ذلك، وأخصّ بالذكر صاحب الفضيلة الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد -حفظه الله ومتعه بالصحة والعافية- الذي تكرّم بقراءته وإبداء ملحوظاته القيمة وتوجيهاته الغالية، أسأل الله أن يعلي قدره ويجزل مثوبته وأجره، وأسأله سبحانه أن يتقبّل مني هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله لوجهه خالصاً وللحق موافقاً، وأن يغفر لي ولوالدي وللإمام مالك ولجميع أئمة المسلمين وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه هو الغفور الرحيم.

تمهيد

لعل من الحسن قبل الشروع في الموضوع أن أُمهِّد بذكر بعض الأمور المهمّة بين يديه، وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول

ترجمة موجزة للإمام مالك بن أنس -رحمه الله- [(١)].

أولاً: نسبه:

هو شيخ الإسلام، حجّة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عَمرو بن الحارث بن غيمان بن خُثيل بن عَمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شدّاد بن زرعة، وهو حِمير الأصغر، الحِميري ثم الأصبحي المدني، حليف بني تَيم من قريش، فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحدِ العشرة.

وأمُّه هي عالية بنت شريك الأزدية.

وأعمامه هم: أبو سُهيل نافع، وأُويس، والربيع، والنضر، أولاد أبي عامر.

ثانياً: مولده:

قال الذهبي - رحمه الله -: "مولد مالك على الأصح في سنة ثلاث وتسعين، عام موتِ أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونشأ في صَون ورفاهية وتجمّل".

---

(١) وهي ملخّصة من سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٨/٨ وما بعدها)، وللوقوف على مصادر ترجمة الإمام مالك انظر هامش السير، الصفحة المتقدّمة.

ثالثاً: نشأته وطلبه للعلم:

طلب مالكٌ العلمَ وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهّل للفتيا، وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدّث عنه جماعة وهو حيٌّ شابٌّ طريٌّ، وقصدَه طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، إلى أن مات.

رابعاً: شيوخه:

طلب الإمام مالك - رحمه الله - العلمَ وهو حدَثٌ بُعيد موت القاسم وسالم، فأخذ عن نافع، وسعيد المقبري، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وابن المنكدر، والزهري، وعبد الله بن دينار، وخلق.

وقد أحصى الذهبي - رحمه الله - شيوخه الذين روى عنهم في الموطأ وذكر إلى جنب كلٍّ واحد منهم عدد ما روى عنه الإمام مالك ورتّبهم على حروف المعجم.

خامساً: تلاميذه:

قال الذهبي -رحمه الله-: "وقد كنت أفردتُ أسماء الرواة عنه في جزء كبير يُقارب عددهم ألفاً وأربع مائة، فلنذكر أعيانهم، حدّث عنه من شيوخه: عمّه أبو سُهيل، ويحيى بن أبي كثير، والزهري، ويحيى بن سعيد، ويزيد بن الهاد، وزيد بن أبي أُنيسة، وعمر بن محمد بن زيد، وغيرهم، ومن أقرانه: معمر، وابن جريج، وأبو حنيفة، وعمرو بن الحارث، والأوزاعي، وشعبة، والثوري..."، وذكر آخرين.

سادساً: مؤلفاته:

من مؤلفاته -رحمه الله-:

١- الموطأ.

٢- رسالة في القدر كتبها إلى ابن وهب.

٣- مؤلف في النجوم ومنازل القمر.

٤- رسالة في الأقضية.

٥- رسالة إلى أبي غسان بن مطرّف.

٦- جزء في التفسير.

وأما ما نقله عنه كبار أصحابه من المسائل والفتاوى والفوائد فشيءٌ كثيرٌ.

سابعاً: ثناء العلماء عليه:

١- قال الشافعي: "العِلمُ يدور على ثلاثة: مالك، والليث، وابن عيينة".

٢- وروي عن الأوزاعي أنه كان إذا ذكر مالكاً يقول: "عالم العلماء، ومفتي الحرمين".

٣- وعن بقيّة أنَّه قال: "ما بقي على وجه الأرض أعلم بسنّةٍ ماضية منك يا مالك".

٤- وقال أبو يوسف: "ما رأيت أعلمَ من أبي حنيفة، ومالك، وابن أبي ليلى".

٥- وذكر أحمد بن حنبل مالكاً فقدّمه على الأوزاعي، والثوري، والليث، وحماد، والحَكم، في العلم، وقال: "هو إمام في الحديث، وفي الفقه".

٦- وقال القطّان: "هو إمام يُقتدى به".

٧- وقال ابن معين: "مالكٌ من حُجج الله على خلقه".

٨- وقال أسد بن الفرات: "إذا أردتَ الله والدارَ الآخرة فعليك بمالكٍ".

ثامناً: أقواله في السنة:

١- قال مطرّف بن عبد الله: سمعتُ مالكاً يقول: "سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووُلاة الأمر بعده سُنناً، الأخذُ بها اتّباع لكتاب الله، واستكمالٌ بطاعة الله، وقوّةٌ على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلُها، ولا النّظرُ في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتّبع غير سبيل المؤمنين، وولاّه الله ما تولّى، وأصلاه جهنّم وساءت مصيراً".

٢- وروى إسحاق بن عيسى عن مالك -رحمه الله- أنّه قال: "أكلّما جاءنا رجلٌ أجدلُ من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم لجدلِه".

٣- وقال أبو ثور: سمعت الشافعيَّ يقول: "كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أمَا إني على بيّنة من ديني، وأمَّا أنت فشاكٌّ، اذهب إلى شاكٍّ مثلكَ فخاصمه".

٤- وقال يحيى بن خلف الطَرسوسي: "كنت عند مالك فدخل عليه رجل، فقال: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن يقول: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق، اقتلوه، فقال: يا أبا عبد الله، إنّما أحكي كلاماً سمعته، قال: إنّما سمعته منك، وعظَّم هذا القول".

٥- وروى ابن وهب عن مالك -رحمه الله- أنّه قال: "الناس ينظرون إلى الله عز وجل يوم القيامة بأعينهم".

٦- وقال القاضي عياض: قال معنٌ: "انصرف مالكٌ يوماً فلحقَه رجلٌ يُقال له: أبو الجويرية، متّهمٌ بالإرجاء، فقال: اسمع مني، قال: احذر أن أشهد عليك، قال: والله ما أريد إلاّ الحق، فإن كان صواباً فقُل به، أو فتكلّم، قال: فإن غلبتني، قال: اتبعني، قال: فإن غلبتُك، قال: اتّبعتُك، قال: فإن جاء رجل فكلّمنا، فغلبنا؟ قال: اتّبعناه، فقال مالك: يا هذا، إنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بدين واحد، وأراك تتنقّل".

٧- وعن مالك قال: "الجدالُ في الدِّين ينشئ المراء، ويذهب بنور العلم من القلب ويقسّي، ويورث الضِّغن".

تاسعاً: وفاته:

قال القعنبي: "سمعتهم يقولون: عُمر مالك تسع وثمانون سنة، مات سنة تسع وسبعين ومائة".

وقال إسماعيل بن أبي أُويس: "مرض مالك، فسألتُ بعض أهلنا عما قال عند الموت، قالوا: تشهّد، ثم قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[1]، وتوفي صبيحة أربع عشرة من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، فصلّى عليه الأمير عبد الله بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي، وَلَد زينب بنت سليمان العباسية، ويُعرف بأمِّه"، رواها محمد بن سعد عنه، ثم قال: "وسألتُ مصعباً، فقال: بل مات في صفر، فأخبرني معن بن عيسى بمثل ذلك".

وقال أبو مصعب الزهري: "مات لعشر مضت من ربيع الأول سنة تسع".

وقال محمد بن سحنون: "مات في حادي عشر ربيع الأول".

وقال ابن وهب: "مات لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول".

قال القاضي عياض: "الصحيح وفاته في ربيع الأول يوم الأحد لتمام اثنين وعشرين يوماً من مرضه".

قال الذهبي: "تواترت وفاتُه في سنة تسع، فلا اعتبار لقول من غلِط وجعلها في سنة ثمان وسبعين، ولا اعتبار بقول حبيب كاتبه، ومطرِّف فيما حكي عنه، فقالا: سنة ثمانين ومائة".

ونقل عن القاضي عياض أنَّ أسد بن الفرات قال: "رأيتُ مالكاً بعد موته، وعليه طويلة وثياب خضر وهو على ناقة، يطير بين السماء والأرض، فقلت: يا أبا عبد الله، أليس قد متَّ؟ قال: بلى، فقلت: فإلامَ صِرتَ؟، فقال: قدِمتُ على ربي وكلّمني كفاحاً، وقال: سلني أعطِك، وتمنَّ عليَّ أُرضِك".

فرحمه الله، وغفر له، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنّة.

---

(١) سورة الروم، الآية: (٤).

المبحث الثاني

في ذكر معتقد أهل السنة والجماعة في صفة الاستواء بإيجاز

الاستواء صفةٌ من صفات الكمال الثابتة لذي العظمة والجلال -سبحانه-، وقد دلّ النقل على هذه الصفة حيث أثبتها الربُّ -سبحانه- لنفسه في كتابه، وأثبتها له رسوله ﷺ في سنّته، وأجمع على ثبوتها المسلمون.

وقد وردت هذه الصفة في القرآن الكريم في مواطن عديدة، وكان ورودها فيه على نوعين: تارة معدّاة بـ(على)، وتارة معدّاة بـ(إلى).

١- أمّا النوع الأول: وهو مجيئها معدّاة بـ(على) فقد ورد في القرآن الكريم في سبعة مواضع، حيث تمدّح بها الرب -سبحانه-، وجعلها من صفات كماله وجلاله، وقرنها بما يبهر العقول من صفات الجلال والكمال، مما يدل على ثبوت هذه الصفة العظيمة لله ثبوت غيرها من الصفات.

قال الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: "اعلموا أنَّ هذه الصفة التي هي الاستواء صفةُ كمال وجلال تمدّح بها ربُّ السموات والأرض، والقرينة على أنّها صفة كمال وجلال أنَّ الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلاّ مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله التي هي منها، وسنضرب مثلاً بذكر الآيات:

فأوّل سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٥٤).

على الجلال والكمال.

الموضع الثاني في سورة يونس قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(1).

فهل لأحد أن ينفيَ شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلال.

الموضع الثالث في سورة الرعد في قوله جلّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(2)، وفي القراءة الأخرى: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) سورة يونس، الآيات: (٣ - ٦).

(٢) سورة الرعد، الآيات: (٢ - ٤).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

الموضع الرابع في سورة طه: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

الموضع الخامس في سورة الفرقان في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[2].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلال.

الموضع السادس في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة طه، الآيات: (١-٨).

(٢) سورة الفرقان، الآيات: (٥٨، ٥٩).

(٣) سورة السجدة، الآيات: (٣ - ٩).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الجلال والكمال.

الموضع السابع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1][2].

أما النوع الثاني: وهو مجيئها معدّاة بـ(إلى) فقد ورد في القرآن في موطنين:

الأول في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

الثاني: في سورة فُصّلت، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[4].

والاستواء معناه معلوم في لغة العرب، لا يجهله أحد منهم، والله قد خاطب عباده في القرآن الكريم بكلام عربيٍّ مبين، والاستواء معناه في اللغة العلوّ والارتفاع[5].

---

(١) سورة الحديد، الآيات: (٣، ٤).

(٢) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص: ١٥ - ١٧).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٩).

(٤) سورة فصّلت، الآية: (١١).

(٥) هذا إذا كان معدًّى بـ(إلى) أو (على)، أما إذا كان مطلقاً كقوله تعالى: ﴿ولمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ فإنَّ معناه: كمُل وتمَّ، وأمَّا إذا كان مقروناً بواو (مع) التي تعدي الفعل إلى المفعول معه نحو: "استوى الماء والخشبة" فإنَّ معناه ساواها، انظر: مختصر الصواعق (ص: ٣٢٠).

ولهذا فإنَّ مذهب السلف في الاستواء هو إثباته لله عز وجل كما أثبته لنفسه، وكما أثبته له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأنَّ الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله، ولا يشبه استواء أحد من خلقه -تعالى الله عن ذلك-، ومعنى الاستواء عندهم العلوّ والارتفاع، ولا خلاف بينهم في ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وكلام السلف والأئمة ومن نقل مذهبهم في هذا الأصل كثير يوجد في كتب التفسير والأصول.

قال إسحاق بن راهويه: حدّثنا بشر بن عمر: سمعت غير واحد من المفسّرين يقولون: "﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾: أي ارتفع"[(١)].

وقال البخاري في صحيحه: قال أبو العالية: "استوى إلى السماء: ارتفع"، قال: وقال مجاهد: "استوى: علا على العرش"[(٢)].

وقال الحسين بن مسعود البغوي في تفسيره المشهور: "وقال ابن عباس وأكثر مفسري السلف: استوى إلى السماء: ارتفع إلى السماء، وكذلك قال الخليل بن أحمد"[(٣)].

وروى البيهقي في كتاب الصفات قال: قال الفرّاء: "ثم استوى، أي صعد، قاله ابن عباس، وهو كقولك للرجل: كان قاعداً فاستوى قائماً"[(٤)].

---

(١) أورده الذهبي في العلو، وقال الألباني - حفظه الله - (ص: ١٦٠ مختصره): "وهذا إسناد صحيح مسلسل بالثقات الحفاظ...".

(٢) صحيح البخاري (١٣/ ٤٠٣ الفتح).

(٣) تفسير البغوي (١/ ٥٩).

(٤) الأسماء والصفات (٢/ ٣١٠).

وروى الشافعي في مسنده عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال عن يوم الجمعة: "وهو اليوم الذي استوى فيه ربّكم على العرش"[(١)] .

والتفاسير المأثورة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين مثل تفسير محمد بن جرير الطبري، وتفسير عبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بدُحيم، وتفسير عبدالرحمن بن أبي حاتم، وتفسير أبي بكر بن المنذر، وتفسير أبي بكر عبد العزيز، وتفسير أبي الشيخ الأصبهاني، وتفسير أبي بكر بن مردويه، وما قبل هؤلاء من التفاسير مثل تفسير أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم، وبقي بن مخلد وغيرهم، ومن قبلهم مثل تفسير عبد بن حميد، وتفسير سُنيد، وتفسير عبد الرزاق، ووكيع بن الجراح فيها من هذا الباب الموافق لقول المثبتين ما لا يكاد يُحصى، وكذلك الكتب المصنّفة في السنة التي فيها آثار النبي ﷺ والصحابة والتابعين"[(٢)] .

---

(١) مسند الشافعي (ص: ٧٠ ٧١)، ورواه الذهبي في العلو من طريق الشافعي (ص: ٢٩ ٣٠) ثم قال: "إبراهيم وموسى ضعفاء، أخرجه الإمام محمد بن إدريس في مسنده، وقد أخرجه الدارقطني من طريق حمزة بن واصل المنقري، عن قتادة، عن أنس، ومن طريق عنبسة الرازي، عن أبي اليقظان عثمان بن عُمير، عن أنس، عن ابن محمد بن شعيب بن سابور، عن عمر مولى عفرة، عن أنس.

وأخرجه القاضي أبو أحمد العسّال في كتاب المعرفة له عن رجال، عن جرير ابن عبد الحميد، عن ليث بن أبي سليم، عن عثمان بن أبي حميد وهو أبو اليقظان عن أنس، ورواه من طريق سلام بن سليمان، عن شعبة وإسرائيل وورقاء، عن ليث أيضاً.

وساقه الدارقطني من رواية شجاع بن الوليد، عن زيادة بن خيثمة، عن عثمان ابن أبي سليمان، عن أنس، والظاهر أنَّ عثمان أبو اليقظان، وحدّث به الوليد ابن مسلم، عن عبد الرحمن بن ثابت ابن ثوبان، عن سالم بن عبد الله، عن أنس ابن مالك، وهذه طرق يعضد بعضها بعضاً، رزقنا الله وإيّاكم لذّةَ النظر إلى وجهه الكريم".

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٠ ٢٢)، وانظر أيضاً: مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٨ وما بعدها).

وجاء عن الخليل بن أحمد قال: "أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت وكان على سطح فلما رأيناه أشرنا إليه بالسلام، فقال: استووا، فلم ندر ما قال، فقال لنا شيخ عنده: يقول لكم: ارتفعوا، قال الخليل: هذا من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾"[١]، أي: ارتفع وعلا[٢].

والاستواء سواء عُدّيَ بـ"إلى" أو بـ"على" فمعناه العلو والارتفاع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ومن قال: استوى بمعنى عَمَدَ، ذكره في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾؛ لأنّه عُدي بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا، وقصدت إلى كذا، ولا يقال: عمدت على كذا ولا قصدت عليه، مع أنّ ما ذُكر في تلك الآية لا يُعرف في اللغة أيضاً، ولا هو قول أحد من مفسريّ السلف؛ بل المفسِّرون من السلف قولهم بخلاف ذلك -كما قدّمناه عن بعضهم-"[٣]، وقد حكى ابن القيم -رحمه الله- إجماع السلف على ذلك[٤].

فهذا ملخَّص معتقد أهل السنة والجماعة في هذه الصفة، ومن أراد الاطّلاع على كلام أهل العلم في هذه الصفة موسّعاً فليطالع الكتب التي أُفرِدت في ذلك وهي كثيرة جداً، وكما قال السفاريني -رحمه الله-: "وقد أكثر العلماء من التصنيف، وأجلبوا بخيلهم ورَجِلِهم من التأليف، في ثبوت العلوّ والاستواء ونبّهوا على ذلك بالآيات والحديث وما حوى، فمنهم الراوي الأخبارَ بالأسانيد، ومنهم الحاذفُ لها وأتى بكلِّ لفظٍ مفيدٍ، ومنهم المُطَوِّل المُسهِب، ومنهم المُختصِر والمتوسِّط والمهذِّب،

---

(١) سورة فصّلت، الآية: (١١).

(٢) أورده الذهبي في العلو (ص: ١٧١ مختصره).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٥٢١).

(٤) مختصر الصواعق (ص: ٣٢٠).

فمن ذلك (مسألة العلوّ) لشيخ الإسلام ابن تيمية، و(العلوّ) للإمام الموفق صاحب التصانيف السنيّة، و(الجيوش الإسلاميّة) للإمام المحقق ابن قيِّم الجوزية، و(كتاب العرش) للحافظ شمس الدين الذهبي صاحب الأنفاس العليّة، وما لا أُحصي عدّهم إلاّ بكُلْفة، والله تعالى الموفّق"[1].

---

(١) لوامع الأنوار البهيّة (١/١٩٦، ١٩٥).

المبحث الثالث

في بيان أهميّة القواعد وعظم نفعها في معرفة صفات الباري

لا ريب أنَّ معرفةَ القواعد والأصول والضوابط الكليّة الجامعة يُعدُّ من أعظم العلوم وأجلِّها نفعاً وأكثرها فائدةً، ذلك أنَّ "الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبنيان والأصول للأشجار لا ثبات لها إلاّ بها، والأصول تبنى عليها الفروع، والفروع تثبت وتتقوّى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى وينمي نماءً مطَّرداً، وبها تُعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفرقان بين المسائل التي تشتبه كثيراً، كما أنَّها تجمع النظائر والأشباه التي من جمال العلم جَمعُها"[١] إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة والمنافع الجليلة التي لا تحصى.

بل إنَّ "من محاسن الشريعة وكمالها وجمالها وجلالها: أنَّ أحكامَها الأصوليَّة والفروعية والعبادات والمعاملات وأمورها كلّها لها أصولٌ وقواعدُ تَضبطُ أحكامَها وتَجمعُ مُتفرِّقَها وتَنشر فروعَها وتَردُّها إلى أصولها"[٢].

والقاعدة: هي أمرٌ كلّيٌّ ينطبق على جزئيّاتٍ كثيرةٍ تُفهم أحكامُها منها[٣].

فإذا ضُبطت القاعدةُ وفُهم الأصلُ أمكن الإلمام بكثيرٍ من المسائل التي هي بمثابة الفرع لهذه القاعدة، وأُمن الخلطُ بين المسائل التي قد تشتبه، وكان فيها تسهيلٌ لفهم العلم وحفظه وضبطه، وبها يكون الكلام مبنياً على علمٍ متينٍ وعدلٍ وإنصافٍ.

---

(١) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ص: ٤).

(٢) الرياض الناضرة للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ص: ٢٤٣).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير للفتوحي (ص: ٦).

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "لا بُدَّ أنْ يكون مع الإنسان أصولٌ كليّةٌ تُردُّ إليها الجزئيّات؛ ليتكلّم بعلمٍ وعدلٍ، ثمّ يعرف الجزئيّات كيف وقعت، وإلاّ فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئيّات، وجهلٍ وظُلمٍ في الكليّات فيتولّد فسادٌ عظيمٌ"[١].

لأجل هذا عُني أهل العلم كثيراً بوضع القواعد وجَمعها في الفنون المختلفة، فلا تكاد تجد فناً من الفنون إلاّ وله قواعدُ كثيرةٌ وضوابطُ عديدةٌ تَجمع مُتَفرِّقَه، وتُزيل مشتَبهَه، وتُنير معالَمه، وتُيسِّر فهمَه وحِفظَه وضبطَه[٢]، "ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل"[٣].

ولهذا فإنَّه يترتَّب على العناية بالقواعد المأثورة والأصول الكليّة المنقولة عن السلف الصالح - رحمهم الله - من الفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلاّ الله؛ لأنَّ فيها كما يقال وضعُ النقاط على الحروف، وفيها تجليةٌ للأُمور، وتوضيحٌ للمسائل، وإزالةٌ للّبْس، وأَمْنٌ من الخَلْط، إلى غير ذلك من الفوائد.

---

(١) الفتاوى (١٩/٢٠٣).

(٢) انظر: مقدمة الرسالة التي بعنوان: (فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى) المستلّة من بدائع الفوائد لابن القيِّم، بتحقيقي.

(٣) تفسير ابن سعدي (٥/٣).

الفصل الأوَّل

في تخريج هذا الأثر، وبيان ثبوته وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح

المبحث الأوَّل

تخريج هذا الأثر وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-

لقد اشتهر هذا الأثر عن الإمام مالك -رحمه الله- شهرة بالغة، ورواه عنه طائفة من تلاميذه، وهو مرويٌّ عنه من طرق عديدة، وقد حَظِي باستحسان أهل العلم، وتلقَّوه بالقبول، وهو مخرَّج في كتب عديدة من كتب السنة.

وفيما يلي ذكرٌ لما وقفت عليه من روايات لهذا الأثر مع ذكر مخرِّجيها، وما وقفت عليه من كلام أهل العلم في بيان ثبوته.

١ - رواية جعفر بن عبد الله(١).

قال الحافظ أبو نعيم في الحلية: حدّثنا محمد بن علي بن مسلم العقيلي، ثنا القاضي أبو أميَّة الغلابي، ثنا سلمة بن شبيب(٢)، ثنا مهدي بن

---

(١) عدَّه الذهبي في المشتبه في الرواة عن مالك، وتعقَّبه ابن ناصر الدين في توضيح المشتبه (٤/٩٨-٩٩) بقوله: " فيه نظر؛ لأنَّ هذا الإطلاق يوهم أنَّ شيخ جعفر مالكُ بن أنس الإمام، وكأنَّه - والله أعلم- عند المصنِّف الإمام مالك، فلهذا أطلقه، وليس بالإمام، إنَّما هو مالك بن خالد الأسدي البصري كما سمَّاه الأمير وغيره"، وذكر نحواً من هذا ابن حجر في تبصير المنتبه (٢/٦٢١).

(٢) هو سلمة بن شبيب النيسابوري أبو عبد الرحمن الحَجْري المسمَعي، نزيل مكة.
قال أبو حاتم: (صدوق)، وقال أبو نعيم: "أحد الثقات، حدّث عنه الأئمة والقدماء"، توفي سنة (٢٤٧هـ)، انظر: تهذيب الكمال (١١/٢٨٤).

جعفر[١]، ثنا جعفر بن عبد الله قال: كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكتُ بعود في يده حتى علاه الرّحضاء يعني العرق ثمَّ رفع رأسه ورمى بالعود وقال: "الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وأمر به فأُخرج[٢].

ورواه الإمام أبو إسماعيل الصابوني في كتابه(عقيدة السلف) قال: أخبرنا أبو محمد المخلدي العدل، حدّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن مسلم الإسفراييني، حدّثنا أبو الحسين علي بن الحسن، حدّثنا سلمة بن شبيب به، وذكر نحوَه، إلاّ أنّه قال: "الكيف غير معلوم"[٣].

ورواه أيضاً الإمام الصابوني من طريق أخرى قال: أخبرنا به جدّي أبو حامد أحمد بن إسماعيل، عن جدّ والدي الشهيد، وأبو عبد الله محمد بن عدي بن حمدويه الصابوني، حدّثنا محمد بن أحمد بن أبي عون النسوي، حدّثنا سلمة بن شبيب به[٤].

---

(١) هو مهدي بن جعفر بن جَيْهان بن بهرام الرملي، أبو محمد.

قال فيه ابن حجر: "صدوق له أوهام" كما في التقريب له (برقم: ٦٩٧٩).

ونقل ابن حجر في تهذيبه (١٠/٢٨٩) عن الذهبي قوله: "رأيت له رواية عن مالك في تفسير ابن أبي حاتم"، توفي سنة (٢٣٠هـ).

(٢) الحلية لأبي نعيم (٦/٣٢٥، ٣٢٦)، ورواه الذهبي في السير (٨/١٠٠) من طريق أبي نعيم.

(٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٣٨).

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٣٩).

ورواه الحافظ اللالكائي في شرح الاعتقاد من طريق علي بن الربيع التميمي المقري قال: ثنا عبد الله بن أبي داود قال: ثنا سلمة بن شبيب به، باللفظ السابق[١].

وتابعه بكّار بن عبد الله[٢] عن مهدي بن جعفر عن مالك، ولم يذكر شيخه جعفر بن عبد الله.

أخرجه ابن عبد البر في التمهيد[٣]، أخبرنا محمد بن عبد الملك قال: حدّثنا عبد الله بن يونس قال: حدّثنا بقيُّ بن مخلد قال: حدّثنا بكار بن عبد الله القرشي قال: حدّثنا مهدي بن جعفر عن مالك ابن أنس أنّه سُئل عن قول الله عز وجل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: كيف استوى؟، قال: فأطرق مالك ثم قال: "استواؤه مجهول[٤]، والفعل منه غير معقول، والمسألة عن هذا بدعة".

وتابعه أيضاً الإمام الدارمي، قال في كتابه الردّ على الجهميّة: حدّثنا مهدي بن جعفر الرملي ثنا جعفر بن عبد الله وكان من أهل الحديث ثقة عن رجل قد سمّاه

---

(١) شرح الاعتقاد (٣/٣٩٨).

قال الألباني - حفظه الله -: "وأما ما عزاه إليه صاحب (فرقان القران بين صفات الخالق وصفات الأكوان) (ص: ١٦): بلفظ: "الاستواء مذكور" فلم أره فيه، ولا رأيت من ذكره غير المشار إليه، وهو من الثقات [كذا في الأصل وهو تصحيف من الطابع، والصواب(وهو من النفاة)]؛ ولذلك ركن إلى هذا اللفظ لأن فيه ما يريده من نفي معنى الاستواء وأنه معروف عند مالك"، مختصر العلوّ (ص: ١٤٢).

(٢) هو بكار بن عبد الله بن بسر بن أرطاة الدمشقي القرشي.

روى عن أسد بن موسى، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وأبو حاتم وأبو زرعة.

قال ابن أبي حاتم: "كتبت عنه عن أبي وسألته عن بكار هذا؟ فقال: (هو صدوق)، الجرح والتعديل (١/١/٤١٠).

(٣) (٧/١٥١).

(٤) كذا وردت العبارة في التمهيد وهي يقيناً محرّفة، والصواب كما في الطرق المتقدّمة للأثر وغيرها "استواؤه غير مجهول"، وقد أفادني أحد طلاّب العلم الثقات باطّلاعه على النسخة الخطية للتمهيد في المغرب ووجد لفظة [غير] ملحقة بالهامش من الناسخ، ثم وقفت على مصورة لها فوجدت الأمر كذلك.

لي، قال: جاء رجل إلى مالك ابن أنس، وذكره[(١)].

فزاد في إسناده بعد جعفر بن عبد الله: "عن رجل".

ومهدي بن جعفر صدوق له أوهام وقد اضطرب في روايته لهذه القصة، فرواها مرّة عن شيخه جعفر بن عبد الله عن مالك، ورواها مرّة أخرى عن شيخه جعفر عن رجل عن مالك، ورواها مرّة ثالثة عن مالك مباشرة، وهذا الاضطراب الذي في هذه الطريق لا ينفي صحة القصة؛ لأنّها قد جاءت من طرق أخرى تعضدها وتقوّيها - كما سيأتي -.

٢- رواية عبد الله بن وهب[(٢)].

قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أحمد بن محمد بن إسماعيل ابن مهران[(٣)]، ثنا أبي[(٤)]، حدّثنا أبو الربيع بن أخي رشدين بن

---

(١) الردّ على الجهميّة (ص: ٥٦، ٥٥).

(٢) هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي الفهري، أبو محمد.
روى عن خلق كثير، وثّقه ابن معين وأبو زرعة، وقال فيه أحمد بن حنبل: "ما أصحّ حديثه وأثبتَه".
وهو من أثبت الناس في مالك؛ فقد قال هارون بن عبد الله الزهري: "كان الناس يختلفون في الشيء عن مالك، فينتظرون قدوم ابن وهب حتى يسألوه عنه".
وقال أبو مصعب: "مسائل ابن وهب عن مالك صحيحة"، توفي سنة (١٩٧هـ)، تهذيب الكمال (١٦/٢٧٧ - ٢٨٦).
وقال فيه ابن حجر في التقريب (رقم: ٣٧١٨): "ثقة حافظ عابد".

(٣) أحمد بن محمد بن إسماعيل بن مهران الإسماعيلي النيسابوري أبو الحسن.
قال فيه الذهبي في تاريخ الإسلام (وفيات ٣٣١هـ فما بعدها) (ص: ١٨٧): "أبو الحسن الإسماعيلي النيسابوري العدل".
وقال السمعاني في الأنساب (١/١٥٥): "كان كثير السماع من أبيه".

(٤) محمد بن إسماعيل بن مهران أبو بكر الإسماعيلي، قال فيه الحاكم: "هو أحد أركان الحديث بنيسابور، كثرة ورحلة واشتهارا ... ثقة مأمون"، قال إبراهيم ابن أبي طالب: "لم يجوِّد لنا حديث مالك كالإسماعيلي"، توفي سنة (٢٩٥هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/١١٧ - ١١٨).

سعد[(١)] قال: سمعت عبد الله بن وهب يقول: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استواؤه؟، قال: فأطرق مالك وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه فقال: "الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه، قال: فأُخرج"[(٢)].

قال الذهبي في العلوّ: "وساق البيهقي بإسناد صحيح عن أبي الربيع الرشديني عن ابن وهب..." وذكره[(٣)].

وقال الحافظ ابن حجر: "وأخرج البيهقي بسند جيِّد عن ابن وهب..." وذكره[(٤)].

٣- رواية يحيى بن يحيى التميمي[(٥)].

قال البيهقي -رحمه الله- في كتابه الأسماء والصفات:

أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن الحارث الفقيه الأصفهاني[(٦)]، أنا أبو محمد

---

(١) أبو الربيع هو سليمان بن داود بن حماد بن سعد المَهْري، وجدّه حماد بن سعد أخو رِشْدين بن سعد، توفي سنة (٢٥٣هـ).

ترجم له المزي في تهذيب الكمال (١١/٤٠٩ - ٤١٠)، وذكر أنَّ النسائي وثّقه.

(٢) الأسماء والصفات (٢/٣٠٤)، وأورده الذهبي في العلوّ (ص: ١٤١مختصره) والأربعين (ص: ٨٠ ضمن مجموع الرسائل الست للذهبي) والسير (٨/١٠٠).

(٣) مختصر العلوّ (ص: ١٤١).

(٤) فتح الباري (١٣/٤٠٧، ٤٠٦).

(٥) هو يحيى بن يحيى بن بكر التميمي أبو زكريا النيسابوري.

وثّقه أحمد وابن راهويه والنسائي وغيرهم. توفي سنة (٢٢٦هـ)، تهذيب الكمال (٣٢/٣١-٣٧).

(٦) أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن الحارث الفقيه التميمي الأصفهاني، قال فيه الذهبي في تاريخ الإسلام (وفيات ٤٣٠هـ) (ص: ٢٨١): "الزاهد المقرئ النحوي المحدِّث ...، وكان إماماً في العربية".

عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيَّان المعروف بأبي الشيخ[(١)] ، ثنا أبو جعفر أحمد بن زيرك اليزدي: سمعت محمد بن عمرو بن النضر النيسابوري[(٢)] يقول: سمعت يحيى ابن يحيى يقول: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فكيف استوى؟، قال: فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلاّ مبتدعاً. فأمر به أن يُخرج"[(٣)] .

ورواه البيهقي في كتابه الاعتقاد بالإسناد نفسه[(٤)] .

وأورده الذهبي في العلوّ قال: وروى يحيى بن يحيى التميمي وجعفر بن عبدالله وطائفة، وذكره ثم قال: "هذا ثابت عن مالك"[(٥)] .

وقال الإمام شمس الدين محمد بن عبد الهادي في كتابه في الاستواء: "صحيح ثابت عن مالك"[(٦)] .

٤- رواية جعفر بن ميمون[(٧)] .

---

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان المعروف بأبي الشيخ، قال فيه الخطيب البغدادي: "كان أبو الشيخ حافظاً ثبتاً متقناً"، توفي سنة (٣٦٩هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٧٧ - ٢٧٩).

(٢) أبو علي محمد بن عمرو بن النضر الجرشي النيسابوري، قال الذهبي في تاريخ الإسلام (وفيات: ٢٨١ - ٢٩٠) (ص: ٢٨٢): "وكان صدوقاً مقبولاً".

(٣) الأسماء والصفات (٢/٣٠٦، ٣٠٥).

(٤) الاعتقاد (ص: ٥٦)، مختصر العلوّ (ص: ١٤١).

(٥) مختصر العلوّ (ص: ١٤١).

(٦) (ق: ٤) وهو عندي قيد التحقيق.

(٧) هو جعفر بن ميمون التميمي أبو عليّ، ويقال: أبو العوّام الأنماطي.

روى عن أبي العالية وعطاء بن أبي رباح وغيرهما، وروى عنه السفيانان ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم.

قال الإمام أبو إسماعيل الصابوني حدّثنا أبو الحسن بن إسحاق المدني، حدّثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشافعي[(١)]، حدّثنا شاذان، حدّثنا ابن مخلد بن يزيد القهستاني، حدّثنا جعفر بن ميمون قال: سئل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلاّ ضالاً، وأمر به أن يخرج من مجلسه"[(٢)].

٥- رواية سفيان بن عيينة[(٣)].

قال عنه أحمد: "ليس بقويٍّ في الحديث"، ونحوه عن النسائي.

وقال فيه ابن معين: "ليس بذاك"، وقال في موضع آخر: "ليس بثقة"، وقال في موضع آخر: "صالح الحديث".

وقال أبو حاتم: "صالح"، ولعله من أجل هذا قال فيه الدارقطني: "يُعتبَر به".

انظر: تهذيب الكمال (١١٥/٥، ١١٤).

وقال فيه ابن حجر في التقريب (رقم: ٩٦٩): "صدوق يخطئ، من السادسة".

(١) هو أحمد بن الخَضِر بن أحمد أبو الحسن النيسابوري الشافعي.

قال فيه الذهبي في السير (٥٠١/١٥): "الحافظ المجوِّد الفقيه ...، من كبار الأئمة ...، مات في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة".

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٣٨).

(٣) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران، أبو محمد الكوفي ثم المكي.

قال فيه ابن حجر في التقريب (رقم: ٢٤٦٤): "ثقة، حافظ، فقيه، إمام، حجة، إلاّ أنّه تغيَّر حفظه بآخرة، وكان ربّما دلّس لكن عن الثقات".

وقال عنه الشافعي: "لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز".

وأما اختلاطه فرُوي عن يحيى بن سعيد القطان، وأنَّ ذلك كان في سنة (١٩٧هـ) أي سنة وفاة سفيان، قال الذهبي متعقِّباً إيّاه: "أنا أستبعد صحّةَ هذا القول؛ فإنَّ القطان مات في صفر سنة ثمان وتسعين، بُعيد قدوم الحُجَّاج بقليل، فمن الذي أخبره باختلاط سفيان؟، ومتى لَحِقَ يقول هذا القول؟!، فسفيان حجّةٌ مطلقاً بالإجماع من أرباب الصحاح"، كذا في تاريخ الإسلام وفيات (١٩١ - ٢٠٠هـ، ص: ١٩٩).

قال القاضي عياض: "قال أبو طالب المكي: كان مالك -رحمه الله- أبعدَ الناس من مذاهب المتكلّمين، وأشدَّهم بُغضاً للعراقيين، وألزَمَهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين، قال سفيان بن عيينة: سأل رجلٌ مالكاً فقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى يا أبا عبد الله؟، فسكت مالكٌ مليًّا حتى علاه الرحضاء، وما رأينا مالكاً وجد من شيء وجده من مقالته، وجعل الناس ينظرون ما يأمر به، ثمَّ سُرِّيَ عنه فقال: "الاستواء منه معلوم، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب، وإني لأظنُّك ضالاً، أخرجوه".

فناداه الرجل: يا أبا عبد الله، والله الذي لا إله إلاّ هو، لقد سألتُ عن هذه المسألة أهلَ البصرة والكوفة والعراق، فلم أجِد أحداً وُفِّق لما وُفِّقت له"[(١)].

٦- رواية محمد بن النعمان بن عبد السلام التيمي[(٢)].

قال أبو الشيخ الأنصاري في كتابه طبقات المحدّثين: حدّثنا عبد الرحمن بن الفيض[(٣)]، قال: ثنا هارون بن سليمان[(٤)]، قال: سمعت محمد بن النعمان بن

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢/٣٩)، ونقله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/١٠٧، ١٠٦).

(٢) أبو عبد الله التيمي الأصبهاني.

قال عنه أبو الشيخ الأنصاري: "محدّث ابن محدّث ابن محدّث، توفي سنة أربع وأربعين ومائتين، يحدّث عن وكيع وابن عيينة وحفص بن غياث وأبي بكر بن عياش وغيرهم، أحد الورعين، قليل الحديث، لم يحدّث إلاّ بالقليل"، طبقات المحدّثين بأصبهان (٢/٢١١).

وقال عنه الذهبي: "شيخ أصبهان، وابن شيخها، وأبو شيخها عبد الله"، تاريخ الإسلام وفيات (٢٤١ - ٢٥٠) (ص: ٤٧٥).

(٣) هو عبد الرحمن بن الفيض بن سنده بن ظهر أبو الأسود، أحد الثقات الأصبهانيين، تاريخ الإسلام وفيات (٣٢١ - ٣٣٠) (ص: ٨٤).

(٤) هو هارون بن سليمان الخزار الأصبهاني، أحد الثقات، توفي سنة خمس، وقيل: ثلاث وستين ومائتين، أخبار أصبهان لأبي نعيم (٢/٣٣٦).

عبدالسلام يقول: "أتى رجل مالكَ بنَ أنس فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، قال: فأطرق، وجعل يعرق، وجعلنا ننتظر ما يأمر به، فرفع رأسه، فقال: "الاستواء منه غير مجهول، والكيف منه غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلاّ ضالاًّ، أخرجوه من داري"[(١)]، وإسناده جيّد.

٧- رواية عبد الله بن نافع[(٢)].

قال الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن[(٣)]، قال: حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك[(٤)]، قال: حدّثنا

---

(١) طبقات المحدّثين بأصبهان (٢/٢١٤).

(٢) روى عن مالك رجلان بهذا الاسم:

أحدهما: عبد الله بن نافع الصائغ (ت٢٠٦هـ).

والثاني: عبد الله بن نافع حفيد ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوّام، ولذلك يُقال له: الزبيري، كما يُعرف بعبد الله بن نافع الصغير (ت٢١٦هـ).

ولم يتضح لي من خلال رواية ابن عبد البر هذه أيّهما المراد، وقد قال الذهبي في السير (١٠/٣٧٢): "وكثيراً ما تختلط روايتهم عند الفقهاء حتى لا علم عند أكثرهم بأنّهما رجلان"، ونقل قبل ذلك عن ترتيب المدارك للقاضي عياض أنَّ سحنوناً كان يرى وجوب بيانهما، وإن كانا ثقتين إمامين حتى لا تختلط روايتهما.

قال: "فإنَّ الصائغ أكبر وأقدم وأثبت في مالك لطول صحبته له".

وقد قال الحافظ ابن حجر في التقريب في الصائغ: "ثقة صحيح الكتاب في حفظه لين"، وقال في الزبيري: "صدوق".

فليس في الأمر كبير إشكال؛ إذ حديث كل منهما لا ينزل عن درجة الحسن.

(٣) عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، أبو محمد يعرف بابن الزيات، توفي سنة (٣٩٠هـ).

انظر: جذوة المقتبس للحميدي (ص: ٢٥٢)، وبغية الملتمس للضبي (ص: ٣٣٢)، وفهرست ابن خير (ص: ١٠٤، ١٠٢)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (ص: ١٥١١).

(٤) أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك بن شبيب البغدادي، أبو بكر القطيعي، راوي مسند أحمد، قال فيه الدارقطني: "ثقة زاهد قديم"، وتُكلِّم فيه بأخرة، توفي سنة (٣٦٨هـ).

انظر: السير للذهبي (١٦/٢١٢ - ٢١٣)، والمنهج الأحمد للعليمي (٢/٧٥ - ٥٨).

عبد الله بن أحمد بن حنبل[(١)]، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثنا سريج بن النعمان[(٢)]، قال: حدّثنا عبد الله بن نافع، قال: قال مالك بن أنس: "الله عز وجل في السماء وعلمه في كلِّ مكان، لا يخلو منه مكان، قال: وقيل لمالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، فقال مالك -رحمه الله-: استواؤه معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء"[(٣)].

٨- رواية أيوب بن صالح المخزومي[(٤)].

قال الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-: وأخبرنا محمد بن عبد الملك[(٥)]، قال:

---

(١) عبد الله بن إمام السنة أحمد بن حنبل.
قال فيه الذهبي في السير (٥١٦/١٣): "الإمام الحافظ الناقد، محدّث بغداد أبو عبد الرحمن، ابن شيخ العصر أبي عبد الله ...".
وقال الخطيب في تاريخه (٣٧٥/٩): "وكان ثقة ثبتاً فهماً"، توفي سنة (٢٩٠هـ).

(٢) سريج بن النعمان بن مروان الجوهري اللؤلؤي، أبو الحسين، ويُقال أبو الحسن البغدادي.
وثّقه يحيى بن معين، والعجلي، وأبو داود، وغيرهم.
وقال فيه ابن حجر: "ثقة يهم قليلاً"، كذا في التقريب، توفي سنة (٢١٧هـ).
انظر: تهذيب الكمال للمزي (٢١٨/١٠).

(٣) التمهيد (١٣٨/٧). والمراد بقوله: "الاستواء معقول" أي: معقول المعنى كما في الروايات الأخرى، وكما تفيده الجملة التي بعده، ألاَ وهي قوله: "وكيفيته مجهولة".

(٤) أيوب بن صالح بن سلمة الحراني المخزومي أبو سليمان المدني، سكن الرملة، وروى عن مالك الموطأ، ضعّفه ابن معين، وقال فيه ابن عدي: "روى عن مالك ما لم يتابعه عليه أحد"، لسان الميزان (٤٨٣/١)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (١٣١/١)، المغني في الضعفاء للذهبي (١٥٥/١).

(٥) محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمي القرطبي الحدّاد، أبو عبد الله.
قال فيه ابن الفرضي: "كان رجلاً صالحاً أحد العدول، وكتب الناس عنه، وعلت سنُّه فاضطرب في أشياء قُرئت عليه وليست ممّا سمع، ولا كان من أهل الضبط"، توفي سنة (٣٩٢هـ).
انظر: تاريخ العلماء لابن الفرضي (١١٠/٢)، والسير للذهبي (٥٦/١٧)، ولسان الميزان لابن

حدّثنا عبد الله بن يونس[(١)]، قال: حدّثنا بقي بن مخلد[(٢)]، قال: حدّثنا بكّار بن عبد الله القرشي[(٣)] ... وساق روايته للأثر المتقدّمة من طريق مهدي بن جعفر، ثم قال: قال بقي: وحدّثنا أيوب بن صلاح[(٤)] المخزومي بالرملة، قال: "كنا عند مالك إذ جاءه عراقي فقال له: يا أبا عبد الله مسألة أريد أن أسألك عنها؟، فطأطأ مالك رأسه فقال له: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، قال: سألتَ عن غير مجهول، وتكلّمت في غير معقول، إنّك امرؤ سوء، أخرِجوه، فأخذوا بضبعيه فأخرجوه"[(٥)].

٩- رواية بشّار الخفّاف الشيباني[(٦)].

حجر (٥/٢٦٧)، وقد تحرّف في مطبوعة اللسان إلى (محمد بن عبد الملك بن صفوان!).

(١) عبد الله بن يونس بن محمد بن عبيد الله المرادي أبو محمد، يُعرف بالقَبْري، من قبْرة الأندلس. هو صاحب بقي بن مخلد، سمع منه مصنَّف ابن أبي شيبة، توفي سنة (٣٣٠هـ).
انظر: تاريخ العلماء لابن الفرضي (١/٢٦٥)، وتوضيح المشتبه لابن ناصر الدين (٧/١٧٨).

(٢) بقي بن مَخلَد بن يزيد، أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي.
قال ابن الفرضي: "كان بقيٌّ ورِعاً فاضلاً زاهداً".
وقال الذهبي: "الإمام القدوة شيخ الإسلام ... الحافظ، صاحب التفسير والمسند اللذين لا نظير لهما"، توفي سنة (٢٧٦هـ).
انظر: تاريخ العلماء (١/١٠٧ - ١٠٩)، وسير أعلام النبلاء (١٣/٢٨٥).

(٣) بكّار بن عبد الله بن بسر الدمشقي القرشي.
قال فيه أبو حاتم في الجرح والتعديل (٢/٤١٠): "هو صدوق".

(٤) كذا في التمهيد، وهو خطأ.

(٥) التمهيد (٧/١٥١).

(٦) هو بشار بن موسى الخفّاف الشيباني أبو عثمان، روى عن مالك، وروى عنه عليّ بن سعيد النسوي، تكلّم فيه البخاري ويحيى بن معين، وأبو داود، والنسائي وعلي بن المديني، وغيرهم.
قال أحمد بن يحيى بن الجارود: سمعت علياً [يعني: ابن المديني] وذكر بشار بن موسى [الخفاف] فقال: ما كان ببغداد أصلب منه في السنة، وما أحسن رأي أبي عبد الله فيه، يعني أحمد بن حنبل،

قال ابن ماجه في التفسير: حدّثنا علي بن سعيد[(١)]، قال: حدّثنا بشّار الخفّاف أو غيره، قال: "كنت عند مالك بن أنس فأتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، كيف استوى؟، وذكره، كذا في تهذيب الكمال[(٢)].

وقال أبو المظفر السمعاني في تفسيره: "وقد رووا عن جعفر بن عبد الله وبشر الخفّاف[(٣)] قالا: كنّا عند مالك بن أنس فأتاه رجل فسأله عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، كيف استوى؟ فأطرق مالك مليًّا، وعلاه الرحضاء، ثم قال: "الكيف غير معقول، الاستواء مجهول[(٤)]، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنّك إلاّ ضالاًّ، ثم أمر به فأخرج"[(٥)]، من غير شك في رواية بشار الخفاف.

١٠- رواية سحنون[(٦)] عن بعض أصحاب مالك.

انظر: تهذيب الكمال (٤/٨٥ - ٩٠).

(١) هو علي بن سعيد النسوي أو النسائي، قال في التقريب: "صدوق صاحب حديث".

(٢) (٤/٩٠)، و(٢٠/٤٤٩).

(٣) كذا، ولعله مصحّف من(بشار).

(٤) كذا في المصدر المنقول عن والصواب"الاستواء غير مجهول".

(٥) تفسير السمعاني (٣/٣٢٠).

(٦) سحنون: هو الإمام العلاّمة فقيه المغرب، أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان التنوخي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة.

سمع من ابن عيينة، ولازم تلاميذ مالك: ابن وهب وابن القاسم وأشهب، حتى صار من نظرائهم، توفي سنة (٢٤٠هـ).

انظر: السير للذهبي (١٢/٦٣ - ٦٩).

قال ابن رشد في البيان والتحصيل: قال سحنون: أخبرني بعض أصحاب مالك أنَّه كان قاعداً عند مالك فأتاه رجل فقال: "يا أبا عبد الله مسألة؟، فسكت عنه ثم قال له: مسألة؟، فسكت عنه، ثم عاد فرفع إليه مالك رأسَه كالمجيب له، فقال السائل: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، كيف كان استواؤه؟ فطأطأ مالك رأسَه ساعة ثم رفعه، فقال: "سألتَ عن غير مجهول، وتكلّمتَ في غير معقول، ولا أراك إلاَّ امرأ سوء، أخرِجوه"[1].

فهذا جملة ما وقفت عليه من طرق لهذا الأثر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس -رحمه الله-، وبعض طرقه صحيحة ثابتة، وبعضها لا يخلو من مقال، إلا أنّها يشدّ بعضها بعضاً، ويشهد بعضها لبعض، والأثر ثابت بلا ريب بمجموع هذه الطرق، ولذا اعتمده أهل العلم، وصححه غير واحد، وقد تقدّمت الإشارة إلى بعض من صحّحه، ولا يُعرف أحدٌ منهم ضعّفه، وسيأتي في مبحث لاحق نقل كلام أهل العلم في التنويه به، والثناء عليه، وتلقّيهم له بالقبول والاستحسان.

---

(١) البيان والتحصيل (١٦/٣٦٧ - ٣٦٨).

المبحث الثاني

ذكر الشواهد على هذا الأثر من الكتاب والسنة

لقد تضمّن هذا الأثر العظيم جملاً أربعاً وهي:

١- الاستواء غير مجهول.

٢- والكيف غير معقول.

٣- والإيمان به واجب.

٤- والسؤال عنه بدعة.

وهي جمل صحيحة المعنى عظيمة الدلالة، لكلِّ جملة منها شواهدها الكثيرة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسيمرُّ معنا في ثنايا هذا المبحث العديد من النصوص التي تشهد لصحة كلِّ جملة من هذه الجمل، ولنقف هنا مع كلِّ جملة من هذه الجمل لذكر بعض الشواهد عليها من القرآن والسنة.

أوّلاً: أما قوله: (الاستواء غير مجهول) فالمراد به أنَّ الاستواء معلوم المعنى؛ لأنَّ الله قد خاطبنا في القرآن الكريم بكلام عربيٍّ مبين، قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾[4]،

---

(١) سورة الشعراء، الآية: (١٩٥).

(٢) سورة يوسف، الآية: (٢).

(٣) سورة فصّلت، الآية: (٣).

(٤) سورة الأحقاف، الآية: (١٢).

وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[(١)]، فهو -سبحانه- أنزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين؛ "لأنَّ لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات"[(٢)]، وليفهم المخاطَبون به كلام الله وليعقلوا خطابه ويحيطوا بمعانيه كما قال -سبحانه-: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾[(٣)] فمن لطف الله بخلقه أنه يرسل إليهم الرسل منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[(٤)]، وفي المسند من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لم يبعث الله عز وجل نبيًّا إلاّ بلغة قومه"[(٥)].

والقرآن الكريم شأنه كذلك، فهو بلسان عربيٍّ مبين، يفهمه المخاطَبون به، فمدلولاته ظاهرة، ومعانيه واضحة، وقد فهمه المخاطَبون به وعقلوا معناه، ولا سيما في أشرف مقاصده وأعظم أبوابه وهو توحيد الله عز وجل، "ومن المعلوم أنَّ الصحابة سمعوا القرآن والسنة من النبي ﷺ، وقرأوه وأقرأوه مَن بعدهم، وتكلّم العلماء في معانيه وتفسيره، ومعاني الحديث وتفسيره، وما يتعلّق بالأحكام وما لا يتعلّق بها، وهم مجمعون على غالب معاني القرآن والحديث، ولم يتنازعوا إلاّ في

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٩٤).

(٣) سورة فصّلت، الآية: (٤٤).

(٤) سورة إبراهيم، الآية: (٤).

(٥) المسند (٥/١٥٨). قال الهيثمي في المجمع (٧/٤٣): "رجاله رجال الصحيح، إلاّ أنَّ مجاهداً لم يسمع من أبي ذر"، لكن يشهد له القرآن.

قليل من كثير، لا سيما القرون الأولى، فإنَّ النزاع بينهم كان قليلاً جدًّا بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه، وكان النزاع في التابعين أكثر، وكلّما تأخّر الزمان كثر النزاع وحدث من الاختلاف بين المتأخرين ما لم يكن في الذين قبلهم، فإنَّ القرآن تضمّن الأمر بأوامر ظاهرة وباطنة، والنهي عن منَاءٍ ظاهرة وباطنة، ورسول الله ﷺ بيَّن مقادير الصلوات ومواقيتها وصفاتها، والزكوات ونصبها ومقاديرها، وكذلك سائر العبادات، وعامة هذه الأمور نقلتها الأمة نقلاً عاماً متواتراً خلَفاً عن سلف، وحصل العلم الضروري للخلق بذلك كما حصل لهم العلم الضروري بأنّه بلغهم ألفاظها، وأنّه قاتل المشركين وأهل الكتاب، وأنّه بُعث بمكة وهاجر إلى المدينة، وأنّه دعا الأمة إلى أن شهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وأخبرهم أنَّ هذا القرآن كلام الله الذي تكلّم به لا كلامه ولا كلام مخلوق، وأنّه ليس قول البشر، وأنّه علمهم أنَّ ربه فوق سمواته على عرشه، وأنَّ المَلَك نزل من عنده إليه، ثم يعرج إلى ربِّه، وأنَّ ربّه يسمع ويرى ويتكلّم وينادي ويحب ويبغض ويرضى ويغضب، وأنَّ له يدَيْن ووجهاً، وأنّه يعلم السرَّ وأخفى، فلا يخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض، وأنّه يقيمهم من قبورهم أحياء بعدما مزّقهم البلى إلى دار النعيم أو إلى الجحيم"[١].

ثمَّ "إنَّ الله -سبحانه- وصف نفسه بأنّه بيّن لعباده غاية البيان، وأمر رسوله بالبيان، وأخبر أنّه أنزل عليه كتابه ليبيّن للناس، ولهذا قال الزهري: "مِن الله البيان، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم"[٢]، فهذا البيان الذي تكفّل به -سبحانه-، وأمر به رسوله، إما أن يكون المراد به بيان اللفظ وحده، أو المعنى وحده، أو اللفظ

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/٦٥٣ - ٦٥٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً (١٣/٥٠٣ - الفتح)، ووصله الحميدي في النوادر، والخطيب البغدادي وابن أبي عاصم في كتاب الأدب، كما في فتح الباري لابن حجر.

والمعنى جميعاً، ولا يجوز أن يكون المراد به بيان اللفظ دون المعنى، فإنَّ هذا لا فائدة فيه، ولا يحصل به مقصود الرسالة، وبيان المعنى وحده بدون دليله وهو اللفظ الدال عليه ممتنع، فعُلم قطعاً أنَّ المراد بيان اللفظ والمعنى.

والله تعالى أنزل كتابه -ألفاظه ومعانيه-، وأرسل رسوله ليبيّن اللفظ والمعنى، فكما أنّا نقطع ونتيقّن أنّه بيَّن اللفظ، فكذلك نقطع ونتيقّن أنّه بيّن المعنى، بل كانت عنايته ببيان المعنى أشدّ من عنايته ببيان اللفظ، وهذا هو الذي ينبغي، فإنَّ المعنى هو المقصود، وأمَّا اللفظ فوسيلة إليه ودليل عليه، فكيف تكون عنايته بالوسيلة أهمّ من عنايته بالمقصود؟، وكيف نتيقّن بيانه للوسيلة ولا نتيقّن بيانه للمقصود؟، وهل هذا إلا من أبين المحال؟

فإنْ جاز عليه ألاّ يبيّن المراد من ألفاظ القرآن، جاز عليه ألاّ يبيّن بعض ألفاظه، فلو كان المراد منها خلاف حقائقها وظواهرها ومدلولاتها وقد كتمه عن الأمة، ولم يبيّنه لها كان ذلك قدحاً في رسالته وعِصمته، وفتحاً للزنادقة والملاحدة من الرافضة وإخوانهم بابَ كتمان بعض ما أنزل عليه، وهذا منافٍ للإيمان به وبرسالته"[1].

وقد أخبر الله -سبحانه وتعالى- أنَّه أكمل به الدِّين وأتمَّ به النعمة، وأمره أن يبلّغ البلاغ المبين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[2]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

"ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق وأرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، ونصبت عليه القبلة، وأسست عليه الملة، وهو باب الإيمان به ومعرفته

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/٧٣٧ - ٧٣٨).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٦٧).

ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ملتبساً مشتبهاً حقّه بباطله، لم يتكلّم فيه بما هو الحق، بل تكلّم بما ظاهره الباطل، والحق في إخراجه عن ظاهره، وكيف يكون أفضل الرسل وأجلّ الكتب غير وافٍ بتعريف ذلك على أتمّ الوجوه، مبيّن له بأكمل البيان، موضح له غاية الإيضاح، مع شدّة حاجة النفوس إلى معرفته، ومع كونه أفضل ما اكتسبته النفوس، وأجلّ ما حصلته القلوب، ومن أبين المحال أن يكون أفضل الرسل ﷺ قد علّم أمّته آداب البول، قبله وبعده ومعه، وآداب الوطء وآداب الطعام والشراب، ويترك أن يعلّمهم ما يقولونه بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف، والوصول إليه أجلّ المطالب، وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل، ويخبرهم فيه بما ظاهره باطل وإلحاد، ويحيلهم في فهم ما أخبرهم به على مستكرهات التأويلات، ومستنكرات المجازات، ثم يحيلهم في معرفة الحق على ما تحكم به عقولهم وتوجبه آراؤهم، هذا وهو القائل: "تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلاّ هالك"[١]، وهو القائل: "ما بعث الله من نبي إلاّ كان حقًّا عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شرّ ما يعلمه لهم"[٢]، وقال أبو ذر: "لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلّب جناحيه في السماء إلا ذكّرنا منه علماً"[٣]، وقال عمر بن الخطاب: "قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه"، ذكره البخاري...[٤].

---

(١) رواه ابن ماجه (١/١٥)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم: ٤٩، ٤٨). وقال الألباني: "حديث صحيح".

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٣/١٤٧٢).

(٣) رواه الإمام أحمد (٥/١٦٢، ١٥٣).

(٤) (٦/٢٨٦ - الفتح).

فكيف يتوهّم مَن لله ولرسوله ولدينه في قلبه وَقار أن يكون رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم ولم يتكلّم فيه بالصواب، بل تكلّم بما ظاهره خلاف الصواب؟، بل لا يتمّ الإيمان إلا باعتقاد أنَّ بيان ذلك قد وقع من الرسول على أتمِّ الوجوه، وأوضحه غاية الإيضاح، ولم يَدَع بعده لقائل مقالاً ولا لمتأوّل تأويلاً، ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأعلمها وأسبقها إلى كلِّ فضل وهدى ومعرفة قصروا في هذا الباب فجفوا عنه أو تجاوزوا فغلوا فيه"[1].

ثمّ إنَّ الله -سبحانه وتعالى- قد حثَّ عباده على تدبّر القرآن وتعقّل آياته وفهم معانيه في مواطن عديدة في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[6]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "فحضَّ على تدبّره وفقهه وعقله والتذكّر به والتفكر فيه، ولم يستثن من ذلك شيئاً؛ بل نصوص متعدّدة تصرّح

---

(١) الصواعق المرسلة (١/١٥٧ - ١٦٠)، وانظر: أول الرسالة الحموية لابن تيمية (ص: ٧).

(٢) سورة محمد، الآية: (٢٤).

(٣) سورة النساء، الآية: (٨٢).

(٤) سورة ص، الآية: (٢٩).

(٥) سورة الزمر، الآية: (٢٧).

(٦) سورة يوسف، الآية: (٢).

بالعموم فيه مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلاّ بتدبّره كلّه، وإلاّ فتدبّر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفه ما لم يتدبّر لما تدبّر.

وقال علي رضي الله عنه لما قيل له: هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً؟، فقال: "لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة"[1]. فأخبر أنَّ الفهم فيه مختلف في الأمة، والفهم أخصُّ من العلم والحكم، قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾[2]، وقال النبي ﷺ: "رُبَّ مبلّغ أوعى من سامع"[3]، وقال: "بلّغوا عني ولو آية"[4]، وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلّموا في جميع نصوص القرآن آيات الصفات وغيرها، وفسّروها بما يوافق دلالتها وبيانها، ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم مثل عبد الله ابن مسعود الذي كان يقول: "لو أعلم أعلمَ بكتاب الله مني تبلغه آباط الإبل لأتيته"[5]، وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات، ورواية لها عن النبي ﷺ، ومَن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا، وما في التابعين أجلّ من

---

(١) رواه البخاري (٦/١٦٧ - الفتح)، ومسلم (١/٨٧).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٧٩).

(٣) رواه البخاري (٣/٥٧٣ - ٥٧٤ - الفتح).

(٤) رواه البخاري (٦/٤٩٦ - الفتح).

(٥) رواه البخاري (٩/٤٧ - الفتح)، ومسلم (٤/١٩١٢ - ١٩١٣).

أصحاب هذين السيّدين، بل وثالثهما في عليّة التابعين من جنسهم أو قريب منهم، ومثلهما في جلالته جلالة أصحاب زيد بن ثابت ؛ لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس، ولو كان معاني هذه الآيات منفياً ومسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه.

ثم إنَّ الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنّهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنّه امتنع من تفسير آية، قال أبو عبدالرحمن السلمي: "حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنّهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل"[١]، وكذلك الأئمة كانوا إذا سُئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية كقول مالك ابن أنس لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، فقال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وكذلك ربيعة قبله، وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول، فليس في أهل السنة مَن ينكره ..."[٢].

فهذه هي طريقة أئمة السلف أهل السنة والجماعة في هذا الباب وفي جميع أبواب الدين، وقد لخّص الإمام ابن القيم -رحمه الله- طريقتهم هذه بقوله: "كان أئمة السلف وأتباعهم يذكرون الآيات في هذا الباب، ثم يُتبعونها بالأحاديث الموافقة لها، كما فعل البخاري ومَن قبله ومَن بعده من المصنفين في السنة، فإنَّ الإمام أحمد

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٤٦٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٧ - ٣٠٩).

وإسحاق بن راهويه وغيرهما يحتجون على صحة ما تضمّنته أحاديث النزول والرؤية والتكليم والوجه واليدين والإتيان والمجيء بما في القرآن، ويثبتون اتفاق دلالة القرآن والسنة عليها، وأنّهما من مشكاة واحدة، ولا ينكر ذلك مَن له أدنى معرفة وإيمان، وإنّما يحسن الاستدلال على معاني القرآن بما رواه الثقات عن الرسول ﷺ ورثة الأنبياء، ثم يتبعون ذلك بما قاله الصحابة والتابعون أئمة الهدى.

وهل يخفى على ذي عقل سليم أنَّ تفسير القرآن بهذه الطريق خير مما هو مأخوذ عن أئمة الضلال وشيوخ التجهّم والاعتزال كالمريسي والجبّائي والنظّام والعلاّف وأضرابهم من أهل التفرّق والاختلاف الذين أحدثوا في الإسلام ضلالات وبدعاً، وفرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، وتقطّعوا أمرهم بينهم كلُّ حزب بما لديهم فرحون.

فإذا لم يجز تفسير القرآن وإثبات ما دلّ عليه، وحصول العلم واليقين بسنن رسول الله ﷺ الصحيحة الثابتة، وكلام الصحابة وتابعيهم، أفيجوز أن يرجع في معاني القرآن إلى تحريفات جهم وشيعته، وتأويلات العلاّف والنظام والجبّائي والمرّيسي وعبد الجبار وأتباعهم من كلِّ أعمى أعجمي القلب واللسان، بعيد عن السنة والقرآن، مغمور عند أهل العلم والإيمان؟"[1].

ويمكن أن نلخِّص ما تقدّم في ستة وجوه ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، فيها أوضح دلالة على أن المعنى معلوم ومطلوب من العباد العلم به:

"أحدها: أنَّ العادة المطَّردة التي جبل الله عليها بني آدم توجب عنايتهم بالقرآن المنزّل عليهم لفظاً ومعنىً؛ بل أن يكون عنايتهم بالمعنى أوكد، فإنَّه قد عُلم أنّه مَن قرأ كتاباً في الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك، فإنَّه لا بدَّ أن يكون راغباً في فهمه، وتصوُّر معانيه، فكيف بمن قرؤوا كتاب الله تعالى المنزل إليهم، الذي

---

(١) مختصر الصواعق (ص: ٤٥٦).

به هداهم الله، وبه عرّفهم الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والرشاد والغي؟!.

فمن المعلوم أنَّ رغبتهم في فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات؛ بل إذا سمع المتعلّم من العالم حديثاً فإنَّه يرغب في فهمه، فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلّغ عنه؟!، بل ومن المعلوم أنَّ رغبة الرسول ﷺ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه، فإنَّ معرفة الحروف بدون المعاني لا تحصل المقصود؛ إذ اللفظ إنما يُراد للمعنى.

الوجه الثاني: إنَّ الله سبحانه وتعالى قد حضّهم على تدبّره وتعقّله واتباعه في غير موضع، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[4].

فإذا كان قد حضّ الكفار والمنافقين على تدبّره، علم أنَّ معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها، فكيف لا يكون ذلك ممكناً للمؤمنين، وهذا يبيّن أنَّ معانيه كانت معروفة بيّنة لهم.

الوجه الثالث: أنّه قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[6]، فبيّن أنّه أنزله عربيًّا؛

---

(١) سورة ص، الآية: (٢٩).

(٢) سورة محمد، الآية: (٢٤).

(٣) سورة المؤمنون، الآية: (٦٨).

(٤) سورة النساء، الآية: (٨٢).

(٥) سورة يوسف، الآية: (٢).

(٦) سورة الزخرف، الآية: (٣).

لأنْ يعقلوا، والعقل لا يكون إلاّ مع العلم بمعانيه.

الوجه الرابع: أنّه ذمّ من لا يفهمه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[2]، فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضاً لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمّهم الله تعالى به.

الوجه الخامس: أنّه ذمّ من لم يكن حظّه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[5]، وأمثال ذلك.

وهؤلاء المنافقون سمعوا صوت الرسول ﷺ ولم يفهموا، وقالوا: ماذا قال آنفا؟، أي: الساعة، وهذا كلام من لم يفقه قوله، فقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: (٤٦، ٤٥).

(٢) سورة النساء، الآية: (٧٨).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٧١).

(٤) سورة الفرقان، الآية: (٤٤).

(٥) سورة محمد، الآية: (١٦).

فمن جعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان غير عالمين بمعاني القرآن، جعلهم بمنزلة الكفار والمنافقين فيما ذمّهم الله تعالى عليه.

الوجه السادس: أنَّ الصحابة -رضي الله عنهم- فسّروا للتابعين القرآن، كما قال مجاهد: "عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أقف عند كلِّ آية وأسأله عنها"[(١)].

ولهذا قال سفيان الثوري: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به". وكان ابن مسعود يقول: "لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته"[(٢)]. وكلٌّ واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقل عنه من التفسير ما لا يحصيه إلا الله، والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها"[(٣)].

ثانياً: قوله: "والكيف غير معقول" فإنَّ العقول لا يمكن لها أن تدرك كيفية صفات الباري -سبحانه-، وقد نصّ الله على ذلك في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[(٤)].

قال الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: "فقوله: ﴿يُحِيطُونَ بِهِۦ﴾ فعل مضارع والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن كما قال ابن مالك في الخلاصة[(٥)]:

المصدر اسمُ ما سوى الزمان مِنْ ... مدلولي الفعل كأَمْنٍ مِنْ أَمِنْ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٢٧٩ - ٢٨٠) ومن طريقه الذهبي في السير (٤/٤٥٦ - ٤٥٧).

(٢) رواه البخاري (٩/٤٧ - الفتح)، ومسلم (٤/١٩١٢ - ١٩١٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/١٥٧ - ١٥٩).

(٤) سورة طه، الآية: (١١٠).

(٥) انظر: شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك (١/٥٥٧).

وقد حرّر علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية أنه ينحل عن مصدر وزمن ونسبة، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً، فـ"يحيطون" في مفهومها الإحاطة، فيتسلّط النفي على المصدر الكامن في الفعل فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري برب السموات والأرض، فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين، فلا يشكل عليكم بعد هذا صفة نزول ولا مجيء ولا صفة يد ولا أصابع ولا عجب ولا ضحك؛ لأنَّ هذه الصفات كلّها من باب واحد، فما وصف الله به نفسه منها فهو حق، وهو لائق بكماله وجلاله لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، وما وُصف به المخلوقون منها فهو حق مناسب لعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وهذا الكلام الكثير أوضحه الله في كلمتين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تنزيه بلا تعطيل، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إيمان بلا تمثيل، فيجب من أول الآية وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ التنزيه الكامل الذي ليس فيه تعطيل، ويلزم من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الإيمان بجميع الصفات الذي ليس فيه تمثيل، فأول الآية وآخرها إيمان، ومن عمل بالتنزيه الذي في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ والإيمان الذي في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقطع النظر عن إدراك الكنه والكيفية المنصوص في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ خرج سالماً"[(١)].

وروى أحمد وأبو داود وغيرهما عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ: "أنَّ النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات"[(٢)].

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي (ص: ٢٥، ٢٤).

(٢) المسند (٥/٤٣٥)، وأبو داود (رقم: ٣٦٥٦)، وقال الألباني - حفظه الله - في تخريج المصابيح (١/ ٨١): "وسنده ضعيف، فيه عبد الله بن سعد وهو مجهول - كما قال الذهبي -".

قال عيسى بن يونس: "والأغلوطات ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف"[١].

وقال الخطابي: "وفيه كراهية التعمّق فيما لا حاجة للإنسان إليه من المسائل ووجوب التوقّف عمّا لا علم للمسؤول به"[٢].

والله -تبارك وتعالى- لم يكلّف عباده ولم يأمرهم بالبحث عن كيفية صفاته ولا أراد منهم ذلك، بل لم يجعل لهم سبيلاً إليه، "ولهذا لمّا سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وكذلك قال ربيعة شيخ مالك قبله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان.

فبيّن أنَّ الاستواء معلوم، وأنَّ كيفية ذلك مجهول، ومثل هذا يوجد كثيراً في كلام السلف والأئمة، ينفون علم العباد بكيفية صفات الله، وأنّه لا يعلم كيف الله إلاَّ الله، فلا يعلم ما هو إلاَّ هو، وقد قال النبي ﷺ: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"، وهذا في صحيح مسلم وغيره[٣]، وقال في الحديث الآخر: "اللّهم إني أسألك بكلّ اسم هو لك سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك"، وهذا الحديث في المسند وصحيح أبي حاتم[٤]، وقد أخبر فيه أنَّ لله من الأسماء ما استأثر به في علم

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (١/ ٤٠١).

(٢) معالم السنن (٥/ ٢٥٠).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٣٥٢).

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٩١)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): "رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ... ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير الجهني، وقد وثّقه ابن حبان".

الغيب عنده"[١].

بل إنَّ المخلوقَ عاجزٌ عن إدراك كنه كثير من المخلوقات وكيفيتها، فلأن يكون عن إدراك كنه صفات الباري وكيفيتها أعجز من باب أولى، قال رُسته: سمعتُ ابن مهدي يقول لفتى من ولد الأمير جعفر بن سليمان: "بلغني أنَّك تتكلّم في الرب، وتصفه وتشبهه. قال: نعم، نظرنا فلم نر من خلق الله شيئاً أحسن من الإنسان، فأخذ يتكلّم في الصفة، والقامة، فقال له: رُويدك يا بنيّ حتى نتكلّم أول شيء في المخلوق، فإن عجزنا عنه فنحن عن الخالق أعجز، أخبرني عمّا حدّثني شعبة، عن الشيباني، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[٢] قال: "رأى جبريل له ستمائة جناح"[٣]، فبقي الغلام ينظر، فقال: أنا أُهوِّن عليك صِفْ لي خلقاً له ثلاثة أجنحة، وركّب الجناح الثالث منه موضعاً حتى أعلم، قال: يا أبا سعيد عجزنا عن صفة المخلوق، فأُشهدك أني قد عجزتُ ورجعتُ"[٤].

وقال أبو يحيى زكريا الساجي: حدّثنا المزني: قال: قلت: "إن كان أحدٌ يخرجُ ما في ضميري، وما تعلّقَ به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصِرتُ إليه وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أنَّ أحداً لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟، فغضب، ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم، قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون، أبلَغك أنَّ رسول

---

(١) مجموع الفتاوى (٥٨/٣).

(٢) سورة النجم، الآية: (١٨).

(٣) رواه البخاري (٣١٣/٦ - الفتح)، ومسلم (١٥٨/١) من طريق زر بن حُبيش، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) رواه اللالكائي في الاعتقاد (٥٣٠/٣)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٩٧/٩، ١٩٦)، واللفظ له.

الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟، قلت: لا، قال: هل تكلّم فيه الصحابة؟، قلت: لا، قال: تدري كم نجماً في السماء؟، قلت: لا، قال: فكوكبٌ منها تعرف جنسَه، طلوعَه، أفولَه، ممّ خُلق؟، قلت: لا، قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لستَ تعرفه، تتكلّم في علم خالقه؟!، ثم سألني عن مسألة في الوضوء، فأخطأتُ فيها، ففرّعها على أربعة أوجه، فلم أُصب في شيء منه، فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرّات، تدعُ علمه، وتتكلّف علمَ الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك، فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية[1]، فاستدِلَّ بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلّف علمَ ما لم يبلغه عقلك، قال: فتبتُ"[2].

وقال القاضي أبو يعلى في كتابه إبطال التأويلات: "والله إنّا لعاجزون كالّون حائرون باهتون في حدّ الروح التي فينا، وكيف تعرج كلَّ ليلة إذا توفّاها بارئها، وكيف يرسلها؟، وكيف تستقلّ بعد الموت؟، وكيف حياة الشهيد المرزوق عند ربّه بعد قتله؟، وكيف حياة النبيين الآن؟، وكيف شاهد النبي ﷺ أخاه موسى يصلي في قبره قائماً، ثم رآه في السماء السادسة وحاوره، وأشار عليه بمراجعة رب العالمين، وطلب التخفيف منه على أمته؟، وكيف ناظر موسى أباه آدم، وحجّه آدم بالقدر السابق، وبأنَّ اللّوم بعد التوبة وقبولها لا فائدة فيه؟، وكذلك نعجز عن وصف هيأتنا في الجنة، ووصف الحور العين، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الملائكة وذواتهم وكيفياتها؟، وأنّ بعضهم يمكنه أن يلتقم الدنيا في لقمة مع رونقهم وحسنهم وصفاء جوهرهم النوراني، فالله أعلى وأعظم، وله المثل الأعلى والكمال المطلق، ولا مثل له أصلا ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾"[3].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: (١٦٣، ١٦٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/٣١، ٣٢).

(٣) نقله الذهبي، انظر: مختصر العلو (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

وممّا يعين المسلم على قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الباري -سبحانه-، اعتقاده وإيمانه بأنَّ الله أكبر من كلِّ شيء، فإذا اعتقد المسلم وآمن بأنّ الله -سبحانه وتعالى- أكبر من كلِّ شيء، وأنّ كلَّ شيء مهما كبر يصغر عند كبرياء الله وعظمته، علمَ من خلال ذلك علم اليقين أن كبرياءَ الربِّ وعظمتَه وجلالَه وجمالَه وسائرَ أوصافه ونعوته أمرٌ لا يمكن أن تحيط به العقول أو تتصوّره الأفهام أو تدركه الأبصار والأفكار، فالله أعظم وأعظم من ذلك، بل إنّ العقولَ والأفهامَ عاجزةٌ عن أن تدركَ كثيراً من مخلوقات الرب -تبارك وتعالى-، فكيف بالرب -سبحانه-.

ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: "بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كلِّ سماء وسَمَاءٍ خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسيِّ خمسمائة عام، وبين الكرسيِّ والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم"[1].

وروي عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما السموات السبع في الكرسي إلاّ كدراهم سبعة أُلقيت في تُرس"[2].

وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما الكرسي في العرش

---

(١) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (ص: ٢٦، ٢٧)، والطبراني في الكبير (٢٢٨/٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٦٨٩/٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٩٠/٢)، وغيرهم.

قال الهيثمي في المجمع (٨٦/١): "رجاله رجال الصحيح"، وصححه الذهبي في العلو (ص: ١٠٣ - مختصره)، وابن القيم في اجتماع الجيوش (ص: ١٠٠).

وقال الألباني - حفظه الله - في العلو: "وسندهم جيّد".

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/٣)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف، وزيد تابعي، فهو مرسل.

إلاّ كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض"[١].

وليتأمّل المسلم في عظم السماء بالنسبة إلى الأرض، وعظم الكرسيّ بالنسبة إلى السماء، وعِظم العرش بالنسبة إلى الكرسيّ، فإنّ العقولَ عاجزةٌ عن أن تدرك كمال هذه الأشياء أو أن تحيط بكُنْهِها وكيفيتها، فكيف بالأمر إذاً في الخالق -سبحانه-، فهو أكبر وأجلُّ من أن تعرف العقولُ كُنْهَ صفاته أو تدرك الأفهامُ كبرياءَه وعظمتَه، ولهذا جاءت السنةُ بالنهي عن التفكّر في الله؛ لأنّ الأفكار والعقول لا تدرك كنه صفاته، فالله أكبر من ذلك، قال ﷺ: "تفكّروا في آلاء الله، ولا تفكّروا في الله عز وجل"[٢].

والتفكّرُ المأمور به هنا كما يبيّن ابن القيّم -رحمه الله- هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة[٣]، وهذا يتضح بالمثال، فالمسلم إذا أحضر في قلبه كبر هذه المخلوقات من سموات وأرض وكرسي وعرش ونحو ذلك، ثم أحضر في قلبه عجزه عن إدراك هذه الأشياء والإحاطة بها حصل له بذلك معرفة ثالثة وهي عظمة وكبرياء خالق هذه الأشياء وعجز العقول عن أن تدرك صفاته أو تحيط بنعوته -سبحانه-، يقول -سبحانه-: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٦/١)، وأبو الشيخ في العظمة (٦٤٨/٢ - ٦٤٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٠٠/٢ - ٣٠١)، وغيرهما، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم: ١٠٩) بمجموع طرقه.

(٢) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٥٢٥/٣)، وأبو الشيخ في العظمة (٢١٠/٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإسناده ضعيف جدًّا، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن سلاَم، وأبي ذر، وابن عباس، وقد حسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم: ١٧٨٨) بمجموع طرقه.

(٣) مفتاح دار السعادة (ص: ١٨١).

فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[١]، فالله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

ثالثاً: وأمَّا قوله: "والإيمان به واجب" أي: الاستواء الذي وصف الرب به نفسه في كتابه، ووصفه به رسوله ﷺ في سنّته، وهكذا الشأن في جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة، يجب الإيمان بها وإمرارها كما جاءت دون تعرّض لها بردّ أو تحريف أو تكييف أو تمثيل أو غير ذلك، ولهذا ندب الله عباده وحثّهم ورغّبهم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم على تعلّم أسماء الرب وصفاته والإيمان بها ومعرفتها معرفة صحيحة سليمة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[٥]، وقال

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (١١١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (١١٠).

(٤) سورة الحشر، الآيات: (٢٢ - ٢٤).

(٥) سورة الطلاق، الآية: (١٢).

تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١) وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٤)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٥)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(٦)، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٧)، وقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(٨)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٩)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾(١٠)، وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١١)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فهذه الآيات وما في معناها تدلّ أوضح الدلالة على أهمية الإيمان بأسماء الرب -تبارك وتعالى- الحسنى، وصفاته العظيمة، وأنَّ ذلك من أصول الإيمان الراسخة، وأسسه العظيمة التي لا إيمان إلاّ بها، فمن جحدها أو جحد شيئاً منها فليس بمؤمن،

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٠٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٣١).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٣٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٣٥).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٤٤).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٦٧).

(٧) سورة المائدة، الآية: (٩٨).

(٨) سورة الأنفال، الآية: (٤٠).

(٩) سورة البقرة، الآية: (١٩٤).

(١٠) سورة البقرة، الآية: (٢٣٥).

(١١) سورة محمد، الآية: (١٩).

كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، قال ذلك -سبحانه- في شأن من ينكر اسمه الرحمن، فكيف بمن ينكر أسماءه جميعها أو صفاته كلّها؟!

وقال تعالى في شأن من شك في صفة واحدة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[1]، فهؤلاء حصل منهم شك في صفة العلم، فظنوا أنَّ الله لا يعلم كثيراً من أعمالهم، فترتّب على هذا الظنّ الفاسد والاعتقاد الباطل تردّيهم في مهاوي الباطل وأودية الضلال، فكيف إذاً بمن عنده شك في جميع الصفات أو غالبها؟!

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ الآية: "كان رجلان من قريش وخَتَنٌ لهما من ثقيف أو رجلان من ثقيف وخَتَنٌ لهما من قريش في بيت، فقال بعضهم: أترون أنَّ الله يسمع حديثنا؟، قال بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كلّه، فأنزلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾"[2].

هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: عن ابن مسعود قال: "اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيّان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، قليلٌ فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟، وقال الآخر: يسمع إن جهرنا

---

(١) سورة فصلت، الآيات: (٢٢ - ٢٤).

(٢) صحيح البخاري (٨/٥٦١ - الفتح)، ومسلم (٤/٢١٤١).

ولا يسمع إن أخفينا؟، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾"[1].

وقال -تعالى- في شأن من لم ينزّه الله عمّا نزّه عنه نفسه مما لا يليق بجلاله وكماله -سبحانه- من النقائص والعيوب: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[2] فهؤلاء غلطوا في صفة من صفات التنزيه تنزيه الله عن الولد فهو -سبحانه- الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٌ، وقد وصف الرب -سبحانه- غلطهم هذا بأنّه ﴿إِدًّا﴾ أي عظيماً بالغ العظمة والخطورة، تكاد السموات على اتّساعها أن تتفطّر منه، والأرض على ترامي أطرافها أن تنشقّ والجبال على قُوَّتها وصلابتها أن تخرَّ هداً، كلُّ ذلك بسبب تفوُّه هؤلاء بهذه المقالة الجائرة، المشتملة على هذا الغلط الفاحش في صفة من صفات الرب سبحانه، فكيف الشّأن بمن كثرت أغلاطهم في هذا الباب، وتنوَّع باطلهم فيه؟!

وروى البخاري ومسلم عن أمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنَّ النبي ﷺ بعث رجلاً على سريّة وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: "سلوه لأيِّ شيء يصنع ذلك؟"، فسألوه فقال: لأنّها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: "أخبروه أنَّ الله يحبُّه"[3].

---

(١) سورة فصلت، الآية: (٢٢).

(٢) سورة مريم، الآية: (٨٨ - ٩٢).

(٣) صحيح البخاري (١٣/٣٤٧ - الفتح)، وصحيح مسلم (١/٥٥٧).

وقد دلَّ هذا الحديث على عظم شأن الإيمان بصفات الرب ومحبّتها والحرص على تعلّمها، وأنَّ ذلك سببٌ عظيمٌ من أسباب دخول الجنة ونيل رضى الرب -سبحانه-.

وروى عبد الرزاق في مصنّفه عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنّه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك، فقال: "ما فَرَقُ هؤلاء؟، يجدون رقّة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه"[(١)].

وصفات الله الواردة في القرآن والسنة جميعها من المحكم، إلاّ أنَّ هذا الرجل لقلّة علمه وضعف تفريقه اشتبه عليه الأمر فبادر إلى الاستنكار، فأنكر عليه ابن عباس - رضي الله عنهما - ذلك وأخبر أنَّ هذا الاستنكار سبيل هلكةٍ.

والشاهد من جميع ما تقدّم أنَّ الإيمان بأسماء الرب وصفاته الواردة في كتابه وسنة نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم يجب الإيمان بها جميعها، والإيمان بها داخل في الإيمان بالله بل هو ركن من أركان الإيمان بالله؛ لأنَّ الإيمان بالله يقوم على أركان ثلاثة هي: الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته، والإيمان بوحدانيته في ألوهيته، والإيمان بوحدانيته في أسمائه وصفاته[(٢)].

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في مقدمة العقيدة الواسطية: "ومن الإيمان بالله الإيمانُ بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأنَّ الله -سبحانه- ﴿لَيْسَ

---

(١) المصنف (١١/٤٢٣)، وأورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد، وانظر شرحه في تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٧٨).

(٢) وقد أفردتُ في ذِكر هذه الأقسام وأدلّتها والردِّ على من أنكرها من غُلاة أهل الأهواء رسالة بعنوان: (القول السديد في الردِّ على من أنكر تقسيم التوحيد) وهي مطبوعة.

كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١]، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيِّفون ولا يمثِّلون صفاته بصفات خلقه، لأنه -سبحانه- لا سميّ له ولا كفء ولا ندّ له، ولا يقاس بخلقه -سبحانه وتعالى-، فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه، ثم رسله صادقون مصدَّقون بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]، فسبّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

وهو - سبحانه - قد جمع فيما وصف وسمّى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنَّه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين".

رابعاً: وأما قوله: "والسؤال عنه بدعة" فلأنَّ السؤال عنه والبحث فيه أمرٌ لم يشرع للعباد، بل دلّت النصوص على عدم إمكان ذلك، وأنَّه لا سبيل إلى العلم به.

ولهذا فإنَّه من خاض فيه وبحث عن علمه يكون قد قال على الله بلا علم، وقد قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

وهذا من أعظم المحرّمات، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٢) سورة الصافات، الآيات: (١٨٠ - ١٨٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٨٠).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٣٣).

وقفا ما ليس له به علم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١).

وتقدّم بعقله القاصر بين يدي الله ورسوله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

ثم إنّه قد ورد في القرآن والسنة النهي عن الأسئلة عن الأمور المغيبة، وعن الأمور التي عفا الله عنها فلم يوجبها ولم يحرّمها، وكذلك عن سؤال التعنُّت والأغلوطات، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(٣).

وقد ثبت في الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: "دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرةُ سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم"(٤).

قال الشيخ العلاّمة عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في شرح هذا الحديث: "ومما يدخل في هذا الحديث السؤال عن كيفية صفات الباري؛ فإنَّ الأمر في الصفات كلّها كما قال الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء على العرش؟، فقال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، فمن سأل عن كيفية علم الله، أو كيفية خلقه وتدبيره، قيل له: فكما أنَّ ذات الله -تعالى- لا تشبهها الذوات، فصفاته لا تشبهها الصفات، فالخلق يعرفون الله

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٣٦).

(٢) سورة الحجرات، الآية: (١).

(٣) سورة المائدة، الآية: (١٠١).

(٤) رواه البخاري (١٣/٢٥١ - الفتح)، ومسلم (٢/٩٧٥).

ويعرفون ما تعرّف لهم به من صفاته وأفعاله، وأما كيفية ذلك، فلا يعلم تأويله إلاّ الله"[1].

فهذه بعض الشواهد لقول الإمام مالك -رحمه الله- "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، والمقصود هنا هو الإشارة إلى بعض الشواهد فقط، وإلاّ فإنَّ استقصاء ذلك يطول.

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص: ٢١٩).

المبحث الثالث

ذكرُ نظائر هذا الأثر مما جاء عن السلف الصالح

إنَّ لقول الإمام مالك -رحمه الله- هذا نظائرَ كثيرةً جداً عند أئمّة السلف وأهل العلم، وسوف أتناول في هذا المبحث -إن شاء الله- ذكر بعض نظائره، لكن يحسن قبل ذلك الإشارةُ إلى أنَّ هذا اللفظ المنقول عن مالك والمشهور عنه -رحمه الله- قد سبقه إليه شيخُه ربيعةُ الرأي، ويُروى قبل ذلك عن أمِّ سلمة زوج النبي ﷺ لكن من وجه لا يثبت عنها -رضي الله عنها-.

روى اللالكائي في شرح الاعتقاد، والصابوني في عقيدة السلف، وابن قدامة في إثبات صفة العلوّ، والذهبي في العلوّ من طريق أبي كنانة محمد بن الأشرس الورّاق، حدّثنا أبو عمير الحنفي، عن قُرَّة بن خالد عن الحسن، عن أمِّه، عن أمِّ سلمة في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قالت: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر"[١].

قال شيخ الإسلام: "وقد رُوي هذا الجواب عن أمِّ سلمة -رضي الله عنها- موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه"[٢].

وقال الذهبي: "هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأي، ومالك الإمام، وأبي جعفر الترمذي، فأما عن أم سلمة فلا يصح؛ لأنَّ أبا كنانة ليس بثقة، وأبو عمير لا أعرفه"[٣].

---

(١) شرح الاعتقاد للالكائي(٣٩٧/٣)، عقيدة السلف للصابوني (ص:٣٧)، إثبات صفة العلوّ لابن قدامة (ص:١٥٨)، صفة العلوّ للذهبي (ص:٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦٥/٥).

(٣) العلوّ للذهبي (ص:٦٥).

وقال الذهبي في ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين عن ابن الأشرس: "له مناكير، ليس بشيء"[١].

أما أثرُ ربيعة الرأي فقد رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد وابن قدامة في العلوّ من طريق يحيى بن آدم عن ابن عيينة قال: سئل ربيعة عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق"[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "روى الخلال بإسناد كلهم ثقات عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن ..."فذكره"[٣].

ورواه الذهبي في العلوّ من طريق النجّاد قال: حدّثنا معاذ بن المثنى حدّثني محمد ابن بشر حدّثنا سفيان [وهو الثوري] قال: "كنت عند ربيعة بن أبي عبدالرحمن ..." فذكره"[٤].

قال الألباني: "وهو صحيح"[٥].

ورواه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عبد الله بن صالح بن مسلم قال: سئل ربيعة الرأي عن قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، قال: "الكيف مجهول، والاستواء غير معقول، ويجب عليَّ وعليكم الإيمان بذلك كلّه"[٦].

---

(١) ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين (ص: ٥٨).

(٢) شرح الاعتقاد اللالكائي (٣/٣٩٨)، إثبات صفة العلوّ لابن قدامة (ص: ١٦٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٤٠).

(٤) العلوّ (ص: ٩٨).

(٥) مختصر العلوّ (ص: ٩٧).

(٦) الأسماء والصفات (٢/٣٠٧،٣٠٦).

هكذا لفظه: "الكيف مجهول، والاستواء غير معقول"، وهو مخالف للفظ السابق في الطريقين المتقدِّمين، وفي إسناده عبد الله بن صالح بن مسلم وهو أبو صالح المصري كاتب الليث، قال الحافظ في التقريب: "صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة".

ثم هو أيضاً لم يدرك ربيعة، فقد كان مولده سنة سبع وثلاثين ومائة كما في ترجمته في تهذيب الكمال[١]، وكانت وفاة ربيعة الرأي على الصحيح كما في التقريب لابن حجر[٢] سنة ست وثلاثين ومائة.

أورد هذه الآثار الثلاثة -أعني أثر أم سلمة وربيعة ومالك- ابنُ قدامة في كتابه (ذمّ التأويل) ثم قال: "وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى واللفظ، فمن المحتمل أن يكون ربيعة ومالك بلغهما قول أم سلمة فاقتديا بها وقالا مثل قولها لصحته وحسنه وكونه قول إحدى أزواج النبي ﷺ، ومن المحتمل أن يكون الله تعالى وفقهما للصواب وألهمهما من القول السديد مثل ما ألهمها"[٣].

وقد تقدّم أنَّ أثر أم سلمة -رضي الله عنها- لم يثبت عنها، فلم يبق إلاّ الاحتمال الثاني وهو أنَّ الله وفقهما للصواب وألهمهما هذا القول السديد، وربما أنَّ مالكاً -رحمه الله- سمعه من شيخه فاقتدى به، أو أنّه لم يسمعه منه ولكن وُفِّق إليه كما وُفِّق إليه شيخه.

وذكر الذهبي في كتابه الأربعين أنَّ هذا الأثر يروى أيضاً عن وهب بن منبِّه[٤]، لكن لم أقف عليه في مصادر التخريج.

---

(١) (١٥/١٠٧).

(٢) (ص: ٣٢٢).

(٣) ذم التأويل (ص: ٢٦).

(٤) الأربعين "ص: ٨٠ ضمن مجموع الرسائل الست له".

ويشبه تماماً قولَ ربيعة ومالك هذا قولُ أبي جعفر الترمذي (ت٢٩٥هـ) -رحمه الله- عندما سُئل عن صفة النزول.

قال الخطيب البغدادي: حدّثني الحسن بن أبي طالب قال: نبّأنا أبو الحسن منصور بن محمد بن منصور القزاز قال: سمعت أبا الطيب أحمد بن عثمان السمسار والد أبي حفص بن شاهين يقول: حضرت عند أبي جعفر الترمذي فسأله سائل عن حديث النبي ﷺ: "إنَّ الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا ..."، فالنزول كيف يكون يبقى فوقه علوّ؟!، فقال أبو جعفر الترمذي: "النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"[(١)].

وأورده الذهبي في العلوّ، قال الألباني -حفظه الله-: "وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات..."[(٢)].

وعلّق الذهبيُّ على هذا الأثر بقوله: "صدق فقيهُ بغداد وعالِمُها في زمانه؛ إذ السؤال عن النزول ما هو؟ عيٌّ؛ لأنّه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة، وإلاّ فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عباراتٌ جليّةٌ واضحةٌ للسامع، فإذا اتّصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعةٌ للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر، وكان هذا الترمذي من بحور العلم ومن العباد الورعين. مات سنة خمس وتسعين ومائتين"[(٣)].

ويشبه هذا الأثر إلى حدٍّ ما ما أجاب به سهل بن عبد الله التستري (ت٢٨٣هـ) عندما سُئل عن القدر.

---

(١) تاريخ بغداد (١/٣٦٥).

(٢) مختصر العلوّ (ص: ٢٣٢).

(٣) مختصر العلوّ (ص: ٢٣١).

قال الحافظ اللالكائي: أخبرنا محمد بن إبراهيم النجيرمي، قال: ثنا أبو عبيد محمد بن عليّ بن حيدرة، قال: ثنا أبو هارون الأُبُلّي وكان ممن صحب سهل بن عبد الله، وكان رجلاً صالحاً، وكان يُقرئنا القرآن في المسجد الجامع، قال: سُئل سهل بن عبد الله عن القدر، فقال: "الإيمان بالقدر فرضٌ، والتكذيب به كفرٌ، والكلام فيه بدعةٌ، والسكوت عنه سنةٌ"[1].

ثم إنَّ لأهل العلم أقوالاً كثيرةً جداً مماثلة لقول الإمام مالك هذا، وتُؤدّي إلى مقصوده، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وهكذا سائر الأئمّة قولهم يوافق قول مالك ..."[2].

ومن أقوال السلف المماثلة لقول مالك ما يلي:

١ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "روى أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن الأوزاعي قال: سئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث فقالا: "أمرّوها كما جاءت"، وروى أيضاً عن الوليد بن مسلم قال: سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات، فقالوا: "أمرُّوها كما جاءت"، - وفي رواية قالوا: "أمرُّوها كما جاءت بلا كيف" -وقولهم- رضي الله عنهم-: "أمرّوها كما جاءت" ردٌّ على المعطّلة، وقولهم: "بلا كيف" ردٌّ على الممثّلة، والزهري ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم، والأربعة الباقون أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين، ومن طبقتهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وأمثالهما ...".

وأورد أثر مالك وربيعة ثم قال: "فقول ربيعة ومالك الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب" موافق لقول الباقين: "أمرُّوها كما جاءت

---

(١) شرح الاعتقاد (٤/٧١١).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٣٦٥).

بلا كيف"، فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرّد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول"، ولما قالوا: "أمرّوها كما جاءت بلا كيف"، فإنَّ الاستواء حينئذ لا يكون معلوماً، بل مجهولاً بمنزلة حروف المعجم، وأيضاً فإنَّه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، إنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أُثبتت الصفات.

وأيضاً فإنَّ من ينفي الصفات الخبرية أو الصفات مطلقاً لا يحتاج إلى أن يقول: "بلا كيف"، فمن قال: إنَّ الله ليس على العرش، لا يحتاج أن يقول: بلا كيف، فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا: بلا كيف.

وأيضاً فقولهم: "أمرّوها كما جاءت" يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظاً دالَّة على معاني، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال أمرّوا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد، أو: أمرّوا لفظها مع اعتقاد أنَّ الله لا يوصف بما دلّت عليه حقيقةً، وحينئذ فلا تكون قد أُمرَّت كما جاءت، ولا يقال حينئذٍ: "بلا كيف"، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول.

وروى الأثرم في السنة وأبو عبد الله بن بطة في الإبانة وأبو عمرو الطلمنكي وغيرهم بإسناد صحيح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون -وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة الذين هم: مالك بن أنس وابن الماجشون وابن أبي ذئب- وقد سُئل عما جحدت به الجهمية: "أما بعد فقد فهمتُ ما سألتَ فيما تتابعت الجهمية ومن خلفها في صفة الرب العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتدبر، وكلّت الألسن عن تفسير صفته، وانحصرت العقول دون معرفة قدرته، وردت عظمته العقول فلم تجد مساغاً فرجعت خاسئة وهي حسيرة، وإنما أُمروا بالنظر والتفكير، فيما خلق بالتقدير، وإنما يقال: "كيف" لمن لم يكن مرّة ثم كان، فأما

الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل، فإنه لا يعلم كيف هو إلاّ هو، وكيف يعرف قدر من لم يبدأ، ومن لا يموت ولا يبلى؟، وكيف يكون لصفته شيء منه حدٌّ أو منتهى يعرفه عارف، أو يحدُّ قدره واصف؟، على أنَّه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شيء أبين منه، الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه، لا تكاد تراه صغراً، يحول ويزول، ولا يُرى له سمع ولا بصر، لما يتقلّب به ويحتال من عقله أعضل بك وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين، وخالقهم، وسيِّد السادة، وربُّهم، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

اعرف -رحمك الله- غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها، إذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلّفك علم ما لم يصف؟!، هل تستدل بذلك على شيء من طاعته؟، أو تزجر به عن شيء من معصيته؟ ...".

إلى أن قال: "فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله ﷺ سميناه كما سماه، ولم نتكلّف منه صفة ما سواه، لا هذا ولا هذا، ولا نجحد ما وصف، ولا نتكلّف معرفة ما لم يصف ..."، إلى آخر كلامه -رحمه الله-[(١)].

٢- وقال إسماعيل بن علي الأبلي: سمعت سهل بن عبد الله بالبصرة سنة ثمانين ومئتين يقول: "العقل وحده لا يدل على قديم أزليّ فوق عرش محدث، نصبه الحق دلالة وعلَماً لنا لتهتدي القلوب به إليه ولا تتجاوزه، ولم يكلّف القلوبَ علم ماهية هُويّته، فلا كيف لاستوائه عليه، ولا يجوز أن يُقال: كيف الاستواء لمن أوجد الاستواء؟، وإنَّما على المؤمن الرضى والتسليم لقول النبي ﷺ: "إنَّه على عرشه"، وقال: إنَّما سُمي الزنديق زنديقاً؛ لأنَّه وَزَن دِقَّ الكلام بمخبول عقله وقياس هوى

---

(١) الحموية (ص: ٢٤- ٢٧).

طبعه، وترك الأثر والاقتداء بالسنة، وتأوّل القرآن بالهوى، فسبحان من لا تكيّفه الأوهام، في كلام نحو هذا"[١].

٣- وقال الإمام أبو حنيفة في كتابه الفقه الأكبر: "فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذِكر الوجه واليد والنفس فهو له صفاتٌ بلا كيف، ولا يُقال إنَّ يده قدرته أو نعمته؛ لأنَّ فيه إبطال الصفة، هو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفتُه بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف"[٢].

٤- وروى الأثرم في كتاب السنة حدّثنا إبراهيم بن الحارث يعني العبادي، حدّثني الليث بن يحيى، قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر صاحب الفضيل: سمعت الفضيل بن عياض يقول: "ليس لنا أن نتوهّم في الله كيف وكيف؛ لأنَّ الله وصف نفسه فأبلغ فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فلا صفة أبلغ مما وصف الله به نفسه، وكذا النزول والضحك والمباهاة والاطلاع، كما شاء أن ينزل، وكما شاء أن يباهي وكما شاء أن يطلع، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهّم كيف وكيف، وإذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب ينزل عن مكانه، فقل أنت: أنا أومن برب يفعل ما يشاء"[٣].

٥- وعن سلمويه بن عاصم قاضي هجر قال: "كتب بشر المريسي إلى منصور ابن عمار يسأله عن قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: كيف استوى؟،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/٣٣٢، ٣٣١)، وأورده الذهبي في العلو (ص: ٢٢٠- مختصره)، لكن بلفظ: "... لأنّه لا يجوز لمؤمن أن يقول: كيف الاستواء، لمن خلق الاستواء ..."، وفيه إشكالٌ ظاهرٌ، إلاّ إن أريد بالاستواء الثاني استواء المخلوق.

(٢) شرح الفقه الأكبر لملا علي القاري (ص٣٧، ٣٦).

(٣) ذكره ابن تيمية في درء التعارض (٢/٢٤، ٢٣)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ١٠٦، ١٠٥).

فكتب إليه: استواؤه غير محدود، والجواب فيه تكلّف، ومسألتك عن ذلك بدعة، والإيمان بجملة ذلك واجب، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾"[١].

٦- وسئل أبو علي الحسين بن الفضل البجلي عن الاستواء وقيل له: كيف استوى على عرشه؟، فقال: "أنا لا أعرف من أنباء الغيب إلاّ مقدار ما كُشف لنا، وقد أعلمنا جلّ ذكره أنّه استوى على عرشه ولم يخبرنا كيف استوى"[٢].

٧- وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي: "أما الكلام في الصفات، فإنَّ ما روي منها في السنن الصحاح، مذهبُ السلف إثباتُها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قومٌ فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، والقصدُ إنَّما هو سلوك الطريقة المتوسّطة بين الأمرين، ودينُ الله تعالى بين الغالي فيه والمقصِّر عنه، والأصلُ في هذا أنَّ الكلام في الصفات فرعُ الكلام في الذات، ويُحتذى في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلوماً أنَّ إثبات ربِّ العالمين إنّما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنَّما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: لله يدٌ وسمعٌ وبصرٌ، فإنَّما هي صفاتٌ أثبتها الله لنفسه، ولا نقول: إنَّ معنى اليد القدرة، ولا إنَّ معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنَّها جوارح، ولا نشبّهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارحُ وأدوات للفعل، ونقول: إنَّما وجب إثباتها؛ لأنَّ التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها لقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾"[٣].

---

(١) رواه الخطيب في تاريخه (١٣/٧٦، ٧٥)، وأورده الذهبي في السير (٩/٩٧)، وفي العلو (ص١٦١- مختصره)، وضعّف إسناده الألباني.

(٢) رواه الصابوني في عقيدة السلف (ص: ٤٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/٢٨٤).

٨- وقال أبو منصور معمر بن أحمد: "ولما رأيت غربة السنة، وكثرة الحوادث واتباع الأهواء أحببت أن أوصي أصحابي وسائر المسلمين بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتصوف من السلف المتقدّمين، والبقية من المتأخرين ... -فذكر أموراً- ثم قال: وأنَّ الله عز وجل استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، فالاستواء معقول، والكيف فيه مجهول، والإيمان به واجب، والإنكار له كفر، وأنَّه -جلّ جلاله- مستوٍ على عرشه بلا كيف، وأنَّه -جلَّ جلاله- بائنٌ من خلقه والخلق بائنون منه، فلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنَّه الفرد البائن من خلقه، الواحد الغني عن الخلق، علمه بكلِّ مكان، ولا يخلو من علمه مكان"[(١)].

٩- وقال ابن قتيبة: "وعدلُ القول في هذه الأخبار أن نؤمن بما صحّ منها بنقل الثقات لها، فنؤمن بالرؤية والتجلي، وأنَّه يعجب وينزل إلى السماء الدنيا، وأنَّه على العرش استوى وبالنفس واليدين من غير أن نقول في ذلك بكيفية أو بحدّ أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت، فنرجو أن نكون في ذلك القول والعقد على سبيل النجاة غداً -إن شاء الله تعالى-"[(٢)].

والآثار في هذا المعنى عن السلف مستفيضة، وممّا روي في هذا المعنى -لكن لم أقف له على إسناد- ما روي عن الشافعي أنَّه قال -لما سئل عن الاستواء-: "آمنت بلا تشبيه، وصدّقت بلا تمثيل، واتهمت نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض غاية الإمساك".

وعن أحمد أنَّه قال: "استوى كما ذكر لا كما يخطر للبشر"[(٣)]، والله أعلم.

---

(١) ذكره التيمي في الحجة (١/ ٢٣٢)، ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية كما في الفتاوى (٥/ ١٩١).

(٢) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة (ص: ٥٣).

(٣) أوردهما مرعي الكرمي في أقاويل الثقات (ص: ١٢١)، والسفاريني في لوامع الأنوار (١/ ٢٠٠).

ومن جميل ما قيل في هذا شعراً قول الناظم:

"على عرشه الرحمن سبحانه استوى ... كما أخبر القرآن والمصطفى روى
وذاك استواء لائق بجلاله ... وأبرأ من قولي له العرش قد حوى
فمن قال مثلَ الفلك كان استواؤه ... على جبل الجودي من شاهق هوى
ومن يتبع ما قد تشابه يبتغي ... به فتنة أو يبغِ تأويله غوى
فلم أقل: استولى ولست مكلّفاً ... بتأويله كلاًّ ولم أقل احتوى
ومن قال لي كيف استوى؟، لا أجيبه ... بشيء سوى أني أقول له: استوى"[1].

(١) انظر: الكواكب الدرية لابن مانع (ص:٢٨). وانظر: جلاء العينين، للألوسي (ص ٤٦٦– ٤٦٧) وقد نسبها لعصريه الشاعر الأديب عبدالباقي أفندي الفاروقي.

المبحث الرابع

ذكر كلام أهل العلم في التنويه بهذا الأثر وتأكيدهم على أهميته، وجعله قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات

لا ريب في صحة هذا الأثر وثبوته عن إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-، وحسنه وقوّة دلالته، وقد تلقّاه أهل العلم بالقبول، واستحسنوه واستجادوه، واعتبروه من أحسن جواب وأنبل جواب قيل في هذه المسألة، وجعلوه قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات تطبق في جميع الصفات، فيُقال في كلِّ صفة ما قاله الإمام مالك -رحمه الله- في صفة الاستواء، وقد سبق أن مرّ معنا في مبحث مستقلّ تخريج هذا الأثر وبيان ثبوته عن الإمام مالك -رحمه الله-.

وسأتناول في هذا المبحث أمرين:

١- ذكر بعض النقول عن أهل العلم في استحسانه والثناء عليه.

٢- ذكر بعض النقول عنهم في عدِّهم له قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات.

أولاً: أما كلام أهل العلم في استحسانه واستجادته وتلقيه بالقبول فكثير جدًّا، ولهذا لا يخلو في الغالب كتاب من كتب العقيدة لأهل السنة والجماعة من ذكر هذا الأثر والاستشهاد به والثناء عليه.

ومما جاء عن أهل العلم في الثناء على هذا الأثر واستحسانه ما يلي:

١- قال الإمام أبو سعيد الدارمي عقِب روايته لهذا الأثر في كتابه الرد على الجهمية: "وصدق مالك، لا يُعقل منه كيف، ولا يُجهل منه الاستواء، والقرآن ينطق ببعض ذلك في غير آية"[1].

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي (ص:٥٦).

٢- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقول مالك من أنبل جواب وقع في هذه المسألة وأشدّه استيعاباً؛ لأنَّ فيه نبذ التكييف وإثبات الاستواء المعقول، وقد ائتمَّ أهل العلم بقوله واستجادوه واستحسنوه"(١).

وقال أيضاً: "وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول، فليس في أهل السنة من ينكره"(٢).

وقال أيضاً: "فإنَّه قد رُوي من غير وجه أنَّ سائلاً سأل مالكاً عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟، فأطرق مالك حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا رجل سوء، ثم أمر به فأُخرج، ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك، وقد رُوي هذا الجواب عن أمِّ سلمة - رضي الله عنها - موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه، وهكذا سائر الأئمة قولهم يُوافق قول مالك في أنّا لا نعلم كيفية استوائه كما لا نعلم كيفية ذاته، ولكن نعلم المعنى الذي دلَّ عليه الخطاب، فنعلم معنى الاستواء، ولا نعلم كيفيته، وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفيته، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة، ولا نعلم كيفية ذلك، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك"(٣).

٣- وقال الذهبي -رحمه الله-: "هذا ثابت عن مالك، وتقدّم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة: أنَّ كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها،

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥٢٠)، شرح حديث النزول (ص: ٣٩١)، ومن المحتمل أن يكون من كلام أبي عمرو الطلمنكي.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٣٦٥).

وأنَّ استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنَّه كما يليق به، ولا نتعمّق ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنَّه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقيناً مع ذلك أنَّ الله -جلَّ جلاله- لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً"[١].

٤- وقال أبو المعالي الجويني في الرسالة النظامية في الأركان الإسلامية: (ومما استُحسن من كلام مالك أنَّه سُئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: كيف استوى؟، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فلتُجرَ آية الاستواء والمجيء وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٣]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[٤]، وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا"[٥].

٥- وقال الإمام البغوي في تفسيره: "فأمَّا أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكِلُ العلم فيه إلى الله عز وجل، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

---

(١) مختصر العلو (ص: ١٤٢، ١٤١).

(٢) سورة ص، الآية: (٧٥).

(٣) سورة الرحمن، الآية: (٢٧).

(٤) سورة القمر، الآية: (١٤).

(٥) العقيدة النظامية (ص: ٢٥)، ونقله ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/٢٤٧، ٢٤٦).

وإن كان أبو المعالي قد مال في رسالته هذه إلى تفويض المعاني، وهو آخر قوليه وظنَّ أنَّ ذلك هو مذهب السلف كمالك وغيره، انظر: درء التعارض لابن تيمية (٥/٢٤٩).

ٱسْتَوَىٰ﴾: كيف استوى؟، فأطرق رأسه مليًّا وعلاه الرَّحضاء ثم قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلاَّ ضالاًّ، ثم أمر به فأُخرج، وروي عن سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمِرُّها كما جاءت بلا كيف"[1].

٦- وقال ملا علي القاري: "ونعم ما قال الإمام مالك -رحمه الله- حيث سُئل عن ذلك الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وهذه طريقة السلف وهي أسلم، والله أعلم"[2].

ومع ذلك فقد قال بعض جُهّال المعاصرين بعد محاولة فاشلة لتضعيف هذا الأثر: "وعلى أيٍّ فالقضية تبقى رأياً من عالم غير ملزم للناس ولا قاطع للجدل والفهم، ولا محدد لفهم واحد، بل لكلٍّ متّسع فيما يرى"[3].

فالجهمي له متسع، والمعتزلي له متسع، والأشعري له متّسع، فالله وحده المستعان.

ثانياً: أما عدّ أهل العلم لهذا الأثر قاعدة من قواعد توحيد الأسماء والصفات فمن ذلك:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟، قيل له كما قال ربيعة ومالك وغيرهما -رضي الله عنهما-: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنّه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

---

(١) معالم التنزيل (٢/١٦٥).

(٢) شرح الفقه الأكبر (ص٣٨) وإن كان قد فهم منه تفويض المعنى على طريقة المؤوّلة.

(٣) انظر: هامش كتاب (رسائل محمد نسيب الرفاعي -رحمه الله-) بقلم: حسان عبدالمنان، طبع المكتب الإسلامي، الأولى، (١٤١٤هـ).

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربّنا إلى السماء الدنيا؟، قيل له: كيف هو؟، فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره، وتكليمه، واستوائه ونزوله، وأنت لا تعلم كيفية ذاته"؟![1].

وقال أيضاً: "ومن أوّل الاستواء بالاستلاء فقد أجاب بغير ما أجاب به مالك وسلك غير سبيله، وهذا الجواب من مالك -رحمه الله- في الاستواء شافٍ كافٍ في جميع الصفات مثل: النزول والمجيء، واليد، والوجه، وغيرها، فيقال في مثل النزول: النزول، معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهكذا يُقال في سائر الصفات؛ إذ هي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة"[2].

٢- وقال العلاّمة ابن القيم رحمه الله: "وهذا الجواب من مالك رضي الله عنه شافٍ، عامّ في جميع مسائل الصفات، فمن سأل عن قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[3] كيف يسمع ويرى؟، أجيب بهذا الجواب بعينه، فقيل له: السمع والبصر معلوم، والكيف غير معقول، وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضى، والرحمة، والضحك، وغير ذلك، فمعانيها كلها مفهومة، وأما كيفيتها فغير معقولة؛ إذ تعقُّل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟!.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٤).

(٣) سورة طه، الآية: (٤٦).

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل تثبتُ له الأسماء والصفات، وتنفِي عنه مشابهة المخلوقات.

فيكون إثباتُك منزَّهاً عن التشبيه، ونفيُك منزَّهاً عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطِّل، ومن شبّهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثِّل، ومن قال: استواء ليس كمثله شيءٌ فهو الموحِّد المنزِّه.

وهكذا الكلام في السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة واليد والوجه والرضى والغضب والنزول والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه"[١].

٣- وقال الشيخ العلاّمة عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله-: "سُئل الإمام مالك -رحمه الله- وغيره من السلف عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: كيف الاستواء؟، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فبيّن أنَ الاستواء معلوم، وأنَّ كيفية ذلك مجهول، وهكذا يُقال في كلِّ ما وصف الله به نفسه"[٢].

٤- وقال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي: "واعلموا أنّ آيات الصفات كثير من الناس يُطلق عليها اسم المتشابه وهذا من جهة غلطٌ، ومن جهة قد يسوغ كما يثبته الإمام مالك بن أنس، أما المعاني فهي معروفة عند العرب كما قال الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة"، كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، واطّرده في جميع الصفات؛ لأنَّ هذه الصفات معروفة عند

---

(١) مدارج السالكين (٢/٨٦).

(٢) طريق الوصول إلى العلم المأمول (ص:٨).

العرب، إلاّ أنَّ ما وصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجلّ وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، كما أنَّ ذات الخالق -جلّ وعلا- حق والمخلوقون لهم ذوات، وذات الخالق -جلّ وعلا- أكمل وأنزه وأجلّ من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين"[١].

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص: ٢١).

الفصل الثاني

في ذكر معنى هذا الأثر وبيان مدلوله وما يستفاد منه من ضوابط في توحيد الأسماء والصفات

لا شك أنَّ هذا الأثر يتضمّن معاني عميقة ودلالات دقيقة ويشتمل على فوائد عظيمة ودروس قوية متعلّقة بتوحيد الأسماء والصفات، بل بالمنهج الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم في أمور الغيب عموماً، ومن هنا حاز هذا الأثر على استحسان أهل العلم وثنائهم، وكثر استشهادهم به في مؤلّفاتهم، ولهذا رأيتُ إفراد هذا الفصل لبيان معاني هذا الأثر ودلالاته وما يستفاد منه من دروس وضوابط.

ولما كان هذا الأثر ينتظم جُملاً أربعاً رأيت أن أفرد لكل جملة منها مبحثاً مستقلاً لبيان ما فيها من دروس وفوائد.

المبحث الأوّل: في معنى قوله: "الاستواء غير مجهول" والضوابط المستفادة منه.

المبحث الثاني: في معنى قوله: "الكيف غير معقول" والضوابط المستفادة منه.

المبحث الثالث: في معنى قوله: "الإيمان به واجب" والضوابط المستفادة منه.

المبحث الرابع: في معنى قوله: "والسؤال عنه بدعة" والضوابط المستفادة منه

المبحث الأوّل
في معنى قوله: "الاستواء غير مجهول" والضوابط المستفادة منه

مراد الإمام مالك رحمه الله بقوله: "الاستواء غير مجهول" ظاهرٌ بيِّنٌ، حيث قصد رحمه الله أنَّ الاستواء معلوم في لغة العرب، وقد سبق أن نقلت في مبحث سابق[١] جملةً من النقولات عن أئمّة السلف رحمهم الله في معنى الاستواء وأنَّ المراد به في اللغة: العلوّ والارتفاع، وهو من الصفات السمعية المعلومة بالخبر، وهو علوٌّ وارتفاعٌ مخصوصٌ وقع بمشيئة الربّ تبارك وتعالى وإرادته، فعلاً سبحانه وتعالى فوق عرشه كيف شاء سبحانه "فالأصل أنَّ علوَّه على المخلوقات وصفٌ لازمٌ له كما أنَّ عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك، وأما الاستواء فهو فعلٌ يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته، ولهذا قال فيه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر، وأما علوُّه على المخلوقات فهو عند أئمّة أهل الإثبات من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع"[٢].

والاستواء كما تقدّم له معنى معلوم من لغة العرب وهو العلوّ والارتفاع، لكن ما يضاف إلى الله منه فهو أمرٌ يليق بجلاله وكماله سبحانه لا يشبه ما يكون من المخلوقين، ولا يجوز أن يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوقين وملزوماتها كقولهم: لو كان على العرش لكان محتاجاً إليه، ولو سقط العرش لخرّ مَن عليه، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون الجاحدون علواً كبيراً، لأنَّ الله تبارك وتعالى

---

(١) انظر: (ص: ٧٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٢٣).

أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة كما أضاف إليه سائر أفعاله وصفاته، فلم يذكر استواء مطلقاً يصلح للمخلوقين ولا عاماً يتناول المخلوق، وإنما ذكر استواءً أضافه إلى نفسه الكريمة[1].

فكيف يُتوهَّم أو يُظنّ فيما أضاف الرب سبحانه إلى نفسه أنَّه يشبه ما هو من خصائص المخلوقين، ومن المعلوم أنَّ الإضافة تقتضي التخصيص، فما يُضاف إلى الربّ يخصُّه ويليق بجلاله وكماله، وما يُضاف إلى المخلوق يخصُّه ويليق به وبكونه مخلوقاً ضعيفاً عاجزاً.

فالاستواء المضاف إلى الربّ سبحانه معلومٌ معناه، وهو خاصٌّ بالربّ سبحانه لا يشبه وصف المخلوقين، فكما أنَّه سبحانه له ذاتٌ لا تشبه الذوات فله صفاتٌ لا تشبه الصفات، فمن كان يقرُّ بأنَّ له ذاتاً حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيءٌ فله كذلك سمعٌ وبصرٌ وكلامٌ واستواء ونزول ثابتٌ في نفس الأمر، فهو سبحانه متّصفٌ بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمعُ المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم. وكما أنَّه لا علم للخلق بكيفية ذات الربّ سبحانه فلا علم لهم بكيفية صفاته سبحانه، إذ العلم بكيفية الصفات يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرعٌ عنه وتابع له[2].

ولهذا فإنَّ الصفات معلومة من حيث المعاني ومجهولة ومتشابهة من حيث الكيفية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والآيات التي ذكر الله فيها أنَّها متشابهات لا يعلم تأويلها إلاّ الله، إنَّما نفى عن غيره علم تأويلها، لا علم تفسيرها ومعناها، كما أنَّه لما سئل مالك رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

---

(١) انظر: الرسالة التدمرية لابن تيمية (ص: ٨٣).

(٢) انظر: الرسالة التدمرية لابن تيمية (ص: ٤٥، ٤٤).

ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ قال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" وكذلك ربيعة قبله فبيّن مالك أنَّ معنى الاستواء معلوم، وأنَّ كيفيته مجهولة، فالكيف المجهول هو من التأويل الذي لا يعلمه إلاّ الله، وأما ما يُعلم من الاستواء وغيره فهو من التفسير الذي بيَّنه الله ورسوله.

والله تعالى قد أمرنا أن نتدبّر القرآن، وأخبر أنَّه أنزله لنعقله، ولا يكون التدبُّر والعقل إلاّ لكلام بيَّن المتكلِّم مراده به، فأما من تكلّم بلفظ يحتمل معاني كثيرة ولم يبيِّن مراده منها فهذا لا يمكن أن يُتدبّر كلامه ولا يعقل، ولهذا تجد عامة الذين يزعمون أنَّ كلام الله يحتمل وجوهاً كثيرةً، وأنَّه لم يبيِّن مراده من ذلك قد اشتمل كلامهم من الباطل على ما لا يعلمه إلاّ الله، بل في كلامهم من الكذب في السمعيات نظير ما فيه من الكذب في العقليات، وإن كانوا لم يتعمّدوا الكذب، كالمحدِّث الذي يغلط في حديثه خطأ، بل منتهى أمرهم: القرمطة في السمعيات، والسفسطة في العقليات، وهذان النوعان مجمع الكذب والبهتان"[1].

ولهذا فقد مضى أهل السنة والجماعة قاطبة على إثبات الصفات للباري سبحانه، وفهم معناها ومدلولها فـ"التفاسير الثابتة المتواترة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان تبيَّن أنَّهم إنَّما كانوا يفهمون منها الإثبات، بل والنقول المتواترة المستفيضة عن الصحابة والتابعين في غير التفسير موافقة للإثبات، ولم يُنقل عن أحد من الصحابة والتابعين حرفٌ واحدٌ يوافق قول النفاة، ومن تدبّر الكتب المصنَّفة في آثار الصحابة والتابعين، بل المصنَّفة في السنة، من (كتاب السنة والرد على الجهمية) للأثرم، ولعبد الله بن أحمد، وعثمان بن سعيد الدارمي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وأبي داود السجستاني، وعبد الله بن محمد الجعفي، والحكم بن معبد

---

(١) درء التعارض (١/ ٢٧٨، ٢٧٩).

الخزاعي، وحشيش بن أصرم النسائي، وحرب بن إسماعيل الكرماني، وأبي بكر الخلّال، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، وأبي القاسم الطبراني، وأبي الشيخ الأصبهاني، وأبي أحمد العسّال، وأبي نعيم الأصبهاني، وأبي الحسن الدارقطني، وأبي حفص بن شاهين، ومحمد بن إسحاق بن منده، وأبي عبد الله بن بطة، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي ذر الهروي، وأبي محمد الخلّال، والبيهقي، وأبي عثمان الصابوني، وأبي نصر السجزي، وأبي عمر بن عبد البر، وأبي القاسم اللالكائي، وأبي إسماعيل الأنصاري، وأبي القاسم التيمي، وأضعاف هؤلاء رأى في ذلك من الآثار الثابتة المتواترة عن الصحابة والتابعين، ما يُعلم معه بالاضطرار أنَّ الصحابة والتابعين كانوا يقولون بما يوافق مقتضى هذه النصوص ومدلولها، وأنَّهم كانوا على قول أهل الإثبات المثبتين لعلوِّ الله نفسه على خلقه، المثبتين لرؤيته، القائلين بأنَّ القرآن كلامه ليس بمخلوق بائن عنه.

وهذا يصير دليلا من وجهين:

أحدهما: من جهة إجماع السلف، فإنَّهم يمتنع أن يجمعوا في الفروع على خطأ، فكيف في الأصول؟

الثاني: من جهة أنَّهم كانوا يقولون بما يوافق مدلول النصوص ومفهومها، لا يفهمون منها ما يناقض ذلك.

ولهذا كان الذين أدركوا التابعين من أعظم الناس قولاً بالإثبات وإنكاراً لقول النفاة، كما قال يزيد بن هارون الواسطي: "من قال: إنَّ الله على العرش استوى خلاف ما يقرّ في نفوس العامّة فهو جهمي"[1].

---

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص: ٢٤)، وعبد الله في السنة (١/١٢٣)، وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش (ص: ٨٤)، ثم نقل عن شيخ الإسلام في بيان معناه أنّه قال: "والذي تقرّر في قلوب العامة هو ما فطر الله تعالى عليه الخليقة من توجّهها إلى ربِّها تعالى عند النوازل والشدائد والدعاء والرغبات إليه تعالى نحو العلوّ لا يلتفت يمنة ولا يسرة من غير موقف وقفهم عليه، ولكن فطرة الله التي فطر الناس عليها، وما من مولود إلاّ وهو يولد على هذه الفطرة حتى يجهمه وينقله إلى التعطيل من يقيّض له".

وقال الأوزاعي: "كنا والتابعون متوافرون نقرُّ بأنَّ الله فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته"(١)(٢).

قال الإمام الصابوني رحمه الله: "وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف رحمهم الله لم يختلفوا في أنَّ الله تعالى على عرشه وعرشه فوق سماواته، يُثبتون له من ذلك ما أثبته الله تعالى ويؤمنون به ويُصدِّقون الرب جلّ جلاله في خبره، ويُطلقون ما أطلقه سبحانه وتعالى من استوائه على العرش ويُمرُّونه على ظاهره ويَكِلون علمه إلى الله، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣)، كما أخبر الله تعالى عن الراسخين في العلم أنَّهم يقولون ذلك ورَضِيَه منهم فأثنى عليهم به"(٤).

وبما تقدّم يتّضح أنَّ مراد الإمام مالك رحمه الله بقوله: "الاستواء غير مجهول" أي غير مجهول المعنى، وأنَّه ثابت لله حقيقة على وجه يليق بجلاله سبحانه.

قال ابن قدامة رحمه الله في كتابه ذم التأويل: "وقولهم: "الاستواء غير مجهول" أي غير مجهول الوجود، لأنَّ الله تعالى أخبر به، وخبرُه صدقٌ يقيناً لا يجوز الشك فيه، ولا الارتياب فيه، فكان غير مجهول لحصول العلم به، وقد روي في بعض الألفاظ "الاستواء معلوم"(٥)"(٦).

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٤)، قال شيخ الإسلام في الحموية (ص: ٢٣): "بإسناد صحيح".

(٢) درء التعارض (٧/ ١٠٨، ١٠٩).

(٣) سورة: آل عمران، الآية: (٧).

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٣٧).

(٥) كما في طريق ابن عيينة وقد مرّت.

(٦) ذم التأويل (ص: ٢٦).

ولم يكن أحد من السلف رحمهم الله يتعرض لنصوص الاستواء أو غيره من الصفات بتأويل يصرف فيه هذه الألفاظ عن معانيها ودلالاتها المعلومة من لغة العرب.

روى اللالكائي في شرح الاعتقاد عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أنَّه قال: "اتفق الفقهاء كلُّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربّ عز وجل، من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسّر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنَّهم لم يصفوا ولم يفسِّروا، ولكن أفتَوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جَهمٍ فقد فارق الجماعة، لأنَّه قد وصفه بصفة لا شيء"[(١)].

وروى البيهقي وغيره عن أبي عبيد القاسم بن سلاّم قال: "هذه الأحاديث التي يقول فيها ضحِك ربُّنا مِن قنوط عباده وقُرْب خيره، وأنَّ جهنّم لا تمتلئ حتى يضع ربُّك فيها قدمَه، والكرسي موضع القدمين، وهذه الأحاديث في الرؤية، هي عندنا حقٌّ حَمَلَها الثقات بعضهم عن بعض، غير أنّا إذا سُئلنا عن تفسيرها لا نفسِّرها، وما أدركنا أحداً يُفسِّرها"[(٢)].

فلم يكن مِن هؤلاء الأئمة مَن يخوض في صفات الله بشيء من التفسيرات الباطلة والتحريفات للنصوص، بل كانوا يمرُّونها كما جاءت بلا تحريف، فالمراد بقول محمد بن الحسن: "لم يُفسِّروا" وقول أبي عبيد "لا نفسِّرها، وما أدركنا أحداً يفسِّرها" نفي تحريف الصفات وصرفها عن ظاهرها الذي دلّت عليه لغة العرب كما

---

(١) شرح الاعتقاد (٣/٤٣٢).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/١٩٨)، والدارقطني في الصفات (ص:٦٨)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٣/٥٢٦)، والذهبي في السير (١٠/٥٠٥)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الحموية (ص:٣٠): "بإسناد صحيح".

هو الحال عند الجهمية، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن أورد كلام أبي عبيد المتقدِّم "فقد أخبر أنَّه ما أدرك أحداً من العلماء يفسِّرها تفسير الجهمية"[١].

وتفسيرات الجهمية لهذه الصفة كثيرة جداً وهي تقارب العشرين، كما قال مرعي بن يوسف الكرمي: "وأما أهل التأويل من الخَلَف فقد اختلفوا في الاستواء على نحو العشرين قولاً..."[٢] وذكرها.

وهي تأويلات متكلّفة وتحريفات بغيضة تأباها النصوص ويردّها سياق الأدلّة المشتملة على ذكر استواء الربّ تبارك وتعالى على عرشه[٣]، وكما يقول العلاّمة ابن القيِّم رحمه الله: "إنَّ استواء الرب المعدى بأداة على المعلق بعرشه المعرّف باللاّم المعطوف بـ"ثمّ" على خلق السموات والأرض المطَّرَد في موارده على أسلوب واحد ونمط واحد، لا يحتمل إلاّ معنىً واحداً لا يحتمل معنيين ألبتة، فضلاً عن ثلاثة أو خمسة عشر كما قال صاحب (القواصم والعواصم): إذا قال لك المجسِّم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فقل استوى على العرش يستعمل على خمسة عشر وجهاً فأيُّها تريد؟ فيقال له: كَلاَّ والذي استوى على العرش لا يحتمل هذا اللفظ معنيين ألبتة،

(١) الحموية (ص: ٣٠).

(٢) أقاويل الثقات (ص: ١٢٣).

(٣) وقد تمادى هؤلاء في تحريف النصوص تبعاً لأهوائهم حتى إنَّهم لم يدَعوا في بعض النصوص حرفاً إلاّ وطالته أيديهم بالتحريف لمعناه والتغيير لمراده وإخراجه عن حقيقته، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، فقالوا: ﴿ثُمَّ﴾ تحمل معنى الواو وتجرّد عن معنى الترتيب، والاستواء المراد به الاستيلاء، والعرش كناية عن الملك، والرحمن لا يدل على وصفه بالرحمة، فأخرجوا (ثم) عن حقيقتها، والاستواء عن حقيقته، والعرش عن حقيقته، ولفظ الرحمن عن حقيقته، فركبوا تحريفات بعضها فوق بعض. وانظر: مختصر الصواعق (ص: ٣٢٢).

والمُدَّعي للاحتمال عليه بيان الدليل، إذ الأصل عدم الاشتراك والمجاز، ولم يذكر على دعواه دليلاً ولا بيّن الوجوه المحتملة حتى يصلح قوله (فأيُّها تريدون وأيُّها تعنون) وكان ينبغي له أن يبيِّن كلّ احتمال ويذكر الدليل على ثبوته، ثم يطالب حزب الله ورسوله ﷺ بتعيين أحد الاحتمالات، وإلاّ فهم يقولون لا نسلِّم احتماله لغير معنىً واحد، فإنَّ الأصل في الكلام الإفراد والحقيقة، دون الاشتراك والمجاز فهم في منعهم أولى بالصواب منك في تعدد الاحتمال، فدعواك أنَّ هذا اللفظ يحتمل خمسة عشر معنى دعوى مجرّدة ليست معلومة بضرورةٍ ولا نصٍ ولا إجماعٍ"[1].

إلاَّ أنَّ أشهر تأويلات هؤلاء وأكثرها ذيوعاً بينهم هو قولهم: إنَّ الاستواء المراد به الاستيلاء، وهو تأويل باطل وتحريف فاسد، أبطله أهل العلم من وجوه كثيرة، وفيما يلي تلخيص لبعض الوجوه التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في إبطال هذا التأويل:

"أولاً: إنَّ هذا التفسير لم يفسّره أحد من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين، فإنَّه لم يفسِّره أحد في الكتب الصحيحة عنهم، بل أول من قال ذلك بعض الجهمية والمعتزلة، كما ذكره أبو الحسن الأشعري في كتاب المقالات وكتاب الإبانة.

ثانياً: إنَّ معنى هذه الكلمة مشهور، ولهذا لما سُئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؟ قالا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ثالثاً: إنَّه إذا كان معلوماً في اللغة التي نزل بها القرآن كان معلوماً في القرآن.

رابعاً: إنَّه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوماً لم يحتج أن يقول: الكيف

---

(١) مختصر الصواعق (ص: ٣٣٤، ٣٣٣).

مجهول، لأنَّ نفيَ العلم بالكيف لا ينفي إلاَّ ما قد عُلم أصله، كما نقول: إنَّا نقرُّ بالله ونؤمن به، ولا نعلم كيف هو.

خامساً: الاستيلاء سواء كان بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك هو عام في المخلوقات كالربوبية، فلو كان استوى بمعنى استولى، كما هو عام في الموجودات كلّها لجاز مع إضافته إلى العرش أن يُقال: استوى على السماء، وعلى الهوى، والبحار والأرض، وعليها ودونها ونحوها، إذ هو مستوٍ على العرش، فقد اتفق المسلمون على أنَّه يُقال: استوى على العرش، ولا يُقال استوى على هذه الأشياء، مع أنَّه يُقال استولى على العرش والأشياء، علم أنَّ معنى استوى خاص بالعرش ليس عاماً كعموم الأشياء.

سادساً: أنّه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيّام ثم استوى على العرش، وأخبر أنَّ عرشَه كان على الماء قبل خلقها، وثبت ذلك في صحيح البخاري عن عمران بن حُصين عن النبي ﷺ قال: "كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كلَّ شيء ثم خلق السموات والأرض"[1]، مع أنَّ العرش كان مخلوقاً قبل ذلك، فمعلوم أنَّه ما زال مستولياً عليه قبل وبعد، فامتنع أن يكون الاستيلاء العام هذا الاستيلاء الخاص بزمان كما كان مختصاً بالعرش.

سابعاً: أنَّه لم يثبت أنَّ لفظ استوى في اللغة بمعنى استولى، إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المشهور:

ثم استوى بِشر على العراق ... من غير سيفٍ ولا دم مهراق

ولم يثبت نقل صحيح أنَّه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه، وقالوا: إنَّه بيت مصنوع لا يُعرف في اللغة، وقد علم أنَّه لو احتجّ بحديث رسول

---

(١) صحيح البخاري (٦/٢٨٦ الفتح).

الله ﷺ لاحتاج إلى صحّته، فكيف بيت من الشعر لا يُعرف إسناده؟! وقد طعن فيه أئمة اللغة، وذُكر عن الخليل كما ذكره أبو المظفر في كتابه الإفصاح قال: "سُئل الخليل هل وجدتَ في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: هذا ما لا تعرفه العرب، ولا هو جائز في لغتها"[١]. وهو إمام في اللغة على ما عرف من حاله، فحينئذ حمله على ما لا يُعرف حمل باطل.

ثامناً: أنَّه روي عن جماعة من أهل اللغة أنَّهم قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلاَّ في حقِّ من كان عاجزاً ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء، والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى، فإذا تبيّن هذا فقول الشاعر:

ثم استوى بِشر على العراق

لفظ مجازي لا يجوز حمل الكلام عليه إلاَّ مع قرينة تدل على إرادته، واللفظ المشترك بطريق الأولى، ومعلوم أنَّه ليس في الخطاب قرينة أنَّه أراد بالآية الاستيلاء.

وأيضاً فأهل اللغة قالوا: لا يكون استوى بمعنى استولى إلاَّ فيما كان منازعاً مغالباً، فإذا غلب أحدهما صاحبه قيل: استولى، والله لم ينازعه أحد في العرش، فلو ثبت استعماله في هذا المعنى الأخص مع النزاع في إرادة المعنى الأعم لم يجب حمله عليه بمجرّد قول بعض أهل اللغة مع تنازعهم فيه، وهؤلاء ادّعوا أنّه بمعنى استولى في اللغة مطلقاً.

تاسعاً: أنَّ معنى الاستواء معلوم علماً ظاهراً بين الصحابة والتابعين وتابعيهم، فيكون التفسير المحدث بعده باطلاً قطعاً، وهذا قول يزيد بن هارون الواسطي، فإنَّه قال: "إنَّ من قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ خلاف ما تقرّر في نفوس العامة

---

(١) وذكر نحو هذا عن أبي عبد الله بن الأعرابي، رواه عنه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٣/٣٩٩).

فهو جهمي"[١]، ومنه قول مالك: "الاستواء معلوم"، وليس المراد أنَّ هذا اللفظ في القرآن معلوم كما قال بعض الناس: استوى أم لا؟ أو أنَّه سُئل عن الكيفية ومالك جعلها معلومة، والسؤال عن النزول ولفظ الاستواء ليس بدعة ولا الكلام فيه، فقد تكلّم فيه الصحابة والتابعون، وإنَّما البدعة السؤال عن الكيفية"[٢].

وقد أبطل العلاّمة ابن القيم هذا التأويل الفاسد في كتابه الصواعق المرسلة من اثنين وأربعين وجهاً، فلم يدَعْ رحمه الله لمبطل متعلّقاً[٣].

فإذا تبيّن فساد هذا التأويل الذي هو أشهر تأويلات هؤلاء، فإنَّ ما سواه من التأويلات أشدّ فساداً وأكثر بعداً عن الحق والصواب.

وقبل أن أختم هذا المبحث أودّ التنبيه على أمرين:

الأول: كلام القاضي أبي يعلى في كتابه إبطال التأويلات بعد أن ذكر أثر أم سلمة في آية الاستواء حيث قال: "فقد صرّحت بالقول بالاستواء غير معقول، وهذا يمنع تأويله على العلوّ والاستيلاء"[٤].

قال هذا رحمه الله، مع أنَّ لفظ الأثر عنده "الاستواء غير مجهول" أي غير مجهول المعنى وهو العلو والارتفاع كما تقدّم فكيف يُقال: إنَّه يمتنع تأويله بالعلوّ، مع أنَّ هذا هو معنى اللفظ في لغة العرب.

الثاني: قول القرطبي بعد أن نقل ما قيل في معنى الاستواء حيث قال: "أظهر الأقوال وإن كنتُ لا أقول به ولا أختاره ما تظاهرت عليه الآي والأخبار والفضلاء الأخيار أنَّ الله سبحانه على عرشه كما أخبر في كتابه بلا كيف بائنٌ من جميع خلقه،

---

(١) تقدّم تخريجه (ص:).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/١٤٤ ١٤٩) باختصار.

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٣١٩ وما بعدها).

(٤) إبطال التأويلات (١/٧١).

هذا جملة مذهب السلف الصالح"[١].

فهو كلام غريب من مثله رحمه الله، إذ كيف يكون على علم بتظاهر الآيات عليه وقول الفضلاء الأخيار به وأنَّه مذهب السلف الصالح ثم يصرّح بأنَّه لا يقول به ولا يختاره، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلَالُ﴾، ولذا قال السفاريني رحمه الله بعد أن نقل كلامه هذا: "وفي قوله رحمه الله: "وإن كنتُ لا أقول به" غاية العجب، لأنَّه اعترف بتظافر الآيات القرآنية عليه ودلالة الأخبار النبوية إليه، وتعويل السلف الصالح الأخيار عليه، فكيف يليق من مثله أن يقول: "وإن كنتُ لا أقول به ولا أختاره" مع الدلالات القرآنية والأحاديث النبوية، وكونه معتقد الرعيل الأول والحزب الذي عليه المعوَّل..."[٢]. وبالله وحده التوفيق.

---

(١) ذكره في كتابه الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ونقله مرعي الكرمي في أقاويل الثقات (ص: ١٣٢)، والسفاريني في لوائح الأنوار السنية (١/٣٦٤).

(٢) لوائح الأنوار السنية (١/٣٦٤)، وانظر: أقاويل الثقات لمرعي الكرمي (ص: ١٣٢).

المبحث الثاني

في معنى قوله: "والكيف غير معقول" والضوابط المستفادة منه

قول الإمام مالك رحمه الله في الاستواء: "والكيف غير معقول" هو نظير قول غير واحد من أئمة السلف في إثبات الصفات عموماً: "بلا كيف"، وقد سبق نقل بعض ألفاظهم في ذلك ومنها غير ما تقدّم:

قول سفيان بن عيينة: "كلُّ شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره ولا كيف ولا مثل"(١).

وقول وكيع: "نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول كيف هذا، ولِمَ جاء هذا"(٢).

وسبق أن مرَّ معنا قول مالك نفسه رحمه الله، وغيره من أئمة السلف في الصفات: "أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف".

قال شيخ الإسلام: "فقول ربيعة ومالك: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب" موافق لقول الباقين: "أمرُّوها كما جاءت بلا كيف" فإنَّما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرّد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول"، ولما قالوا: "أمرُّوها كما جاءت بلا كيف"، فإنَّ الاستواء حينئذ لا يكون معلوماً بل مجهول بمنزلة حروف المعجم وأيضاً فإنَّه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، إنّما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات، وأيضاً فإنَّ من ينفي الصفات الجزئية أو الصفات مطلقاً لا يحتاج إلى أن يقول: "بلا

---

(١) رواه الدارقطني في الصفات (ص: ٧٠).

(٢) رواه الدارقطني في الصفات (ص: ٧١).

كيف" فمن قال: إنَّ الله ليس على العرش، لا يحتاج أن يقول: بلا كيف، فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا: بلا كيف. وأيضاً فقولهم: "أمرُّوها كما جاءت" يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنّها جاءت ألفاظاً دالّة على معاني، فلو كانت دلالتُها منتفية لكان الواجب أن يُقال: أمرّوا لفظها مع اعتقاد أنَّ المفهوم منها غير مراد، أو أمرّوا لفظها مع اعتقاد أنَّ الله لا يوصف بما دلّت عليه حقيقة، وحينئذ تكون قد أُمِرَّت كما جاءت، ولا يُقال حينئذ: "بلا كيف"، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغوٌ من القول"[١].

وقول السلف رحمهم الله: "الكيف مجهول" أو "بلا كيف" يتضمّن عدّة فوائد أُجملها فيما يلي:

١- قطع طمع العقل في إدراك كيفية صفات الله، وأنَّ ذلك غير ممكن "مهما تصوّر في وهمك فالله بخلاف ذلك"[٢].

٢- أنّهم نفوا علمنا بالكيفية، ولم ينفوا أن يكون في نفس الأمر كيفية لا يعلمها إلاّ هو سبحانه "نفي الشيء غير نفي العلم به"[٣] "ولم يقل مالك: الكيف معدوم، وإنما قال الكيف مجهول"[٤].

٣- عدم العلم بالكيفية لا يقدح في الإيمان بالصفات.

٤- إثبات الصفة لله حقيقة، لأنَّ من ينفي الصفات ولا يثبتها لا يحتاج أن يقول: "بلا كيف".

---

(١) الحموية (ص: ٢٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/٥٣٥) وهو من كلام ذي النون المصري.

(٣) نقص التأسيس (١/١٩٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٩).

٥- إنَّ العلم بكيفية الشيء تكون برؤيته أو رؤية نظيره أو الخبر الصادق عنه، والمؤمنون لن يرى أحدٌ منهم ربَّه في الدنيا، والله تبارك وتعالى لا نظير له، ولم يأت في الخبر الصادق ذكر لكيفية صفات الباري سبحانه.

٦- إمكانية العلم بكيفية الصفة عند رؤية الله في الآخرة.

٧- بطلان قول المعتزلة وغيرهم الذين ينفون أن يكون له ماهية وحقيقة وراء ما علموه.

٨- التوقّف عند النصوص وما دلّت عليه وعدم تجاوزها فالكيف مجهول، "لأنَّه لم يرد به توقيف ولا سبيل إلى معرفته بغير توقيف"(١).

٩- الردّ على الممثِّلة، لأنَّ كلَّ ممثِّل مكيِّف.

١٠- أنَّ إثبات أهل السنة والجماعة للصفات هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فالمؤمن مُبصِرٌ بها من وجه، أعمى من وجه آخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "المشهور بين أهل السنة والجماعة أنَّه لا يُقال في صفات الله عز وجل (كيف) ولا في أفعاله (لِمَ) وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أنَّ السلف والأئمة نفوا علمنا الآن بكيفيته، كقول مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول". لم ينفوا أن يكون في نفس الأمر له حقيقة يعلمها هو، وتكلّمنا على إمكان العلم بها عند رؤيته في الآخرة أو غير ذلك، لكن كثيراً من الجهمية من المعتزلة وغيرهم ينفون أن يكون له ماهية وحقيقة وراء ما علموه"(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: "ومراد السلف بقولهم: "بلا كيف" هو نفي للتأويل، فإنَّه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل، فإنَّهم هم الذين يثبتون كيفيةً تخالف الحقيقة فيقعون في ثلاثة محاذير: نفي الحقيقة، وإثبات التكييف بالتأويل،

---

(١) ذم التأويل لابن قدامة (ص: ٢٦).

(٢) نقض التأسيس (١/ ١٩٧)، وانظر: درء التعارض (٢/ ٣٥).

وتعطيل الرب تعالى عن صفته التي أثبتها لنفسه، وأما أهل الإثبات فليس أحد منهم يكيِّف ما أثبته الله تعالى لنفسه، ويقول: كيفية كذا وكذا، حتى يكون قول السلف "بلا كيف" ردًّا عليه، وإنّما ردّوا على أهل التأويل الذي يتضمّن التحريف والتعطيل، تحريف اللفظ وتعطيل معناه"[١].

وقال أيضاً: "إنَّ العقل قد يئس من تعرّف كُنه الصفة وكيفيتها، فإنَّه لا يعلم كيف الله إلاَّ الله، وهذا معنى قول السلف "بلا كيف" أي: بلا كيف يعقله البشر، فإنَّ من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر، ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق، فعَجْزُنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود في معرفة كيفية من له الكمال كلّه، والجمال كلّه، والعلم كلُّه، والقدرة كلّها، والعظمة كلّها، والكبرياء كلّها؟ من لو كُشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وما وراء ذلك، الذي يقبض سمواته بيده فتغيب كما تغيب الخردلة في كفِّ أحدنا، الذي نسبة علوم الخلائق كلّها إلى علمه أقلّ من نسبة نقْرة عصفور من بحار العلم الذي لو أنَّ البحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر مداد وأشجار الأرض من حين خلقت إلى قيام الساعة أقلام، لفَنِيَ المداد وفنيت الأقلام، ولم تنفد كلماته، الذي لو أنَّ الخلق من أول الدنيا إلى آخرها، إنسهم وجِنّهم، وناطقهم وأعجمهم، جُعلوا صفًّا واحداً ما أحاطوا به سبحانه، الذي يضع السموات على إصبع من أصابعه، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والأشجار على إصبع، ثمّ يهزّهنَّ، ثم

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٧٧).

يقول: أنا الملك.

فقاتل الله الجهمية والمعطّلة! أين التشبيه ها هنا؟ وأين التمثيل؟ لقد اضمحلَّ ها هنا كلُّ موجود سواه، فضلاً عن أن يكون له ما يماثله في ذلك الكمال، ويشابهه فيه، فسبحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته، وولاّها ما تولّت من وقوفها مع الألفاظ التي لا حرمة لها، والمعاني التي لا حقائق لها.

ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الإلهية ما تفهمه من صفات المخلوقين، فرَّت إلى إنكار حقائقها، وابتغاء تحريفها، وسمَّته تأويلاً، فشبّهت أوَّلاً، وعطّلت ثانياً، وأساءت الظنَّ بربِّها وبكتابه وبنبيِّه، وبأتباعه"[١].

ثم بيّن رحمه الله وجه إساءة هؤلاء الظنّ بربِّهم وكتابه ونبيّهم وأتباعه.

وقال الجويني في رسالته (النصيحة في صفات الرب جلَّ وعلا): "وصفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت، غير معقولة له من حيث التكييف والتحديد، فيكون المؤمن بها مبصراً من وجه، أعمى من وجه، مبصراً من حيث الإثبات والوجود، أعمى من حيث التكييف والتحديد، وبهذا يحصل الجمع بين الإثبات لما وصف الله به نفسه، وبين نفي التحريف والتشبيه والوقوف، وذلك هو مراد الله تعالى مِنَّا في إبراز صفاته لنا لنعرفه بها، ونؤمن بحقائقها وننفي عنها التشبيه، ولا نعطلها بالتحريف والتأويل، لا فرق بين الاستواء والسمع، ولا بين النزول والبصر، لأنَّ الكلَّ ورد في النص"[٢].

فهذا هو مراد السلف رحمهم الله بقولهم: "بلا كيف".

---

(١) مدارج السالكين (٣/٣٦٠، ٣٥٩).

(٢) النصيحة في صفات الرب جلَّ وعلا للجويني (الصلاة: ٣٩، ٤٠)، وانظر: ذمّ التأويل لابن قدامة (ص: ١٥).

ومع ذلك فقد قال الزمخشري المعتزلي في كشافه: "ثم تعجب من المتسمّين بالإسلام، المتسمّين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة[١] مذهباً، ولا يغرّنك تسترّهم بالبَلْكَفَة[٢]، فإنّه من منصوبات أشياخهم[٣]، والقول ما قال بعض العدلية[٤] فيهم:

لجماعة سمّوا هواهم سنّة وجماعة حمر لعمري موكفه[٥]
قد شبّهوه بخلقه وتخوّفوا شنع الورى فتستّروا بالبلكفه"[٦].

وقد أجاب بعض أهل العلم عن هذين البيتين بمثلهما فقال:

عجباً لقوم ظالمين تلقّبوا بالعدل ما فيهم لعمري معرفة
قد جاءهم من حيث لا يدرونه تعطيل ذات الله مع نفي الصفة[٧]

---

(١) يقصد رؤية المؤمنين لربّهم يوم القيامة بلا كيف إيماناً منهم بالنصوص وتصديقاً.

(٢) يريد قول السلف: "بلا كيف" فهو من باب المنحوتات مثل: البسملة والحمدلة، أي: أنَّ قولهم محض التشبيه، ويقولون بلا كيف على سبيل التستّر. انظر: ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري لأبي شامة (ص: ١٥٩).

(٣) أي: مالك، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي، ومكحول، والزهري، وغيرهم من أئمة السلف، وتقدّم نقل ذلك عنهم.

(٤) هم جماعته المعتزلة، سمّوا أنفسهم بذلك زاعمين أنهم نسبوا الله تعالى إلى العدل، حيث آخذ العبّاد بما جَنَوه على أنفسهم، ولم يجر به القضاء عليهم. انظر: ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري لأبي شامة (ص: ١٥٩).

(٥) قوله: "حمر" هو جمع حمار، وقوله: "موكفة"، الوكاف هو البرذعة التي توضع على الحمار، بهذا شبه هذا الظالم أهل السنة والجماعة، عامله الله بعدله.

(٦) الكشاف للزمخشري (٢/٩٢).

(٧) ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري لأبي شامة (ص: ١٥٩).

ثـم هـم مـع تعطيل الذات ونفي الصفة قد شبّهوا الله تبارك وتعالى بخلقه، لأنّهم إنما قالوا بالتعطيل لتوهمهم التشبيه، ففرّوا منه إلى التعطيل، فوقعوا في تشبيه آخر، وهو تشبيه الله بالممتنعات والمعدومات أو الجمادات، وذلك بحسب نوع تعطيلهم، وقد "برّأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنّته عن ذلك كلّه فلم يصفوه إلاّ بما وصف به نفسه ووصفه به نبيُّه ﷺ، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبّهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عمّا أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريًّا من التشبيه، وتنزيههم خليًّا من التعطيل لا كمن شبّه حتى كأنّه يعبد صنماً، أو عطّل حتى كأنّه لا يعبد إلاّ عدَماً"(١)، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى (ص: ٥١)، وهي مستلّة من بدائع الفوائد لابن القيم.

المبحث الثالث

في معنى قوله "والإيمان به واجب" والضوابط المستفادة منه

لا ريب أنَّ الإيمان بالاستواء وغيره من صفات الباري سبحانه واجبٌ، وكذلك "الجحود به كفرٌ، لأنَّه ردٌّ لخبر الله، وكفرٌ بكلام الله، ومن كفر بحرف متفق عليه فهو كافر، فكيف بمن كفر بسبع آيات وردَّ خبَرَ الله تعالى في سبعة مواضع من كتابه"[1]، وقد سبق أنْ مرّ معنا نصوصٌ كثيرةٌ في مبحث سابق فيها أوضح دلالة على وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة. و"كتاب الله من أوّله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أوّلها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوءٌ بما هو إمّا نصٌ وإمّا ظاهرٌ في أنَّ الله سبحانه وتعالى هو العليُّ الأعلى، وهو فوق كلِّ شيء، وهو على كل شيء، وإنَّه فوق العرش، وإنَّه فوق السماء، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2]، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[3]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾[4]، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾[5]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[6]، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[7]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ

---

(١) ذم التأويل لابن قدامة (ص: ٢٦).

(٢) سورة: فاطر، الآية: (١٠).

(٣) سورة: آل عمران، الآية: (٥٥).

(٤) سورة: الملك، الآية: (١٦).

(٥) سورة: الملك، الآية: (١٧).

(٦) سورة: النساء، الآية: (١٥٨).

(٧) سورة: المعارج، الآية: (٤).

إِلَيْهِ﴾[١]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[٢]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، في ستّة مواضع[٣]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[٤]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٥]، ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[٦] إلى أمثال ذلك مما لا يحصى إلا بكلفة.

وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى إلا بالكلفة، مثل قصة معراج الرسول ﷺ إلى ربّه[٧]، ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه، وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار: "فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم"[٨].

وفي الصحيح في حديث الخوارج: "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً"[٩]، وفي حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره "ربّنا الله الذي في السماء، تقدّس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتُك في السماء اجعل رحمتَك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفاءك على هذا الوجع" قال رسول الله ﷺ: "إذا اشتكى

---

(١) سورة: السجدة، الآية: (٥).

(٢) سورة: النحل، الآية: (٥٠).

(٣) سورة: الأعراف الآية: (٥٤)، ويونس، الآية: (٣) والرعد، الآية: (٢)، والفرقان، الآية: (٥٩)، والسجدة، الآية: (٤)، والحديد، الآية: (٤).

(٤) سورة: غافر، الآيات: (٣٦،٣٧)

(٥) سورة: فصلت، الآية: (٤٢).

(٦) سورة: الأنعام، الآية: (١١٤).

(٧) رواها البخاري (١/٤٥٨-٤٥٩ الفتح)، ومسلم (١/١٤٥) وغيرهما من حديث أنس.

(٨) رواه البخاري(٥٥٥)، (٢/٣٣ الفتح)، ومسلم (١/٤٣٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة.

(٩) رواه البخاري (٨/٦٧ الفتح)، ومسلم (٢/٧٤١) من حديث أبي سعيد الخدري.

أحد منكم أو اشتكى أخ له فليقل: ربنا الله الذي في السماء..."، وذكره[1]، إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلاّ الله، مما هو من أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية"[2].

فليس لمسلم يؤمن بوحي الله وتنزيله ويؤمن بما جاء به رسوله ﷺ أن يجحد شيئاً من ذلك أو يتعرَّض له بردٍّ أو تحريفٍ أو نحو ذلك، بل الواجب هو القبول والتسليم والإيمان والتعظيم، و"القول الشامل في جميع هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يُتجاوز القرآن والحديث.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: "لا يوصف إلاّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يُتجاوز القرآن والحديث"، ومذهب السلف أنّهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أنَّ ما وصف الله به من ذلك فهو حقٌّ ليس فيه لُغْزٌ ولا أحَاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلّم بكلامه، لا سيما إذا كان المتكلّم أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد، وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء، لا في نفسه المقدّسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتيقّن أنَّ الله سبحانه له ذات حقيقة، وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإنَّ الله منزَّهٌ عنه حقيقة، فإنَّه سبحانه مستحقٌّ للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه، واستلزام الحدوث سابقة العدم، ولافتقار المحدَث إلى محدِث، ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه أحمد (٦/٢١)، وأبو داود (٣٨٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/١٢ - ١٥).

ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثّلون صفات الله بصفات خلقه كما لا يمثّلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فيعطّلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويحرّفوا الكلم عن مواضعه ويلحدوا في أسماء الله وآياته، وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل، أما المعطّلون فإنَّهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلاّ ما هو اللاّئق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل، مثّلوا أوّلاً وعطّلوا آخراً، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقّه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللاّئقة بالله سبحانه وتعالى"(١).

ويمكن تلخيص الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها في ستة أقسام ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكل قسم منها عليه طائفة من أهل القبلة وهي:

قسمان يقولان: تجرى نصوص الصفات على ظواهرها.

وقسمان يقولان: إنَّ نصوص الصفات على خلاف ظاهرها، أي ظاهرها غير مراد.

وقسمان: يسكتون.

أما الأولون فقسمان:

أحدهما: من يجريها على ظاهرها ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، فهؤلاء المشبِّهة، ومذهبهم باطل أنكره السلف، وإليهم يتوجّه الردّ بالحق.

الثاني: من يجريها على ظاهرها اللاّئق بجلال الله، كما يجري ظاهر اسم العليم والقدير والرب والإله والموجود والذات ونحو ذلك على ظاهرها اللاّئق بجلال الله، فإنَّ ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق إمَّا جوهر محدَث، وإمَّا عرَض قائم به.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/٥، ٢٧).

فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضا والغضب ونحو ذلك في حق العبد أعراضٌ، والوجه واليد والعين في حقه أجسام، فإذا كان الله موصوفاً عند عامة أهل الإثبات بأنَّ له علماً وقدرةً وكلاما ومشيئة وإن لم يكن ذلك عرَضاً يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين جاز أن يكون وجه الله ويداه صفات ليست أجساماً يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين.

وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم، وكلام الباقين لا يخالفه، وهو أمر واضحٌ، فإنَّ الصفات كالذات، فكما أنَّ ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات...

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها، أعني الذين يقولون ليس لها في الباطن مدلول هو صفة الله تعالى قط، وأنَّ الله لا صفة له ثبوتية، بل صفاته إما سلبية وإما إضافية وإما مركبة منهما، أو يثبتون بعض الصفات وهي الصفات السبعة أو الثمانية أو الخمسة عشر أو يثبتون الأحوال دون الصفات، ويقرّون من الصفات الخبرية بما في القرآن دون الحديث، على ما قد عرف من مذاهب المتكلّمين، فهؤلاء قسمان:

قسم: يتأوّلونها ويُعيِّنون المراد مثل قولهم: استوى بمعنى استولى، أو بمعنى علوّ المكانة والقدر، أو بمعنى ظهور نوره للعرش، أو بمعنى انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من معاني المتكلّمين.

وقسم: يقولون: الله أعلم بما أراد بها، لكنا نعلم أنّه لم يرد إثبات صفة خارجية عما علمناه.

وأما القسمان الواقفان:

فقوم: يقولون: يجوز أن يكون ظاهرها المراد اللائق بجلال الله، ويجوز أن لا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقوم: يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات.

فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها"[١].

والصواب في ذلك هو طريق السلف الصالح رحمهم الله، إثباتُ ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسولُه ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ونفيُ ما نفاه الله عن نفسه وما نفاه عنه رسولُه ﷺ من النقائص والعيوب، إثباتٌ بلا تمثيلٍ وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/١١٢ - ١١٧).

المبحث الرابع

في معنى قوله: "والسؤال عنه بدعة" والضوابط المستفادة منه

قوله رحمه الله: "والسؤال عنه بدعة" أي: الكيف، فالسؤال عن كيفية صفات الباري بدعة محدثةٌ، "لأنَّه سؤال عما لا سبيل إلى علمه، ولا يجوز الكلام فيه، ولم يسبق ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعده من أصحابه"(١).

قال الإمام البربهاري رحمه الله: "احذر صغار المحدثات مِن الأمور، فإنَّ صغارَ البدع تعود كباراً، فالكلام في الربِّ عز وجل مُحدثٌ وبدعة وضلالة، فلا نتكلّم فيه إلاَّ بما وصف به نفسه، ولا نقول في صفاته: (لِمَ؟)، ولا (كيف؟)، والقرآن كلام الله وتنزيلُه ونوره ليس مخلوقاً، والمِراء فيه كفر"(٢).

وهذا من السنة اللازمة المتأكّدة في حق كلِّ مسلم، ومَن فارق ذلك كان معدوداً في جملة أهل البدع والأهواء، كما قال الإمام علي بن المديني رحمه الله: "السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها أو يؤمن بها لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشرّه، ثم تصديق بالأحاديث والإيمان بها لا يُقال: لِمَ؟، ولا كيف؟ إنَّما هو التصديق بها والإيمان بها وإن لم يعلم تفسير الحديث ويبلغه عقلُه فقد كفى ذلك وأحكم عليه الإيمان به والتسليم"(٣).

ثم إنَّه خوض في أمرٍ محالٍ على العقول أن تدركه، فكما أنَّ بصر الإنسان له غاية لا يمكن أن يتجاوزها، وكما أنَّ سمعه له غاية لا يمكن أن يتجاوزها، فكذلك عقله له نطاق محدّد، ومجال لا يمكن أن يتجاوزه.

---

(١) ذم التأويل لابن قدامة (ص: ٢٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٥/٩١)، وانظر شرح السنة للبربهاري (ص: ٢٤، ٢٥).

(٣) رواه عنه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١/١٦٥).

يروى أنَّ رجلاً أتى بابن له إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال: "لقد حيّرت الخصومة عقله، وأذهبت المنازعة قلبه، وذهبت به الكلفة عن ربه، فقال عبد الله: امدد بصرك يا ابن أخي ما السواد الذي ترى؟ قال: فلان، قال: صدقت، قال: فما الخيال المسرف من خلفه؟ قال: لا أدري، قال عبد الله: يا ابن أخي فكما جعل الله لأبصار العيون حداً محدوداً من دونها حجاباً مستوراً فكذلك جعل لأبصار القلوب غاية لا يجاوزها، وحدوداً لا يتعدّاها، قال: فردّ الله عليه غارب عقله، وانتهى عن المسألة عما لا يعنيه، والنظر فيما لا ينفعه، والتفكر فيما يحيّره"(١).

وهو كلام حسن وتنظير سديد وإن كان لم يثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما(٢) والأمر كما ذكر، فكما أنَّ الله جعل لأبصار العيون حدوداً معلومة فكذلك الشأن في أبصار القلوب، لها مجال محدود لا يمكنها أن تتجاوزه أو تتعدّاه.

أورد هذا الأثر ابن بطة في كتابه الإبانة وقال معلّقاً عليه: "فاتقوا الله يا معشر المسلمين وانتهوا عن معرفة خلقه، أما تعلمون أنَّ الله عز وجل قد أخذ عليكم ميثاق الكتاب أن لا تقولوا على الله إلاّ الحق، فسبحان الله أنى تؤفكون"(٣).

وقد عقد الإمام ابن بطة رحمه الله في هذا الموضوع باباً نافعاً في كتابه الإبانة وهو (باب ترك السؤال عما لا يعني البحث والتنقير عما لا يضر جهله والتحذير من قوم يتعمّقون في المسائل ويتعمّدون إدخال الشكوك على المسلمين)(٤).

أورد تحته جملة من النصوص والآثار منها:

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (١/٤٢٢).

(٢) في إسناده أبو اليقظان وهو عثمان بن عمير البجلي ضعيف اختلط وكان يدلّس ويغلو في التشيُّع كما في التقريب لابن حجر، ومسعود بن بشير لم أجده.

(٣) الإبانة لابن بطة (١/٤٢٣).

(٤) الإبانة (١/٣٩٠ - ٤٢٤).

١ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "اتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم فما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فاعملوا منه ما استطعتم"[١].

٢ - حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي قال: "هلك المتنطّعون" ثلاث مرات[٢].

٣ - عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلاّ عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبض كلُّهن في القرآن ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾[٣]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[٤]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾[٥]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[٦] ما كانوا يسألون إلاّ عمّا ينفعهم".

٤ - حديث المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ الله عز وجل كره لكم ثلاثاً: قيل وقال وكثرة السؤال"[٧].

٥ - وعن ابن شبرمة رحمه الله قال: "من المسائل مسائل لا يجوز للسائل أن يسأل عنها، ولا للمسؤول أن يجيب فيها".

٦ - وعن عمران بن عبد الله الخزاعي قال: مرّ القاسم بن محمد بقوم يتكلّمون في القدر فقال: "انظروا ما ذكر الله في القرآن فتكلموا فيه وما كفّ الله عنه فكفُّوا".

---

(١) رواه البخاري (١٣/٢٥١ الفتح)، ومسلم (٤/١٨٣٠).

(٢) رواه مسلم (٤/٢٠٥٥).

(٣) سورة: البقرة، الآية: (٢١٧).

(٤) سورة: البقرة، الآية: (٢١٩).

(٥) سورة: البقرة، الآية: (٢٢٠).

(٦) سورة: البقرة، الآية: (٢٢٢).

(٧) رواه البخاري (٣/٣٤٠ الفتح) ومسلم (٣/١٣٤١).

٧- وعن إبراهيم النخعي قال: "كانوا لا يسألون إلاّ عن الحاجة".

٨- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إذا أراد الله بعبد خيراً سدده وجعل سؤاله عما يعنيه وعلمه فيما ينفعه".

وذكر آثاراً أُخر ثم قال: "فالعجب يا إخواني رحمكم الله لقوم حيارى تاهت عقولهم عن طرقات الهدى، فذهبت تند محاضره في أودية الردى، تركوا ما قدّمه الله عز وجل في وحيه وافترضه على خلقه، وتعبَّدَهم بطلبه وأمرهم بالنظر والعمل به، وأقبلوا على ما لم يجدوه في كتاب ناطق ولا تقدمهم فيه سلَف سابق، فشغلوا به وفرّغوا له آراءهم وجعلوه ديناً يدعون إليه ويعادون من خالفهم عليه، أما علم الزائغون مفاتيح أبواب الكفر ومعالم أسباب الشرك، التكلف لما لم تحط الخلائق به علماً به، ولم يأت القرآن بتأويله ولا أباحت السنة النظر فيه، فتزيد الناقص الحقير والأحمق الصغير بقوته الضعيفة، وعقله القصير، أن يهجم على سر الله المحجوب، ويتناول علمه بالغيوب يريدها لنفسه، وطوى عليها علمها دون خلقه، فلم يحيطوا من علمها إلاّ بما شاء، ولا يعلمون منها إلاّ ما يريد، فكلما لم ينزل الوحي بذكره ولم تأت السنة بشرحه من مكنون علم الله ومخزون غيبه وخفي أقداره فليس للعباد أن يتكلّفوا من علمه ما لا يعلمون، ولا يتحمّلوا من نقله ما لا يطيقون، فإنه لن يعدو رجل كلف ذلك نظره وقلّب فيه فكره أن يكون كالناظرين في عين الشمس ليعرف قدرها، أو كالمرتمي في ظلمات البحور ليدرك قعرها، فليس يزداد على المضي في ذلك إلاّ بعداً، ولا على دوام النظر في ذلك إلاّ تحيُّراً، فليقبل المؤمن العاقل ما يعود عليه نفعه، ويترك إشغال نظره وإعمال فكره في محاولة الإحاطة بما لم يكلفه، ومرام الظفر بما لم يطوقه، فيسلك سبيل العافية، ويأخذ بالمندوحة الواسعة ويلزم الحجة الواضحة والجادة السابلة والطريق الآنسة، فمن خالف ذلك وتجاوزه إلى الغمط بما أمر به والمخالفة إلى ما ينهى عنه، يقع والله في بحور المنازعة وأمواج المجادلة

ويفتح على نفسه أبواب الكفر بربه والمخالفة لأمره والتعدي لحدوده، والعجب لمن خلق من نطفة من ماء مهين فإذا هو خصيم مبين، كيف لا يفكر في عجزه عن معرفة خلقه، أما يعلمون أنَّ الله عز وجل قد أخذ عليكم ميثاق الكتاب أن لا تقولوا على الله إلاّ الحق فسبحان الله أنى تؤفكون.

حدّثني ابن الصواف، قال: سمعت أبي يقول: سمعت بعض العلماء يقول: "لو كلَّف الله هؤلاء ما كلَّفوه أنفسهم من البحث والتنقير لكان من أعظم ما افترضه عليهم".

فالزموا رحمكم الله الطريق الأقصد والسبيل الأرشد والمنهاج الأعظم من معالم دينكم وشرائع توحيدكم التي اجتمع عليها المختلفون واعتدل عليها المعترفون ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، وترك الدخول في الضيق الذي لم نخلق له"[2].

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: (١٥٣).

(٢) الإبانة لابن بطة (١/ ٤٢١، ٤٢٠).

الفصل الثالث

في إبطال تحريفات أهل البدع لهذا الأثر

رغم أنَّ كلام الإمام مالك رحمه الله واضح غايةَ الوضوح، ظاهر مراده به تمام الظهور، من خلال سياق الأثر نفسه، ومن خلال القصة التي ورد فيها، ومن خلال منهج الإمام مالك في الصفات عموماً، ومن خلال أيضاً مقارنته بأقوال غيره من أئمة السلف، إلاّ أنَّ أهل الأهواء قد فهم بعضهم من كلامه رحمه الله خلاف ما أراد، وبنوا عليه خلاف ما قصد.

والإمام مالك رحمه الله وغيره من أئمة السلف كالشافعي وأحمد وابن المبارك وحماد بن زيد والأوزاعي وغيرهم يُنقل عنهم نقول كثيرة في تقرير العقيدة وإثبات الصفات والرد على المعطِّلة وذمّ المبتدعة وهجرانهم وعقوبتهم "وهذه الأقوال سمعها طوائف مِمَّن اتبعهم وقلّدهم ثم إنَّهم يخلطون في مواضع كثيرة السنة والبدعة، حتّى قد يبدّلون الأمر، فيجعلون البدعة التي ذمّها أولئك هي السنة، والسنة التي حمدها أولئك هي البدعة، ويحكمون بموجب ذلك، حتى يقعوا في البدع والمعاداة لطريق أئمتهم السنيّة، وفي الحب والموالاة لطريق المبتدعة التي أمر أئمتهم بعقوبتهم، ويلزمهم تكفير أئمتهم ولعنهم والبراءة منهم.....

ومن أمثلة ذلك: أنَّ كلام مالك في ذم المبتدعة وهجرهم وعقوبتهم كثير، ومن أعظمهم عنده الجهمية الذين يقولون: إنَّ الله ليس فوق العرش، وإنَّ الله لم يتكلّم بالقرآن كله، وإنَّه لا يُرى كما وردت به السنة، وينفون نحو ذلك من الصفات.

ثم إنَّه كثير من المتأخّرين من أصحابه من ينكر هذه الأمور، كما ينكرها فروع الجهمية، ويجعل ذلك هو السنة، ويجعل القول الذي يخالفها، وهو قول مالك وسائر

الأمة السنة هو البدعة، ثم إنه مع ذلك يعتقد في أهل البدعة ما قاله مالك، فبدّل هؤلاء الدين فصاروا يطعنون في أهل السنة"(١).

وقول الإمام مالك رحمه الله الذي هو موضوع هذه الدراسة ناله شيء من هذا الذي سبق الإشارة إليه، حيث فُهم منه أمورٌ لم يُرِدْها رحمه الله، وذلك من قِبل من تأثّر بالمناهج الكلامية والطرق الفلسفية، فإنَّ مثل هؤلاء يأتون إلى أقوال الأئمة بل إلى نصوص القرآن والسنة وهم يحملون تصوُّرات مسبقة وعقائد راسخة لا تمتُّ إلى الحق بصلة، ثم يحاولون جاهدين صرف النصوص إلى عقائدهم وحملها على أهوائهم بطرُقٍ متكلّفة، ورحم الله الإمام ابن القيم إذ يقول: "وما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة، ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جداً، وإن ساعد الله أفردنا لها كتاباً"(٢).

وقد ظنَّ هؤلاء أنَّ طريقة الإمام مالك رحمه الله وغيره من أئمة السلف هي مجرّد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لمعانيها بمنزلة الذين قال الله فيهم ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(٣) وسبب ذلك هو اعتقاد هؤلاء أنَّ النصوص لم تدل على صفة حقيقية لله عز وجل، لأنَّ ثبوتها يلزم منه بزعمهم التشبيه، فحملتهم هذه الظنون الفاسدة والاعتقادات المنحرفة إلى تحريف أقوال الأئمة رحمهم الله.

وسأقتصر في التمثيل على ذلك بنقلين عن اثنين من المعاصرين حول ما فهماه من كلامه رحمه الله، ثم أوضّح ما في ذلك من انحراف وفساد وشطط في فهم كلام

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (١/١٣- ١٥) باختصار وتصرّف يسير، وقد ذكر شيخ الإسلام أمثلة أخرى في بعض أتباع الشافعي وأحمد بن حنبل رحمهم الله.

(٢) مدارج السالكين (٢/٤٣١).

(٣) سورة: البقرة، الآية: (٧٨).

الإمام مالك رحمه الله.

١- قال الكوثري معلّقاً على أثر الإمام مالك: "الاستواء معلوم يعني مورده في اللغة والكيفية التي أرادها الله مما يجوز عليه من معاني الاستواء مجهولة، فمن يقدر أن يعيِّنها؟ فتحصّل لك من كلام إمام المسلمين مالك أنَّ الاستواء معلوم وأنَّ ما يجوز على الله غير متعيّن وما يستحيل عليه هو منزّه عنه"(١).

ففهم من كلام الإمام مالك رحمه الله أنَّه أراد تفويض المعنى، لأنَّ الاستواء بزعمه مورده في اللغة جاء على معان عديدة ولا يُدرى ما المقصود بالاستواء المضاف إلى الله منها، ولهذا قال: "والكيفية التي أرادها الله مما يجوز عليه من معاني الاستواء مجهولة فمن يقدر أن يعيِّنها؟".

ولهذا قال في تعليقه على الأسماء والصفات للبيهقي: "الاستواء الثابت له جلّ جلاله استواء يليق بجلاله على مراد الله ومراد رسوله من غير خوض في المعنى كما هو مسلك السلف"(٢).

٢- وقال البوطي بعد ما قرّر أنَّ مذهب الخلَف هو تأويل النصوص: "وهكذا فقد كان بوسع الإمام مالك رحمه الله أن يقول في عصره لذلك الذي سأله عن معنى الاستواء في الآية: "الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، إذ كان العصر عصر إيمان ويقين راسخين، بسبب قرب العهد بعصر النبوة، وامتداد الإشراق إليه، ولكن لم يكن بوسع الأئمة الذين قاموا في عصر التدوين وازدهار العلوم، واتّساع حلقات البحث وفنون البلاغة أن يسلّموا ذلك التسليم دون أن يحلّلوا هذه النصوص على ضوء ما انتهوا إليه من فنون البلاغة والمجاز، خصوصاً أنَّ فيهم الزنادقة الذين لا يقنعهم منهج التسليم ويتظاهرون

---

(١) مقالات الكوثري (ص: ٢٩٤، ٢٩٥)، مطبعة الأنوار بالقاهرة عام (١٣٨٨هـ).

(٢) الأسماء والصفات (ص: ٣٢٠)، وانظر: (ص: ٥١٣-٥١٥) منه.

بالحاجة إلى الفهم التفصيلي وإن كانوا في حقيقة الأمر معاندين.

والمهم أن تعلم بأنَّ كلا المذهبين متّجهان إلى غاية واحدة، لأنَّ المآل فيهما إلى أنَّ الله عز وجل لا يشبهه شيء من مخلوقاته، وأنَّه منزَّه عن جميع صفات النقص، فالخلاف الذي تراه بينهما خلاف لفظي وشكلي فقط"[(١)].

فظنَّ أنَّ مذهب السلف ومنهم الإمام مالك رحمه الله هو تفويض المعاني وإمرار الألفاظ بدون فهم لما تدل عليه، وقرّر أنَّ السلف كانوا يقطعون بأنَّ ظاهر نصوص الصفات غير مراد وأوَّلها تأويلاً إجمالياً، حيث قال قبل كلامه هذا: "فمذهب السلف هو عدم الخوض في أيِّ تأويل أو تفسير تفصيلي لهذه النصوص والاكتفاء بإثبات ما أثبته الله تعالى لذاته مع تنزيهه عز وجل عن كلِّ نقص ومشابهة للحوادث، وسبيل ذلك التأويل الإجمالي لهذه النصوص وتحويل العلم التفصيلي بالمقصود منها إلى علم الله عز وجل، أما ترك هذه النصوص على ظاهرها دون أيِّ تأويل سواء كان إجمالياً أو تفصيلياً فهو غير جائز وهو شيء لم يجنح إليه سلف ولا خلَف..."[(٢)].

ولا ريب أنَّ هذا الذي قرّره البوطي هنا ومن قبله الكوثري ومن قبلهما عامة المتكلّمين يعدُّ افتراء على السلف الصالح رحمهم الله وتقويلاً لهم لشيء لم يقولوه، وقد جمع هؤلاء فيما نسبوه إلى السلف بين أخطاء عديدة أهمّها:

١- تجهيل السلف الصالح رحمهم الله حيث وصفوهم بأنهم لا يفهمون معاني نصوص الصفات، بل يقرأونها قراءة مجرّدة بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ، وأيُّ تجهيل لهم أعظم من هذا.

٢- الجهل بمذهب السلف الصالح، وأيُّ جهل بمذهب السلف الصالح رحمهم

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية (ص: ١٤١)، طبع دار الفكر (١٤١٣هـ)، ونقله وهبي غاوجي في مقدمة تحقيقه لإيضاح الدليل لابن جماعة (ص: ٥٦)، طبع دار السلام، الأولى (١٤١٠هـ).

(٢) كبرى اليقينيات (ص: ١٣٨ ١٣٩).

الله أعظم من هذا.

٣- الكذب على السلف عندما نسبوا إليه عدم فقه المعاني.

٤- تكذيب القرآن الكريم، فقد قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1] وأيُّ تبيان في كلمات لا يدرى ما معناها.

٥- فتح باب الشر للفلاسفة والقرامطة وغيرهم لنشر ضلالهم وباطلهم فقالوا لهؤلاء المفوِّضة أنتم لا تعرفون شيئاً، ونحن نعرف كيف ننزِّه الله فعطّلوا صفاته بأنواع من التحريفات.

٦- تفضيل طريقة الخلف على طريقة السلف، ولهذا قال أرباب هذه المقالة إنَّ مذهب السلف أسلم ومذهب الخلَف أحكم وأعلم.

إلى غير ذلك من الأخطاء والمفاسد التي ترتبت على اعتقاد هؤلاء في مذهب السلف أنَّه التفويض، وعدم إثبات الصفات التي دلّت عليها النصوص ومن يتأمل الأمر حقيقة يجد أنَّ "السلف كلهم أنكروا على الجهمية النفاة، وقالوا بالإثبات وأفصحوا به، وكلامهم في الإثبات والإنكار على النفاة أكثر من أن يمكن إثباته في هذا المكان، وكلام الأئمة المشاهير: مثل مالك، والثوري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجراح، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، وأئمة أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد، موجود كثير لا يحصيه أحد.

وجواب مالك في ذلك صريح في الإثبات، فإنَّ السائل قال له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فقال مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول" وفي لفظ: "استواؤه معلوم، أو معقول، والكيف غير معقول،

---

(١) سورة: النحل، الآية: (٨٩).

والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة". فقد أخبر رضي الله عنه بأنَّ نفس الاستواء معلوم، وأنَّ كيفية الاستواء مجهولة، وهذا بعينه قول أهل الإثبات.

وأما النفاة فما يثبتون استواء حتى تجهل كيفيته، بل عند هذا القائل الشاك وأمثاله أنَّ الاستواء مجهول غير معلوم، وإذا كان الاستواء مجهولاً لم يحتج أن يُقال: الكيف مجهول، لا سيما إذا كان الاستواء منتفياً، فالمنتفي المعدوم لا كيفية له حتى يُقال: هي مجهولة أو معلومة، وكلام مالك صريح في إثبات الاستواء، وأنَّه معلوم، وأنَّ له كيفية، لكن تلك الكيفية مجهولة لنا لا نعلمها نحن.

ولهذا بَدَّع السائل الذي سأله عن هذه الكيفية، فإنَّ السؤال إنّما يكون عن أمر معلوم لنا، ونحن لا نعلم كيفية استوائه، وليس كلُّ ما كان معلوماً وله كيفية تكون تلك الكيفية معلومة لنا، يبيّن ذلك أنَّ المالكية وغير المالكية نقلوا عن مالك أنَّه قال: "الله في السماء وعلمه في كلِّ مكان"، حتى ذكر ذلك مكيّ - خطيب قرطبة - في كتاب التفسير الذي جمعه من كلام مالك، ونقله أبو عمرو الطلمنكي، وأبو عمر بن عبد البر، وابن أبي زيد في المختصر، وغير واحد، ونقله أيضاً عن مالك غير هؤلاء ممّن لا يُحصى عددُهم، مثل أحمد بن حنبل، وابنه عبد الله، والأثرم، والخلال، والآجري، وابن بطة، وطوائف غير هؤلاء من المصنّفين في السنة، ولو كان مالك من الواقفة أو النفاة لم ينقل هذا الإثبات"[1].

وقد ألزم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هؤلاء القائلين بأنَّ مذهب السلف التفويض بسبعة لوازم، لا فكاك لهم منها ولا مناص لهم عنها، وهي تنادي على مذهبهم بالإبطال:

أحدها: أن يكون الله سبحانه قد أنزل في كتابه وسنة نبيّه من هذه الألفاظ ما يضلّهم ظاهره ويوقعهم في التشبيه والتمثيل.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٨٠-١٨٢).

الثاني: أن يكون قد ترك بيان الحق والصواب لهم ولم يُفصح به، بل رمز إليه رمزاً، وألغزه ألغازاً لا يفهم من ذلك إلاّ بعد الجهد الجهيد.

الثالث: أن يكون قد كلَّف عباده أن لا يفهموا من تلك الألفاظ حقائقها وظواهرها، وكلّفهم أن يفهموا منها ما لا تدل عليه، ولم يجعل معها قرينة تفهم ذلك.

الرابع: أنَّه يكون دائماً متكلّماً في هذا الباب بما ظاهره خلاف الحق بأنواع متنوّعة من الخطاب تارة بأنَّه استوى على عرشه، وتارة بأنَّه فوق عباده، وتارة بأنَّه العليّ الأعلى، وتارة بأنَّ الملائكة تعرج إليه، وتارة بأنَّ الأعمال الصالحة تُرفع إليه، وتارة بأنَّ الملائكة في نزولها من العلوِّ إلى أسفل تنزل من عنده، وتارة بأنَّه رفيع الدرجات، وتارة بأنَّه في السماء، وتارة بأنَّه الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وتارة بأنَّه فوق سماواته على عرشه، وتارة بأنَّ الكتاب نزل من عنده، وتارة بأنَّه ينزل كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا، وتارة بأنَّه يُرى بالأبصار عياناً، يراه المؤمنون فوق رؤوسهم، إلى غير ذلك من الدلالات على ذلك، ولا يتكلّم فيه بكلمة واحدة توافق ما يقوله النفاة ولا يقول في مقام واحد قط ما هو الصواب فيه لا نصًّا ولا ظاهراً، ولا يبيّنه.

الخامس: أن يكون أفضل الأمة وخير القرون قد أمسكوا من أولهم إلى آخرهم عن قول الحق في هذا النبأ العظيم الذي هو من أهمّ أصول الإيمان، وذلك إمّا جهل ينافي العلم، وإمّا كتمان ينافي البيان، ولقد أساء الظنّ بخيار الأمة من نسبهم إلى ذلك، ومعلوم أنَّه إذا ازدوج التكلّم بالباطل والسكوت عن بيان الحق، تولّد من بينهما جهل الحق وإضلال الخلق، ولهذا لما اعتقد النفاة التعطيل صاروا يأتون من العبارات بما يدلّ على التعطيل والنفي نصًّا وظاهراً، ولا يتكلّمون بما يدل على حقيقة الإثبات لا نصًّا ولا ظاهراً، وإذا ورد عليهم من النصوص ما هو صريح أو ظاهر في الإثبات حرّفوه أنواع التحريفات، وطلبوا له مستكره التأويلات.

السادس: أنهم التزموا لذلك تجهيل السلف وأنّهم كانوا أميّين مقبلين على الزهد والعبادة والورع والتسبيح وقيام الليل، ولم تكن الحقائق من شأنهم.

السابع: أن ترك الناس من إنزال هذه النصوص كان أنفع لهم وأقرب إلى الصواب، فإنَّهم ما استفادوا بنزولها غير التعرض للضلال ولم يستفيدوا منها يقيناً ولا علماً بما يجب لله ويمتنع عليه، إذ ذاك إنَّما يُستفاد من عقول الرجال وآرائها[١].

وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ كلام الإمام مالك رحمه الله واضح في الإثبات على طريقة أئمة السلف، ومع ذلك فـ"قد حرّف بعضهم كلام هؤلاء الأئمة على عادته فقال: معناه الاستواء معلوم لله، فنسبوا السائل إلى أنَّه كان يشكّ هل يعلم الله استواء نفسه أو لا يعلمه، ولما رأى بعضهم فساد هذا التأويل قال: إنّما أراد به أنَّ ورود لفظه في القرآن معلوم، فنسبوا السائل والمجيب إلى الغفلة[٢]، فكأنَّ السائل لم يكن يعلم أنّ هذا اللفظ في القرآن وقد قال يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فلم يقل: هل هذا اللفظ في القرآن أم لا، ونسبوا المجيب إلى أنَّه أجابه بما يعلمه الصبيان في المكاتب ولا يجهله أحد، ولا هو مما يحتاج إلى السؤال عنه، ولا استشكله السائل، ولا خطر بقلب المجيب أنَّه يسأل عنه"[٣].

وقد أجاب عن هذا التحريف شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: "فإن قيل: معنى قوله "الاستواء معلوم" أنَّ ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم، كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه.

قيل: هذا ضعيف، فإنَّ هذا من باب تحصيل الحاصل، فإنَّ السائل قد علم أنَّ

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة (١/٣١٤).

(٢) في المطبوع: "إلى اللغة"، وهو خطأ، والتصويب من النسخة الخطية (ق١٦٠/ب)، وهي مصوّرة في قسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية (برقم: ٦٥٢ فلم) عن دار العلوم لندوة العلماء بلكنا والهند.

(٣) مختصر الصواعق (ص: ٣٣٦).

هذا موجود في القرآن وقد تلا الآية، وأيضاً فلم يقل: ذكر الاستواء في القرآن، ولا إخبار الله بالاستواء، وإنَّما قال: الاستواء معلوم، فأخبر عن الاسم المفرد أنَّه معلوم، لم يخبر عن الجملة.

وأيضاً فإنَّه قال: "والكيف مجهول"، ولو أراد ذلك لقال: معنى الاستواء مجهول، أو تفسير الاستواء مجهول، أو بيان الاستواء غير معلوم، فلم ينف إلاَّ العلم بكيفية الاستواء، لا العلم بنفس الاستواء، وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه، ولو قال في قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ كيف يسمع ويرى؟ لقلنا: السمع والرؤيا معلوم، والكيف مجهول، ولو قال: كيف كلّم موسى تكليماً؟ لقلنا: التكليم معلوم، والكيف غير معلوم.

وأيضاً فإنَّ من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة يقرُّون بأنَّ الله فوق العرش حقيقة وأنَّ ذاته فوق ذات العرش، لا ينكرون معنى الاستواء، ولا يرون هذا من المتشابه الذي لا يُعلم معناه بالكلية.

ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة، قال بعضهم: ارتفع على العرش، علا على العرش، وقال بعضهم عبارات أخرى، وهذه ثابتة عن السلف، قد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخر كتاب الرد على الجهمية، وأما التأويلات المحرّفة مثل استولى[1] وغير ذلك، فهي من التأويلات المبتدَعة لما ظهرت الجهمية" إلى آخر كلامه رحمه الله[2].

ومنهج هؤلاء مع النصوص المخالفة لعقائدهم كما قال شيخ الإسلام: "تارة يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويتأوّلون على غير تأويله، وهذا فعل أئمتهم، وتارة

(١) في المطبوع: "استوى"، وهو تصحيف.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٩، ٣١٠).

يعرضون عنه ويقولون: نفوّض معناه إلى الله، وهذا فعل عامّتهم"[١].

فكلام السلف رحمهم الله مؤتلف غير مختلف، ومقبول غير مردود، بخلاف كلام أهل الأهواء والبدع، فهم في قول مختلف يُؤفك عنه من أُفك، قُتل الخرّاصون.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٤٣).

الفصل الرابع
في ذِكر فوائد عامة مأخوذة من هذا الأثر

لقد اشتمل هذا الأثر العظيم عن الإمام مالك رحمه الله على فوائد عظيمة ومهمّة يحتاج طالب العلم إلى الوقوف عندها وتأمّلها وأخذ العبرة منها، وسأجمل هذه الفوائد في ثلاث مباحث:

المبحث الأول: ذكر ما في قولهم: "حتى علاه الرّحضاء" من فائدة.

المبحث الثاني: ذكر ما في قوله: "ما أُراك إلاّ مبتدعاً" من فائدة.

المبحث الثالث: ذكر ما في قوله: "أخرجوه عني" من فائدة.

المبحث الأول
ذكر ما في قولهم: "حتى علاه الرّحضاء" من فائدة

لَمَّا سمع الإمام مالك رحمه الله هذا السؤال الخطير وهذا الخوض الباطل من هذا السائل في البحث عن كيفية صفات الباري سبحانه شقَّ عليه الأمر، وعَظُم عنده الخَطب، وتأثّر تأثّراً شديداً، ووجد منه ورُحِضَ رحمه الله من ذلك، حتى قال من حضر: "فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء".

والرحضاء هو "العرق إثر الحمى، أو عرق يغسل الجلد كثرة"[1].

وهذا بلا شك يدلّ على شدّة تأثُّر الإمام مالك رحمه الله من هذه المقالة، وشدّة

(١) القاموس المحيط (ص: ٨٢٩).

غضبه على انتهاك حرمات الله عز وجل، "وهذه كانت حال النبي ﷺ، فإنَّه كان لا ينتقم لنفسه، ولكن إذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء"[١].

عقد البخاري رحمه الله في صحيحه باباً بعنوان: "ما يجوز من الغضب والشدّة لأمر الله"[٢].

وروى فيه عن عائشة رضي الله قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وفي البيت قِرامٌ فيه صُوَرٌ فتلوّن وجهُه، ثم تناول السِّتر فهتكه، وقالت: قال النبي ﷺ: "مِن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُصوّرون هذه الصُوَر".

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى رجل النبيَّ ﷺ فقال: إني لأتأخّر عن صلاة الغداة من أجل فلان ممّا يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ قطُّ أشدَّ غضباً منه يومئذٍ، قال: فقال: "يا أيّها الناس إنَّ منكم منفّرين، فأيُّكم ما صلى بالناس فلْيَتَجَوَّز فإنَّ فيهم المريض والكبير وذا الحاجة".

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يصلّي رأى في قبلة المسجد نُخامة فحكّها بيده فتغيَّظ ثم قال: "إنَّ أحدكم إذا كان في الصلاة فإنَّ الله حِيال وجهه، فلا يتنخّمنَّ حِيال وجهه في الصلاة".

وعن زيد بن خالد الجهني أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن اللُّقطة؟ فقال: "عرِّفها سنة، ثم اعرف وِكاءها وعِفاصها، ثم استنفق بها، فإن جاء ربُّها فأدِّها إليه"، قال: يا رسول الله فضالّة الغنم؟ قال: "خذها فإنّما هي لك أو لأخيك أو للذئب"، قال: يا رسول الله فضالّة الإبل؟ قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّت وجنتاه، أو احمرَّ وجهه، ثم قال: "ما لك ولها، معها حذاؤها وسقاؤها حتى يلقاها ربُّها".

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص: ١٣٨).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح (١٠/٥١٧).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: احتجر رسول الله ﷺ حُجيرة مخصَّفة أو حصيراً فخرج رسول الله ﷺ يصلّي إليها فتتبّع إليه رجالٌ وجاؤوا يصلّون بصلاته ثم جاؤوا ليلةً، فحضروا وأبطأ رسول الله ﷺ عنهم فلم يخرج إليهم فرفعوا أصواتهم وحصبوا الباب، فخرج إليهم مغضباً فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما زال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه سيكتب عليكم، فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإنَّ خير صلاة المرء في بيته إلاَّ الصلاة المكتوبة".

فهذا هدي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، يغضب إذا انتهكت حرمات الله، ولا ينتقم لنفسه، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً ولا امرأةً ولا دابّةً ولا شيئاً قط، إلاَّ أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء فانتقم لنفسه قط، إلاَّ أن تنتهك حرمات الله، فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله"[(١)].

والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام:

١- قسم يغضبون لنفوسهم ولربِّهم.

٢- وقسم يغضبون لنفوسهم ولا يغضبون لربِّهم.

٣- وقسم يغضبون لربهم ولا يغضبون لنفوسهم وهم الوسط الخيار[(٢)].

---

(١) البخاري (٥٦٦/٦ الفتح)، ومسلم (١٨١٤/٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٩٥/٢٨، ٢٩٦).

المبحث الثاني
ذِكر ما في قوله: "ما أراك إلاَّ مبتدعاً" من فائدة

لا ريب أنَّ هذا الرجل الذي قال في شأنه الإمام مالك ما قال قد ارتكب بدعة من البدع التي يُبدَّع قائلها، فعن أشهب بن عبد العزيز قال: سمعتُ مالك بن أنس يقول: "إيّاكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله: وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلّمون في أسمائه وصفاته، وكلامِه وعلمه وقدرته، لا يسكتون عمّا سكت الله عنه والصحابة والتابعون"[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والبدعة التي يُعدّ بها الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة، كبدعة الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة..."[٢].

ثمَّ إنَّ هذه البدع قد تصدر من شخص على وجه قد يكون يُعذر فيه، وقد تصدر على وجه لا يكون معذوراً فيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وإنَّما المقصود هنا أنَّ ما ثبت قُبحُه من البدع وغير البدع من المنهي عنه في الكتاب والسنة، أو المخالف للكتاب والسنة إذا صدر عن شخص من الأشخاص فقد يكون على وجه يُعذر فيه، إمَّا لاجتهاد أو تقليد يُعذر فيه، وإمَّا لعدم قدرته كما قد قرّرته في غير هذا الموضع، وقرّرته أيضاً في أصل التكفير والتفسيق المبنيِّ على أصل الوعيد.

فإنَّ نصوص الوعيد التي في الكتاب والسنة، ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها في حقِّ المعيّن، إلاَّ إذا وُجدت الشروط وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع، هذا في عذاب الآخرة فإنَّ

---

(١) رواه الصابوني في عقيدة السلف (ص: ٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/٤١٤).

المستحق للوعيد من عذاب الله ولعنته وغضبه في الدار الآخرة خالد في النار، أو غير خالد، وأسماء هذا الضرب من الكفر والفسق يدخل في هذه القاعدة، سواء كان بسبب بدعة اعتقادية أو عبادية، أو بسبب فجور في الدنيا، وهو الفسق بالأعمال.

فأمّا أحكام الدنيا فكذلك أيضاً، فإنَّ جهاد الكفار يجب أن يكون مسبوقاً بدعوتهم، إذ لا عذاب إلاَّ على من بلغته الرسالة، وكذلك عقوبة الفساق لا تثبت إلاَّ بعد قيام الحجّة"[١].

ولهذا إذا علم العالم المحقق من حال الرجل أنَّه غير معذور بدَّعه بعينِه، ووصفه بأنَّه مبتدع، وإذا كان بخلاف ذلك لم يبدِّعه، ولعلّه لأجل هذا قال الإمام مالك رحمه الله: "وما أُراك إلاَّ مبتدعاً"، وفي لفظ: "وما أُراك إلاَّ ضالاًّ"، وفي لفظ: "وإني لأظنّك ضالاًّ"، وفي لفظ: "وما أظنّك إلاَّ ضالاًّ"، وأُرى بمعنى: أظنّ، فلم يجزم رحمه الله بتبديعه، وفي لفظ قال: "أنت رجل سوء، صاحب بدعة"، وفرقٌ بين إطلاق الوصف على الشخص بأنَّه مبتدعٌ، وبين القول بأنّه صاحب بدعة، ولو فُرض أنَّ الإمام مالكاً رحمه الله قد بدَّعه بعينه فإنَّه يُحمل على أنّه عَلِم من حاله أنَّه وقع في الأمر المبتدَع على وجه لا يُعذر فيه، وممّا يقوِّي هذا أنَّ في بعض طرق القصة ما يشير إلى أنَّ هذا الرجل عنده شيء من التعنّت في هذه المسألة، وحبِّ الإثارة، والتمادي في الأمر، مما لا يكون إلاَّ في أهل الأهواء والبدع، ففي رواية سفيان للقصة: قال الرجل: "والله الذي لا إله إلا هو لقد سألت عن هذه المسألة أهلَ البصرة والكوفة والعراق فلم أجد أحداً وُفّق لما وُفّقَ إليه"[٢].

وعموماً فأهل العلم يفرّقون بين التعميم والتعيين في التكفير والتبديع والتفسيق، ولا يلحق شيء من هذه الأوصاف بإنسان معيّن إلاَّ وَفْق شروط وضوابط معلومة عند أهل العلم، والله أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٣٧١، ٣٧٢).

(٢) ولعل الرجل استفاد من هذا العلم الذي وُفّق إليه الإمام مالك رحمه الله.

المبحث الثالث

ذكر ما في قوله: "أخرجوه عني" من فائدة

لقد أمر الإمام مالك رحمه الله بإخراج هذا السائل تأديباً له، وصيانةً لمجلسه من أن يكون لأحد من أهل الأهواء مجال أن يخوض فيه برأي أو هوى أو تقرير باطل أو إثارة شبهات أو نحو ذلك.

قال أبو قلابة: "لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يُلبِّسوا عليكم ما تعرفون"[(١)].

وقال عمرو بن قيس الملائي: "كان يُقال: لا تجالس صاحب زيغ فيزيغ قلبك"[(٢)].

وقال مصعب بن سعد: "لا تجالس مفتوناً، فإنَّه لن يخطئك منه إحدى اثنتين: إمَّا أن يفتنك، وإمّا أن يؤذيك قبل أن تفارقه"[(٣)].

وقال الأوزاعي: "لا تمكّنوا صاحب بدعة من جدل فيورث قلوبكم من فتنة ارتياباً"[(٤)].

وقال أيوب السختياني: "دخل على محمد بن سيرين رجلٌ فقال: يا أبا بكر أقرأ عليك آية من كتاب الله لا أزيد على أن أقرأها ثم أخرج، فوضع أصبعيه في أذنيه، ثم قال: أحرج عليك إن كنت مسلماً لما خرجت من بيتي، قال: فقال: يا أبا بكر إني لا أزيد على أن أقرأ ثم أخرج، قال: فقال بإزاره يشدّه عليه وتهيّأ للقيام فأقبلنا

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (١/٤٣٥).

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/٤٣٦).

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/٤٤٢).

(٤) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص: ٣٥).

على الرجل فقلنا: قد حرج عليك إلاّ خرجت، أفيحلّ لك أن تخرج رجلاً من بيته، قال: فخرج، فقلنا: يا أبا بكر ما عليك لو قرأ آية ثم خرج، قال: إني والله لو ظننت أنَّ قلبي يثبت على ما هو عليه ما باليت أن يقرأ، ولكني خِفتُ أن يُلقيَ في قلبي شيئاً أجهد أن أخرجه من قلبي فلا أستطيع"(١).

لأجل هذا كان أئمة السلف يوصون بعدم مجالسة أهل الأهواء ويأمرون بإخراجهم من مجالسهم.

وهذا الرجل الذي أمر مالك رحمه الله بإخراجه من مجالسه قد خاض في متشابه القرآن الكريم، إذ الصفات من حيث الكنه والكيفية أمرها من المتشابه الذي لا يعلمه إلاّ الله، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾(٢).

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣) قالت: فقال رسول الله ﷺ: "فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم"(٤).

فأرشد صلوات الله وسلامه عليه إلى الحذر منهم واجتنابهم، وقصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صَبيغ بن عسل الذي كان يسأل عن

---

(١) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص: ٥٣).

(٢) سورة: آل عمران، الآية: (٧).

(٣) سورة: آل عمران، الآية: (٧).

(٤) البخاري (٨/٢٠٩ الفتح)، ومسلم (٤/٢٠٥٣).

متشابه القرآن مشهورة، رواها غير واحد من أهل العلم، وفيها تأديب عمر له، ونفيه إلى البصرة، وهو نوع من التعزير له ليتأدَّب "والتعزير منه ما يكون بالتوبيخ، وبالزجر بالكلام، ومنه ما يكون بالحبس، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطن، ومنه ما يكون بالضرب"(١).

قال الإمام الآجري رحمه الله بعد أن روى قصة عمر: "فإن قال قائل: فمن يسأل عن تفسير ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾(٢) استحق الضرب والتنكيل به والهجرة؟ قيل له: لم يكن ضرب عمر رضي الله عنه له بسبب هذه المسألة، ولكن لما تأدّى إلى عمر ما كان يسأل عنه من متشابه القرآن من قبل أن يراه، علم أنَّه مفتون، قد شغل نفسه بما لا يعود عليه نفعه، وعلم أنَّ اشتغاله بطلب علم الواجبات من علم الحلال والحرام أولى به، وتطلّب علم سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى به، فلما علم أنَّه مقبل على ما لا ينفعه، سأل عمرُ اللهَ تعالى أن يمكِّنه منه حتى يُنكِّل به، وحتى يحذر غيره، لأنَّه راعٍ يجب عليه تفقّد رعيّته في هذا وفي غيره، فأمكنه الله تعالى منه"(٣).

ولهذا فإنَّ من يخوض في المتشابه يستحق الزجر والتأديب ما يردعه ويجعله يكفُّ عن خوضه، روى يزيد بن هارون في مجلسه حديثَ إسماعيل بن خالد، عن قيس بن حازم، عن جرير بن عبد الله في الرؤية وقولَ رسول الله ﷺ: "إنَّكم تنظرون إلى ربِّكم كما تنظرون إلى القمر ليلة البدر" فقال له رجلٌ في مجلسه: يا أبا خالد ما معنى هذا الحديث؟ فغضب وحرد وقال: "ما أشبهك بصبيغ، وأحوجَك إلى مثل ما فُعل به، ويلك! ومن يدري كيف هذا؟ ومن يجوز له أن يجاوز هذا القول الذي جاء به

---

(١) الطرق الحكمية لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٢) سورة: الذاريات، الآية: (٢، ١).

(٣) الشريعة (١/٤٨٤، ٤٨٥).

الحديث أو يتكلّم فيه بشيء من تلقاء نفسه إلاّ من سفه نفسه واستخفّ بدينه؟ إذا سمعتم الحديث عن رسول الله ﷺ فاتّبعوه، ولا تبتدعوا فيه، فإنّكم إن اتّبعتموه ولم تُماروا فيه سلِمتم، وإن لم تفعلوا هلكتم"[١]. ثم إنّ مالكاً إضافة إلى ما تقدّم قد يكون قد راعى حُرمة المكان الذي هو فيه، إذا كان السائل قد أتاه في مسجد رسول الله ﷺ، روي عنه أنّه قال في قصة أخرى: "لا يُجتمع عند رجل مبتدع في مسجد رسول الله ﷺ"[٢]، هذا وبالله وحده التوفيق.

---

(١) أورده الصابوني في عقيدة السلف (ص: ٦٦).

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/٤٧٦).

الخاتمة

الحمد لله أوَّلاً وآخِراً، والشكر له ظاهراً وباطناً على توالي نِعمه وترادف مِننه، ونسأله سبحانه أن يوزعنا شكرها ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، وبعد:

فقد تمَّ في هذا البحث الحديث مفصّلاً عن الأثر المشهور عن الإمام مالك رحمه الله في جواب من سأله عن كيفية استواء الله على عرشه، وتبيّن فيه ثبوت هذا الأثر عنه رحمه الله، وأنَّ المسلمين تلقّوه بالقبول، وليس في أهل السنة من ينكره، بل إنَّ أهل العلم استحسنوه واستجودوه وائتموه به، وعدّوه أنبل جواب قيل في هذه المسألة، وجعلوه قاعدةً مطردة تطبق في جميع الصفات، فمن سأل عن كيفية أيٍّ صفة لله قيل له ما قاله الإمام مالك رحمه الله في جواب من سأله عن كيفية الاستواء، ولهذا يمكن أن نقول عموماً: "الصفات معلومة، وكيفياتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عن كيفياتها بدعة"، كما انتظم هذا البحث ذكر الشواهد على هذه الكلمة من الكتاب والسنة، وإيراد نظائر لها عن أئمة السلف رحمهم الله، واشتمل أيضاً على بيان مدلولات هذه الكلمة والأمور المستفادة منها، والرد على المخالفين والمحرِّفين، وإبطال ما قام به بعضهم من محاولةٍ لتحريف معنى هذا الكلام وصرفها عن معناها الصحيح، ثم ذِكر بعض الفوائد العامة المستفادة من القصة والسياق الذي وردت فيه هذه الكلمة، وإني لأرجو أن تكون هذه الدراسة أنموذجاً للعناية بالآثار المرويّة عن السلف رحمهم الله، وإعطائها حقّها من الدراسة

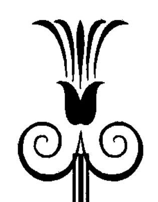
---

(١) سورة: النمل، الآية: (١٩).

والتحقيق واستخراج الفوائد، ولا سيما منها ما حظي بالشهرة الواسعة وتلقي الأمة له بالاستحسان والقبول.

ونسأل الله تعالى أن يجزي سلفنا الصالح عنَّا خير الجزاء على نصحهم للأمة وجهودهم المباركة وأعمالهم الوفيرة في نصرة السنة وقمع البدعة، إنَّه سبحانه سميع الدعاء وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين.



الرسالة الرابعة

الحوقلة

مفهومها، وفضائلها، ودلالاتها العقدية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، به سبحانه نستهدي، وإياه نستكفي، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليّ العظيم، وهو المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أما بعد:

فإنَّ للأذكار الشرعية مكانةً عالية في الدين، ومنزلة رفيعة في نفوس المؤمنين، وهي من أجل القربات، وأفضل الطاعات، ولها من الثمار اليانعة والفضائل المتنوعة والخيرات المتوالية في الدنيا والآخرة ما لا يحصيه ويحيط به إلاَّ الله عز وجل.

والكتاب والسنة مليئان بالشواهد العديدة والأدلَّةِ المتنوعة على فضل الذِّكرِ ورفيع قدره وعلو مكانته وكثرة عوائده وفوائده على أهله الملازمين له والمحافظين عليه.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

وقد أخرج الترمذي، وابن ماجه، والحاكم وقال: ((صحيح الإسناد))، ووافقه الذهبي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أنبِّئكم بخيرِ

(١) سورة الأحزاب، الآيات (٤١ - ٤٤).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٣٥).

أعمالِكم، وأزكَاها عند مَلِيكِكُم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذَّهب والوَرِق، وخيرٌ لكم مِن أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذِكر الله»[(١)].

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «سبق المفرِّدون، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: الذَّاكرون الله كثيراً والذَّاكرات»[(٢)].

وروى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَثلُ الذي يَذكرُ ربَّه والذي لا يذكر ربَّه مثلُ الحيِّ والميّت»[(٣)].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ثم إنَّ هذه الأذكار الشرعية إضافة إلى دلالة النصوص على عِظم فضلها وكثرة خيراتها وعوائدها، فإنَّها تمتاز بكمال معناها وجمالِ ألفاظِها وتنوُّع دلالاتها وقوة تأثيرها وشمولها لحقائق الإيمان وأبواب الخير، فهي من جوامع كلم الرسول الكريم ﷺ ومن محاسن هذا الدِّين العظيم، مع الأمن الكامل فيها من الشَّطَطِ والانحراف في المعاني والدلالات، أو التكلف والتقعُّر في الألفاظ والعبارات.

بل جاءت بألفاظ جزلة وكلمات مختصرة ودلالات عميقة، فهي يسيرٌ لفظُها ونطقها، عظيم معناها ومقصودها، كثير أجرها وثوابها، واسعة خيراتها ومنافعها، متعددة فوائدها وثمراتها.

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك وأرشد إليه بقوله عليه الصلاة والسلام في وصف

---

(١) سنن الترمذي (رقم: ٣٣٧٧)، سنن ابن ماجه (٣٧٩٠)، والمستدرك (١/٤٩٦)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٢٦٢٩).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ٢٦٧٦).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ٦٤٠٧).

أحد هذه الأذكار: «كَلِمَتَان حَبِيبتان إلى الرَّحمن، خفيفتان على اللِّسانِ، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[١].

وهذا شأن جميع الأذكار الشرعية خفيفةٌ على اللسان، ثقيلةٌ في الميزان، حبيبةٌ إلى الرحمن، مع التفاضل بينها والتمايز حسبما دلت عليه نصوص الشريعة.

ومع ما في الأذكار الشرعية من الكمال والجمال في معانيها ومبانيها إلاَّ أنَّك ترى في كثير من عوام المسلمين من يعدل عنها وينصرف إلى أذكار مخترعة وأدعية مبتدعة ليست في الكتاب ولا في السنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن أشدّ الناس عيباً من يتخذ حزباً ليس بمأثور عن النَّبيِّ ﷺ، وإن كان حزباً لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيّد بني آدم وحجة الله على عباده»[٢].

يضاف إلى ذلك ما لدى كثير من المسلمين من الجهل وعدم العلم بمعاني الأذكار الشرعية العظيمة ودلالاتها النافعة القويمة، مما يستوجب مضاعفة العناية بالأذكار النبوية علماً وتعليما، وشرحاً وبيانا، وتوضيحاً وتذكيرا، لتعلم مراميها، وتفهم مقاصدها، وتتضح دلالتها، لتؤدّي بذلك ثمراتها النافعة، وفوائدها الحميدة وخيرها المستمر.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»[٣].

هذا وإنَّ من الأذكار النبوية العظيمة التي كان يحافظ عليها رسول الله ﷺ، ويكثر من قولها، ويحثّ على الإكثار منها والعناية بها الحَوْقَلَة، وهي قول «لا حول ولا قوة إلاَّ بالله»، فإنَّ هذه الكلمة العظيمة لها من الفضائل والفوائد والثمار ما

---

(١) رواه البخاري (رقم: ٧٥٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٥٢٥).

(٣) الفوائد (ص: ٢٤٧).

لا يحصيه إلاَّ الله، وفيها من المعاني العميقة والدلالات المفيدة ما يثبت الإيمان، ويقوي اليقين، ويزيد صلة العبد بربّ العالمين.

ولما كان الأمر بهذه المثابة وعلى هذا القدر من الأهمية رأيت إفرادَ هذه الكلمة بهذا البحث الذي جعلته بعنوان:

الحَوْقَلَة: مفهومها، وفضائلها، ودلالاتها العقدية

ورغم أهمية هذا الموضوع وشدّة الحاجة إليه إلاَّ أنّي لَم أَرَ مَن أفرده بالتأليف سوى رسالتين:

إحداهما: لجلال الدين السيوطي، سَمَّاها: ((شرح الحَوْقَلَة والحيعلة))، وهي من أول تأليفه سنة (٨٨٦ هـ) كما في كشف الظنون للحاج خليفة[١]، ولَم أقف عليها.

الثانية: لجمال الدين يوسف بن عبد الهادي، أسماها: ((فضل لا حول ولا قوة إلاَّ بالله))، وهي مطبوعة، وقد خصَّها بذكر ما يتعلق بفضل هذه الكلمة.

وقد رأيت أن يكون طرقي لهذا الموضوع من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الحَوْقَلَة.

المبحث الثاني: فضائلها.

المبحث الثالث: دلالاتها العقدية.

المبحث الرابع: في التنبيه على بعض المفاهيم الخاطئة فيها.

ومن الله تبارك وتعالى أستَمِدُّ العونَ وأستَمْنِحُ التوفيقَ، فلا حول ولا قوة إلاَّ به، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



---

(١) كشف الظنون (٢/١٠٤٠)

المبحث الأول

مفهوم الحَوْقَلَة

أولاً: المراد بالحَوْقَلَة:

الحَوْقَلَة كلمةٌ منحوتة من «لا حول ولا قوة إلاَّ بالله»، وهذا الباب سماعي، وهو من الفعل الرباعي المجرد كما هو مقررٌ في كتب الصرف.

والنحت «هو أن ينحت من كلمتين أو أكثر كلمةً واحدة تدل على معنى الكلام الكثير، وذلك على النحو التالي:

أ - النحت من كلمتين مركبتين تركيباً إضافياً مثلما نحتوا من عبد قيس: عبقسي.

ب – النحت من جملة مثل: بسمل أي: قال بسم الله، حوقل، قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله»[(١)].

ويقال لها أيضاً «الحولقة»، قال النووي رحمه الله: «قال أهل اللغة: ويعبر عن هذه الكلمة بالحَوْقَلة والحَوْلَقَة ...»[(٢)].

وقال في موضع آخر: «ويقال في التعبير عن قولِهم لا حول ولا قوة إلاَّ بالله الحَوْقَلَة، هكذا قاله الأزهري والأكثرون، وقال الجوهري الحَوْلَقَة، فعلى الأول وهو المشهور الحاء والواو من الحول، والقاف من القوة، واللام من اسم الله تعالى، وعلى الثاني الحاء واللام من الحول، والقاف من القوة، والأول أولى لئلا يفصل بين

---

(١) التطبيق الصرفي للدكتور عبده الراجحي (ص: ٢٩).

وانظر للاستزادة: المبدع في التصريف لأبي حيان (ص: ١٠١)، المغني في تصريف الأفعال، لمحمد عبد الخالق عضيمة(ص: ١٠٧)، تصريف الأفعال ومقدمة الصرف، لعبد الحميد عنتر(ص: ١٢٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٧).

الحروف))[١].

ويلاحظ على هذا أمران:

١ – أنَّ الذي ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ونقله عن بعض أهل اللغة كالفراء وابن السكيت ((الحولقة)) وليس ((الحَوْقَلَة))[٢].

٢ – تعليل أولوية لفظ ((حوقل)) على لفظ ((حولق)) بحجة عدم الفصل بين الحروف غير واضح؛ لأنَّ ((حولق)) ليس فيها فصل بين الحروف.

ثانياً: معنى ((لا حول ولا قوة إلاَّ بالله)):

الحول: هو التحرك، يقال: حال الرجل في متن فرسه يحول حولاً وحوُولاً إذا وثب عليه، وحال الشخص إذا تحرك، وكذلك كلُّ متحول عن حاله[٣].

والقوة: هي الشدّة وخلاف الضعف، يقال: قوي الرجلُ، كرضي، فهو قويٌّ وتَقوَّى واقتوى أي: صار ذا شدّة، وقوّاه الله أي: أعطاه القوة وهي الشدّة وعدم الضعف[٤].

فمعنى لا حول ولا قوة إلاَّ بالله أي: لا تحول من حال إلى حال، ولا حصول قوة للعبد على القيام بأيٍّ أمر من الأمور، إلاَّ بالله، أي: إلاَّ بعونه وتوفيقه وتسديده، وقد ورد في بيان معنى هذه الكلمة وتوضيح المراد بها عن السلف وأهل العلم نقول عديدة من ذلك:

١ – قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في ((لا حول ولا قوة إلاَّ بالله))

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٨٧) ونقله الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ٣٨).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٣/ ٣٧٣)، و(١٣/ ١٥٦).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ١٢١)، ومجمل اللغة (١/ ٢٥٨) كلاهما لابن فارس.

(٤) انظر: معجم مقاييس اللغة (٥/ ٣٦)، ومجمل اللغة (٣/ ٧٣٦)، والقاموس المحيط للفيروزابادي (ص: ١٧١٠).

أي: «لا حول بنا على العمل بالطاعة إلاَّ بالله، ولا قوة لنا على ترك المعصية إلاَّ بالله» رواه ابن أبي حاتم[(١)].

٢ – وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال في معناها أي «لا حول عن معصية الله إلاَّ بعصمته، ولا قوة على طاعته إلاَّ بمعونته»[(٢)].

٣ – وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معناها أي: «أنا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك من دونه، ولا نملك إلاَّ ما ملكنا مِمَّا هو أملك به منا»[(٣)].

٤ – وسئل زهير بن محمد عن تفسير «لا حول ولا قوة إلاَّ بالله» فقال: «لا تأخذ ما تحبّ إلاَّ بالله، ولا تمتنع مما تكره إلاَّ بعون الله» رواه ابن أبي حاتم[(٤)].

٥ – وسئل أبو الهيثم الرازي (ت٢٧٦هـ) وهو إمام في اللغة عن تفسير «لا حول ولا قوة إلاَّ بالله» فقال: «الحول: الحركة، يقال حال الشخص إذا تحرك، فكأنّ القائل إذا قال: لا حول ولا قوة، يقول: لا حركة ولا استطاعة إلاَّ بمشيئة الله»[(٥)].

٦ – وقيل معناها: «لا حول في دفع شر، ولا قوة في تحصيل خير إلاَّ بالله»[(٦)].

وجميع هذه الأقوال متقاربة في الدلالة على المعنى المراد بهذه الكلمة العظيمة، ولهذا قال النووي –رحمه الله- بعد أن أورد بعض هذه الأقوال: «وكلُّه

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٩٣).

(٢) ذكره النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٧/٢٦).

(٣) ذكره ابن علان في الفتوحات الربانية (١/٢٤٢).

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٩٤).

(٥) تهذيب اللغة للأزهري (٥/٢٤٣).

(٦) ذكره النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٧/٢٦).

متقاربٌ)) [١].

ثالثاً: إعراب ((لا حول ولا قوة إلاَّ بالله)):

((لا)): نافية للجنس.

((حول)): اسم لا، مبني على الفتح في محل نصب، وخبرها محذوف، وتقديره كائن أو موجود.

((ولا)) الواو عاطفة، ولا نافية للجنس أيضا.

((قوة)) اسم لا، وخبرها محذوف، وتقديره كائنة أو موجودة.

((إلاَّ)) أداة استثناء.

((بالله)) جار ومجرور، متعلق بالخبر المحذوف.

وقد ذكر أهل اللغة أنَّه يجوز في إعراب ((لا حول ولا قوة إلاَّ بالله)) خمسة أوجه [٢]، بيانها كما يلي:

١ - ((لا حولَ ولا قوةَ إلاَّ بالله)) بفتحهما بلا تنوين.

٢ - ((لا حولَ ولا قوةً إلاَّ بالله)) بفتح الأول ونصب الثاني منوناً.

٣ - ((لا حولٌ ولا قوةٌ إلاَّ بالله)) برفعهما منونين.

٤ - ((لا حولَ ولا قوةٌ إلاَّ بالله)) بفتح الأول ورفع الثاني منوناً.

٥ - ((لا حولٌ ولا قوةَ إلاَّ بالله)) برفع الأول منوناً وفتح الثاني.

وإلى هذه الوجوه الخمسة يشير ابن مالك - رحمه الله - في ألفيته حيث يقول:

عملَ إنّ اجعل للا في نكرة مفردةً جاءتك أو مكررة

فانصب بها مضافاً أو مضارعه وبعد ذاك الخبر اذكر رافعه

---

(١) المصدر السابق (١٧/ ٢٧).

(٢) انظر: شرح ابن عقيل على الألفية (١/ ٣٩٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٧٤) وشرح صحيح مسلم للنووي (٤/ ٨٧)، (١٧/ ٢٥).

وركّب المفرد فاتِحاً كـلا حول ولا قوة والثان اجعلا
مرفوعاً أو منصوبا أو مركبا وإن رفعتَ أوّلاً لا تنصبا[(١)]

ثم إنَّ في هذه الكلمة صيغةً من صيغ الحصر وهي «إلاَّ»، بل عدّها السكاكي من أهم صيغ الحصر[(٢)].

قال الأخضري في أرجوزته مشيراً إلى صيغ الحصر:

وأدوات القصر إلاَّ إنّما عطفٌ وتقديم كما تقدّما[(٣)].

---

(١) متن الألفية (ص: ٢١).

(٢) انظر: مفتاح العلوم للسكاكي (ص: ٢٨٩).

(٣) منظومة الجوهر المكنون في علم البلاغة للأخضري (ص: ٢٩).

المبحث الثاني

فضائل ((لا حول ولا قوة إلاّ بالله))

لقد وردت نصوص كثيرة في السنة في بيان فضل هذه الكلمة وعظم شأنها، وقد تنوعت هذه النصوص في الدلالة على تشريف هذه الكلمة وتعظيمها، مما يدل بجلاء على عظم فضل هذه الكلمة ورفعة مكانتها، وأنها كلمة عظيمة ينبغي على كلّ مسلم أن يعنى بها ويهتمّ بها غاية الاهتمام، وأن يكثر من قولها لعظم فضلها عند الله، وكثرة ثوابها عنده، ولما يترتب عليها من خيرات متنوعة وفضائل متعددة في الدنيا والآخرة، ومما يدل على فضل هذه الكلمة العظيمة ما يلي:

١ ـ أنَّها وردت في عدة أحاديث مضمومة إلى الكلمات الأربع الموصوفة بأنها أحبّ الكلام إلى الله.

فقد ثبت في المسند وسنن الترمذي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما على الأرض رجلٌ يقول لا إله إلاّ الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، إلاّ كُفِّرت عنه ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر))[1].

وثبت في سنن أبي داود والنسائي والدار قطني وغيرهم عن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لا أستطيع أن أتعلم القرآن فعلّمني شيئاً يجزيني قال: ((تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله))، فقال الأعرابي هكذا وقبض يديه فقال: هذا لله فمالي، قال: ((تقول: اللّهمَّ اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني واهدني))

---

(١) المسند (٢/ ١٥٨، ٢١٠)، وسنن الترمذي (رقم: ٣٤٦)، ومستدرك الحاكم (١/٥٠٣)، وصحيح الجامع (رقم:٥٦٣٦).

فأخذها الأعرابي وقبض كفيه، فقال النبي ﷺ: ((أمَّا هذا فقد ملأ يديه بالخير))[١].

٢ ـ ورودها معدودةً في الباقيات الصالحات التي قال الله عنها: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[٢].

فقد روي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والحمد ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله))، رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم[٣]، وفي إسناده أبو السمح دراج بن سمعان صدوق، في حديثه عن أبي الهيثم ضعف[٤]، وهذا منها.

لكن جاء عدُّ لا حول ولا قوة إلاَّ بالله في جملة ((الباقيات الصالحات)) عن غير واحد من الصحابة والتابعين، فقد روى الإمام أحمد في مسنده أنَّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه سُئل عن ((الباقيات الصالحات)) ما هي؟ فقال: ((هي لا إله إلاَّ الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله))[٥].

وروى ابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه سئل عن ((الباقيات الصالحات)) فقال: لا إله إلاَّ الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله[٦].

---

(١) سنن أبي داود (رقم: ٨٣٢)، وسنن النسائي (٢ /١٤٣)، وسنن الدار قطني (١/٣١٣ - ٣١٤).
قال أبو الطيب العظيم آبادي في تعليقه على سنن الدار قطني: ((سنده صحيح)).
وقال الألباني في صحيح أبي داود (١/١٥٧): ((سنده حسن)).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٤٦).

(٣) المسند (٣/٧٥)، وصحيح ابن حبان (الإحسان) (رقم: ٨٤٠)، والمستدرك (١/٥١٢).

(٤) انظر: تقريب التهذيب (٢٠١).

(٥) المسند (١/٧١).

(٦) تفسير الطبري (١٥/٢٥٥).

وروى مالك عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب قال: ((الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله))(١).

وروى ابن جرير الطبري عن عمارة بن صياد قال: ((سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، قال: لَم تصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لَم تصب، ولكنَّهنَّ الكلمات الخمس: لا إله إلاَّ الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله))(٢).

وأثر ابن المسيب هذا يوهم أنَّ ((الباقيات الصالحات)) محصورةٌ في هؤلاء الكلمات الخمس، والذي عليه المحققون من أهل العلم أنَّ ((الباقيات الصالحات)) هنَّ جميع أعمال الخير، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قال: ((هي ذكر الله، قول لا إله إلاَّ الله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، واستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض))(٣).

٣ ـ إخبار النبي ﷺ أنَّها كنزٌ من كنوز الجنة.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فكنا إذا علونا كبّرنا، وفي رواية: فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط في واد إلاَّ رفعنا أصواتنا بالتكبير، فقال النبي ﷺ: ((أيها الناس أربعوا

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٢٥٤).

(٢) تفسير الطبري (١٥/٢٥٦).

(٣) تفسير الطبري (١٥/٢٥٦).

على أنفسكم فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، ولكن تدعون سميعاً بصيراً))، ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فقال: ((يا عبد الله بن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله فإنَّها كنزٌ من كنوز الجنة))، أو قال: ((ألا أدلك على كلمة هي كنزٌ من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلاَّ بالله))(١).

قال بعض أهل العلم في التعليق على هذا الحديث: ((كان عليه الصلاة والسلام معلِّماً لأمته فلا يراهم على حالة من الخير إلاَّ أحبّ لهم الزيادة، فأحب للذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير أن يضيفوا إليها التبري من الحول والقوة فيجمعوا بين التوحيد والإيمان بالقدر))(٢)، وقد جاء في الحديث: ((إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، قال الله: أسلم واستسلم)) رواه الحاكم بإسناد قال عنه الحافظ ابن حجر: ((قوي))(٣).

وفي رواية: ((ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فيقول الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم)) رواه الحاكم وقال: ((صحيح ولا يحفظ له علة)) ووافقه الذهبي.

قال النووي رحمه الله: ((ومعنى الكنز هنا أنَّه ثواب مدخرٌ في الجنة، وهو ثوابٌ نفيسٌ كما أنَّ الكنز أنفس أموالكم))(٤).

وقال ابن حجر رحمه الله: ((كنزٌ من كنوز الجنة من حيث أنَّه يدخر لصاحبها من الثواب ما يقع له في الجنة موقع الكنز في الدنيا؛ لأنَّ من شأن الكانز أن يعد كنزه

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ٤٢٠٥، ٦٣٨٤)، وصحيح مسلم (رقم: ٢٧٠٤).

(٢) فتح الباري (١١/٥٠١)

(٣) فتح الباري (١١/٥٠١).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٢٦).

لخلاصه مما ينوبه والتمتع به فيما يلائمه))[١].

٤ ـ ورود الأمر بالإكثار منها والإخبار أنَّها من غراس الجنة.

روى الإمام أحمد والترمذي وابن حبان وغيرهم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ ليلة أسري به مرَّ على إبراهيم، على نبينا وعليه الصلاة والسلام فقال: ((يا محمد مُرْ أمَّتَك أن يكثروا من غراس الجنة، قال: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله))[٢].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: ((أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلاَّ بالله؛ فإنَّها كنزٌ من كنوز الجنة))[٣].

٥ ـ إخبار النبي ﷺ أنَّها بابٌ من أبواب الجنة.

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم عن قيس بن سعد بن عبادة أنَّ أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه قال: فمرّ بي النبي ﷺ وقد صليت فضربني برجله وقال: ((ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟ قلت: بلى، قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله))[٤].

٦ ـ تصديق الله لمن قالها.

روى ابن ماجه، والترمذي، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم عن أبي إسحاق عن الأغر أبي مسلم، أنَّه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنَّهما شهدا على رسول الله ﷺ أنَّه قال: ((إذا قال العبد: لا إله إلاَّ الله والله أكبر،

---

(١) نقله ابن علان في الفتوحات الربانية (١/٢٣٨).

(٢) المسند (٥/٤١٨)، وصحيح ابن حبان (الإحسان) (رقم: ٨٢١).

(٣) المسند (٢/٣٣٣)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم: ١٥٢٨).

(٤) المسند(٣/٤٢٢)، والمستدرك (٤/٢٩٠)، وانظر: الصحيحة (٤/٣٥ ـ ٣٧).

قال: يقول الله تبارك وتعالى: صدق عبدي لا إله إلاَّ أنا وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلاَّ الله وحده، قال: صدق عبدي لا إله إلاَّ أنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلاَّ الله لا شريك له، قال: صدق عبدي لا إله إلاَّ أنا لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلاَّ الله له الملك وله الحمد، قال: صدق عبدي، لا إله إلاَّ أنا لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلاَّ الله ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، قال: صدق عبدي لا إله إلاَّ أنا ولا حول ولا قوة إلاَّ بي)).

ثم قال الأغر شيئاً لَم أفهمه، قلتُ لأبي جعفر: ما قال؟ قال: ((من رُزِقهنّ عند موته لَم تمسّه النار)).

وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الشيخ الألباني رحمه الله: ((وهو حديث صحيح))[١].

قال ابن القيم رحمه الله: ((الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبدَه، فإنَّ الذاكر يخبر عن الله تعالى بأوصاف كماله ونعوت جلاله، فإذا أخبر بها العبد صدَّقه ربُّه، ومن صدّقه اللهُ تعالى لَم يحشر مع الكاذبين، ورجي له أن يحشر مع الصادقين))[٢].

فهذه بعض الفضائل الدالة على عظم مكانة هذه الكلمة، ورفعة شأنها، وكثرة عوائدها وفوائدها، وعظم ما يترتب عليها من أجور عظيمة وخيرات جليلة وفوائد متنوعة في الدنيا والآخرة.

وقد نظم ابن العراقي ـ رحمه الله ـ جملةً من الفضائل الواردة لهذه الكلمة في أبيات لطيفة فقال:

---

(١) سنن ابن ماجه (رقم: ٣٧٩٤)، وسنن الترمذي (رقم: ٣٤٣٠)، وصحيح ابن حبان (رقم: ٨٥١)، ومستدرك الحاكم (١/٥)، والسلسلة الصحيحة (رقم: ١٣٩٠).

(٢) الوابل الصيب (ص: ١٦٠).

يـا صـاح أكـثر قـول لا حـول ولا قـــوة إلاّ فهـــــي للـــــدّاء دوا
وإنّهــا كـــنز مـــن الجــنّــة يـــا فـــوز امـــرئ لِجَـــنّة المــأوى أوا
لـــه يقـــول ربـــنا أســـلم لـــي عـــبدي واستســـلم رضـــياً هـــوا

وأنشد أيضاً لنفسه:

تـــبرّأ مـــن الحـــول والقـــوة تـــنل أيّ كـــنز مـــن الجـــنة
وســـلّم أمـــورك لله كـــي تبيـــت وتصـــبح فـــي جـــنة
ولا تـــرج إن مـــسّ خطـــب ســـوى إلهـــك ذي الفضـــل والمـــنة
وواظـب عـلى الخير واحرص على أداء الفـــرائـــض والســـــنة
وكـــن ســـالم الصـــدر للمســـلميـن مـــن غـــلّ وحـــقد ومـــن ظـــنّةٍ[1]

❖ ❖ ❖

(١) انظر: فضل لا حول ولا قوة إلاّ بالله، لابن عبد الهادي (ص: ٣٩ ـ ٤٠).

المبحث الثالث

دلائل ((لا حول ولا قوة إلاَّ بالله)) العقدية

إنَّ هذه الكلمة العظيمة التي سبق ذكر بعض فضائلها وبيان شيء من ميزاتها ومحاسنها ذاتُ دلالات عميقة ومعان جليلة تشهد بحسنها، وتدل على كمالها وعظم شأنها وكثرة عوائدها وفوائدها.

وإنَّ أحسن ما يستعان به على فهم دلالاتها ومعرفة معانيها ومقاصدها قولُ النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: ((ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فيقول الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم))[(١)].

وقد روى ابن عبد الهادي في كتابه ((فضل لا حول ولا قوة إلاَّ بالله)) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((من قال بسم الله فقد ذكر اللهَ، ومن قال الحمد لله فقد شكر الله، ومن قال: الله أكبر فقد عظّم اللهَ، ومن قال: لا إله إلاَّ الله فقد وحّد الله، ومن قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله فقد أسلم واستسلم وكان له بها كنزٌ من كنوز الجنة))[(٢)].

وروي عن ابن عمر أنَّه قال: ((سبحان الله هي صلاة الخلائق، والحمد لله كلمة الشكر، ولا إله إلاَّ الله كلمة الإخلاص، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، قال الله تعالى: أسلم واستسلم))[(٣)].

فهي كلمة إسلام واستسلام، وتفويض وتبرّؤٍ من الحول والقوّة إلاَّ بالله، وأنَّ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فضل لا حول ولا قوة إلاَّ بالله لابن عبد الهادي (ص: ٣٥).

(٣) رواه رزين كما في مشكاة المصابيح للتبريزي (٢/٧١٨).

العبد لا يملك من أمره شيئاً، وليس له حيلةٌ في دفع شر، ولا قوةٌ في جلب خير إلاّ بإرادة الله تعالى، فلا تحوّل للعبد من معصية إلى طاعة، ولا من مرض إلى صحة، ولا من وهن إلى قوة، ولا من نقصان إلى كمال وزيادة إلاّ بالله، ولا قوة له على القيام بشأن من شؤونه، أو تحقيق هدفٍ من أهدافه أو غاية من غاياته إلاّ بالله العظيم، فما شاء الله كان، وما لَم يشأ لَم يكن، فأزمّةُ الأمور بيده سبحانه، وأمور الخلائق معقودةٌ بقضائه وقدره، يصرفها كيف يشاء ويقضي فيها بما يريد، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء، على الوجه الذي يشاء من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدّم ولا تأخر، له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة والفضل، وله الثناء الحسن، شملت قدرته كلَّ شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[1]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[2]، ومن كان هذا شأنه فإنَّ الواجب الإسلامُ لألوهيته والاستسلام لعظمته، وتفويض الأمور كلّها إليه، والتبرّؤُ من الحول والقوة إلاّ به، ولهذا تعبّد الله عباده بذكره بهذه الكلمة العظيمة التي هي باب عظيم من أبواب الجنة وكنز من كنوزها.

فهي كلمة عظيمةٌ تعني الإخلاص لله وحده بالاستعانة، كما أنَّ كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله تعني الإخلاص لله بالعبادة، فلا تتحقق لا إله إلاّ الله إلاّ بإخلاص العبادة كلّها لله، ولا تتحقق لا حول ولا قوة إلاّ بالله إلاّ بإخلاص الاستعانة كلّها لله، وقد جمع الله بين هذين الأمرين في سورة الفاتحة أفضل سورة في القرآن، وذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ فالأوّل تبرّؤٌ من الشرك، والثاني تبرّؤٌ من

---

(١) سورة يس، الآية (٨٢).

(٢) سورة فاطر، الآية (٢).

الحول والقوّة، وتفويضٌ إلى الله عز وجل، والعبادة متعلّقة بألوهية الله سبحانه، والاستعانة متعلّقة بربوبيّته، العبادة غاية، والاستعانة وسيلة، فلا سبيل إلى تحقيق تلك الغاية العظيمة إلاّ بهذه الوسيلة: الاستعانة بالله الذي لا حول ولا قوة إلاّ به.

ويمكن أن نلخص الدلالات العقدية لهذه الكلمة العظيمة في النقاط التالية:

١ ـ أنَّها كلمة استعانة بالله العظيم، فحريٌّ بقائلها والمحافظ عليها أن يظفر بعون الله له وتوفيقه وتسديده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقول (لا حول ولا قوة إلاّ بالله) يوجب الإعانةَ؛ ولهذا سنّها النبي ﷺ إذا قال المؤذّن: حيّ على الصلاة، فيقول المجيب: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، فإذا قال: حي على الفلاح، قال المجيب: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وقال المؤمن لصاحبه: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[(١)]، ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء، فقوله: ما شاء الله، تقديره: ما شاء الله كان، فلا يأمن؛ بل يؤمن بالقدر ويقول: لا قوّة إلاّ بالله، وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتفق عليه: أنَّ النبي ﷺ قال: «هي كنز من كنوز الجنة»، والكنز مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع؛ وذلك أنَّها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى.

ومعلوم أنَّه لا يكون شيء إلاّ بمشيئة الله وقدرته، وأنَّ الخلق ليس منهم شيء إلاّ ما أحدثه الله فيهم، فإذا انقطع طلب القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذي لا يأتي بها إلاّ هو، قال تعالى ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الكهف، الآية (٣٩).

(٢) سورة فاطر، الآية (٢).

بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ ﴾[3].

وقال صاحب يس: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[4]، ولهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده في غير موضع، وفي الأثر: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده»[5].

ولهذا ورد في السنة مشروعية قول هذه الكلمة عند خروج المسلم من منزله لقضاء أموره الدينية أو الدنيوية استعانةً بالله واعتماداً عليه، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسم الله، توكلت على الله لا حول ولا قوة إلاَّ بالله تعالى، يقال له: كفيت، ووقيت، وهديت، وتنحى عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي» رواه أبو داود والترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح»[6].

---

(١) سورة يونس، الآية (١٠٧).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٧).

(٣) سورة الزمر، الآية (٣٨).

(٤) سورة يس، الآيتان (٢٣ ـ ٢٤).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/٣٢١ - ٣٢٢).

(٦) أبو داود (رقم: ٥٠٩٥)، والترمذي (رقم: ٣٤٢٦) وصححه الألباني في تحقيقه للكلم الطيب لابن تيمية (ص: ٤٩).

ولهذا أيضاً جعل بعض أهل العلم هذه الكلمة في مستهل ومفتتح مؤلفاتهم طلباً للإعانة من الله عز وجل كما في مقدمة صريح السنة للطبري، والأربعين في دلائل التوحيد للهروي، والصفات للدار قطني وغيرها.

٢ ـ تضمنها الإقرار بربوبيّة الله وأنّه وحده الخالق لهذا العالَم، المدبِّر لشؤونه، المتصرف فيه بحكمته ومشيئته، لا يقع شيءٌ في هذا العالم من حركة أو سكون، أو خفض أو رفع، أو عز أو ذل، أو عطاء أو منع إلاّ بإذنه، يفعل ما يشاء ولا يُمانع ولا يُغالب، بل قد قهر كلَّ شيء، ودان له كلُّ شيء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ﴾[3]، فالقائل لتلك الكلمة مقرٌّ بهذا، مذعن به، معترف أنَّ أموره كلَّها بيد ربّه ومليكه وخالقه لا قدرة له على شيء ولا حول ولا قوة إلاّ بإذن ربّه ومولاه، وبتوفيق سيّده ومليكه، ولهذا إليه يلجأ، وبه يستعين، وعليه يعتمد في كلِّ أحواله وفي جميع شؤونه.

٣ ـ تضمنها الإقرار بأسماء الله وصفاته، إذ القائل لهذه الكلمة ـ ولا بد ـ مقرٌّ بأنَّ المدعو المقصود الملتجأ إليه بهذه الكلمة غنيٌّ بذاته، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، قائم بذاته، وكلُّ ما سواه لا يقوم إلاّ به، قديرٌ لذاته، وكلُّ ما سواه عاجز لا قدرة له إلاّ بما أقدره، متصف بجميع صفات الكمال ونعوت العظمة والجلال، وكلُّ ما سواه ملازمه النقص، وليس الكمال المطلق إلاّ له سبحانه وتعالى، فلعظمة أسمائه وكمال نعوته وصفاته استحق أن يقصد وحده، وأن لا يلجأ إلاّ إليه.

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٥٤).

(٢) سورة فاطر، الآية (٢).

(٣) سورة يونس، الآية (٣).

٤ ـ وفي هذا دلالةٌ وإشارة إلى التلازم بين التوحيد العلمي بقسميه: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، والتوحيد العملي الذي هو توحيد الألوهية.

فإنَّ العبد إذا أقرّ بربوبية الله وكماله في أسمائه وصفاته فإنَّ ذلك يستلزم أن لا يلجأ إلاَّ إليه، ولا يقصد أحداً سواه، وإن لَم يفعل ذلك فإنَّه لا يكون موحداً بمجرد إقراره بربوبيّة الله وإيمانه بأسماء الله وصفاته، فلو أقرّ بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كلِّ ما ينزه عنه، وأقرّ بأنه وحده خالق كلِّ شيء لَم يكن من أهل الإيمان والتوحيد ما لَم يشهد أنَّه لا إله إلاَّ الله، ويعمل بمقتضى ذلك فلا يعبد إلاَّ إيّاه، ولا يتوكل إلاَّ عليه، ولا يعمل إلاَّ لأجله.

٥ ـ تضمنها الإقرار بألوهية الله، وأنَّه وحده المعبود بحق ولا معبود بحق سواه، وذلك في قوله «إلاَّ بالله».

والله معناه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين»[(١)]، وقد جمع ﷺ في هذا التفسير بين ذكر الألوهية وهي الوصف المتعلق بالله من هذا الاسم فهو سبحانه المألوه المعبود المرجو المطاع الذي لا يستحق العبادة أحدٌ سواه، وبين وصف العبد وهو العبودية؛ إذ إنَّ عباد الله هم الذين يعبدونه ويألهونه ويقومون بطاعته وحده لا شريك له.

ثم إنَّ هذا الاسم مستلزمٌ لجميع أسماء الله الحسنى دالٌ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين له، ولهذا كان من خصائص هذا الاسم أنَّ الله جلّ وعلا يضيف سائر الأسماء إليه كقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[(٢)]، ويقال: العزيز الحكيم الرحيم من أسماء الله، ولا يقال الله من أسماء الرحمن، فلهذا الاسم شأنه ومكانته وخصائصه.

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١/٥٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٨٠).

قال ابن منده رحمه الله: «فاسم الله معرفة ذاته، منع الله عز وجل خلْقَه أن يتسمّى به أحدٌ من خلقه، أو يدعى باسمه إله من دونه، جعله أوّلَ الإيمان، وعمود الإسلام، وكلمة الحق والإخلاص، ومخالفة الأضداد والإشراك فيه، يحتجز القائل من القتل، وبه تفتتح الفرائض وتنعقد الأيمان، ويستعاذ من الشيطان، وباسمه يفتتح ويختم الأشياء، تبارك اسمه ولا إله غيره»[(١)].

٦ ـ تضمنها الإيمان بقضاء الله وقدره، ولهذا ترجم لها الإمام البخاري في كتاب القدر من صحيحه بقوله: «باب: لا حول ولا قوة إلاّ بالله»، ودلالة هذه الكلمة على الإيمان بالقدر ظاهرة؛ إذ فيها تسليم العبد واستسلامه وتبرّؤه من الحول والقوة، وأنَّ الأمورَ إنَّما تقع بقضاء الله وقدره.

قال ابن بطال: «كان عليه الصلاة السلام معلّماً لأمته فلا يراهم على حالة من الخير إلاّ أحبّ لهم الزيادة، فأحبّ للذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير أن يضيفوا إليها التبرّي من الحول والقوّة فيجمعوا بين التوحيد والإيمان بالقدر»[(٢)].

٧ ـ أنَّ فيها معنى الدعاء الذي هو روح العبادة ولبُّها، وقد ذكر الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في كتاب الدعوات من صحيحه باباً بعنوان: «باب قول لا حول ولا قوّة إلاّ بالله»، فهي من جملة الأدعية النبوية النافعة المشتملة على معاني الخير وجوامع الكلم.

٨ ـ أنَّ فيها الإيمان بمشيئة الله النافذة، وأنَّ ما شاء الله كان وما لَم يشأ لَم يكن، وأنّ مشيئة العبد تحت مشيئة الله، كما قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(٣)]، فلا قدرة للعبد على القيام بما

---

(١) التوحيد لابن منده (٢/٢١).

(٢) فتح الباري (١١/٥٠١).

(٣) سورة التكوير، الآيتان (٢٨ ـ ٢٩).

يشاء من الخير وما يريده من المصالح إلاَّ أن يشاء الله، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾(١).

٩ ـ أنَّ فيها الإقرارَ من العبد بفقره واحتياجه إلى ربّه في جميع أحواله وكافة شؤونه، كما قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ ﴾(٢).

وقد بيّن الله سبحانه في هذه الآية الكريمة أنَّ فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، وهو ثابتٌ لهم لذواتهم وحقائقهم من كلِّ وجه، لا غنى لهم عن ربّهم وسيّدهم طرفة عين ولا أقلّ من ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله: «اعلم أنَّ كلَّ حي ـ سوى الله ـ فهو فقيرٌ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضرّه، والمنفعة للحيّ من جنس النعيم، واللذّة والمضرّة من جنس الألم والعذاب، فلا بد من أمرين: أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع به ويتلذذ به، والثاني هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع لحصول المكروه والدافع له بعد وقوعه.

فهاهنا أربعة أشياء: أمر محبوب مطلوب الوجود، والثاني أمر مكروه مطلوب العدم، والثالث الوسيلة إلى حصول المحبوب، والرابع الوسيلة إلى دفع المكروه، فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكلِّ حي سوى الله، لا يقوم صلاحه إلاَّ بها.

إذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب

---

(١) سورة الكهف، الآية (٣٩).

(٢) سورة فاطر، الآية (١٥).

غيره، وما سواه هو المكروه المطلوب بعده، وهو المعين على دفعه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ فإنَّ هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه، فالأوّل من مقتضى ألوهيّته، والثاني من مقتضى ربوبيّته»[١].

١٠ ـ أهمية الارتباط بالله في جميع الأمور الدينية والدنيوية، وإذا صح هذا الأمر من العبد قوي يقينه وزاد إخلاصه وعظمت ثقته بالله، والمؤمن الصادق يصحبه هذا الأمر في كلِّ أحواله وجميع شؤونه، فهو في صلاته وصيامه وحجه وبره وغير ذلك من أمور دينه يطلب الحولَ والقوّة على تحقيق ذلك والقيام به وتتميمه من الله تعالى، وفي جلبه للرزق وطلبه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه يطلب الحول والقوة على تحصيل ذلك ونيله من الله تبارك وتعالى، فهو معتمد على الله في جلب حوائجه وحظوظه الدنيوية ودفع مكروهاته ومصائبه، ومعتمد على الله في حصول ما يحبّه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والصلاة والصيام والحج والجهاد والدعوة وغير ذلك.

١١ ـ أنَّ فيها رداً على القدريّة النفاة، الذين ينفون قدرة الله ويجعلون العبد هو الخالق لفعل نفسه دون أن يكون لله عليه قدرة، فقول العبد «لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله» فيه إثبات القدرة والمشيئة لله، وأنّ حول العبد وقوّته إنَّما يكون بالله، ولهذا كانت هذه الكلمة متضمنةً الردّ على القدريّة النافين لذلك.

قال ابن بطال: «هذا بابٌ جليل في الردّ على القدرية؛ وذلك أنَّ معنى لا حول ولا قوة إلاَّ بالله أي: يخلق الله له الحول والقوّة وهي القدرة على فعله للطاعة أو المعصية كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنَّ الباري تعالى خالق لحول العبد وقدرته

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٥٣).

على مقدوره، وإذا كان خالقاً للقدرة فلا شك أنَّه خالق للشيء المقدور))[١].

١٢ ـ أنَّ فيها رداً على الجبرية النافين لمشيئة العبد وقدرته القائلين بأنَّ الإنسان مجبور على فعل نفسه، وأنَّه كالورقة في مهب الريح لا حول له ولا قدرة، فقول ((لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله)) متضمنٌ إبطال ذلك وتكذيبه، وذلك لتضمنها إثبات القوّة والحول للعبد، وأنَّ ذلك إنَّما يقع له بمشيئة الله وقدرته ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢].

فهذه بعض دلالات هذه الكلمة العظيمة، وشيء من معانيها الجليلة الدالة على رفعة مكانتها وعظم شأنها وكثرة فوائدها وعوائدها والله تعالى أعلم.

---

(١) نقله ابن علان في الفتوحات الربانية (١/٢٤٢ ـ ٢٤٣).

(٢) سورة التكوير، الآيتان (٢٨ ـ ٢٩).

المبحث الرابع

في التنبيه على بعض المفاهيم الخاطئة حول

((لا حول ولا قوّة إلاّ بالله))

مرَّ معنا في المباحث السابقة معنى هذه الكلمة العظيمة وشيء من فضائلها، وذكر جملة من دلائلها العقدية، وسيكون الحديث في هذا المبحث عن ذكر بعض المفاهيم الخاطئة المتعلقة بهذه الكلمة سواء في لفظها أو في معناها.

١ ـ فمن ذلك أنَّ من الناس من يخطئ في استعمال هذه الكلمة فيجعلها كلمة استرجاع ولا يفهم منها معنى الاستعانة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((وذلك أنَّ هذه الكلمة (أي: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله) هي كلمة استعانة لا كلمة استرجاع، وكثيرٌ من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً))[1].

٢ ـ ومن ذلك ما حكاه بعض أهل اللغة أنّه يقال فيها ((لا حيل ولا قوّة إلاّ بالله))[2].

قال النووي رحمه الله: ((وحكى الجوهري لغةً غريبة ضعيفة أنَّه يقال لا حيل ولا قوّة إلاّ بالله بالياء، وقال الحيل والحول بمعنى))[3].

٣ ـ ومن ذلك اختصار بعض العوام لها عند نطقها بقولهم ((لا حول الله))، وهذا من الاختصار المخلِّ، مع ما فيه من الغفلة عن كمال الأذكار الشرعية في مبانيها ومعانيها.

---

(١) الاستقامة (٢/٨١).

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٥/٢٤٤)، والصحاح للجوهري (٤/١٦٨٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٤/٨٧).

وقد سُئل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ عن ذلك فقال: ((كأنّهم يريدون ((لا حول ولا قوّة إلاّ بالله)) فيكون الخطأ فيها في التعبير، والواجب أن تعدل على الوجه الذي يراد بها فيقال ((لا حول ولا قوّة إلاّ بالله))[1].

٤ ـ ومن ذلك تحريف معناها عن غير وجهه وصرف دلالاتها عن مقصودها بالتأويلات البعيدة والتحريفات الباطلة، كقول يحيى بن ربيع الأشعري ((فإنّها ـ أي كلمة لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ـ توقف على كلٍّ جهة ما يليق بها، وتجعل للعبد قدرة كسبية حالية، وتجعل الإسناد للرب سبحانه وتعالى عن كلٍّ شريك في ذاته وصفاته وأفعاله، وتثبت الاقتدار من العبد، وتثبت أحوالاً بلا واسطة وقدرة في جبر، وهذا من الحكم العجيب جاءهم ليوافق قوله لا حول ولا قوّة إلاّ بالله على نصّها من غير تأويل))[2].

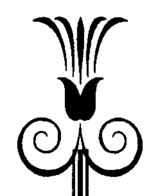
قلت: بل هو عين التأويل الباطل، حيث جعل هذه الكلمة دالة على قول الأشاعرة بأنَّ العبد له قدرة غير مؤثرة يسمونها الكسب، ومحصل ذلك تقرير قول الجبرية القائلين بنفي القدرة عن العبد؛ إذ لا فرق بين من يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، وبين من ينفي قدرته أصلاً، ولهذا صرح هنا بأنّها ((قدرة في جبر)) لأنّها قدرة غير مؤثرة، وغاية ذلك أنَّ العبد مجبور على فعل نفسه كقول الجهمية سواء، والله أعلم.

وختاماً فإني أحمد الله الكريم على ما منّ به ويسر من إعداد هذا البحث، وأسأله سبحانه أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله نافعاً لعباده، إنّه جوّاد كريم، وهو سبحانه أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) مجموع فتاواه ورسائله رحمه الله، جمع فهد السليمان (١٢٩/٣).

(٢) الفتوحات الربانية (٢٤٢/١).



الرسالة الخامسة

فضائل الكلمات الأربع

(سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على إمام المرسلين، نبينا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد: فإنَّ الله عز وجل قد خصَّ أربع كلماتٍ بفضائلَ عظيمةٍ، وميزاتٍ جليلةٍ تدل على عظم شأنهنَّ، ورفعة قدرهنَّ، وعلو مكانتهنَّ، وتميزهنّ على ما سواهنّ من الكلام، وهنّ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ورد في فضلهنّ نصوصٌ كثيرةٌ تدل دلالةً قويةً على عظم شأن هؤلاء الكلمات وما يترتب على القيام بهنَّ من أجور عظيمةٍ وأفضالٍ كريمةٍ وخيراتٍ متواليةٍ في الدنيا والآخرة، وقد رأيت أنَّ من المفيد جمعَ جملةٍ منها في مكانٍ واحدٍ، وهي في الأصل جُزءٌ من كتابي (فقهُ الأدعية والأذكار) رغب بعضُ أفاضل الإخوة الكرام أن تفرد في رسالةٍ مستقلةٍ؛ ليعمَّ نفعُها، وتكثر فائدتُها، بإذن الله تعالى.

فإليك ـ أخي المسلم ـ هذه الفضائل فتأملها بأناةٍ عسى أن يكون فيها تحفيزٌ للهمم، وتنشيطٌ للعزائم، وعونٌ على المحافظة على هؤلاء الكلمات، والله وحده الموفقُ، والمعينُ على كلِّ خير، ولا حول ولا قوة إلاَّ به العلي العظيم.

١ - فمن فضائل هؤلاء الكلمات: أنَّهنَّ أحبُّ الكلام إلى الله، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله تعالى أربعٌ، لا يضرُّك بأيّهنَّ بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[1]، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده بلفظ: «أربعٌ هنَّ من أطيب الكلام، وهنَّ من القرآن، لا يضرك بأيّهنَّ بدأت: سبحان الله، والحمد لله،

(١) صحيح مسلم (رقم: ٢١٣٧).

ولا إله إلا الله، والله أكبر))[١].

٢ ـ ومن فضائلهنَّ: أنَّ النبي ﷺ أخبر أنّهنَّ أحبُّ إليه مِمَّا طلعت عليه الشمس ـ أي: من الدنيا وما فيها ـ لما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لأَن أقولَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس))[٢].

٣ ـ ومن فضائلهنَّ: ما ثبت في مسند الإمام أحمد، وشعب الإيمان للبيهقي بإسنادٍ جيدٍ عن عاصم بن بَهْدَلة، عن أبي صالح، عن أمِّ هانئ بنت أبي طالب قالت: مَرَّ بي رسول الله ﷺ فقلت: إنِّي قد كبرت وضعفت، أو كما قالت، فمُرْني بعمل أعمله وأنا جالسة. قال: ((سَبِّحي الله مائة تسبيحة، فإنَّها تعدل لك مائةَ رقبةٍ تعتقينها من ولد إسماعيل، واحْمدي الله مائة تحميدةٍ، تعدل لك مائةَ فرسٍ مسرجةٍ ملجمةٍ تحملين عليها في سبيل الله، وكبِّري الله مائةَ تكبيرةٍ فإنَّها تعدل لك مائةَ بدنةٍ مقلدةٍ متقبّلةٍ، وهلّلي مائة تهليلةٍ. قال ابن خلف: (الراوي عن عاصم) أحسبه قال: ـ تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يرفع يومئذٍ لأحد عملٌ إلا أن يأتي بمثل ما أتيتِ به))[٣]. قال المنذري: ((رواه أحمدُ بإسناد حسن))[٤]، وحسَّن إسنادَه العلامة الألباني رحمه الله[٥].

وتأمَّلْ هذا الثواب العظيم المترتِّب على هؤلاء الكلمات، فمَن سبح الله مائة، أي قال: سبحان الله مائة مرة فإنَّها تعدل عتق مائةِ رقبةٍ من ولد إسماعيل، وخصَّ

---

(١) مسند الطيالسي (ص: ١٢٢).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ٢٦٩٥).

(٣) المسند (٣٤٤/٦)، شعب الإيمان (رقم: ٦١٢).

(٤) الترغيب والترهيب (٤٠٩/٢).

(٥) السلسلة الصحيحة (٣٠٣/٣).

بني إسماعيل بالذكر لأنَّهم أشرفُ العرب نسباً، ومن حمِد الله مائةَ، أي من قال: الحمد لله مائةَ مرةٍ كان له من الثواب مثلُ ثواب من تصدق بمائة فرسٍ مسرجةٍ ملجمةٍ، أي عليها سراجها ولجامها لحمل المجاهدين في سبيل الله، ومن كبَّر الله مائةَ مرةٍ، أي: قال: الله أكبر مائةَ مرة كان له من الثواب مثل ثواب إنفاق مائة بدنةٍ مقلّدةٍ متقبلةٍ، ومن هلّل مائةً، أي قال: لا إله إلا الله مائةَ مرةٍ فإنَّها تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يُرْفَعُ لأحدٍ عملٌ إلاَّ أن يأتي بمثل ما أتى به.

٤ ـ ومن فضائل هؤلاء الكلمات، أنَّهنَّ مكفراتٌ للذنوب، فقد ثبت في المسند، وسنن الترمذي، ومستدرك الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما على الأرض رجلٌ يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كَفَّرَتْ عنه ذنوبَهُ ولو كانت أكثَرَ من زَبَدِ البحر»، حسَّنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقرَّه الذهبي، وحسَّنه الألباني[1].

والمرادُ بالذنوب المُكَفَّرَةِ هنا أي الصغائر، لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنب الكبائر»[2]، فقيّد التكفير باجتناب الكبائر؛ لأنَّ الكبيرة لا يُكفِّرها إلاَّ التوبة.

وفي هذا المعنى ما رواه الترمذي وغيرُه عن أنس بن مالك ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بشجرةٍ يابسةِ الورق فضربها بعصاه فتناثر الورقُ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر لَتُساقط من ذنوبِ العبدِ كما

---

(١) المسند (٢/١٥٨، ٢١٠)، وسنن الترمذي (رقم: ٣٤٦٠)، ومستدرك الحاكم (١/٥٠٣)، وصحيح الجامع (رقم: ٥٦٣٦).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ٢٣٣).

تساقط ورقُ هذه الشجرة))، وحسنه الألباني[١].

٥ ـ ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنّهنَّ غرسُ الجنة، روى الترمذي عن عبد الله ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنّه قال: ((لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أنَّ الجنة طيبةُ التربة، عذبةُ الماء، وأنّها قيعانٌ، وأنّ غِراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر))[٢]، وفي إسناد هذا الحديث عبد الرحمن بن إسحاق، لكن للحديث شاهدان يتَقوّى بهما من حديث أبي أيوب الأنصاري، ومن حديث عبد الله بن عمر.

والقيعانُ جمعُ قاعٍ، وهو المكانُ المستوي الواسعُ في وطاةٍ من الأرض يعلوه ماء السماء فيمسكه ويستوي نباته، كذا في النهاية لابن الأثير[٣]، والمقصود أنَّ الجنة ينمو غراسها سريعاً بهذه الكلمات كما ينمو غراس القيعان من الأرض ونبتها.

٦ ـ ومن فضائلهنَّ: أنّه ليس أحدٌ أفضل عند الله من مؤمن يُعَمَّرُ في الإسلام يكثر تكبيرُهُ وتسبيحُهُ وتهليلُهُ وتحميدُهُ، روى الإمام أحمد، والنسائي في عمل اليوم والليلة بإسناد حسن عن عبد الله بن شداد: أنَّ نفراً من بني عُذرة ثلاثةً أتوا النبيَّ ﷺ فأسلموا، قال: فقال النبيُّ ﷺ: ((من يكفينيهم؟))، قال طلحةُ: أنا، قال: فكانوا عند طلحة فبعث النبيُّ ﷺ بعثاً فخرج فيه أحدُهم فاستشهد، قال: ثم بعث آخر، فخرج فيهم آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالث على فراشه.

قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه، ورأيت الذي استشهد أولهم

---

(١) سنن الترمذي (رقم: ٣٥٣٣)، وصحيح الجامع (رقم: ١٦٠١).

(٢) سنن الترمذي (رقم: ٣٤٦٢)، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم: ١٠٥).

(٣) (١٣٢/٤).

آخرهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، قال: فقال رسول الله ﷺ: ((ما أنكرت من ذلك، ليس أحدٌ أفضلَ عند الله من مؤمن يُعَمَّرُ في الإسلامِ يَكْثر تكبيرُه وتسبيحه وتهليلُه وتحميده))[(١)].

وقد دلَّ هذا الحديثُ العظيمُ على عظمِ فضلٍ من طالَ عُمُره وحَسُنَ عملُهُ، ولم يزل لسانه رطباً بذكر الله عز وجل.

٧ ـ ومن فضائلهنَّ: أنَّ اللهَ اختار هؤلاء الكلمات واصطفاهنَّ لعباده، ورتَّب على ذكر الله بهنَّ أجوراً عظيمةً، وثواباً جزيلاً، ففي المسند للإمام أحمد ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ الله أصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فمن قال: سبحان الله كُتِبَ له عشرون حسنة، وحُطَّت عنه عشرون سيئة، ومن قال: الله أكبر فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة، وحط عنه ثلاثون خطيئة))[(٢)].

وقد زاد في ثواب الحمد عندما يقوله العبد من قِبَل نفسه عن الأربع؛ لأنَّ الحمد لا يقع غالباً إلا بعد سبب كأكلٍ أو شربٍ، أو حدوثِ نعمةٍ، فكأنَّه وقع في مقابلة ما أسْدِي إليه وقتَ الحمد، فإذا أنشأ العبدُ الحمدَ من قبل نفسه دون أن يدفعه لذلك تجدُّدُ نعمةٍ زاد ثوابه.

٨ ـ ومن فضائلهنَّ: أنَّهنَّ جُنَّةٌ لقائلهنَّ من النار، ويأتين يوم القيامة منجيات

---

(١) المسند (١٦٣/١)، والسنن الكبرى للنسائي، كتاب عمل اليوم والليلة (٦) (رقم: ١٠٦٧٤)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (رقم: ٦٥٤).

(٢) المسند (٣٠٢/٢)، والمستدرك (٥١٢/١)، وقال الألباني في صحيح الجامع (رقم: ١٧١٨): ((صحيح)).

لقائلهنَّ ومقدمات له، روى الحاكم في المستدرك، والنسائي في عمل اليوم والليلة، وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا جُنَّتَكم» قلنا: يا رسول الله ﷺ من عدوٍ قد حضر! قال: «لا، بل جُنَّتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنَّهنَّ يأتين يوم القيامة منجيات ومقدمات، وهنَّ الباقيات الصالحات»، قال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني رحمه الله[١].

وقد تضمَّن هذا الحديث إضافةً إلى ما تقدم وصف هؤلاء الكلمات بأنَّهنَّ الباقياتُ الصالحات، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٢].

والباقيات أي: التي يبقى ثوابُها، ويدوم جزاؤها، وهذا خيرُ أملٍ يؤمله العبد وأفضل ثواب.

٩ ـ ومن فضائلهنَّ، أنَّهنَّ ينعطفن حول عرش الرحمن ولهنَّ دويٌّ كدوي النحل، يذكرن بصاحبهنَّ، ففي المسند للإمام أحمد، وسنن ابن ماجه، ومستدرك الحاكم عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِمَّا تذكرون من جلال الله التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، ينعطفن حول العرش لهنّ دويٌّ كدوي النحل تذكر بصاحبها، أما يحب أحدكم أن يكون له، أو لا يزال له من يذكر به». قال البوصيري في زوائد سنن ابن ماجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وصححه الحاكم[٣].

---

(١) المستدرك (١/٥٤١)، والسنن الكبرى، كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/٢١٢)، وصحيح الجامع (: ٣٢١٤).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٤٦).

(٣) المسند (٤/٢٦٨/٢٧١)، وسنن ابن ماجه (رقم: "٣٨٠٩")، والمستدرك (١/٥٠٣).

فأفاد هذا الحديثُ هذه الفضيلة العظيمة، وهي أنَّ هؤلاء الكلمات الأربع ينعطفن حول العرش أي يملن حوله، ولهنَّ دويٌّ كدوي النحل، أي: صوتٌ يشبه صوت النحل يذكرن بقائلهنَّ، وفي هذا أعظم حضٍّ على الذكر بهذه الألفاظ، ولهذا قال في الحديث: «ألا يحب أحدكم أن يكون له أو لا يزال له من يذكر به».

١٠ ـ ومن فضائلهنَّ: أنَّ النبي ﷺ أخبر أنَّهنَّ ثقيلاتٌ في الميزان، روى النسائي في عمل اليوم والليلة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وغيرُهم عن أبي سلمى ﷺ قال: سمعت رسول الله يقول: «بخ بخ، ـ وأشار بيده بخمس ـ ما أثقلهنَّ في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولدُ الصالح يُتوفى للمرء المسلم فيحتسبه»، صححه الحاكم، ووافقه الذهبي[1]، وللحديث شاهدٌ من حديث ثوبانَ ﷺ، خرَّجه البزار في مسنده، وقال: إسناده حسن[2].

وقوله في الحديث: «بخ بخ» هي كلمةٌ تُقال عند الإعجاب بالشيء وبيان تفضيله.

١١ ـ ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنَّ للعبد بقول كلٍّ واحدةٍ منهنَّ صدقةً، روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه: أنّ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهلُ الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إنَّ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً، وكلِّ تكبيرةٍ صدقةً، وكلِّ تحميدةٍ صدقةً، وكلِّ تهليلةٍ صدقةً، وأمرٍ بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقةٌ»، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟

---

(١) السنن الكبرى، كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/ ٥٠)، وصحيح ابن حبان (الإحسان) (٣/ ١١٤) (رقم: ٨٣٣)، والمستدرك (١/ ٥١١، ٥١٢).

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار (٤/ ٩) (رقم: ٣٠٧٢).

قال: «أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ»[1].

وقد ظنَّ الفقراءُ ألاَّ صدقة إلا بالمال، وهم عاجزون عن ذلك فأخبرهم النبي ﷺ أنَّ جميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقةٌ، وذكر في مقدمة ذلك هؤلاء الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

١٢ ـ ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنّ النبي ﷺ جعلهنَّ عن القرآن الكريم في حق من لا يحسنه، روى أبو داود، والنسائي، والدارقطني، وغيرُهم عن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنِّي لا أستطيع أن أتعلم القرآن، فعلِّمني شيئاً يجزيني. قال: «تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله». فقال الأعرابي: هكذا وقبض يديه ـ فقال: هذا لله، فما لي؟ قال: تقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني واهدني» فأخذها الأعرابيُّ وقبض كفيه، فقال النبي ﷺ: «أمَّا هذا فقد ملأ يديه بالخير»[2].

قال المحدِّث أبو الطيب العظيم آبادي في تعليقه على سنن الدار قطني: سنده صحيح. وقال الألباني رحمه الله: سنده حسن[3].

فهذه بعض الفضائل الواردة في السنة النبوية لهؤلاء الكلمات الأربع، ومن يتأملُ هذه الفضائل المتقدمة يجد أنَّها عظيمةٌ جداً، ودالةٌ على عظم قدر هؤلاء الكلمات، ورفعة شأنهنَّ، وكثرة فوائدهنَّ، وعوائدهنَّ على العبد المؤمن، ولعلَّ السر في هذا الفضل العظيم ـ والله أعلم ـ ما ذكر عن بعض أهل العلم أنَّ أسماء الله

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ١٠٠٦).

(٢) سنن أبي داود (رقم: ٨٣٢)، وسنن النسائي (١٤٣/٢) وسنن الدار قطني (٣١٣/١، ٣١٤).

(٣) صحيح أبي داود (١٥٧/١).

تبارك وتعالى كلّها مندرجةٌ في هذه الكلمات الأربع، فسبحان الله يندرج تحت أسماء التنزيه كالقدوس والسلام، والحمد لله مشتملة على إثبات أنواع الكمال لله تبارك في أسمائه وصفاته، والله أكبر فيها تكبير الله وتعظيمه، وأنّه لا يحصي أحدٌ الثناء عليه، ومن كان كذلك فلا إله إلا هو أي لا معبود حق سواه[١].

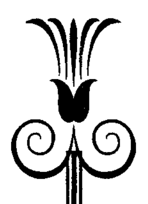
فالتسبيحُ: تنزيهٌ لله عن كلِّ ما لا يليق به، والتحميدُ: إثباتٌ لأنواع الكمال لله في أسمائه وصفاته وأفعاله، والتهليلُ: إخلاصٌ وتوحيدٌ لله وبراءةٌ من الشرك، والتكبير: إثبات لعظمةِ الله، وأنّه لا شيء أكبرُ منه.

فلله ما أعظم هؤلاء الكلمات، وما أجلَّ شأنهنَّ، وما أكبر الخير المترتب عليهنَّ، فنسأل الله أن يوفقنا للمحافظة والمداومة عليهنَّ، وأن يجعلنا من أهلهنَّ الذين ألسنتهم رطبةٌ بذلك، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) انظر: جزء في تفسير الباقيات الصالحات للعلائي (ص: ٤٠).





الرسالة السادسة

دروس عقدية مستفادة من الحج



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الشيخ: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فقد اطَّلعتُ على نُبذة مختصرةٍ بعنوان: **دروس عقدية مستفادة من الحج** - بقلم الدكتور الشيخ: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، فألفيتُها نبذة مفيدة، تشتمل على دروس قيِّمة في العقيدة تُستفاد من مناسك الحج - وهكذا جميع العبادات في الإسلام هي قائمة على التوحيد - ولكن الحج بصفة خاصة يَجتمع له العالَم الإسلامي من أقطار الأرض في بلد الله الحرام يتلقون تعاليم المناسك من كتاب الله وسنة رسولِه ﷺ، فهو بمثابة دورة تعليمية يرجعونَ بعدها إلى بلادهم وقد صحَّحوا كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي كانوا عليها، فما أعظم هذا الحج وقد قال الله تعالى فيه لِخَليلِه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، وإنَّه واجبٌ على العلماء أن يُبيِّنوا تلك المنافع ويشرحوها للناس حتى يستفيدوا من حجِّهم، وفي هذه النبذة المشار إليها مشاركةٌ في القيام بهذا الواجب العظيم - جزى الله مؤلِّفَها الشيخ عبد الرزاق خيرَ الجزاء - ونفع بجهوده التي بذلها فيها وفي غيرها.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه:

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

٦ / ٨ / ١٤٢٠ هـ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير النبيين وإمام المرسلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ الحج مدرسة إيمانية عظيمة، يتلقى فيه المسلمون الدروسَ العظيمة والفوائد الجليلة والعِبر النافعة في شتى المجالات، وفي جميع أبواب الدين «العقائد والعبادات والسلوك...»، ويتفاوتون في قوة تحصيلها وحسن اكتسابها تفاوتاً عظيماً بين مقلٍّ ومستكثرٍ، والتوفيق بيد الله وحده.

ولذا رأيتُ أنَّ من المفيد استخلاص جملة من الدروس العظيمة المستفادة في الحج، والمتعلّقة بجانب الاعتقاد خاصة؛ إذ هو الأساس والأصل الذي تُبنى عليه الأعمال، ويقوم عليه الدين كلّه، وهي مجرّد إشارة إلى بعض الدروس المستفادة فيه، وإلاَّ فإنَّ ما يُستفاد فيه من دروسٍ وفوائد أمر يفوق الحصر، ولا يبلغه العدُّ.

وقد بلغ عدد هذه الدروس المستخلصة هنا ثلاثة عشر درساً، راعيت أن تكون متجانسة في حجمها وطريقة طرحها، واللهَ أسأل أن ينفع بهذا الجهد وأن يتقبَّله بقبول حسن، إنَّه نعم المجيب.

الأول: بيان أنَّ الحج مدرسة عظيمة

لا ريب أن الحج من أفضل الطاعات وأجلِّ القُرُبات التي يتقرَّب بها المسلم إلى ربِّه تعالى، بل هو عبادةٌ من العبادات التي افترضها الله وجعلها إحدى الدعائم الخمس التي يرتكز عليها الدينُ الإسلاميُّ الحنيف، والتي بيَّنها رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمّداً رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصيامِ رمضان، وحجِّ البيتِ»[١].

وثبت عنه ﷺ في أحاديثَ كثيرةٍ ترغيبُ أمّته في الحج وحثُّهم على هذه الطاعة العظيمة، وبيَّن لهم ما يَغنمونه في الحج من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ جزيل وغفرانٍ للذنوب.

روى مسلم في صحيحه أنَّ النبي ﷺ قال لعمرو بن العاص رضي الله عنه عند إسلامه: «أمَا علِمتَ أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله»[٢].

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه»[٣]، وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفَّارةٌ لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلاّ الجنة»[٤].

وقد حج صلواتُ الله وسلامه عليه بالناس في السنة العاشرة من الهجرة النبوية حجّتَه التي رسم فيها لأُمَّته عملياً كيفية أداء هذه الفريضةِ العظيمةِ وحثّ على تلقّي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم: ٨)، ومسلم (رقم: ١٦).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ١٢١).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ١٥٢١)، ومسلم (رقم: ١٣٥٠).

(٤) صحيح مسلم (رقم: ١٣٤٩).

كلّ ما يصدر منه ﷺ من أعمال وأقوال، فقال: «خذوا عنّي مناسككم فلعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا»(١)، فسُمِّيت حجّةَ الوداع، وفيها نزل على رسول الله ﷺ قولُ الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٢).

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم قدِم لأداء هذه الطاعة العظيمة أنْ يجتهد تمام الاجتهاد في معرفة هدي النبي ﷺ في الحج وكيفية أدائه لمناسكه ليسلك منهجه وليسير على طريقته وليقتفي أثره وليأخذ عنه مناسكه، وليتأتّى له بذلك الإتيانُ بالحج على التمام والكمال، إذ لا كمال في هذه الطاعة وفي غيرها من الطاعات إلاّ بالاقتفاء لآثار الرسول الكريم ﷺ والسير على منهاجه.

لا ريب أنَّ كلَّ مسلم على وجه الأرض تتحرّك نفسه في هذه الأيّام المباركة شوقاً لأداء هذه الطاعة العظيمة، وطمعاً في تحقيق هذا النسك الجليل، ومحبّةً لرؤية بيت الله العتيق؛ إذ إنَّ المسلمين جميعَهم صِلتُهم ببيت الله الحرام وثيقةٌ، وهي تنشأُ منذُ بدء انتماءِ المسلم لدين الإسلام، وتستمرُّ معه ما بقيت روحه في جسده، فالصبيُّ الذي يولد في الإسلام أوّلُ شيء يطرقُ سمعَه من فرائض الإسلام أركانُه الخمسةُ التي أحدها حجُّ بيت الله الحرام، والكافر إذا أسلم وشهد أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله أوّلُ ما يُوجَّه إليه من فرائض الإسلام بقيّةُ أركانه بعد الشهادتين وهي: إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة وصومُ رمضان وحج بيت الله الحرام، وأوّلُ أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلوات الخمس التي افترضها الله على عباده في كلِّ يومٍ وليلةٍ، وجَعَلَ استقبال بيت الله الحرام شرطاً من شروطها، قال الله

(١) صحيح مسلم (رقم: ١٢٩٧).

(٢) المائدة، آية ٣.

تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾[1]، فصِلةُ المسلم ببيت الله الحرام مستمرةٌ في كلِّ يومٍ وليلةٍ يستقبله مع القدرة في كلِّ صلاة يصليها فريضة كانت أو نافلة كما يستقبله في الدعاء[2].

ولهذا فإنَّ هذه الصلة الوثيقة التي حصل بها هذا الارتباطُ بين قلب المسلم وبيت ربّه بصفة مستمرة تدفع بالمسلم ولا بدَّ إلى الرغبة المُلِحَّة في التوجُّه إلى ذلك البيت العتيق ليمتِع بصره بالنظر إليه وليؤدّي الحج الذي افترضه الله عليه إذا استطاع إليه سبيلاً، فالمسلم متى استطاع الحج بادر إليه أداءً لهذه الفريضةِ ورغبةً في مشاهدة البيت الذي يستقبله في جميع صلواته، ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ﴾[3].

ولهذا فإنَّ الواجب عليك أخي الحاج أن تحمد الله كثيراً على نعمته عليك العظيمة، بالتوفيق لأداء هذه الطاعة، والقدوم لتحقيق هذه العبادة، والتشرف برؤية بيت الله العتيق قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن تجتهد في تكميل أعمال الحج على أحسن وجه وأكمل حال دون إخلالٍ أو تقصيرٍ ودون إفراط أو تفريط، بل تكون على هَدْيٍ قاصدٍ وطريقٍ مستقيمٍ مُتَّبِعاً في ذلك لرسولك الكريم ﷺ، تبتغي بعملك هذا مرضاةَ ربِّك، ونيلَ ثوابه، ومغفرةَ الذنوب، ولتعودَ إلى بلادك بعد هذه الرحلة المباركة وذنبُك مغفورٌ، وسعيُكَ مشكورٌ، وعملُك صالحٌ مُتَقبَّلٌ مبرورٌ، بحياةٍ جديدةٍ صالحةٍ مليئةٍ بالإيمان والتقوى، عامرةٍ بالخير والاستقامة، زاخرةٍ بالجد والاجتهاد في طاعة الله.

---

(١) البقرة، آية ١٤٤.

(٢) انظر: الحج فضله وفوائده، للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن البدر حفظه الله (ضمن مجموع: قبس من هدي الإسلام ص: ١٢٨ ـ ١٣٣).

(٣) آل عمران، آية ٩٧.

إنَّ الحج فرصةٌ عظيمةٌ للتزوُّد فيه من زاد الآخرة بالتوبة إلى الله والإنابة إليه والإقبال على طاعته والسعي في مرضاته، ومن خلال الحج ومناسكه يتهيَّأ للحاج فُرَصٌ كثيرةٌ لتلقي الدروس النافعة والعبَر المؤثِّرة والفوائد الجليلة والثمار الكريمة اليانعة في العقيدة والعبادة والأخلاق بدءاً بأوّل عملٍ من أعمال الحج يقوم به العبد في الميقات وانتهاء بآخر عمل من أعمال الحج بطوافِ سبعةِ أشواطٍ يودِّع فيها الحاجُّ بيت الله الحرام، وهو بصدقٍ مدرسةٌ تربويَّةٌ إيمانيةٌ عظيمةٌ يتخرّج فيها المؤمنون المتقون، فيشهدون في حجِّهم المنافعَ العظيمةَ والدروسَ المتنوِّعةَ والعِظاتِ المؤثِّرةَ، فتحيى بذلك القلوب ويتقوّى الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[1]، ومنافع الحج لا تُحصى وفوائده لا تُستقصى، وعبرُه ودروسُه المستفادة منه لا يحاط بها، وسوف نقف بإذن الله تعالى من خلال هذه الرسالة على جملة طيّبة ومجموعة نافعة من الدروس العظيمة والمنافع الجليلة المستفادة من حج بيت الله الحرام، وبالله وحده التوفيق.

---

(١) الحج، آية ٢٧، ٢٨.

الثاني: في بيان جملة من منافع الحج

تقدّم الكلام على فضلِ الحج ورفعةِ مكانته وأنَّه من أجلِّ العبادات وأعظم القُرُبات وأنَّه ركنٌ من أركان الإسلام العظيمة وأساس من أُسُسه المتينة التي بها يقوم وعليها يُبنى، وتقدّم الإشارةُ إلى أنَّ الحج فيه من الفوائد والمنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصيه المُحصون ولا يقدر على عدّه العادُّون، وفي ذلك يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾(١)، فالحج مليءٌ بالمنافع العظيمة الدينية والدنيوية، واللاّم في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ هي لام التعليل وهي متعلّقة بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية، أي: إن تؤذّن فيهم بالحج يأتوك مشاة وركباناً لأجل أن يشهدوا أي يحضروا منافع لهم والمراد بحضورهم المنافع حصولها لهم.

وقوله تعالى في الآية ﴿مَنَٰفِعَ﴾ هو جمعُ منفعةٍ، ونكّر المنافعَ؛ لأنَّه أراد منافع مختصةً بهذه العبادة دينيّةً ودنيويةً لا توجد في غيرها من العبادات مجتمعة.

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قال: «منافعُ في الدنيا ومنافعُ في الآخرة، فأمّا منافع الآخرة فرضوان الله عزَّ وجلَّ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البُدْنِ في ذلك والذبائح والتجارات»(٢).

---

(١) الحج، آية ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٧).

وروى عبد الرزاق عن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾، قال: «التجارة وما أرضى الله من أمر الدنيا والآخرة»[(١)].

وروى ابن جرير الطبري في تفسيره عن مجاهد رحمه الله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ قال: «الأجرُ في الآخرة والتجارةُ في الدنيا»[(٢)].

فالمنافع التي يُحصِّلها الحجيج ويَجنونها في حجهم لبيت الله الحرام عديدة ومتنوِّعة:

ـ منافعُ دينيةٌ من العبادات الفاضلة والطاعات الجليلة التي لا تكون إلا فيه.

ـ ومنافعُ دنيويةٌ من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية، كما قال تعالى في سياق آيات الحج من سورة البقرة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾[(٣)].

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانوا يتقون البيوعَ والتجارة في الموسم والحج يقولون: أيامُ ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾»[(٤)].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية أنَّه قال: «لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده»[(٥)].

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/٣٦).

(٢) جامع البيان (١٠/١٤٧).

(٣) البقرة، آية ١٩٨.

(٤) رواه أبو داود (رقم: ١٧٣٤)، ورواه وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير كما في الدر المنثور للسيوطي (١/٥٣٤).

(٥) رواه ابن جرير (٢/٢٨٢).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: ((وقد أطبق علماء التفسير على أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أنَّه ليس على الحاج إثمٌ ولا حرجٌ إذا ابتغى ربحاً بتجارة في أيّام الحج إن كان ذلك لا يشغله عن شيء من أداء مناسكه))[(١)].

ومن المنافع الدنيوية أيضاً للحجاج ما يصيبونه من البُدن والذبائح كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[(٢)].

إلاّ أنَّ ما يحصِّله الحاج من منافع دينية في حجه لا تقارن بهذه المنافع الدنيوية؛ إذ في الحج من الأجور العظيمة والثواب الجزيل ومغفرة الذنوب وتكفير السيِّئات وغير ذلك ممّا لا يحصى من الفوائد الدينية العظيمة التي ينالها الحاجُّ إن كان متَّقياً لله في حجه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأيُّ خير أعظم وأيُّ ربح أجلُّ من أن يخرج الحاج من حجه كيوم ولدته أمّه بلا إثم ولا خطيئة كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[(٣)]، وقد اختار ابن جرير في تفسيره لهذه الآية بعد أن ذكر أقوال أهل العلم في معناها أنَّ المراد ((فمن تعجّل في يومين من أيّام منى الثلاثة، فنفر في اليوم الثاني فلا إثم عليه، لحطِّ اللهِ ذنوبَه إن كان قد اتّقى الله في حجه، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه، وفعل فيه ما أمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلّفه من حدوده، ومن تأخّر إلى اليوم الثالث ... فلا إثم عليه لتكفير الله له ما سلف من آثامه وإجرامه إن كان اتّقى الله في حجه بأدائه بحدوده))[(٤)].

(١) أضواء البيان (٥/٤٨٩).

(٢) الحج، آية ٣٣.

(٣) البقرة، آية ٢٠٣.

(٤) جامع البيان (٢/٣٠٩).

ثم ذكر رحمه الله تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى ومن ذلك قوله ﷺ: ((من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه))[(١)]، وقوله ﷺ: ((الحج المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنة))[(٢)]، وقوله ﷺ: ((تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكيرُ خبث الحديد))[(٣)].

فهذه النصوصُ تدلُّ على أنَّ من حج فقضاه بحدوده على ما أمره الله فهو خارج من ذنوبه كما قال جلّ وعلا: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ أي: اتقى الله في حجه بفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولا ريب أنَّ هذه فضيلة عظيمة ومنفعة جليلة تسارع في نيلها القلوب المؤمنة وتطمع في تحصيلها النفوس الصادقة، فللّه ما أجلّها من فضيلة وأعظمها من منفعة عندما ينقلب الحاج إلى بلده بعد قضائه لحجِّه وذنبه مغفور، قد خرج من ذنوبه وآثامه طاهراً نقياً كيوم ولدته أمّه ليس عليه ذنب ولا خطيئة إذا كان متّقياً ربَّه في حجِّه.

بل إنَّ الربَّ سبحانه من عظيم كرمه وجميل إحسانه بعباده الحجيج يباهي ملائكته بحجاج بيته الحرام عندما يقفون جميعُهم على صعيد عرفة ويقول: ((انظروا إلى عبادي أتوني شُعثاً غُبراً ضاحين من كلِّ فجٍّ عميق أشهدكم أني قد غفرتُ لهم))[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم: ١٥٢١)، ومسلم (رقم: ١٣٥٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم: ١٣٤٩).

(٣) أخرجه النسائي (١١٥/٥)، والطبراني في الكبير (رقم: ١١١٩٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (رقم: ١٢٠٠).

(٤) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (رقم: ٢٨٤٠)، وضعّفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم: ٦٧٩).

وللجملة الأولى أعني إلى قوله: ((غبراً)) منه شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند أحمد (٢٢٤/٢)، ومن حديث أبي هريرة عند أحمد أيضاً (٣٠٥/٢)، وابن خزيمة (رقم: ٢٨٤٠)، والحاكم في المستدرك (٤٦٥/١)، وغيرهم.

وبهذا يتبيّن أنَّ الحاج يعود من حجه بأكبر ربح وأعظم غنيمة ألا وهي مغفرة ربِّه لذنبه، فيبدأ بعد الحج حياة جديدة صالحة مليئة بالإيمان والتقوى عامرة بالخير والاستقامة والمحافظة على الطاعة، إلاَّ أنَّ حصولَ هذا الأجر مشروطٌ كما تقدّم بأن يأتي بالحج على وجه صحيح بإخلاص وصدق وتوبة نصوح مع مجانبةٍ لما يُخلُّ به من رفثٍ وفسوقٍ، فإذا كان كذلك جبَّ ما قبله وخرج منه الحاج بتلك الحال الرائعة، كيوم ولدته أمه بلا إثم ولا خطيئة.

الثالث: الدلالات العقدية في الإهلال بالتوحيد

إنَّ من أجلِّ الدروس العظيمة التي يفيدها المسلم في حجّه لبيت الله الحرام وجوبَ إخلاص العبادات كلِّها لله وحده لا شريك له، فالمسلم يبدأ حجَّه أولَّ ما يبدأ بإعلان التوحيد ونبذ الشرك، قائلاً: «لبيك اللّهمَّ لبّيك، لبيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، يقولها ويرفع بها صوته، وهو في الوقت نفسه مستشعر ما دلت عليه من وجوب إفراد الله وحده بالعبادة والبعدِ عن الشرك، فكما أنَّ اللهَ متفرّد بالنِّعمة والعطاء لا شريك له، فهو متفرِّدٌ بالتوحيد لا نِدَّ له، فلا يُدعى إلاَّ الله، ولا يُتوكّل إلاَّ على الله، ولا يُستغاث إلاَّ به، ولا يُصرف أيُّ نوع من أنواع العبادة إلاَّ له، وكما أنَّ العبد مُطالَبٌ بقصد الله وحده في الحج، فهو مُطالَبٌ بقصده وحده في كلِّ عبادة يأتيها وكلّ طاعة يتقرّب بها، فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله أشرك بالله العظيم، وخسر الخسران المبين، وحبط عمله، ولم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

لقد جاء الإسلام بهذا الإهلال العظيم، الإهلال بتوحيد الله وإخلاص الدين له والبعدِ عن الشرك كلّه صغيره وكبيره، دقيقه وجليله، بينما كان المشركون عبّادُ الأصنام والأوثان، يُهلّون في إحرامهم بالحج بالشرك والتنديد، فكانوا يقولون في تلبيتهم: «لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، فيُدخلون مع الله في التلبية آلهتهم الباطلةَ، ويجعلون ملكها بيده، وهذا هو معنى قول الله عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]، أي ما يؤمن أكثرهم بالله بأنّه الخالق الرازق المدبّر إلاَّ وهم مشركون معه في العبادة أوثاناً لا تملك شيئاً وأصناماً لا تنفع ولا تضرّ ولا تعطي ولا تمنع بل لا تملك من ذلك شيئاً لنفسها فضلاً

(١) يوسف، آية ١٠٦.

عن أن تملكه لغيرها.

روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((مِن إيمانهم إذا قيل لهم مَن خلق السماء، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون)).

وعن عكرمة أنَّه قال: ((تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيرَه)).

وعن مجاهد قال: ((إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمانٌ مع شرك عبادتهم غيره)).

وعن ابن زيد قال: ((ليس أحد يعبد مع الله غيرَه إلاَّ وهو مؤمن بالله، ويعرف أنَّ اللهَ ربُّه، وأنَّ الله خالقُه ورازقُه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]، قد عرف أنَّهم يعبدون ربَّ العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك إلاَّ وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبِّي تقول: لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون هذا))[2].

لقد كان المشركون زمن النبي ﷺ يقرّون بأنَّ خالقَهم ورازقَهم ومدبّر شؤونهم هو الله، ثم هم مع هذا الإقرار لا يُخلِصون الدين له، بل يشركون معه غيرَه في العبادة من الأشجار والأحجار والأصنام وغيرها، وقد جلى الله هذا الأمرَ وبيّنه في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، كقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[3]، والآيات في هذا

(١) الشعراء، آية ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) جامع البيان (٨/٧٧ ـ ٧٨).

(٣) العنكبوت، آية ٦١.

المعنى كثيرة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: ((يقول تعالى مقرِّراً أنَّه لا إله إلاَّ هو؛ لأنَّ المشركين الذين يعبدون معه غيرَه معترفون أنَّه المستقلّ بخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنَّه الخالق الرازق لعباده، ومقدِّر آجالِهم واختلافها، واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير. وهو العليم بما يصلح كلاًّ منهم، ومن يستحق الغنى ممّن يستحق الفقر، فذكر أنَّه المستبدُ بخلق الأشياءِ المتفرّدُ بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يُعبد غيره؟ ولِمَ يتوكّل على غيره؟ فكما أنَّه الواحد في ملكه فليكن الواحدَ في عبادته، وكثيراً ما يقرّر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك))اهـ[1].

وهذا المعنى يكثر في القرآن الكريم، الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبية الله جلّ وعلا على وجوب توحيده في عبادته، وإخلاص الدين له، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقرّوا بربوبيته احتجّ بها عليهم على أنَّه هو المستحق لأنْ يُعبد وحده، ووبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنَّه هو الرب وحده؛ لأنَّ من اعترف بأنَّه الرب وحده لزِمه أن يخلص العبادة كلّها له، وبهذا يتبيّن أنَّ الاعتراف بأنَّ الله هو الخالق الرازق المنعم المتصرّف المدبّر لشؤون الخلق لا يكفي في التوحيد، ولا يُنجي من عذاب الله يوم القيامة ما لم تُخلص العبادةُ كلُّها لله وحده، فالله لا يقبل من عباده توحيدهم له في الربوبية إلاَّ إذا أفردوه بتوحيد العبادة، فلا يتّخذون له ندًّا، ولا يدعون معه أحداً، ولا يتوكّلون إلاَّ عليه، ولا يصرفون شيئاً من العبادة إلاَّ له سبحانه، فكما أنَّه سبحانه المتفرّد بالخلق، فهو سبحانه المتفرّد بجميع أنواع العبادة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٠١).

ولهذا قال تعالى للذين صرفوا العبادة لغيره، مع أنَّهم يعلمون أنّه خالقهم ورازقهم: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(١)]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((أيْ لا تشركوا بالله غيرَه من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنَّه لا ربَّ لكم يرزقكم غيرُه، وقد علمتم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه))[(٢)].

وقال قتادة: ((أي تعلمون أنَّ الله خلقكم وخلق السموات والأرض، ثم تجعلون له أنداداً))[(٣)].

إنَّ النِّعمةَ على أمَّة الإسلام عظيمةٌ بهدايتهم إلى توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والنعمةُ عليهم عظيمة بتوفيقهم إلى الإهلال بتوحيد الله بعد أن كان غيرُهم يهلُّ بالشرك والتنديد، فله الحمدُ سبحانه على توفيقه وإنعامه وهدايته حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا الكريمُ ويرضى.

---

(١) البقرة، آية ٢٢.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٦٤).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٦٤).

الرابع: دلالة التلبية على التحذير من الشرك

تقدّم معنا بيانُ فضلِ التلبية وأنَّها مشتملةٌ على الإهلال بتوحيد الله عزَّ وجلَّ، ونبذ الشرك؛ ولهذا قال الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه، كما في صحيح مسلم عندما وصف حجَّة النبيِّ ﷺ قال: «فأهلَّ بالتوحيد، لبّيك اللّهمَّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»[1]، فوصف رضي الله عنه هذا الإهلال بأنّه إهلالٌ بالتوحيد؛ لأنَّ فيه الإخلاصَ لله ونبذَ الشرك، وهذا يدلُّ أيضاً على أنَّ هذه الكلماتِ أعني كلماتِ التلبيةِ ليست ألفاظاً مجرّدة لا تدلّ على معان؛ بل لها معنىً عظيم، ومدلول عميق، ألا وهو روح الدين وأساسه وأصله الذي ينبني عليه توحيد الله تعالى.

ولهذا فإنَّ الواجب على كلٍّ من أهلَّ بهذه الكلمات العظيمة أن يستحضر ما دلّت عليه من معنى، وأن يعرفَ ما تضمّنته من دلالة؛ ليكون صادقاً في إهلاله، موافقاً كلامُه حقيقةَ حاله، بحيث يكون مستمسكاً بالتوحيد، محافظاً عليه، مراعياً لحقوقه، مجانباً تمام المجانبة لنواقضه وما يضادّه من الشرك والتنديد، فلا يسألُ إلاَّ الله، ولا يستغيث إلاَّ بالله، ولا يتوكّل إلاَّ على الله، ولا يطلب المددَ والعونَ والنصرَ إلاَّ من الله، ولا يصرف أيَّ نوع من أنواع العبادة إلاَّ لله وحده، الذي بيده سبحانه العطاءُ والمنع والقبض والبسط والنفع والضر، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

والمسلم عندما يقول في تلبيته: «لا شريك لك» يجب أن يكون عالماً بحقيقة الشرك، مُدرِكاً لخطره، حذِراً تمام الحذر من الوقوع فيه، أو في شيء من أسبابه

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ١٢١٨).

(٢) النمل، آية ٦٢.

ووسائله وطرقه ؛ إذ هو أعظم ذنب عُصِيَ اللهُ به ، ولهذا رُتِّبَ عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة ما لم يُرتَّب على غيره من الذنوب ، من إباحة دماء أهله وأموالهم ، وسبيِ نسائهم وأولادهم ، وعدمِ مغفرته من بين الذنوب إلاَّ بالتوبة منه ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[4] ، والآيات في هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة جدًّا ، يحذِّر فيها الربُّ سبحانه عبادَه من الشرك به ، ويبيِّن لهم شدَّةَ خطره وعِظَمَ مغبَّته وسوء عاقبته على فاعله في الدنيا والآخرة.

فالشرك عاقبته وخيمة ، ونهايته أليمة ، وأخطاره جسيمة ، ولا يربح فاعلُه من ورائه شيئاً إلاَّ الخيبةَ والحرمان والمذلّة والخسران ، وهو أعظم ذنب عُصيَ الله به ؛ لأنَّه أظلم الظلم ؛ إذ مضمونه تنقّصُ ربِّ العالمين ، وصرف خالصِ حقّه لغيره ، وعدلُ غيره به ؛ ولأنَّه مناقضٌ للمقصود بالخلق والأمر ، ومنافٍ له من كلِّ وجه ، وفيه غاية المعاندة لربِّ العالمين والاستكبارِ عن طاعته ، والذلِّ له ؛ ولأنَّ فيه تشبيهاً للمخلـوق بالخالق تعالى وتقدّس ، وكيف يُجعَلُ من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً

---

(١) النساء ، آية ٤٨.

(٢) النساء ، آية ١١٦.

(٣) المائدة ، آية ٧٢.

(٤) الزمر ، آية ٦٥ ، ٦٦.

ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلقُ كلُّه، وله الملك كلّه، وبيده الخير كلّه، وإليه يرجع الأمر كلّه، فأزِمَّة الأمور بيده سبحانه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسلَ له من بعده.

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يحذر من الشرك أشدَّ الحذر، وأن يخاف من الوقوع فيه أشدَّ الخوف، فهذا نبيُّ الله وخليله إبراهيمُ عليه السلام يقول في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، فخاف عليه السلام من ذلك ودعا ربَّه أن يعافيه وبنيه من عبادتها، فإذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام يسأل الله أن يجنّبه ويجنِّب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنّك بغيره؟ كما قال إبراهيم التيمي رحمه الله: ((ومن يأمنُ من البلاء بعد إبراهيم))[2]، فهذا ولا ريب يوجب للقلب الحي الخوفَ من الشرك وشدّةَ الاحتراز منه، وسؤالَ الله دوماً وأبداً العافية من الوقوع فيه، وهذا أيضاً يتطلّب من العبد المؤمن أن يكون عالماً بحقيقة الشرك وأسبابه، ومبادئه وأنواعه؛ لئلاَّ يقع فيه، ولهذا قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ((كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه))، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما[3].

وذلك أنَّ من لم يعرف إلاَّ الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنّه شرٌّ، فإمّا أن يقع فيه، وإمَّا أن لا ينكرَه كما ينكره الذي عرفه؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((إنَّما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف

---

(١) إبراهيم، آية ٣٥، ٣٦.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٢٨/٨).

(٣) انظر: صحيح البخاري (رقم: ٣٦٠٦)، وصحيح مسلم (رقم: ١٨٤٧).

الجاهلية))[١].

إنَّ البعدَ عن الشرك كلِّه وإخلاصَ التوحيد لله أصلٌ يجب أن تُبنى عليه كلُّ طاعة يتقرّب العبدُ بها إلى الله تعالى، الحجُّ وغيرُه، وقد قال الله تعالى في سورة الحجِّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٢].

فحذّر سبحانه في هذا السياق الكريم المتعلّق بالحج من الشرك، وأمر باجتنابه، وبيّن قبحَه وسوءَ عاقبتِه، وأنَّ فاعلَه بفعله له كأنَّما خرَّ من السماء فتخطفُه الطيرُ أو تهوي به الريحُ في مكان سحيق، كما أنَّه سبحانه قد أمر نبيَّه إبراهيم عليه السلام في الآية التي قبل هذه الآيات بتطهير البيت بعد أن بوّأه مكانه، ونهاه عن الإشراك بالله، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، فكانت بذلك الآيات المتعلّقةُ بالحج محفوفةً بالتحذير من الشرك، والنهي عنه، وبيان سوء عاقبته، ممّا يدلُّ أعظم دلالة على شناعةِ الشرك وعِظمِ خطورته، حمانا الله وإيّاكم منه، ورزقنا الإخلاص في القول والعمل.

---

(١) انظره مع تعليق مفيد عليه في الفوائد لابن القيم (ص: ٢٠١).

(٢) الحج، آية ٢٧ ـ ٣١.

الخامس: في بيان جملة من الفوائد المستفادة من التلبية

إنَّ لكلمات التلبية شأناً عظيماً ودلالات عميقة، وقد سبق الحديثُ عن دلالات كلمات التلبية على تحقيق التوحيد ونبذ الشرك، وهي بلا ريب كلمات عظيمة تشتمل على معانٍ جليلةٍ، ومقاصدَ نبيلةٍ، وفوائدَ جمّة، وقد نبّه أهل العلم على عِظم شأن هذه الكلمات وعِظم ما اشتملت عليه من منافعَ وفوائد، وقد تناول هذا الجانب بوفاء وزيادة في البسط والبيان الإمامُ العلاّمة ابن القيّم في كتابه تهذيب السنن[١].

قال رحمه الله: «وقد اشتملت كلمات التلبية على قواعدَ عظيمةٍ وفوائد جليلة...»، ثمّ ذكر رحمه الله إحدى وعشرين فائدة، ولعلّي في هذا المقام ألخّص جملةً طيّبةً من هذه الفوائد الجليلة التي اشتملت عليها التلبية ممّا ذكره رحمه الله:

فمن هذه الفوائد أنَّ قولك: «لبّيك» يتضمّن إجابة داعٍ دعاك، ومنادٍ ناداك، ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلّم ولا يدعو من أجابه، ففي هذا إثبات صفة الكلام لله.

ومنها: أنّها تتضمّن المحبة، ولا يُقال لبّيك إلاّ لمن تحبّه وتعظّمه، ولهذا قيل في معناها: أنا مواجه لك بما تحب، وأنّها من قولهم: امرأة لبّة، أي محبة لولدها.

ومنها: أنَّ التلبية تتضمّن التزام دوام العبودية، ولهذا قيل: هي من الإقامة، أي أنا مقيم على طاعتك.

ومنها: أنّها تتضمّن الخضوع والذلّ، أي خضوعاً بعد خضوع، من قولهم: أنا مُلبٌّ بين يديك، أي خاضع ذليل.

ومنها: أنّها تتضمّن الإخلاص، ولهذا قيل: إنّها من اللُبِّ، وهو الخالص.

---

(١) تهذيب السنن (٢/٣٣٧ ـ ٣٤٠).

ومنها: أنَّها تتضمّن الإقرار بسمع الرب تعالى؛ إذ يستحيل أن يقول الرجل لبّيك لمن لا يسمع دعاءَه.

ومنها: أنَّها تتضمّن التقرّب من الله، ولهذا قيل: إنَّها من الإلباب، وهو التقرّب.

ومن هذه الفوائد: أنَّها جُعلت في الإحرام شعاراً لانتقال من حال إلى حال، ومن مَنسك إلى منسك، كما جُعل التكبيرُ في الصلاة سبباً[1]؛ للانتقال من ركن إلى ركن، ولهذا كانت السنة أن يُلبِّي حتى يشرع في الطواف فيقطعُ التلبية، ثمَّ إذا سار لبّى حتى يقف بعرفة فيقطعها، ثمَّ يلبّي حتى يقف بمزدلفة فيقطعها، ثم يلبِّي حتى يرمي جمرة العقبة فيقطعها، فالتلبية شعار الحج والتنقل في أعمال المناسك، فالحاجُّ كلّما انتقل من ركن إلى ركن قال: «لبّيك اللّهمَّ لبّيك»، كما أنَّ المصلي يقول في انتقاله من ركن إلى ركن «الله أكبر»، فإذا حلَّ من نسكه قطعها، كما يكون سلام المصلّي قاطعاً لتكبيره.

ومن فوائدها: أنَّها شعارُ التوحيد، ملّةُ إبراهيم عليه السلام، الذي هو روح الحج ومقصده، بل روح العبادات كلّها والمقصود منها، ولهذا كانت التلبيةُ مفتاحَ هذه العبادة التي يُدخل فيها بها.

ومنها: أنَّها متضمّنة لمفتاح الجنة وباب الإسلام الذي يُدخل منه إليه، وهو كلمة الإخلاص والشهادة لله بأنَّه لا شريك له.

ومنها: أنَّها مشتملة على الحمد لله الذي هو من أحبِّ ما يتقرّب به العبد إلى الله، وأول من يُدعى إلى الجنة أهله، وهو فاتحة الصلاة وخاتمتها.

ومنها: أنَّها مشتملة على الاعتراف لله بالنعمة كلّها، ولهذا عرّفها باللام المفيدة

---

(١) في الأصل: «سبعاً»، وهو تصحيف.

للاستغراق أي النعمُ كلُّها لك، وأنت مُولِيها والمنعم بها.

ومنها: أنَّها مشتملة على الاعتراف بأنَّ الملك كلّه لله وحده، فلا ملك على الحقيقة لغيره.

ومن هذه الفوائد أنَّ التلبية متضمّنة للإخبار عن اجتماع الملك والنعمة والحمد لله عزَّ وجلَّ، وهذا نوعٌ آخر من الثناء عليه، غيرُ الثناء بمفردات تلك الأوصاف العليّة، فاجتماع الملك المتضمّن للقدرة مع النعمة المتضمنة لغاية النفع والإحسان والرحمة مع الحمد المتضمّن لعامة الجلال والإكرام الداعي إلى محبّته، فيه من العظمة والكمال والجلال ما هو أولى به، وهو أهله سبحانه، وفي ذكر العبد له ومعرفته به من انجذاب قلبه إلى الله وإقباله عليه والتوجّه بدواعي المحبة كلّها إليه ما هو مقصود العبودية ولبُّها.

ومن الفوائد أنَّ النبي ﷺ قال: ((أفضل ما قلت أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير))، وقد اشتملت التلبية على هذه الكلمات بعينها، وتضمّنت معانيها.

ومن الفوائد أيضاً أنَّ كلمات التلبية متضمّنة للردِّ على كلِّ مبطل في صفات الله وتوحيده، فهي مبطلة لقول المشركين على اختلاف طوائفهم ومقالاتهم، ومبطلةٌ لقول الفلاسفة ومن تأثّر بهم من المعطّلين لصفات الله التي هي متعلّق الحمد، ومبطلة لقول مجوس الأمة، القدرية الذين أخرجوا عن ملك الربِّ وقدرته أفعالَ عباده من الملائكة والجنِّ والإنس، فلم يثبتوا له عليها قدرة، ولا جعلوه خالقاً لها، فمن علم معنى هذه الكلمات وشهدها وأيقن بها باين جميع الطوائف المعطّلة.

ومن الفوائد أيضاً أنَّ في إعادة الشهادة له بأنَّه لا شريك له لطيفةً، وهي أنَّه أخبر أنَّه لا شريك له عقِب إجابته بقوله: لبّيك، ثم أعادها عقب قوله: ((إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك))، وذلك يتضمّن أنَّه لا شريك له في الحمد

والنعمة والملك والأول يتضمّن أنَّه لا شريك له في إجابة هذه الدعوة، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١)، فأخبر بأنَّه لا إله إلاَّ هو في أول الآية، وذلك داخل تحت شهادته وشهادة ملائكته وأولي العلم، وهذا هو المشهود به، ثمَّ أخبر عن قيامه بالقسط، وهو العدل، فأعاد الشهادة بأنَّه لا إله إلاَّ هو مع قيامه بالقسط.

فهذه جملةٌ من الفوائد العظيمة والقطوف الكريمة ممّا تضمّنته هذه الكلماتُ الجليلة، كلماتُ التلبية، وهي ولا ريب تدلّ على أهمية العناية بفهم معاني هذه الكلمات، وأنَّ حسن الاهتمام بذلك يعين العبد على الإتيان بهذه العبادة على أكمل وجه وأحسن حال.

---

(١) آل عمران، آية ١٨.

السادس: في الطواف ببيت الله الحرام

إنَّ من الدروس العظيمة التي يفيدها الحاج عندما يصل إلى البيت العتيق ويقوم بتلك العبادة العظيمة: الطواف ببيت الله الحرام، ويرى الحجيج كلّهم يقومون بذلك طاعة لله وامتثالاً لأمره ما يفيده في ذلك المقام من معرفة كبيرة بعظم شأن هذه العبادة وجلالة قدرها وقوة وقعها على القلوب المؤمنة، ولا سيما عندما يجتمع ذلك الكمُّ الكبير من المؤمنين بلباس واحد، وعلى هيئة واحدة، مستديرين حول بيت الله، مسبِّحين ومهلّلين ومكبّرين، يدعون ربَّهم الكريم ويناجونه ويسألونه ويبتهلون إليه، كلٌّ واحد منهم يطوف أشواطاً سبعة، جميعهم يبتدئون من الحجر الأسود وينتهون إليه، والطواف هو الدوران حول الكعبة سبع مرّات تعبّداً لله بنيّة الطواف، مبتدئاً بالحجر الأسود ومنتهياً إليه، جاعلاً الكعبة عن يساره، والمسلمون إنّما يفعلون ذلك طاعة لله واتباعاً لرسول الله ﷺ، وحظٌّ كلّ واحد منهم من الكمال في هذه العبادة هو بحسب حظّه من المتابعة للرسول الكريم ﷺ.

والطواف هو أوّل عمل يقوم به المسلم عندما يصل إلى مكة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنَّ أولَ شيء بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنّه توضّأ ثم طاف»(١)، وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في صفة حجّة النبي ﷺ وفيه: «... حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً»(٢)، وروى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا طاف في الحج أو العمرة أولَ ما يقدم سعى ثلاثة أطواف ومشى أربعة، ثم سجد سجدتين [أي صلى ركعتين]، ثم يطوف بين الصفا

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٦٤١)، وصحيح مسلم (رقم: ١٢٣٥).

(٢) صحيح مسلم (٢/٨٩٣).

والمروة»[١]، والأدلة على مشروعية الطواف ببيت الله الحرام متظافرة في الكتاب والسنة، وتواتر فيها النقل عن رسول الله ﷺ، وهذا فيه دلالة على أنَّ هذا العمل قُربة إلى الله وطاعة يحبها الله من عباده شرعها لهم وأمرهم بها ورغّبهم في فعلها، وجعلها منسكاً من مناسك قصد بيته الحرام، قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[٢]، وقد عهد الله إلى نبيّه وخليله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل عليهما السلام أن يقوما بتطهير البيت وتشييد أركانه وتهيئته للطائفين والقائمين والركع السجود، قال الله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٤].

وممّا تقدّم يتبيّن أنَّ الطواف بالبيت العتيق عبادة جليلة وطاعة عظيمة، يحبّها الله من عباده، وشرعها لهم وأمرهم بها، ورتّب لهم على فعلهم لها الثواب العظيم والأجر الجزيل؛ بل إنَّ الطواف بالبيت ركن من أركان الحج، كما أنَّه أيضاً ركن من أركان العمرة، وهذا يدل على عِظم شأن الطواف عند الله ورفيع مكانته؛ إذ لا يتمُّ الحج إلاّ به، ولا تتمُّ العمرة إلاّ به.

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٦١٦)، وصحيح مسلم (رقم: ١٢٦١).

(٢) الحج، آية ٢٧ ـ ٢٩.

(٣) البقرة، آية ١٢٥.

(٤) الحج، آية ٢٦.

ثمَّ إنَّ المسلم في هذا المقام العظيم يتلقى درساً عظيماً، وفائدة جليلة، وهو أنَّ هذه العبادة الجليلة ـ أعني الطواف ـ إنَّما شُرعت في هذا الموطن فقط حول بيت الله الحرام كما دلّت على ذلك النصوصُ المتقدّمةُ من الكتاب والسنة وغيرُها من النصوص، وهي كثيرة جدًّا، وبهذا يعلم المسلم أنَّ الطواف في غير هذا الموطن في أيِّ مكان من الدنيا لا يُشرع، وليس هناك ما يدلُّ على مشروعيته، بل هو ضلال وباطل، وتسوية لبيوت المخلوقين ببيت الخالق الذي أمر سبحانه بإقامته لذكره وطاعته، والتوجّه إليه في عبادته سبحانه، ولا خلاف بين أهل العلم في بطلان الطواف في أي بقعة من البقاع، وفي أي مكان من الأمكنة سوى بيت الله الحرام، فلا يجوز الطواف حول القباب ولا القبور ولا الأضرحة ولا الأشجار ولا الأحجار ولا غيرها، والنقول عن أهل العلم في هذا الباب كثيرة جدًّا، ولعلّي أشير إلى بعض كلامهم في ذلك بحسب ما يسمح به هذا المقام.

قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه المجموع شرح المهذّب: «ولا يجوز أن يُطاف بقبره ﷺ .... ـ وذكر أموراً ثم قال ـ: ولا يُغترُّ بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك، فإنَّ الاقتداء والعمل إنَّما يكون بالأحاديث وأقوال العلماء، ولا يُلتفت إلى محدثات العوام وغيرهم وجهالاتهم، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[(١)]، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[(٢)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكم تبلغني حيثما كنتم»، رواه أبو داود بإسناد صحيح[(٣)]، وقال الفضيل بن

(١) صحيح البخاري (رقم: ٢٦٩٧)، وصحيح مسلم (رقم: ١٧١٨).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ١٧١٨).

(٣) سنن أبي داود (رقم: ٢٠٤٢).

عياض ـ رحمه الله ـ ما معناه: «اتَّبع طرقَ الهدى ولا يضرّك قلّةُ السالكين، وإيّاك وطرق الضلالة ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»، ومن خطر بباله أنَّ المسحَ باليد ونحوه أبلغ في البركة، فهو من جهالته وغفلته؛ لأنَّ البركة إنَّما هي فيما وافق الشرع، وكيف يُبتغَى الفضلُ في مخالفة الصواب»، اهـ كلامه رحمه الله[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد اتفق المسلمون على أنَّه لا يُشرع الطواف إلاَّ بالبيت المعمور، فلا يجوز الطواف بصخرة بيت المقدس، ولا بحجرة النبي ﷺ، ولا بالقبة التي في جبل عرفات، ولا غيرِ ذلك»[(٢)].

وقال رحمه الله: «ليس في الأرض مكان يُطاف به كما يُطاف بالكعبة، ومن اعتقد أنَّ الطواف بغيرها مشروع فهو شرٌّ ممّن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة، فإنَّ النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة صلّى بالمسلمين ثمانية عشر شهراً إلى بيت المقدس، فكانت قبلةَ المسلمين هذه المدة، ثمَّ إنَّ الله حوّل القبلة إلى الكعبة، وأنزل الله في ذلك القرآن كما ذكر في سورة البقرة، وصلّى النبيُّ ﷺ والمسلمون إلى الكعبة وصارت هي القبلة، وهي قبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء.

فمن اتّخذ الصخرةَ اليوم قبلة يصلّي إليها فهو كافر مرتدٌّ يُستتاب، فإن تاب وإلاَّ قُتل، مع أنَّها كانت قبلةً، لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتّخذها مكاناً يُطاف به كما يطاف بالكعبة، والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال ...»، إلى آخر كلامه رحمه الله[(٣)].

وبهذا التحقيق الذي ذكره الإمام النووي وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرُهما من أهل العلم يتبيّن عِظمُ فساد الطواف بأيِّ مكان سوى بيت الله الحرام الذي أذن الله

---

(١) المجموع شرح المهذب (٢٠٦/٨ ـ ٢٠٧).

(٢) الفتاوى (٥٢٢/٤).

(٣) الفتاوى (١٠/٢٧ ـ ١١).

بالطواف حوله وشدّةُ خطره، وأمّا ما يفعله بعض الجهّال من الطواف حول القبور أو القِباب أو الأضرحة أو نحو ذلك فكلُّ ذلك ليس من دين الله؛ بل هو من وحي الشيطان ومن تشريع إبليس، وإلاّ فأين في الكتاب والسنة: فليطّوفوا بقبر فلان أو بضريح فلان أو نحو ذلك، تعالى الله عمّا يصفون، وسبحان الله عمّا يشركون.

السابع: تقبيل الحجر الأسود واستلام الركن اليماني

كان الحديث فيما سبق عن فضل الطواف ببيت الله الحرام، تلك العبادة العظيمة والطاعة الجليلة التي هي ركن من أركان الحج والعمرة، وأنّها إنَّما تُشرع في هذا المكان فقط، كما قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فلا يجوز الطواف بالقِباب أو القبور أو الأضرحة وغيرها؛ لمصادمة هذا الأمر لأصول الشريعة ولمخالفته لحقيقة التوحيد، ولما فيه من تشريك المخلوق وتسويته بالخالق سبحانه، وقد مضى الحديثُ عن هذا الجانب مفصّلاً بعض الشيء، وأمَّا الحديث هنا فسيكون بإذن الله عن درس آخر وفائدة أخرى يفيدها المسلم حينما يصل إلى بيت الله الحرام ليطوف به؛ إذ يُشرع له في هذا المقام تقبيلُ الحجر الأسود، واستلامُ الركن اليماني طاعة لله واتّباعاً لرسول الله ﷺ، وقد وردت أدلّة عديدة فيها بيانُ مشروعية ذلك، وأنَّ النبي ﷺ فعله عندما قدم بيت الله الحرام.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: «رأيت رسول الله ﷺ حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود أول ما يطوف يخبُّ ثلاثة أطواف من السبع»[1]، وروى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما قدم النبي ﷺ مكة دخل المسجد فاستلم الحجر، ثم مضى على يمينه، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ...»، الحديث[2].

وهكذا المسلمون يُقبِّلون الحجرَ من بعده اتّباعاً له ﷺ واقتداء بهديه ولزوماً لسنّته، لا لاعتقاد منهم أنَّ الحجر الأسود ينفع ويضرّ، أو يُعطي و يمنع، ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قبَّل الحجر الأسود: «إنِّي لأعلم

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٦٠٣)، وصحيح مسلم (رقم: ١٢٦١).

(٢) صحيح مسلم (٢/٨٩٣).

أنَّك حجر ما تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك»، رواه البخاري ومسلم[١].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «إنَّما قال ذلك عمر؛ لأنَّ الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر أن يظنَّ الجهال أنَّ استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر أن يعلم الناس أنَّ استلامَه اتِّباعٌ لفعل رسول الله ﷺ، لا لأنَّ الحجر ينفع ويضر بذاته، كما كانت تعتقده في الأوثان». اهـ كلامه رحمه الله[٢].

أمَّا ما يُروى من حديث أبي سعيد أنَّ عمر لما قال هذا قال له علي بن أبي طالب: «إنَّه يضر وينفع»، وذكر أنَّ الله لمَّا أخذ المواثيق على ولد آدم كتب ذلك في رقٍّ وألقمه الحجر، قال: وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق، يشهد لمن استلمه بالتوحيد»، فإنَّ هذا لا يثبت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «وفي إسناده أبو هارون العبدي، وهو ضعيف جدًّا»[٣]، فأبو هارون هذا، راوي هذا الأثر متروك الحديث عند أهل العلم، ومنهم من كذَّبه، قال النسائي فيه: «متروك الحديث»، وقال حماد بن زيد: «كان أبو هارون العبدي كذاباً، بالغداة شيء وبالعشيِّ شيء»، وقال الجوزجاني: «كذاب مفتري»، وقال ابن حبان: «كان يروي عن أبي سعيد ما ليس من حديثه، لا يحل كَتْبُ حديثه إلاَّ على جهة التعجّب»[٤]، فكيف يُعتدُّ برواية من هذه حاله عند أهل العلم.

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٥٩٧)، وصحيح مسلم (رقم: ١٢٧٠).

(٢) نقله الحافظ في الفتح (٣/٤٦٣).

(٣) فتح الباري (٣/٤٦٢).

(٤) انظر: تهذيب الكمال للمزي (٢١/٢٣٢ ـ ٢٣٦).

ثمَّ إنَّ المشروع هو تقبيل الحجر الأسود فقط أو استلامه باليد إن لم يتمكّن من التقبيل، أو الإشارة إليه إن لم يتمكّن من الأمرين، وكذلك يُشرع استلام الركن اليماني، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: «لم أرَ رسول الله ﷺ يستلم من البيت إلاَّ الركنين اليمانيين»[1]، وبهذا يُعلم أنَّه لا يُشرع استلام شيء من البيت سوى الركنين اليمانين، وهما الحجر الأسود والركن اليماني، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يَستلم من الأركان إلاَّ الركنين اليمانيين دون الشاميين، فإنَّ النبي ﷺ إنَّما استلمهما خاصة؛ لأنَّهما على قواعد إبراهيم، والآخران هما داخل البيت، فالركن الأسود يُستلم ويُقبَّل، واليماني يُستلم ولا يُقبَّل، والآخران لا يُستلمان ولا يُقبَّلان، والاستلام هو المسح باليد، وأما سائر جوانب البيت ومقام إبراهيم وسائر ما في الأرض من مساجد وحيطانها ومقابر الأنبياء والصالحين كحجرة نبيّنا ﷺ ومغارة إبراهيم، ومقام نبيّنا ﷺ الذي كان يصلّي فيه، وغير ذلك من مقابر الأنبياء والصالحين وصخرة بيت المقدس فلا تُستلم، ولا تُقبّل باتفاق الأئمة»[2].

ولهذا فإنَّ من الدروس العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها المسلم في هذا المقام أنَّ التقبيل والاستلام لا يُشرع إلاَّ في هذا المكان؛ إذ لم تأت النصوص بمشروعية هذا العمل في غير هذين الموضعين، والمسلم إنَّما يقوم بذلك طاعة لله واتّباعاً لرسوله ﷺ، لا لاعتقاد منه أنَّ فيهما جلبَ نفع أو دفع ضرٍّ كما سبق بيان ذلك من خلال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب التي قالها أمام الناس معلّماً لهم وموجِّهاً عندما قبَّل الحجر الأسود.

وقد دلّت النصوص المتقدّمة على أنَّ التمسّح بحيطان الكعبة غيرِ الركنين

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٦٠٩)، وصحيح مسلم (رقم: ١٢٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/١٢١).

اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة، ودلّت أيضاً على أنَّ استلام مقام إبراهيم وتقبيلَه ليس بسنّة؛ إذ لم يُؤثر عن النبي ﷺ شيء من ذلك، وإذا كان هذا لا يُشرع في الكعبة نفسها، ومعلوم أنَّ جميع المساجد والأماكن حرمتها دون الكعبة، ولا يُشرع في مقام إبراهيم الذي قال الله فيه: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1]، ومعلوم أنَّ مقام إبراهيم الذي بالشام وغيرها وسائر مقامات الأنبياء دون هذا المقام الذي أمر الله باتّخاذه مُصلّى، ومع ذلك لا يُشرع مسحه ولا تقبيله لعدم وجود دليل على مشروعية ذلك، فإنَّ سائر المقامات من باب أولى لا تُقصد للصلاة فيها، ولا يُتمسّح بها، ولا يقبّل شيء منها، بل لا يقبّل ما على وجه الأرض إلاّ الحجر الأسود[2].

وأمَّا ما يفعله بعض الجهال الذين يتهافتون على الأضرحة والقباب وغيرها، فيقبّلونها ويتمسّحون بها، ويتبرّكون بها ويطلبون منها المدد والعون ونحو ذلك، فكلٌّ ذلك ليس من الدين في شيء، بل هو من الضلال المبين والبهتان العظيم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأمَّا التمسّحُ بالقبر أيَّ قبر كان وتقبيلُه وتمريغُ الخدِّ عليه فمنهيٌّ عنه باتّفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمّتها، بل هذا من الشرك»[3] ا.هـ.

---

(١) القرة، آية ١٢٥.

(٢) انظر: الفتاوى لابن تيمية (١٧/٤٧٦).

(٣) الفتاوى (٢٧/٩١ ـ ٩٢).

الثامن: في بيان وجوب لزوم السنة والأخذ بهدي الرسول ﷺ

إنَّ من الدروس العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها الحاجُّ من حجِّهم لبيت الله الحرام معرفة أهميّة السنّة وضرورة التقيّد بها في جميع أعمال الحج، وهذا يظهر جليًّا في حال كثيرٍ من الحجّاج، فتراهم يُقبلون على مجالس الذِّكر وحلق العلم، ويُكثِرون من سؤال العلماء عن صفة الحج وكيفيته وأركانه وواجباته ونواقضه ومبطلاته باهتمام بالغ وتحرٍّ دقيق، ولا سيما من يستشعر في حجِّه قولَ النبيِّ ﷺ: ((خذوا عني مناسككم))[1]، فالحج لا يكون مقبولاً عند الله إلاَّ إذا أخذ المسلم فيه بطريقة الرسول ﷺ، ولزم فيه هديَه، واقتدى فيه بسنّتِه دون إفراطٍ أو تفريطٍ، ودون غلوٍّ أو جفاءٍ، ودون زيادةٍ أو تقصيرٍ، فإذا ألزم المسلمُ نفسَه في حجّه بسنّة النبي ﷺ، وقيّدها بهديه أفاد من ذلك أنَّ لزوم السنة واتّباع الهدي مأمور به في كلِّ طاعة، فكما أنّه متحتّم في الحج على كلِّ أحد الأخذ بمناسكه ﷺ، فإنَّه متحتّم على كلِّ أحد الأخذ بهديه في كلِّ طاعة، ولهذا قال ﷺ في شأن الصلاة: ((صلّوا كما رأيتموني أصلّي))[2]، وقال عموماً في شأن كلِّ طاعة: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ))[3]، وفي رواية: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ))[4].

فكل عمل لا يكون على هدي الرسول ﷺ فإنَّ الله لا يقبله كما دلَّ على ذلك منطوق قوله ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ))، فإنَّه يدل على أنَّ كلَّ بدعة أُحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع العلمية القولية أو من البدع العملية التعبّدية، فمن أخبر بغير ما أخبر الله به

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ١٢٩٧).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٦٣١).

(٣) صحيح مسلم (رقم: ١٧١٨).

(٤) صحيح البخاري (رقم: ٢٦٩٧)، وصحيح مسلم (رقم: ١٧١٨).

ورسوله ﷺ أو تعبَّد بشيء لم يأذن الله به ولا رسوله ﷺ ولم يشرعه، فإنَّه يكون مردوداً على صاحبه غير مقبول، كما أنَّ الحديث يدلُّ بمفهومه أنَّ من عمل عملاً عليه أمر الله ورسوله، وهو التعبّد لله بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة من واجب ومستحب، فعملُه مقبول وسعيُه مشكور.

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرُهم عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: ((صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، كأنَّها موعظة مودِّع فأوصِنا. فقال: أوصيكم بتقوى الله عزَّ وجلَّ والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، فإنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة))[1].

وقوله ﷺ في هذا الحديث: ((كلَّ بدعة ضلالة)) هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ))، فكلُّ من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالةٌ، والدين بريء منه، وهو مردود على صاحبه غير مقبول منه، فدِين الله مبنيٌّ على أصلين عظيمين وأساسين متينين.

أحدهما: ألاَّ نعبد إلاَّ الله وحده لا شريك له.

والثاني: أن لا نعبده إلاَّ بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟

---

(١) سنن أبي داود (رقم: ٤٦٠٧)، وسنن الترمذي (رقم: ٢٦٧٦)، وسنن ابن ماجه (رقم: ٤٢، ٤٤).

(٢) الجاثية، آية ٢٨، ٢٩.

﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[(١)]، فليس لأحدٍ أن يعبدَ الله إلاَّ بما شرعه رسوله ﷺ من واجب ومستحب، لا نعبده بالأمور المحدثة المبتدعة التي لا أصل لها في الدين ولا أساس لها من الشرع، وليس لأحدٍ أن يعبد إلاَّ الله وحده، فلا يُصلَّى إلاَّ لله، ولا يُصام إلاَّ له، ولا يُحجُّ إلاَّ إلى بيته، ولا يُتوكَّل إلاَّ عليه، ولا يصرف شيء من العبادة إلاَّ لـه[(٢)]، وقد جمع الله بين هذين الأصلين العظيمين في قولـه سـبحـانـه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[(٣)]، فالعمل الصالح هو الموافق للشرع المطهّر، والخالصُ هو الذي لم يُرد به إلاَّ وجه الله، وهما ركنَا العمل المتقبّل، فإنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

فالواجب على كلِّ مسلم يرجو لنفسه الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة أن يُلزم نفسَه بهدي الرسول ﷺ، وأن يقيّد عملَه بسنَّته، وأن يحذرَ تمام الحذر من مفارقة هديه، ومخالفة سنّته واتباع غير سبيله؛ إذ هو صلوات الله وسلامه عليه القدوةُ والأسوة لأمَّته، كما قال الله تعالى في شأنه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[(٥)]، أي: «هو أحقُّ بهم في كلِّ أمور الدين والدنيا،

---

(١) الشورى، آية ٢١.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٨٠ ـ ٨١).

(٣) الكهف، آية ١١٠.

(٤) الأحزاب، آية ٢١.

(٥) الأحزاب، آية ٦.

وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبُّوه زيادة على حبِّهم لأنفسهم، ويجب عليهم أن يقدِّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم، وبالجملة فإذا دعاهم النبي ﷺ بشيء ودعتهم أنفسُهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدِّموا ما دعاهم إليه ويؤخِّروا ما دعتهم أنفسُهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدِّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرُهم))[1].

ولا ريب أنَّ هذا يتطلّب من المسلم اجتهاداً في معرفة السنة، وبذلاً للوقت في سبيل معرفة هدي الرسول ﷺ، وذلك عن طريق سؤال أهل العلم والجلوس في حلق الذِّكر التي يبيّن فيها الحلالُ والحرام، وقراءة الكتب النافعة والمؤلفات المفيدة المشتملة على بيان ذلك، ليتسنّى للمسلم بعد ذلك القيامُ بالعبادة على وجه صحيح ونهج سليم، موافقٍ لهدي الرسول الكريم ﷺ.

---

(١) فتح القدير (٤/٢٦١).

التاسع: في يوم عرفة

لا ريب أنَّ يوم عرفة يومٌ عظيمٌ من أيام الله المباركة، ومجمعٌ كبيرٌ من مجامع الخير والإيمان والتقوى، وموسمٌ رحبٌ جليلٌ من مواسم الطاعة والعبادة، يومٌ تكثر فيه العبرات، وتتوالى فيه الدعوات، وتتنزّل فيه الرحمات، وتُقال فيه العثرات، وتُغفر فيه الزلاّت، يوم رجاء وخشوع، وذلّ وخضوع، إنَّه يومٌ كريمٌ مباركٌ، لم تطلع الشمس على يومٍ أفضل منه، قد خُصَّ بمزايا كريمةٍ، وخصائصَ عظيمةٍ، وصفاتٍ جليلةٍ، ليس من اليسر حصرها، ولا من الممكن استقصاؤها.

إنَّه اليوم الذي أكمل الله فيه لهذه الأمة الدين، وأتمَّ فيه لهم النعمة؛ إذ فيه نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام.

روى البخاري ومسلم عن طارق بن شهاب قال: ((جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأيُّ آية؟ قال: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة))[2].

وفي هذا اليوم الكريم المبارك يكثر عُتقاء الله من النار، ويجود فيه على عباده المؤمنين، ويباهي بهم ملائكته المقرّبين، روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ قال: ((ما من يومٍ أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من

---

(١) المائدة، آية ٣.

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٤٦٠٦)، وصحيح مسلم (رقم: ٣٠١٧).

يوم عرفة، وإنَّه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء))[(١)]، قال ابن عبد البر رحمه الله: ((وهذا يدل على أنَّهم مغفورٌ لهم؛ لأنَّه لا يُباهي بأهل الخطايا والذنوب إلاَّ من بعد التوبة والغفران))[(٢)].

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((إنَّ الله تعالى يُباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة، يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً))[(٣)].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في مِيميَّته الشهيرة:

فللّه ذاك الموقفُ الأعظمُ كموقف يوم العرض بل ذاك أعظم
ويدنو به الجبَّار جلَّ جلاله يباهي بهم أملاكَه فهو أكرم
يقول: عبادي قد أتوني محبّة وإنّي بهم أجود وأرحم
فأُشهدكم أنِّي قد غفرتُ ذنوبَهم وأعطيتهم ما أملوه وأنعم
فبُشراكم يا أهل ذا الموقف الذي به يغفر الله الذنوب ويرحمُ

وقف الفضيل بن عياض رحمه الله بعرفة فنظر إلى نشيج الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: ((أرأيتم لو أنَّ هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانِقاً، أكان يرُدُّهم؟ قالوا: لا، قال: والله، لَلمغفرةُ عند الله أهونُ من إجابة رجل لهم بدانِق))[(٤)].

وعن عبدالله بن المبارك قال: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه، وعيناه تهملان، فبكيت، فالتفت إليَّ فقال: "ما شأنك" فقلت: من

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ١٣٤٨).

(٢) التمهيد (١/ ١٢٠).

(٣) المسند (٢/ ٢٢٤).

(٤) مجلسٌ في فضل يوم عرفة لابن ناصر الدين الدمشقي (ص: ٦٣).

أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظن أنَّ الله لا يغفر لهم[١].

ولهذا فإنَّه ينبغي للمسلم الراغب في الربح والمغنم في هذا اليوم المبارك أن يكون مخبتاً لربّه سبحانه، متواضعاً له، خاضعاً لجنابه، منكسراً بين يديه، يرجو رحمته ومغفرته، ويخاف عذابه ومقته، تائباً إليه من كلِّ ذنب اكتسبته يداه، وكلِّ خطيئة مشت إليها قدماه، غيرَ مضيّعٍ لوقته في هذا الموقف العظيم بالذهاب هنا وهناك، أو بالحديث مع هذا وذاك، بل يكون مقبلاً على ربّه ومولاه، مكثراً من الذِّكر والدعاء والاستغفار والتضرّع، وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((خير الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وخير ما قلته أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير))[٢]، فيوم عرفة يوم الدعاء، وأفضل الذِّكر لا إله إلا الله، فكان ﷺ يُكثر من أفضل الذِّكر في أفضل الأيام؛ لأنَّ سيّد الأيام هو يوم عرفة، وسيّد الأذكار هو لا إله إلا الله، فالإكثار من سيّد الأذكار في سيّد الأيام هو في غاية المناسبة والتوافق.

إنَّ لا إله إلا الله هذه الكلمةَ العظيمةَ التي كان رسول الله ﷺ يُكثر من قولها في يوم عرفة هي أفضلُ الكلمات، وأجلُّها على الإطلاق، وهي العروة الوثقى وكلمة التقوى ومفتاح دار السعادة، وأصل الدين وأساسه، ورأس أمره؛ لأجلها قامت الأرض والسموات، وخُلقت الخليقة وأُرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، بل لها من الفضائل والمزايا ما لا يخطر ببال، ولا يدور في خيال، لكن يجب على المسلم أن يعلم أنَّ لا إله إلا الله لا تُقبل من قائلها بمجرّد نطقه لها بلسانه فقط دون قيام منه بحقّها وفرضها، ودون استيفاء لأُسسها وشروطها، فليست لا إله إلا الله اسماً

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (ص: ٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (رقم: ٣٥٨٥) من حديث عبد الله ابن عمرو. وحسنه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٧، ٨)، وقال: ((الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد)).

لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له، أو لفظاً لا مضمون له، بل إنَّ لهذه الكلمة العظيمة مدلولاً لا بدّ من فهمه، ومعنى لا بدّ من ضبطه، وغايةً لا بدّ من تحقيقها؛ إذ غير نافع بإجماع أهل العلم النطق بهذه الكلمة من غير فهم لمعناها، ولا عمل بما تقتضيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(١)]، أي إلاَّ من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما شهدوا به بألسنتهم.

وهذا ولا شك أمرٌ في غاية الأهمية يجدر بكلِّ مسلم أن يُعنى به غاية العناية، ويهتمّ به تمام الاهتمام؛ إذ إنَّ لا إله إلا الله لا تنفع إلاَّ من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد بذلك وعمل به، أمَّا من قالها وعمل بها ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وأمَّا من قالها وعمل بضدّها وخلافها من الشرك فهو الكافر، وكذلك من قالها وارتدّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنَّها لا تنفعه ولو قالها ألف مرّة، وكذلك من قالها وهو يصرف أنواعاً من العبادة لغير الله كأن يدعوَ غيرَ الله أو يستغيث بغيره أو يطلبَ من غيره المدَدَ والعونَ والنَّصر فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله، ونحوَ ذلك، فمن صرف مما لا يصلح إلاَّ لله من العبادات لغير الله فهو المشرك بالله العظيم، ولو نطق بلا إله إلا الله؛ إذ إنَّ هذه الكلمة العظيمة تعني إخلاص العبادة كلّها لله وعدمَ الإشراكِ به، والإقبالَ على الله وحده لا شريك له خضوعاً وتذلّلاً، وطمعاً ورَغباً، وإنابةً وتوكّلاً، ودعاءً وطلباً، فصاحب لا إله إلا الله لا يسأل إلاَّ الله، ولا يستغيث إلاَّ بالله، ولا يتوكل إلاَّ على الله، ولا يرجو غير الله ولا يذبح إلاَّ لله، ولا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله، ويكفر بجميع ما يعبد من دون الله، ويبرأ إلى الله من ذلك[(٢)].

---

(١) الزخرف، آية ٨٦.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص: ٧٨).

العاشر: وجوب الإخلاص لله في الذبح

إنَّ من أيّام الله العظيمة يومُ النّحر، اليومُ العاشر من ذي الحجة يومُ عيد الأضحى المبارك، وقد سمّي هذا اليوم بيوم النّحر لأنَّ المسلمين يتقرّبون فيه إلى الله بنحر بهيمة الأنعام، فالحجاج في هذا اليوم ينحرون هداياهم، والمسلمون في شتى بقاع الأرض ينحرون ضحاياهم، أولئك يتقرّبون إلى الله بنحر الهدايا وهؤلاء يتقرّبون إلى الله بنحر الضحايا، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾(١)، أي: ليس المقصودُ ذبحَها فقط بل إنَّما شَرع لكم نَحرَ هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنَّه الخالق الرازق لا أنَّه يناله شيء من لحومها ولا دمائها فإنَّه تعالى هو الغني عمّا سواه ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي الإخلاصُ فيها والاحتساب والنيّة الصالحة وابتغاء وجه الله بالعمل، وفي هذا أعظم حثٍّ وترغيبٍ على الإخلاص في النّحر وأن يكون القصد فيه وجه الله وحده، إذ إنَّ الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ الخالص الذي لا يُبتغى فيه إلاّ وجهه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

---

(١) الحج، آية ٣٤ ـ ٣٧.

(٢) الأنعام، آية ١٦٢ ـ ١٦٣.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ((يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنَّه مخالف لهم في ذلك، فإنَّ صلاته لله ونُسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإنَّ المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عمّا هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال مجاهد في قوله ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ قال: ((النسك: الذبح في الحج والعمرة)).

وقال الثوري عن السدّي عن سعيد بن جبير ﴿وَنُسُكِى﴾ قال: ((ذبحي))، وكذا قال السدّي والضحاك)) اهـ[١].

والذبح عبادة عظيمة من أنواع العبادات التي يتقرّب بها المسلمون إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ نُسُكاً لله تعالى من هَديٍ أو أُضحيةٍ أو عقيقةٍ أو نذر أوغير ذلك، فلا يجوز صرفُ هذه العبادة لغير الله كما لا يجوز صرفُ أيِّ عبادةٍ لغيره سبحانه، وقد ثبت في الصحيح من حديث أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: ((لعن الله مَن ذبح لغير الله، ولعن الله مَن لعن والديه، ولعن الله من آوى مُحدِثاً، ولعن الله من غيَّرَ منارَ الأرض))[٢]، واللّعنُ هو الطردُ والإبعاد من رحمة الله، وأخطرُ هذه الأمور الأربعة التي يستحقُّ فاعلها هذه العقوبة هو الذّبح لغير الله؛ ولهذا بدأ به رسول الله ﷺ، ممّا يدلّ على الخطورة البالغة لهذا الأمر، إذ إنَّ الذّبح لغير الله شركٌ، والأمورُ المذكورةُ معه في الحديث إنّما هي من كبائر الإثم ولا تصل إلى رتبة الشرك، وكلُّ ذبحٍ لغير الله شركٌ ولو كان المذبوحُ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٧٧).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ١٩٧٨).

المتقرّب به تافهاً حقيراً كالذباب ونحوه فكيف بمن يقرِّب نفائس الأنعام وأطايبها.

روى الإمام أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية وغيرهما عن سلمان الفارسي رضي الله عنه موقوفاً عليه بإسنادٍ صحيحٍ أنَّه قال: «دخل رجلٌ الجنّةَ في ذباب ودخل آخرُ النّارَ في ذباب، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: مرّ رجلان ممّن كان قبلكم على ناس معهم صنمٌ لا يمرّ بهم أحدٌ إلاّ قرَّب لصنمهم، فقالوا لأحدهما: قرِّب شيئاً، قال: ما عندي شيء، قالوا: قرِّب ولو ذباباً فقرّب ذباباً ومضى فدخل النّار، وقالوا للآخر: قرِّب، قال: ما كنتُ لأُقرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله عزَّ وجلَّ فضربوا عنقه فدخل الجنّة»[1].

وهذا ممّا يبيّن عظم الشرك وشدّة خطره ولو في الشيء القليل وأنَّه يوجبُ النّار، فهذا الرجل الأوّل لما قرّب لهذا الصنم أرذل الحيوان وأخسّه وهو الذباب كان جزاؤه النّار؛ لإشراكه في عبادة الله، فإذا كان هذا فيمن قرّب ذباباً، فكيف بمن يستسمن الإبل وغيرَها ليتقرَّب بنحرها لمن كان يعبده من دون الله مِن قبرٍ أو مشهد أو حجر أو شجر أو غير ذلك.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه شرح الصدور: «ومن المفاسد البالغة إلى حدّ يرمي بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام، ويلقيه على أمِّ رأسه من أعلى مكان الدين أنَّ كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر متقرّباً به إليه راجياً ما يضمر حصوله منه، فيهلّ به لغير الله، ويتعبّد به لوثنٍ من الأوثان، إذ إنَّه لا فرق بين النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثناً، وبين قبر لميِّت يسمونه قبراً، ومجرّد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئاً، ولا يؤثر تحليلاً ولا تحريماً، فإنَّ مَن أطلق على الخمر غير اسمها وشربها كان

---

(١) الزهد (ص: ٣٢، ٣٣)، والحلية (١/ ٢٠٣).

حكمه حكم من شربها وهو يسميها باسمها، بلا خلاف بين المسلمين أجمعين.

ولا شكّ أنَّ النّحر نوعٌ من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها، كالهدايا والفدية والضحايا، فالمتقرِّب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلاّ تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشرّ به، وهذه عبادة لا شك فيها، وكفاك من شرّ سماعه ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، والنبي ﷺ يقول: «لا عقر في الإسلام»، قال عبد الرزاق [الصنعاني]: «كانوا يعقرون عند القبر، يعني بقراً وشياهاً» رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أنس ابن مالك رضي الله عنه». ا.هـ كلام الإمام الشوكاني رحمه الله[1]، وقد أبلغ فيه رحمه الله بالنصيحة وأحسن في التحذير من هذا الأمر الخطير، فنسأل الله الكريم أن يقيَنا جميعاً من الوقوع في شيء من ذلك، وأن يجعلَ أعمالنا كلّها خالصة لوجهه الكريم، مطابقة لسنّة نبيّه محمد ﷺ إنّه جوادٌ كريم.

---

(١) شرح الصدور للشوكاني (ضمن الجامع الفريد ص: ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

الحادي عشر: في حلق الرأس

إنَّ أعمال يوم النحر اليوم العاشر من ذي الحجة أربعةُ أعمال معلومةٍ مشهورةٍ، وهي الرمي، ثمَّ النحر، ثمَّ الحلق، ثمَّ الطواف، والحديث هنا سيكون عن حلق الرأس أو تقصيره تعبّداً لله وطاعةً له وتقرّباً إليه في هذا اليوم العظيم، والحلق هو إزالةُ شعر الرأس كاملاً، والتقصير هو التخفيف من شعر الرأس كلّه، والحلق أو التقصير واجب من واجبات الحج والعمرة، لا يجوز تركه، والدليل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[1]، قال ابن قدامة رحمه الله: ((ولو لم يكن من المناسك لما وصفهم به))[2].

روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((لما قدم النبي ﷺ مكة أمر أصحابه أن يطوفوا بالبيت وبالصفا والمروة، ثم يحلّوا ويحلقوا أو يقصروا))[3]، فهو واجب من واجبات الحج والعمرة، فمن لم يحلق أو يقصر لزمه جبران هذا الواجب بدم، وهو إشعارٌ بانتهاء مدّة الإحرام واقتداء بفعل الرسول عليه الصلاة والسلام حيث حلق رأسه وأمر أصحابه بالحلق إلقاء للتفث وإزالة للشعث، وهو وضع للنواصي بين يدي ربّها خضوعاً لعظمته وتذلّلاً لعزّته، وهو من أبلغ أنواع العبودية لله عزَّ وجلَّ.

وعندما يقوم المسلم بهذه الطاعة العظيمة والعبادة الجليلة امتثالاً لله واتباعاً لرسول الله ﷺ يجب عليه أن يعلم أنَّ حلق الرأس أو تقصيره على وجه التعبّد

---

(١) الفتح، آية ٢٧.

(٢) المغني (٥/٣٠٥).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ١٧٣١).

والتقرّب لا يجوز القيام به لغير الله سبحانه وتعالى، وقد سئل الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أقوام يحلقون رؤوسهم على أيدي الأشياخ، وعند القبور التي يعظّمونها ويعدّون ذلك قُربة وعبادة: هل هذا سنة أو بدعة؟ وهل حلق الرأس مطلقاً سنة أو بدعة؟ فقال رحمه الله: «حلق الرأس على أربعة أنواع:

أحدها: حلقه في الحج والعمرة فهذا ممّا أمر الله به ورسوله ﷺ، وهو مشروع ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[1]، وقد تواتر عن النبي ﷺ أنّه حلق رأسه في حجّه وفي عمره، وكذلك أصحابه، منهم مَن حلق ومنهم من قصّر، والحلق أفضل من التقصير؛ ولهذا قال ﷺ: «اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: والمقصرين»[2]، وقد أمر الصحابةَ الذين ساقوا الهدي في حجّة الوداع أن يقصروا رؤوسهم للعمرة إذا طافوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم يحلقوا إذا قضوا الحج، فجمع لهم بين التقصير أولاً وبين الحلق ثانيا.

والنوع الثاني: حلق الرأس للحاجة، مثل أن يحلقه للتداوي، فهذا أيضاً جائز بالكتاب والسنة والإجماع، فإنَّ الله رخّص للمحرم الذي لا يجوز له حلق رأسه أن يحلقه إذا كان به أذى كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[3]، وقد

(١) الفتح، آية ٢٧.

(٢) صحيح البخاري (رقم: ١٧٢٧)، وصحيح مسلم (رقم: ١٣٠١).

(٣) البقرة، آية ١٩٦.

ثبت باتفاق المسلمين حديثُ كعب بن عجرة لما مرَّ به النبي ﷺ في عمرة الحديبية والقمل ينهال من رأسه فقال: ((أيؤذيك هوامّك؟ قال: نعم. فقال: احلق رأسك، وانسك بشاة، أو صُم ثلاثة أيام، أو أطعم فَرَقاً بين ستة مساكين))[(١)]، وهذا الحديث متفق على صحّته متلقًى بالقَبول من جميع المسلمين.

والنوع الثالث: حلقه على وجه التعبّد والتديّن والزهد من غير حج ولا عمرة، مثل ما يأمر بعض الناس التائب إذا تاب أن يحلق رأسه، ومثل أن يُجعلَ حلقُ الرأس شعارَ أهل النسك والدين أو من تمام الزهد والعبادة، أو يُجعلَ من يحلق رأسَه أفضلَ ممّن لم يحلقه، أو أدين، أو أزهد، أو أنَّ يقصر من شعر التائب كما يفعل بعض المنتسبين إلى المشيخة إذا توَّب أحداً أن يقص بعض شعره، ويعين الشيخ صاحب مقص وسجادة فيجعل صلاته على السجادة، وقصّه رؤوس الناس من تمام المشيخة التي يصلح بها أن يكون قدوة يتوِّب التائبين، فهذا بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله ﷺ، وليست واجبة ولا مستحبّة عند أحد من أئمة الدين، ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة، لا من الصحابة ولا من التابعين ولا تابعيهم ومن بعدهم ... وقد أسلم على عهد النبي ﷺ من أسلم[(٢)]، ولم يكن يأمرهم بحلق رؤوسهم إذا أسلموا، ولا قصّ النبي ﷺ رأس أحد، ولا كان يصلي على سجادة، بل كان يصلّي إماماً بجميع المسلمين يصلّي على ما يصلّون عليه، ويقعد على ما يقعدون عليه، لم يكن متميّزاً عنهم بشيء يقعد عليه لا سجادة ولا غيرِه ... ومن اعتقد البدع التي ليست واجبة ولا مستحبّة قربة وطاعة وطريقاً إلى الله، وجعلها من تمام الدين ومما يُؤمر به التائب والزاهد والعابد فهو ضال خارج عن سبيل الرحمن، متّبع لخطوات الشياطين)).

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٨١٤)، وصحيح مسلم (رقم: ١٢٠١).

(٢) في الأصل: ((جميع من في الأرض)).

ثم ذكر رحمه الله النوع الرابع من الحلق، وهو أن يحلق رأسه في غير النسك لغير حاجة ولا على وجه التقرب والتديّن، وذكر أنَّ لأهل العلم فيه قولين، هما روايتان عن الإمام أحمد.

أحدهما: أنَّه مكروه، وهو مذهب مالك وغيره.

والثاني: أنَّه مباح، وهو المعروف عند أصحاب أبي حنيفة والشافعي.

ثم ذكر رحمه الله ما احتج به أهل كلِّ قول[١].

وذكر الإمام ابن القيّم نحو هذا التقسيم المتقدّم في كتابه زاد المعاد، وذكر أنَّ من أنواع حلقِ الرأس ما هو بدعة وشرك، وهو حلق الرأس لغير الله سبحانه كما يحلقها المريدون لشيوخهم، فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدتُ لفلان، فإنَّ حلق الرأس خضوع وعبودية وذلّ؛ ولهذا كان من تمام الحج.

ثم ذكر رحمه الله أنَّ شيوخ الضلال زيّنوا لمريديهم حلق رؤوسهم لهم كما زيّنوا لهم السجود لهم[٢]، وكلُّ ذلك من الشرك المبين، ومن البهتان العظيم، نسأل الله السلامة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١٦/٢١ ـ ١١٩).

(٢) زاد المعاد (١٥٩/٤ ـ ١٦٠).

الثاني عشر: الإخلاص لله في الدعاء

إنَّ من العبادات العظيمة التي يكثرُ إقبالُ المسلمين عليها في الحج وتعظمُ عنايتُهم بها فيه، الدعاءَ الذي هو أجلُّ أنواع العبادة وأفضلُها، وقد وصفه ﷺ في الحديث الصحيح بأنَّه هو العبادة؛ لِعظم مكانه منها ولرِفعة شأنه فيها، ولذا وردت النصوصُ الكثيرةُ في القرآن والسنة الدالَّةُ على عظيم شأنه ورفيع مكانته، والمشتملةُ على التنويه به والحثِّ عليه والترغيبِ فيه بوجوهٍ مختلفةٍ من الدلالة بالأمر به تارةً، وببيانِ مكانته ومنزلته تارةً، وبالثناءِ على أهله والقائمينَ به أُخرى، وبذكرِ عظم ثوابهم وتنوُّع أجورهم تارة، وبالتحذير في بعض المواطن من التهاون به أو الاستكبار عنه.

يقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

وممَّا يزيد في اهتمام الحجّاج بالدعاء ويُقوِّي إقبالَهم عليه في الحجِّ أنَّه قد اجتمع

---

(١) الأعراف، آية ٥٥، ٥٦.

(٢) غافر، آية ٦٥.

(٣) البقرة، آية ١٨٦.

(٤) غافر، آية ٦٠.

لهم فيه فضلُ المكان وشرفُه مع فضلِ الزمان وشرَفِه مع ما يعتري أيضاً قلوبَهم إذ ذاكَ من الرِّقَّة والخشوع والإقبال على الله عزَّ وجلَّ ولا سيَما في يومِ عرَفَةَ الذي هو أعظمُ الأيّام وأشرفُها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإنَّه من المعلوم أنَّ الحجيجَ عشيَّةَ عرفةَ ينزلُ على قلوبهم من الإيمان والرّحمة والنُّور والبركة ما لا يمكنُ التعبيرُ به» ا.هـ[1].

ولذا ثبت عن النَّبيِّ ﷺ في تعظيم شأن الدعاء يومَ عرَفةَ وبيانِ فضله أنَّه قال: «خيرُ الدعاء دعاءُ يومِ عرفة»[2].

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وفيه ـ أي هذا الحديث ـ من الفقه أنَّ دعاءَ يوم عرفة أفضلُ من غيره ... وفي الحديث دليلٌ على أنَّ دعاءَ يوم عرفة مجابٌ كلُّه في الأغلب» ا.هـ[3].

وفي الحج أمكنةٌ خاصةٌ ينبغي للمسلم أن يقف بها ويتحرّى الدعاء فيها، اقتداءً بالنبي ﷺ حيث ثبت عنه أنَّه كان يقفُ فيها ويستقبلُ القِبلة ويدعو اللهَ عزَّ وجلَّ، وهي بالأخصِّ ستّة أماكن: في عرَفة كما تقدّم، وفي المشعر الحرام كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[4]، وعلى الصفا والمروة لما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه: «أنَّ النبي ﷺ كان إذا وقف على الصفا يُكبِّر ثلاثاً ويقول: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، يصنع ذلك ثلاث مرّات ويدعو، ويصنع

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٣٧٤).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (رقم: ٣٥٨٥) من حديث عبد الله ابن عمرو. وحسنه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٧، ٨)، وقال: «الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد».

(٣) التمهيد (٦/٤١).

(٤) البقرة، آية ١٩٨.

على المروة مثل ذلك))[١].

ويقف بعد رمي الجمرتين الصغرى والوسطى لما ثبت في صحيح البخاري: ((أنَّ عبدَ الله ابن عمر رضي الله عنهما كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصياتٍ يكبِّر على إثرِ كلِّ حصاةٍ، ثمّ يتقدّم حتى يُسْهلَ فيقومُ مستقبلَ القِبلة، فيقومُ طويلاً ويدعو ويرفعُ يديه، ثمّ يرمي الوسطى، ثمّ يأخذ ذات الشمال فيسهل ويقومُ مستقبلَ القِبلة، فيقومُ طويلاً ويدعو ويرفعُ يديه ويقوم طويلاً، ثمّ يرمي جمرة العقَبة من بطن الوادي، ولا يقفُ عندها، ثمَّ ينصرفُ فيقول: هكذا رأيتُ النبي ﷺ يفعله))[٢].

فهذه ستَّةُ مواضعَ ثبت أنَّ النبي ﷺ يقف فيها ويتحرّى الدعاء، ويرفعُ يديه، وعموماً فالدعاء له شأنٌ عظيمٌ ومنزلةٌ عاليةٌ في الحج، بل إنَّ له شأناً بالغاً في العبادات كلّها، بل هو روح العبادة ولُبُّها وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((الدعاء هو العبادة))[٣].

وإذا كان الدعاء بهذه المنزلة الرفيعة من الدين، وبهذه الرتبة العالية منه، فإنَّ الواجب على المسلم أن تكون عنايتُه بالدعاء عظيمةً، واهتمامه به بالغاً، وأن يكون متقيّداً بشروطه، متأدِّباً بآدابه، حذراً من الوقوع في شيء من موانع إجابته، متحرِّياً الأوقات الفاضلة لقبوله، وأهمّ ما ينبغي ملاحظته في هذا الباب العظيم أن يكون دعاء المسلم خالصاً لله عزَّ وجلَّ فلا يدعو إلاَّ الله، ولا يستغيث إلاَّ بالله، ولا يطلب المدد والعون والنصر والشفاء إلاَّ من الله، ولا يستعين إلاَّ بالله؛ لأنَّ الدعاء كما تقدّم هو العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك أكبر، ناقلٌ من الملّةِ والعياذ بالله، قال الله

---

(١) انظر: صحيح مسلم (رقم: ١٢١٨).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ١٧٥١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧١/٤)، والترمذي (رقم: ٢٩٦٩)، وغيرهما.

تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[4]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن آداب الدعاء ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5].

وإذا جمع المسلم مع الدعاء حضور القلب وجمعيّته بكليّته مع المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الربِّ، وذُلاًّ له، وتضرّعاً ورقةً، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبةَ والاستغفار، ثم دخل على الله، وألحَّ عليه في المسألة، وتملّقه ودعاه رغبةً ورهبةً، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم

---

(١) يونس، آية ١٠٦، ١٠٧.

(٢) المؤمنون، آية ١١٧.

(٣) غافر، آية ٦٥.

(٤) الجن، آية ١٨.

(٥) الأعراف، آية ٥٥، ٥٦.

بين يدي دعائه صدقَة، فإنَّ هذا الدعاء لا يكاد يُردُّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنَّها مظنّةُ الإجابة، أو أنَّها متضمّنةٌ للاسم الأعظم الذي إذا سُئل الله به أعطى، وإذا دُعي به أجاب[١]، ومن ذلك ما ثبت في السنن أنَّ النبيَّ ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللّهمَّ إني أسألك بأنّي أشهد أنَّك أنت الله لا إله إلاَّ أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال ﷺ: لقد سألتَ اللهَ باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»[٢].

---

(١) انظر: الجواب الكافي لابن القيم (ص: ٩).

(٢) رواه أبو داود(رقم: ١٤٩٣)، والترمذي(رقم: ٣٤٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى(رقم: ٧٦٦٦)، وابن ماجه (رقم: ٣٨٥٧)، وابن حبان (رقم: ٨٩١، ٨٩٢).

الثالث عشر: في التحذير من الغلوِّ في الدِّين

إنَّ من الدروس العظيمة التي يفيدها الحاج من حجّه لبيت الله الحرام أهميّةَ التوسّط والاعتدال في الأمور كلّها، ومجانبة الغلو والجفاء أو الإفراط والتفريط، كما قال الله تعالى في شأن هذه الأمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(١)، والمراد بقوله سبحانه: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي شهوداً عدولاً، لا يميلون عن الحق، لا إلى غلو، ولا إلى جفاء، بل يتوسّطون ويعتدلون، والحج مليء بالمواقف العظيمة والعِبر الجليلة التي ترشد إلى أهمية التوسّط، وتدلّ على أهمية الاعتدال، ومن أهمِّ هذه المواقف في هذا الباب العظيم النظرُ في هدي النبيِّ ﷺ وسنّته في رمي الجمار على ضوء ما ثبت عنه ﷺ، ثمَّ النظرُ بعد ذلك إلى أحوال الناس مع سنّته، فإنَّ حالهم في ذلك بين غلوٍّ وجفاء، وإفراط وتفريط، إلاَّ من وفّقهم الله وأكرمهم بلزوم سنّته ومتابعة هديه واقتفاء أثره ﷺ.

روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «الْقط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل ينفضهنّ في كفّه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: أيّها الناس إيّاكم والغلوَّ في الدين، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين»(٢)، وإسناده صحيح على شرط مسلم كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٣)، وغيره من أهل العلم.

فقوله ﷺ في الحديث: «أمثال هؤلاء فارموا»، أي الحصيات التي التُقطت له

---

(١) البقرة، آية ١٤٣.

(٢) المسند (١/ ٢١٥)، وسنن النسائي (٥/ ٢٦٨)، وسنن ابن ماجه (رقم: ٣٠٦٩).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٩٣).

بحجمها المحدّد في الحديث وهو حجم حصى الخذف، فاللفظ لا يتناول الحجم الصغير الذي لا يُسمى حصاة، كما لا يتناول الحجم الكبير الذي يُسمّى حجراً، فالمشروع هو التوسّط، ومع وضوح هذا الأمر وشدّة بيانه فإنَّك إذا قارنت ذلك بحال بعض المسلمين ممّن جهلوا سنّة النبي ﷺ تجد منهم أمراً عجباً في هذا الباب بين غلوٍّ وجفاء وإفراطٍ وتفريطٍ وزيادة وتقصير، والحق قوام بين ذلك، فلا يقصُر المسلم عن سنته ﷺ شأن أهل التفريط والجفاء، ولا يزيد عليها شأن أهل الإفراط والغلوّ، وإنَّما يكون عدلاً وسطاً.

وقوله ﷺ: «إيّاكم والغلوّ» عام في جميع أنواع الغلوّ في الاعتقادات والأعمال؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالمسلم منهيٌّ عن الغلوّ في كلِّ أحواله ممنوع منه في كلِّ شؤونه، مأمور باقتفاء آثار الرسول الكريم ﷺ واتّباع سنته في الأحوال كلّها.

إنَّ الشيطان حريص تمام الحرص على عبد الله المؤمن ليصرفه عن الجادة وليبعده عن صراط الله المستقيم إمّا إلى غلوّ أو إلى جفاء ولا يبالي بأيِّ الأمر ظفر كما قال بعض السلف: «ما أمر الله تعالى بأمر إلاّ وللشيطان فيه نزغتان إمّا إلى تفريط وتقصير، وإمّا إلى مجاوزة وغلوّ ولا يبالي بأيِّهما ظفر»، وهو قاعدٌ للمسلم بأطرقه لا يفترُ ولا يملُّ من الكيد له والتربّص به واستفراغ كامل الوُسْع لإضلاله وصرفه عن الصراط المستقيم والهدي المستبين.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه العظيم إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: «ومن كيده ـ أي الشيطان أعاذنا الله وإيّاكم منه ـ أنَّه يشامُّ النفس حتى يعلم أيَّ القوتين تغلب عليها قوّةُ الإقدام والشجاعة، أم الانكفافُ والإحجامُ والمهانةُ، فإن رأى الغالب على النفس المهانةَ والإحجامَ أخذ في تثبيطه وإضعاف همّته وإرادته عن المأمور به وثقله عليه فهوَّن عليه تركه حتى يتركه جملةً أو يقصّر فيه ويتهاون، وإن

رأى الغالب عليه قوّةَ الإقدام وعلوَّ الهمَّة أخذ يقلّل عنده المأمورَ ويوهمه أنَّه لا يكفيه وأنَّه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، فيقصُرُ بالأوّل ويتجاوز بالثاني ... وقد اقتطع أكثرُ الناس إلاّ أقلَّ القليل في هذين الواديين وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدّي، والقليلُ منهم جداً الثابتُ على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ...))[1].

ثم أطال رحمه الله بضرب أمثلة كثيرة على ذلك في جوانب مختلفة من الدين، ينقسم فيها الناس إلى أقسام: أهل غلوٍّ، وأهل جفاء، وأهل توسط واعتدال.

إنَّ الاعتدال في الأمور كلّها، والتوسّط فيها، والبعدَ عن الغلوِّ والجفاء هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذي ينبغي أن يسلكَه جميع المؤمنين كما أمرهم الله بذلك في كتابه، وكما أمرهم بذلك رسوله ﷺ، فالتوسّط حقًّا والاعتدال هو الأخذُ بالحدِّ الذي حدَّه الله لعباده بحيث لا يُدخلُ فيه ما ليس منه، ولا يُخرج منه ما هو داخل فيه، فبهذا امتدح الله المؤمنين، وبهذا أمرهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن

---

(١) إغاثة اللّهفان (١/١٣٦).

(٢) الفرقان، آية ٦٧.

(٣) الإسراء، آية ٢٩.

(٤) الإسراء، آية ٢٦.

(٥) الأعراف، آية ٣١.

صَوْتِكَ﴾[١].

وقد صحّ في الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال: ((القصدَ القصدَ تبلُغُوا))[٢]، أي: عليكم بالقصد من الأمور في الأقوال والأفعال، والقصدُ هو الوسط بين الطرفين، وصح عن النبي ﷺ أنّه قال كما في المسند وغيره: ((عليكم هدياً قاصداً، فإنّه من يشادَّ الدّين يغلبُه))[٣]، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ((الاقتصاد في سنة خير من الاجتهاد في بدعة))[٤].

فدينُ الله وَسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، وخيار الناس هم الوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين، بل لزموا هدي سيِّدِ المرسلين وخيرةِ ربِّ العالمين وقدوةِ الناس أجمعين محمّدِ بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وفي الختام فهذه جملةٌ من الدروس المنتقاة والفوائد المختارة، والتي يفيدها المسلمون من حجِّهم لبيت الله الحرام، والحج كما تقدّم مليء بالدروس العظيمة والعِبر الرائعة والفوائد المؤثِّرة، إلاّ أنَّ الناس في تحصيلها واكتسابها متفاوتون بحسب ما تعي قلوبُهم من ذلك، فهناك قلبٌ كبيرٌ يسع علماً عظيماً، كوادٍ كبيرٍ يسع ماءً كثيراً، وقلبٌ صغيرٌ، كوادٍ صغيرٍ يسع علماً قليلاً، وقلبٌ لاهٍ غافل غمرته الغفلةُ، فلم يجد العلمُ مكاناً فيه، والتوفيق بيد الله وحده، فنسأله أن يمنَّ علينا جميعاً بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعمرَ قلوبَنا بطاعته، إنّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

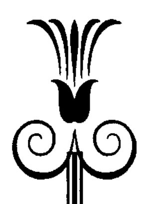
(١) لقمان، آية ١٩.

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٦٤٦٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند(٥/ ٣٥٠، ٣٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٤٠٨٦).

(٤) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١/ ٨٨).





الرسالة السابعة

الحج وتهذيب النفوس



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتَّقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فما أعظم منافع الحجِّ وفوائده، وما أغزر خيراته وبركاته، وما أطيبَ عِبره وعظاته، أمور لا تُحصَى، وفوائدُ جليلةٌ لا تُعدُّ ولا تُستقصَى.

وقد لا يتيسَّر لكثير من الحُجَّاج الوقوفُ على منافع الحجِّ وفوائده ودروسه وعظاته، وحسن الاستفادة منها رغم أهميَّتها الجليلة وآثارها النبيلة عليهم في حياتهم كلِّها.

ولذا رأيتُ من المفيد إخراج هذه الرسالة رغبةً في تحقيق هذا المقصد الجليل والهدف النبيل، وجعلتُها بعنوان: «**الحجُّ وتهذيبُ النفوس**» راجياً من الله وحده أن يتقبَّلها بقبول حسن، وأن يجعلها نافعةً لعباده، إنَّه وليُّ التوفيق والقبول، وهو حسبي ونعم الوكيل.

***

١ . الحجُّ والإصلاح

إنَّ الحجَّ مدرسةٌ مباركةٌ لتهذيب النفوس وتزكية القلوب وتقوية الإيمان، فمن خلال هذا المنسَك العظيم والشعيرة المباركة يتلقَّى المسلمون الدروسَ العظيمة والعِبَر المؤثِّرة والفوائد الجليلة في العقيدة والعبادة والأخلاق، فهو بحقٍّ مدرسة تربويَّة إيمانيَّة يتخرَّج فيها المؤمنون المتَّقون، وينهل من معينها المبارك عبادُ الله الموفَّقون، يقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[1].

ومنافع الحجِّ وفوائده لا يُمكن حصرُها، وعِبَرُه ودروسُه لا يُمكن عدُّها واستقصاؤها، فإنَّ قوله تعالى في الآية: ﴿مَنَٰفِعَ﴾ هو جمع منفعة، ونكَّرَ المنافعَ إشارةً إلى تعدُّدها وتنوُّعها وكثرتِها، وشهودُ هذه المنافع أمرٌ مقصودٌ في الحجِّ؛ إذ اللاَّم في قوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ لام التعليل، وهي متعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: إن تؤذن فيهم بالحج يأتوك مشاةً وركباناً لأجل أن يشهدوا منافع الحجِّ، أي: يحضروها، والمراد بحضورهم المنافع حصولها لهم وانتفاعهم بها.

ولهذا فإنَّ من الحريِّ بكلِّ مَن وفَّقه اللهُ لهذه الطاعة ويَسَّر له أداء هذه العبادة أن يكون حريصاً غاية الحرص على تحصيل منافع الحجِّ والإفادةِ من عِبَره وعظاته، إضافة إلى ما يحصله في حجِّه من أجور عظيمة وثواب جزيل ومغفرة للذنوب وتكفير للسيِّئات، فقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن حجَّ هذا البيتَ فلَم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمُّه» رواه البخاري ومسلم[2]، وثبت عنه عليه الصلاة

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) صحيح البخاري (١٨٢٠)، وصحيح مسلم (١٣٥٠).

والسلام أنَّه قال: «تابعوا بين الحجِّ والعمرة، فإنَّهما ينفيان الفقرَ والذنوبَ كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد» رواه النسائي[١].

وجديرٌ بمَن نال هذا الرِّبحَ وفاز بهذا المَغنم أن يعودَ إلى بلده بحال زاكية ونفس طيِّبة وحياة جديدة مليئة بالإيمان والتقوى، عامرة بالخير والصلاح والاستقامة والمحافظة على طاعة الله عزَّ وجلَّ.

وقد ذكر العلماءُ أنَّ هذا الصلاح والزكاءَ إن وُجدَا في العبد فهو من أمارات الرِّضا وعلامات القبول، فإنَّ مَن حَسُنت حالُه بعد الحجِّ بالتحوُّل من السيِّء إلى الحسن أو من الحَسن إلى الأحسن فإنَّ ذلك دليلٌ على حسن انتفاعه بحجِّه؛ إذ إنَّ من ثواب الحسنة الحسنةَ بعدها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[٢]، فمَن أحسن في حجِّه واجتهد في تَتميمه وتكميله، وابتعد عن نواقصه ومفسداته خرج منه بأحسن حال، وانقلب إلى أطيبِ مآل.

وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلاَّ الجنَّة»[٣]، وما من ريب أنَّ كلَّ حاجٍّ يطمع ويؤمِّل أن يكون حجُّه مبروراً وسعيُه مشكوراً وعملُه صالحاً مقبولاً، والعلامةُ الواضحةُ لبرِّ الحجِّ وقبوله أن يكون المرءُ قد أدَّاه خالصاً لوجه الله، موافقاً لسنَّة رسول الله ﷺ، فإنَّ هذين شرطان لا قبول لأيِّ عمل من الأعمال إلاَّ بهما، وأن تكون حالُه بعد الحجِّ خيراً منها قبله.

فهاتان علامتان على القبول: علامةٌ تكون في أثناء الحجِّ وهي أن يأتي به صاحبُه خالصاً لوجه الله موافقاً لسنَّة رسوله ﷺ، وعلامةٌ تكون بعد الحجِّ وهي صلاحُ حال الإنسان بعد الحجِّ بأن يزيد إقبالُه على الطاعات واجتنابُه للمعاصي

(١) سنن النسائي (٥/١١٥)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٢٩٠١).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

(٣) صحيح مسلم (١٣٤٩).

والذنوب، وأن يبدأ حياةً طيبةً معمورةً بالخير والصلاح والاستقامة.

وينبغي التنبُّه هنا إلى أنَّ المسلمَ لا سبيل له إلى أن يجزم بقبول عمله مهما أجاد فيه وأحسن، قال الله تعالى في بيان حال المؤمنين الكُمَّل وشأنِهم فيما يتقرَّبون به إلى الله من طاعات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[1] أي: يعطون من أنفسهم ما أمروا به من عبادات من صلاة وزكاة وحج وصيام وغير ذلك، وهم خائفون عند عرض أعمالهم على الله وعند وقوفهم بين يدي الله من أن تكون أعمالُهم غيرَ منجيةٍ وطاعاتُهم غيرَ مقبولة.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: ((قلت يا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الرَّجل يزني ويشرب الخمر؟ قال: لا يا بنت أبي بكر، أولا يا بنت الصديق، ولكنَّه الرَّجل يصوم ويصلِّي ويتصدَّق وهو يخاف أن لا يُقبل منه))[2].

قال الحسن البصري رحمه الله: ((إنَّ المؤمنَ جمع إحساناً وشفقةً، وإنَّ المنافقَ جمع إساءةً وأمناً))[3].

وقد مضت السنَّة بين المؤمنين في قديم الزمان وحديثه أن يقول بعضُهم لبعض عقب هذه الطاعة: تقبَّل الله منَّا ومنكم، فالكلُّ يرجو القبول[4]، وقد ذكر الله في

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٢) المسند (٢٥٧٠٥).

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٩٨٥).

(٤) قال ابن بطة في كتاب الإبانة (٢/٨٧٣): ((... وكذلك يقول من قدم من حجِّه بعد فراغه من حجِّه وعمرته وقضاء جميع مناسكه إذا سئل عن حجِّه إنَّما يقول: قد حججنا ما بقي غير القبول، وكذلك دعاء الناس لأنفسهم ودعاء بعضهم لبعض: اللَّهمَّ تقبَّل صومَنا وزكاتَنا، وبذلك يلقى الحاجُّ فيُقال له: قبل اللهُ حجَّك وزكى عملَك، وكذا يتلاقى الناس عند انقضاء شهر رمضان، فيقول بعضُهم لبعض: قبل الله منَّا ومنكم، بهذا مضت سنَّة المسلمين، وعليه جرت عادتهم، وأخذه خلفُهم عن سلفهم)).

القرآن الكريم أنَّ نبيَّه إبراهيم وابنَه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام كانا يدعوان بهذا الدعاء عند بنائهما للكعبة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]، فهما في عمل صالح جليل وهما يسألان الله أن يتقبَّل منهما، روى ابن أبي حاتم عن وُهيب بن الورد أنَّه قرأ هذه الآية ثم بكى، وقال: ((يا خليل الرحمن، ترفع قوائمَ بيت الرحمن وأنت مشفقٌ أن لا يقبل منك))[2].

فإذا كان هذا شأنَ إمامِ الحنفاء وقدوةِ الموحِّدين فكيف الشأن بمَن دونه.

نسأل الله للجميع القبول والتوفيق والسداد، وأن يكتب لحُجَّاج بيت الله الحرام السلامةَ والعافيةَ، وأن يتقبَّل منَّا ومنهم صالح الأعمال، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل، إنَّه جوادٌ كريم.

* * *

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، كما في تفسير ابن كثير (١/٢٥٤) طبعة الشعب.

٢. الحجُّ والاستجابة لله

إنَّ الحجَّ طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ، فيها تحقيقٌ للعبودية وكمالٌ في الذّلِّ والخضوع والانكسار بين يدي الربِّ عزَّ وجلَّ، فالحاجُّ يخرج من ملاذ الدنيا ومحابِّها مهاجراً إلى ربِّه سبحانه، تاركاً مالَه وأهلَه وعشيرَتَه، متغرِّباً عن بيته ووطنه، متجرِّداً من ثيابه المعتادة لابساً إزاراً ورداءً، حاسراً عن رأسه، متواضعاً لربِّه، تاركاً الطيبَ والنساءَ، متنقِّلاً بين المشاعر بقلبٍ خاشع وعينٍ دامعة ولسان ذاكر، راجياً رحمة ربِّه، خائفاً من عذابه، وشعارُه في ذلك كلِّه (لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيك) أي: إنَّني خاضعٌ لك يا ربِّ مستجيبٌ لندائك منقادٌ لحُكمك، ممتثلٌ لأمرك.

والتلبيةُ شعارُ الحجِّ، فالمسلمُ يبدأ أعمالَ الحجِّ بالتلبية ويَمضي إلى مكة ملبِّياً إلى أن يصلَ إلى البيت ويشرع في الطواف، ثم هو يُلبِّي كلَّما انتقل من ركن إلى ركن، ومن منسك إلى آخر، فإذا سار إلى عرفة لَبَّى، وإذا سار إلى المزدلفة لَبَّى، وإذا سار إلى منى لَبَّى حتى يرمي جمرة العقبة فيقطع التلبية، فالتلبيةُ شعارُ الحجِّ والتنقل في أعمال المناسك.

وكم لهذا من أثر مبارك على المسلم في تزكية نفسه وإصلاحها ومعالجة تقصيرها في أوامر الله والقيام بحقوقه سبحانه.

أليس الواجب على المسلم أن يكون دائماً ملبِّياً نداء الله، مستجيباً لأمره، منقاداً لحُكمه، أليس الواجب على المسلم أن يكون شأنه في كلِّ طاعة أن يُلبِّي نداء الله وأن يستجيب لأمره.

فقد أمر الله عبادَه بالصلاة والزكاة والصيام والصدق والوفاء والأمانة والبرِّ والإحسان، ونهاهم عن الزنى والقتل وشرب الخمر والكذب والغشِّ والخيانة، فما شأن المسلم مع هذه الأوامر والنواهي، هل هو مُلبٍّ أمر الله قائمٌ بطاعته سبحانه، أو أنَّه متلقٍ ذلك بالفسق والعصيان.

إنَّ حقيقةَ الإسلام الاستسلامُ لله بالتوحيد والانقيادُ له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ أي: الإسلام بامتثال شرع الله وطاعة أمره، وقوله ﴿كَآفَّةً﴾ أي: جميعاً، قال مجاهد: «أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر»[2].

فهو سبحانه أمرهم بجميع شُعَب الإيمان وشرائع الإسلام، وهي كثيرة ما استطاعوا منها، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[3]، وفي الحديث: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

والآيات في الأمر بالاستسلام لله وتلبية ندائه وامتثال أوامره والتزام طاعته كثيرةٌ جدًّا.

فيا مَن أمرك اللهُ بالحجِّ فلبَّيتَ النداءَ وجئتَ ميمماً بيته العتيق ترجو رحمتَه وتخاف عقابه، كيف حظُّك مع بقيَّة الأوامر، كيف شأنك مع الصلاة التي هي عماد الدِّين وأعظم أركانه بعد الشهادتَين، كيف شأنك مع الصيام، كيف شأنك مع الزكاة، كيف شأنك في البُعد عن النواهي وترك المحرمات، إن كنتَ ممتثلاً فاحمد الله واسأله المزيدَ، وإن كنتَ مفرِّطاً مضيِّعاً فحاسب نفسك قبل أن تُحاسَب في يوم الوعيد، فإنَّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حسابٌ ولا عمل، حيث يقول تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوَفِّيكم إيَّاها، فمَن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومنَ إلاَّ نفسه»[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/٣٦١).

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٤) صحيح مسلم (٢٥٧٧).

إنَّ الناسَ مع الأوامر والنواهي ينقسمون إلى أحوال: منهم من يستجيب إلى فعل الطاعات ويَكفُّ عن ارتكاب المعاصي، وهذا أكملُ أحوال أهل الدِّين، وأفضل صفات المتَّقين، ومنهم مَن يمتنع عن فعل الطاعات ويُقدِم على ارتكاب المعاصي، وهذا أخبثُ أحوال المكلَّفين وهو يستحقُّ عذاب اللاَّهي عن فعل ما أُمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدَم عليه من معاصيه، ومنهم مَن يستجيب إلى فعل الطاعات ويُقدِم على ارتكاب المعاصي، فهذا يستحقُّ عذاب المجترئ؛ لأنَّه تورَّط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية، ومنهم مَن يمتنع من فعل الطاعات ويَكفُّ عن ارتكاب المعاصي، فهذا يستحقُّ عذاب اللاَّهي عن دينه.

والواجب على المسلم أن يكون ناصحاً لنفسه محافظاً على طاعة ربِّه ممتثلاً أمره مبتعداً عن نهيه صابراً محتسباً.

قال أحدُ السَّلف: «إنَّا نظرنا فوجدنا الصبرَ على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذابه»، وقال آخر: «اصبروا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه، واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه».

وكم يحتمي الإنسان في هذه الحياة الدنيا من أمور يخشى أن تضرَّ بدنَه أو تؤثِّرَ على صحَّته، ومع ذلك لا يحتمي من أمور تفضي به إلى عقاب الله وتؤول به إلى عذابه.

قال ابن شبرمة: «عجبتُ لِمَن يحتمي من الطيِّبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار».

وقال حماد بن زيد: «عجبتُ عمَّن يحتمي من الأطعمة لمضرَّاتها كيف لا يحتمي من الذنوب لمعرَّتها»[١].

(١) انظر فيما سبق أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص: ١٠٣ ـ ١٠٤).

وتأمَّل أخي الملبِّي الموفَّق جميعَ ما سبق، وتأمَّل معه وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لمعاشر الملبِّين، ففي الترمذي وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب في حجَّة الوداع، فقال: «اتَّقوا الله ربَّكم، وصَلُّوا خمسَكم، وصوموا شهرَكم، وأدُّوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنَّة ربِّكم»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، ورواه الحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي[1].

وإنَّا لنسأل الله جلَّ وعلا أن يجعلنا وإيَّاكم من الملبِّين نداءه سبحانه حقًّا وصدقاً، وأن يُلهمنا رشد أنفسنا، وأن يوفِّقنا لطاعته إنَّه سميع مجيب.

* * *

---

(١) سنن الترمذي (٦١٦)، والمستدرك (١/٩).

٣. الحجُّ والذِّكر

لقد شرع الله لعباده الحجَّ لإقامة ذكره سبحانه، فالذِّكرُ هو مقصودُ الحجِّ بل هو المقصودُ في جميع الطاعات، فما شُرعت العبادات إلاَّ لأجله وما تقرَّب المتقرِّبون إلى الله بمثله، والحجُّ كلُّه ذِكرٌ لله.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2].

فتأمَّل هذه الوصيَّة العظيمة والأمر الكريم بملازمة ذكر الله عزَّ وجلَّ في جميع مقامات الحجِّ في الوقوف بعرفة أمرَ بالذِّكر وعند المشعر حرام أمر بالذِّكر، وعند نحر الهدي أمرَ بالذِّكر، وفي أيَّام التشريق أمر بالذِّكر، فالذِّكرُ هو مقصود هذه الأعمال،

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٩٨ ـ ٢٠٣.

بل إنَّها لم تشرع إلاَّ لإقامة ذكره سبحانه.

وقد روى أبو داود وغيرُه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((إنَّما جُعل الطوافُ بالبيت، والسعيُ بين الصفا والمروة ورميُ الجمار لإقامة ذكر الله عزَّ وجلَّ))[١].

وفي هذا دلالةٌ على علو شأن الذِّكر ورفعة منزلته وجلالة قدره، وأنَّه مقصودُ العبادات ولبُّها، وقد قال الله عزَّ وجلَّ في شأن الصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[٢] أي: أقم الصلاةَ لأجل ذكر الله جلَّ وعلا، وسَمَّى سبحانه الصلاةَ ذكراً وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[٣]؛ لأنَّ ذكرَ الله روحُها ولبُّها وحقيقتُها، وهكذا شأن الذِّكر في جميع العبادات، وأعظم الناس أجراً في كلِّ عبادة أعظمُهم فيها ذكراً لله عزَّ وجلَّ.

روى الإمام أحمد والطبراني من طريق عبد الله بن لهيعة قال: حدَّثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنَّ رجلاً سأله فقال: أيُّ الجهاد أعظمُ أجراً يا رسول الله، فقال: ((أكثرُهم لله تبارك وتعالى ذكراً، قال: أيُّ الصائمين أكثرهم أجراً؟ قال: ((أكثرُهم لله ذكراً، ثم ذكر لنا الصلاة والزكاة والحجَّ والصدقة كلُّ ذلك رسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله ذكراً، فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكلِّ خير، فقال رسول الله ﷺ: أجل))[٤].

قال الهيثمي: ((وفيه زبَّان بن فائد وهو ضعيف، وقد وُثِّق وكذلك ابن لهيعة))[٥].

---

(١) سنن أبي داود (١٨٨٨)، وسنن الترمذي (٩٠٢)، وقال: ((حسن صحيح)).

(٢) سورة طه، الآية: ١٤.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٤) المسند (١٥٦١٤)، والمعجم الكبير للطبراني (٢٠/ رقم: ٤٠٧).

(٥) مجمع الزوائد (١٠/ ٧٤).

لكن للحديث شاهد مرسلٌ بإسناد صحيح رواه ابن المبارك في الزهد قال: أخبرني حيوةُ، قال: حدَّثني زُهرة بن معبد أنَّه سمع أبا سعيد المقبُري يقول: ((قيل: يا رسول الله، أيُّ الحاجِّ أعظمُ أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ المصلّين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ الصائمين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ المجاهدين أعظم أجراً؟ فقال: أكثرهم لله ذكراً))، قال زُهرة فأخبرني أبو سعيد المقبُري أنَّ عمرَ بن الخطاب قال لأبي بكر: ((ذهب الذاكرون بكلِّ خير))[1].

وله شاهد آخر أورده ابن القيم في كتابه الوابل الصيب قال: وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً: ((أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئل: أيُّ أهل المسجد خير؟ قال: أكثرُهم لله ذكراً عزَّ وجلَّ، قيل: أيُّ أهل الجنازة خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: فأيُّ المجاهدين خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: فأيُّ الحُجَّاج خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: فأيُّ العوَّاد خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قال أبو بكر: ذهب الذاكرون بالخير كلِّه))[2].

قال ابن القيم رحمه الله: ((إنَّ أفضلَ أهل كلِّ عمل أكثرُهم فيه ذكراً لله عزَّ وجلَّ، فأفضلُ الصُّوَّام أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ في صومهم، وأفضلُ المتصدِّقين أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وأفضلُ الحُجَّاج أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وهكذا سائر الأعمال))[3].

فإذا علمتَ ذلك فلتحرص على ملازمة ذكر الله في جميع الطاعات؛ في صلاتك وصيامك وحجِّك وجميع عباداتك، فإنَّ أجرَك في كلِّ عبادة بحسب ذكرك لله فيها.

---

(١) الزهد (١٤٢٩).

(٢) الوابل الصيب (ص: ١٥٢).

(٣) الوابل الصيب (ص: ١٥٢).

فالذِّكرُ أجلُّ الطاعات وأعظمُ العبادات، وثمارُه على أهله كثيرة لا تُحصَى، ومن أجَلِّ ثماره أنَّه وسيلةٌ مباركة لحياة القلب وتهذيب النفس وتزكية الفؤاد، وهو يجلب لقلب الذَّاكر الفرح والسرور والراحة، ويورث القلب السكون والطمأنينة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1] وهو شفاءٌ للقلب ودواءٌ لمرضه ومُذْهِبٌ لقسوته، وفي القلوب قسوةٌ لا يُذيبُها إلاَّ ذكرُ الله تعالى، جاء رجلٌ إلى الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وقال: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أَذِبْه بالذِّكر»[2].

ويذكر الله تتيسَّرُ الأمور وتتسهَّل الصِّعابُ، فما ذُكر الله على صعب إلاَّ هان ولا على عسير إلاَّ تيسَّر ولا مشقَّة إلاَّ خفَّت ولا شدَّة إلاَّ زالت، ولا كُربة إلاَّ انفرجت.

جعلنا الله وإيَّاكم من الذَّاكرين وجنَّبنا سبيل الغافلين، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب (ص: ١٤٢).

٤ ـ الحجُّ والتوكُّل

إنَّ الحجَّ رحلةٌ مباركةٌ وسفرٌ عظيمٌ إلى خير الأراضي وأشرف البقاع استجابةً لله ورغبة في ثوابه وأملاً في نيل عظيم موعوده وجزيل نواله ووافر أجره، وهو باب رَحْبٌ لحطِّ الأوزار، وتكفير السيِّئات وزيادة الحسنات، وإقالة العثرات، والعتق من النار.

ومَن يخرج من بيته إلى الحجِّ يخرج معتمداً على ربِّه متوكِّلاً عليه مفوِّضاً أمره إليه، طالباً منه وحده العون والتوفيق والهداية؛ لعلمه بأنَّ الأمورَ كلَّها بقضائه وقدَره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، وهو مع هذا يحملُ زادَه معه، ويبذل السبب في نيل رحمة الله وثوابه.

وتأمَّل قول الله عزَّ وجلَّ في سياق آيات الحجِّ ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1]، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنَّ ناساً كانوا يخرجون إلى الحجِّ بغير زاد، ويَظنُّون أنَّ هذا حقيقة التوكُّل، ثم يضطرُّون إلى الناس ويحتاجون إلى سؤالهم.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أهلُ اليمن يَحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناسَ، فأنزل الله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾»[2].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل عن معاوية بن قرَّة قال: «لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال: مَن أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: بل أنتم المتَّكلون، إنَّ المتوكِّل الذي يلقي حبَّة في الأرض ويتوكَّل على الله عزَّ وجلَّ»[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) صحيح البخاري (١٥٢٣).

(٣) التوكل (١٠).

إنَّ حقيقةَ التوكُّلَ هو عمل القلب وعبوديته لله اعتماداً عليه وثقة به والتجاءً إليه وتفويضاً ورضاً بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوَّض أموره إليه، مع القيام بالأسباب المأمور بها والاجتهاد في نيلها وتحصيلها، هذه حقيقة التوكُّل: اعتماد على الله وحده لا شريك له مع فعل الأسباب المأمور بها.

والناسُ في هذا المقام الجليل منقسمون إلى ثلاثة أقسام: طرفين ووسط؛ فأحد الطرفين: عطَّل السبب محافظة على التوكُّل، والطرف الثاني: عطَّل التوكُّل محافظة على السبب، والوسط: علم أنَّ حقيقةَ التوكُّلِ لا تتمُّ إلاَّ بالقيام بالسبب، فتوكَّل على الله في نفس السبب، وهما أصلان لا بدَّ منهما لتحقيق التوكُّل.

وقد جُمع بين هذين الأصلين العظيمين في نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[1]، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ونحوهما من الآيات.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعُك واستعن بالله ولا تعجز»[2].

فقوله: «احرص على ما ينفعُك» فيه الأمرُ بكلِّ سبب دينيٍّ ودنيويٍّ، بل فيه الأمر بالجدِّ والاجتهاد في ذلك والحرص عليه نيةً وهمَّةً وفعلاً، وقوله «واستعن بالله» فيه الإيمان بقضاء الله وقدره والأمر بالتوكُّل عليه والاعتماد عليه والثقة به سبحانه.

وروى الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ قال: «قال رجل يا رسول الله أعقلُها

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

وأتوكَّل أو أُطلقها وأتوكَّل، فقال له: اعقلها وتوكَّل))[١]، فأرشده ﷺ إلى الجمع بين الأمرين فعل السبب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ.

وروى الترمذي أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((لو أنَّكم توكَّلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطيرَ تغدو خماصاً وتروح بطاناً))[٢]، فذكر الأمرين معاً، فإن غُدُوَّ الطير وهو ذهابُها في الصباح الباكر هو سعيٌ في طلب الرِّزق وجِدٌّ واجتهادٌ في تحصيله.

قيل للإمام أحمد رحمه الله: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجلٌ جهِلَ العلمَ، أما سمع قول النَّبيِّ ﷺ: ((إنَّ الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي))، وقال حين ذكر الطيرَ: ((تغدو خماصاً وتروح بطاناً))[٣].

وبهذا يُعلمُ أنَّ التوكُّلَ لا بدَّ فيه من الجمع بين الأمرين فعل السبب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، أمَّا من عطَّل السببَ وزعم أنَّه متوكِّلٌ فهو في الحقيقة متواكلٌ مغرور، وفعله هذا ما هو إلاَّ عجزٌ وتفريطٌ وتضييع، فلو قال قائل مثلاً: إن قدر لي أدركت العلم اجتهدتُ أو لم أجتهد، أو قال إن قدر لي أولاد حصلوا تزوَّجتُ أو لم أتزوَّج، وهكذا من رجا حصول ثمر أو زرع بغير حرث ولا بذر ولا سقي، وهكذا مَن يترك أهلَه وولدَه بلا نفقة ولا غذاء ولا يسعى في ذلك متَّكلاً على القدر، فكلُّ ذلك تضييعٌ وتفريطٌ وإهمالٌ وتواكلٌ.

قال ابن قدامة رحمه الله: ((قد يظنُّ بعضُ الناس أنَّ معنى التوكُّل تركُ الكسب

---

(١) سنن الترمذي (٢٥١٧).

(٢) سنن الترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٥٤).

(٣) ذكره ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين (ص: ٩٥).

بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة وكلحم على وضم، وهذا ظنُّ الجُهَّال، فإنَّ ذلك حرامٌ في الشرع»[1]. اهـ.

أمَّا مَن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبِّب معرضاً عنه فهذا توكُّلُه عجزٌ وخذلانٌ ونهايتُه ضياع وحرمان، ولذا قال بعض العلماء: «الالتفاتُ إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكليَّة قدحٌ في الشرع، وإنَّما التوكُّل والرَّجاء معنى يأتلف من مُوجب التوحيد والعقل والشرع».

إنَّ التوكُّلَ على الله مصاحبٌ للمؤمن الصادق في أموره كلِّها الدينية والدنيوية، فهو مُصاحبٌ له في صلاته وصيامه وحجِّه وبرِّه وغيرِ ذلك من أمور دينه، ومُصاحبٌ له في جلبه للرِّزق وطلبه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه.

والتوكُّل أصل لجميع مقامات الدِّين ومنزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلاَّ على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلاَّ على ساق التوكُّل.

جعلنا الله من المتوكِّلين عليه حقًّا، ومن المعتمدين عليه يقيناً وصدقاً، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٦١).

٥ ـ الحجُّ والتوبة

إنَّ الحجَّ بابٌ مبارك من أبواب التوبة والإنابة إلى الله والخروج من الذنوب والعتق من النار.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه))[(١)].

وروى مسلم في صحيحه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لعمرو بن العاص ﷺ عند إسلامه: ((أما علمتَ أنَّ الإسلامَ يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحجَّ يهدم ما كان قبله))[(٢)].

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((العمرةُ إلى العمرة كفَّارةٌ لِما بينهما والحجُّ المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة))[(٣)].

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة وإنَّه ليدنو ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء))[(٤)].

وروى النسائي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((تابعوا بين الحجِّ والعمرة، فإنَّهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكيرُ خبث الحديد))[(٥)].

ففي هذه الأحاديث دلالة على عظم شأن الحجِّ وأنَّه بابٌ عظيمٌ لحطِّ الأوزار وإقالة العثرات وغفران الذنوب والعتق من النار.

---

(١) صحيح البخاري (١٨٢٠)، وصحيح مسلم (١٣٥٠).

(٢) صحيح مسلم (١٢١).

(٣) صحيح مسلم (١٣٤٩).

(٤) صحيح مسلم (١٣٤٨).

(٥) سنن النسائي (١١٥/٥)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٢٩٠١).

والواجب على المسلم أن يُبادر إلى التوبة إلى الله عزَّ وجلَّ لينال بذلك الفلاح وليحصل وافر الأجر وعظيم الأرباح.

يقول الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[٢]، ويقول سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٣].

والتوبةُ من أنبل الأعمال وأجلِّها، وهي من أحبِّ الأعمال إلى الله وأكرمها، وللتائبين عنده محبَّة خاصة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[٤]، بل إنَّه سبحانه يفرح بتوبة التائبين مع أنَّه سبحانه غنيٌّ حميد.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّه في أرض فلاة))، وفي رواية لمسلم: ((لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيسَ منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلِّها قد أَيسَ من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدَّة الفرح))[٥].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٥) صحيح البخاري (٦٣٠٩)، وصحيح مسلم (٢٧٤٧).

وليُعلم أنَّ بابَ التوبة مفتوح مهما بلغ الجُرْمُ وعَظُم الإثمُ، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3].

بل لقد قال جلَّ وعلا في شأن المنافقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾[4]، وقال في شأن النصارى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5]، وقال في شأن أصحاب الأخدود الذين خدُّوا الأخاديد لفتنة المؤمنين وإضلالهم عن دينهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾[6].

قال الحسن البصري رحمه الله: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياء الله وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»[7].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٤٥، ١٤٦.

(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

(٦) سورة البروج، الآية: ١٠.

(٧) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٩٣/٨).

ولهذا لا يحلُّ لأحد أن يقنط الناسَ من رحمة الله مهما بلغت ذنوبُهم وكثرت وتعدَّدت، كما لا يحلُّ له أن يجرئَهم على فعل المعاصي واقتراف الذنوب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عزَّ وجلَّ))(١).

وعلى العبد أن يُبادر إلى التوبة وأن يُسارع إلى تحقيقها، قبل فوات الأوان، قال ﷺ: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقبل توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِر)) رواه الترمذي(٢)، وقال ﷺ: ((من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه)) رواه مسلم(٣).

والواجب كذلك أن يتوب العبد من كلِّ ذنب وأن يستوفي شروط التوبة لتكون توبتُه مقبولةً.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في كتابه العظيم رياض الصالحين: ((قال العلماء: التوبة من كلِّ ذنب، فإن كانت المعصيةُ بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلَّق بحقِّ آدميٍّ فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يُقلعَ عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً.

فإن فُقد أحدُ الثلاثة لم تصح التوبةُ، وإن كانت المعصيةُ تتعلَّق بآدميٍّ فشروطها أربعة، هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حقِّ صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه ردَّه إليه، وإن كان حدَّ قذف ونحوه مكَّنه أو طلب عفوَه، وإن كانت غيبة استحلَّه منها، ويجب

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٧/٩٩).

(٢) سنن الترمذي (٣٥٣٧)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٧٠٣).

أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحَّت توبتُه عند أهل الحقِّ من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي))[١]. اهـ.

ونسأل الله أن يَمُنَّ على الجميع بالتوبة النَّصوح، وأن يتقبَّل توبتَنا، وأن يغسل حوْبَتنا، وأن يجيب دعوتنا إنَّه سميع مجيب.

* * *

(١) رياض الصالحين (ص: ٧).

٦. لباس الإحرام والتذكير بالأكفان

إنَّ عِبَرَ الحجِّ وفوائدَه لا تُحصَى، وكم فيه من الدروس النافعة والعِظات المؤثِّرة، ومن عظات الحجِّ وعبَره أنَّ المسلمَ إذا وصل إلى الميقات الذي وقَّته رسول الله ﷺ للإحرام تجرَّد من ثيابه ولبس إزاراً على نصفه الأسفل، ورداءاً على نصفه الأعلى مِمَّا دون الرأس، وفي هذه الهيئة من اللباس يستوي الحُجَّاج، لا فرق بين الغنيِّ والفقير والرئيس والمرؤوس، وتساويهم في هذا اللباس يذكِّرُ بتساويهم جميعاً في لباس الأكفان بعد الموت، فإنَّ الكلَّ يُجَرَّدون من ملابسهم ويلفُّون بلفائف بيضاء لا فرق فيها بين غنيٍّ وفقير.

روى الإمام أحمد في مسنده عن سمُرة بن جندب ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((البسوا الثياب البيض، فإنَّها أطهرُ وأطيبُ، وكفِّنوا فيها موتاكم))[1].

ولَمَّا مات سيِّدُ ولد آدم ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب يمانيَّة بيض سَحوليَّة من كُرْسُف، ليس فيهنَّ قميصٌ ولا عمامة))[2].

وكلُّ مَن مات فهذا شأنه؛ يُغسَّل ويُجرَّد من ملابسه، ويُلفُّ بلفائف بيضاء، ثم يُصلَّى عليه، ثم يدرج في القبر.

والحاجُّ عندما يتجرَّد من لباسه في الميقات ويلبس الإحرام يتذكَّرُ هذه الحال ويتواردُ على ذهنه هذا المآل، ويتذكَّر الموتَ الذي به تنتهي الحياة الدنيوية وتبتدئ الحياةُ الأخرويَّة.

---

(١) المسند (٢٠١٥٤).

(٢) صحيح البخاري (١٢٦٤)، وصحيح مسلم (٩٤١).

وكم هو عظيم ونافعٌ للعبد أن يتذكَّرَ الرحيل، وأن يتذكَّرَ مفارقةَ الأنيس والخليل، وأن يتذكَّرَ أنَّه ليس له من ماله إلاَّ الأكفان، أي: نصيبه في قبره من ماله، ثم مآلها إلى الخراب، يقول الشاعر:

نصـيبُك مِمَّـا تجمـعُ الدَّهـرَ كلَّـه ... رداءان تُلـوى فـيهما وحَـنوطُ

ويقول الآخر:

هـي القـناعةُ لا تـبغي بهـا بـدلاً ... فـيها النعـيم وفـيها راحـة الـبدن

انظـر لِمَـن مَلَـكَ الدنـيا بأجمعهـا ... هـل راح منها بغير القطن والكَفَـن[1]

وقد صحَّ في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أكثروا ذكرَ هاذم اللَّذات» يعني الموت[2]، وجاء عن ابن مسعود ﵁ أنَّه قال: «كفى بالموت واعظاً».

ومَن تذكَّر الموتَ أقبل على الآخرة ولم تكن الدنيا أكبرَ همِّه ولا مبلغَ علمه، وذِكرُ الموت يردع عن المعاصي ويلين القلبَ القاسي، ويذهبُ الفرح بالدنيا ويهوِّن المصائبَ فيها.

ثم إنَّ كفَنَ الإنسان الذي يدخل معه في قبره لا ينفعه بشيء، ومآله إلى البِلَى، مع أنَّه الشيءُ الوحيد الذي يدخل معه في قبره من دنياه، والذي ينفع الإنسانَ في قبره هو عملُه الصالح، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يتبع الميِّتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى واحد: يتبع أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجع أهلُه ومالُه، ويبقى عملُه»[3].

---

(١) انظر الأبيات في التذكرة للقرطبي (١/ ٢٨).

(٢) سنن الترمذي (٢٣٠٧)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٢١٠).

(٣) صحيح البخاري (٦٥١٤)، وصحيح مسلم (٢٩٦٠).

وانظر شرح هذا الحديث في رسالة للحافظ ابن رجب مطبوعة بعنوان: جزء فيه الكلام على حديث يتبع الميت ثلاث.

ومن المعلوم أنَّ الإنسانَ لا بدَّ له من أهل يُؤانسُهم، ومالٍ يعيش به، وهذان مفارقان له وهو مفارقٌ لهما ولا بدَّ، والسعيد من اتَّخذ من ذلك ما يكون عوناً له على الخير والطاعة، وأمَّا مَن اتَّخذ أهلاً ومالاً يشغله عن الله فهو خاسر، كما قالت الأعراب: ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[(٢)].

ومَن مات فإنَّه لا ينتفع من أهله وماله بشيء إلاَّ بدعاء أهله له واستغفارهم، وبما قدَّمه من ماله بين يديه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾[(٤)].

فكلُّ ما كان للإنسان من مال وأهل فإنَّه تاركُه وراء ظهره غيرُ منتفع منه بشيء إلاَّ دعوة من أهله أو نفقة قدَّمها من ماله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلاَّ من ثلاث: إلاَّ من صدقة جارية، أو ولدٍ صالح يدعو له، أو علم يُنتفع به»[(٥)].

والأهل قد يدعون له وقد لا يدعون، والمال الذي كان يمتلكه لا ينتفع منه بشيء في قبره إلاَّ بما كان قدَّمه بين يديه، فإنَّه يَقْدَمُ عليه وهو داخلٌ في عمله الذي يصحبه في قبره، وما سوى ذلك من ماله قلَّ أو كثر فهو لورثته لا له، وهو إنَّما كان عليه

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٥) صحيح مسلم (١٦٣١).

بمثابة الحارس والخازن.

ففي صحيح مسلم عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبست فأبليتَ، أو تصدَّقتَ فأمضيتَ»[1].

وفي صحيح البخاري عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا: ما منَّا أحدٌ إلاَّ ماله أحبّ إليه، قال: فإنَّ ماله ما قدَّم، ومالَ وارثه ما أخَّر»[2].

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾[3]، قال بعض السَّلف: «أي في القبر» يعني: أنَّ العمل الصالح يكون مهاداً لصاحبه في القبر، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد، بل كلُّ عامل يفترش عملَه ويتوسَّده من خير أو شرّ[4].

وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «قال لي جبريل: يا محمد عِش ما شئتَ فإنَّك ميِّت، وأَحْبب مَن شئتَ فإنَّك مفارقُه، واعمل ما شئتَ فإنَّك مُلاقيه»[5].

نسأل الله لنا جميعاً صلاح الأمر وحسن العاقبة، والتوفيق لما يحبُّه ويرضاه.

* * *

(١) صحيح مسلم (٢٩٥٨).

(٢) صحيح البخاري (٦٤٤٢).

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٤.

(٤) انظر رسالة ابن رجب: جزء فيه الكلام على حديث ((يتبع الميت ثلاث)) (ص: ٤٠).

(٥) رواه الطيالسي (١٨٦٢)، والحاكم (٣٢٥/٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٥٥).

٧. الحجُّ ومكانة العلماء

إنَّ من الدروس الرائعة التي تظهر لكلِّ متبصِّر في الحج مكانةَ العلماء ورفعةَ مقامهم وعلوَّ قدرهم وسُموَّ منزلتهم، فترى الحجيج يسألون عنهم ويَبحثون عن أماكنهم، ويحرصون على التفقُّه عليهم ويطرحون عليهم سؤالاتهم في أمور الحجِّ وغيره، ويغتبطون بسماع أجوبتهم وتوجيهاتهم ونصائحهم.

ولا ريب في رفعة مكانة العلماء؛ إذ هم في الخير قادة، تُقتصُّ آثارُهم، ويُقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، تضع الملائكةُ أجنحتها لهم رضاً بصنيعهم، ويستغفر لهم كلُّ رطب ويابس، حتى الحيتانُ في الماء، بلغ بهم علمُهم منازلَ الأخيار ودرجات المتَّقين الأبرار، فسَمَت به منزلتهم وعلت مكانتهم وعظُمَ شأنهم وقدرهم، كما قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

وبجميل نصحهم وحسن توجيههم وتمام بيانهم يعرفُ الناسُ الحلالَ من الحرام، والهدى من الضلال، والحقَّ من الباطل، قال العلاَّمة الإمام أبو بكر الآجري ـ رحمه الله ـ وهو يتحدَّث عن مكانة العلماء: «فضَّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كلِّ زمان وأوان، رفعهم الله بالعلم وزيَّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلالُ من الحرام، والحقُّ من الباطل، والضارُّ من النافع، والحَسَنُ من القبيح، فضلُهم عظيم، وخطرهم جزيل، ورثةُ الأنبياء وقرَّةُ عين الأولياء، الحيتانُ في البحار لهم تستغفر، والملائكةُ بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضلُ من العُبَّاد وأعلى درجة من

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

الزُّهَّاد، حياتُهم غنيمة وموتهم مصيبة، يذكِّرون الغافلَ ويُعلِّمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة ...)) إلى أن قال رحمه الله: ((فهم سراجُ العباد ومنار البلاد وقوام الأمَّة وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحقِّ، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وإذا انطمست النجوم تحيَّروا، وإذا أسفر عنها الظلامُ أبصروا))[(١)]. اهـ.

وإذا كان أهل العلم بهذه المنزلة الرفيعة والدرجة العالية المنيفة، فإنَّ الواجبَ على مَن سواهم أن يحفظَ لهم قدرَهم ويعرف لهم مكانتهم وينزلهم منازلهم، قال ﷺ: ((ليس من أمَّتي مَن لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقَّه))[(٢)]، وقال ﷺ: ((أنزلوا الناسَ منازلهم))[(٣)].

فلا بدَّ من معرفة منزلة العلماء وحفظ حقوقهم؛ حيِّهم وميِّتهم شاهدهم وغائبهم، بالقلوب حبًّا واحتراماً، وباللسان مدحاً وثناءً، مع الحرص على التزوُّد من علومهم والإفادة من معارفهم، والتأدُّب بآدابهم وأخلاقهم، والبعد عن النَّيل منهم، أو اللَّمز لهم، أو الوقيعة فيهم، فإنَّ ذلك من أعظم الإثم وأشدِّ اللُّؤم.

إنَّ العلماءَ هم القادةُ لسفينة النجاة، والروادُ لساحل الأمان والهداةُ في دياجر الظلام ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[(٤)].

وهم حجَّة الله في الأرض، وهم أعلمُ بما يُصلحُ المسلمين في دنياهم وأخراهم؛

---

(١) أخلاق العلماء (ص: ١٣ ـ ١٤).

(٢) المسند (٢٢٧٥٥)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٥٤٤٤).

(٣) سنن أبي داود (٤٨٤٢).

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

لِمَا آتاهم الله من العلم، ولِمَا حباهم به من الفقه والفهم، فهم عن علم ثاقب يُفتون، وببصر نافذ يقرِّرون، وعن نظر بصير يحكمون، لا يُلقون الأحكام جُزافاً، ولا يصدعون صفوف المسلمين فتاً وإرجافاً، ولا يبتدرون إلى الفتاوى دون تحقيق وتدقيق تهاوناً وإسرافاً، ولا يكتمون الحقَّ عن الناس غمطاً لهم أو تكبُّراً واستنكافاً.

ولهذا أمر الله بالردِّ إليهم دون سواهم وسؤالهم دون غيرهم، قال الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(1)، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾(2)، وهذا فيه تأديبٌ للمؤمنين بأنَّه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمَّة والمصالح العامة مِمَّا يتعلَّق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبَّتوا ولا يستعجلوا، وأن يردُّوا ذلك إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ العلم والنُّصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدَّها، فمَن صدر عن رأيهم سلم، ومن افتات عليهم تضرَّر وأثِم.

وإنَّ من علامات الضياع البعدَ عن العلماء الراسخين، وتركَ التعويل على فتاوى الأئمَّة المحقِّقين، ونزعَ الثقة بالفقهاء المدقِّقين.

وحين تفقد الأمَّةُ الثقة بالعلماء يُصبح شأنُها كأناس في صحراء قاحلة بلا قائد ناصح يقودهم ولا هادٍ خرِّيت يدلُّهم، فيؤول أمرُهم إلى العَطَب، وتكون نهايتُهم إلى التَّلَف.

فالعلماء هم الذين لهم الصدارةُ في دعوة الأمَّة وتوجيه مسارها وإرشاد يقظتها، وإن لم يكن الأمر كذلك اتَّخذ الناسُ رؤساءَ جُهَّالاً فأفتوهم بغير علم ودلُّوهم بغير

---

(1) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(2) سورة النساء، الآية: ٨٣.

فهم، وحينئذ يحلُّ الوهَن ويعظم الخَلَل وتغرق السفينة.

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ: «عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضُه بذهاب أهله، عليكم بالعلم فإنَّ أحدَكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقواماً يزعمون أنَّهم يدعون إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وإيَّاكم والتبدُّع والتنطُّع والتعمُّق، وعليكم بالعتيق»[(١)].

فلعلَّك أيُّها الحاجُّ الموفَّق وأنت ترى حرصَ الناس على الإفادة من العلماء في أحكام الحجِّ، وحرصهم على سؤالهم والإفادة من علومهم تُدرك فضيلةَ العلماء وحاجةَ الأمَّة إليهم وإلى علومهم وأهميَّة سؤالهم والاستفادة منهم في جميع أمور الدِّين، وكما أنَّك تستفيد من العلماء في أحكام الحجِّ وتستفتيهم عمَّا يُشكل عليك منها فلتستفد منهم ولتستفتهم في صلاتك وصيامك وزكاتك، وجميع أمور الدِّين؛ لتعبدَ الله على نور وبصيرة.

ونسأل الله الكريم أن يُبارك في علمائنا، وأن يُوفِّقنا لحسن الاستفادة منهم، وأن يجزيهم عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء، إنَّه سميعٌ مجيب.

* * *

---

(١) سنن الدارمي (١٤٣).

٨. الحجُّ والتقوى

لقد أكثر الله عزَّ وجلَّ في آيات الحجِّ على قلَّتها من الوصيَّة بالتقوى؛ لأنَّه يحصل في الحجِّ من أسباب التقوى ما لا يحصل في غيره، وذلك مع الوعي الصحيح لحقيقة الحج ومغزاه، وقد تكرَّرت الوصيَّة بتقوى الله في سياق آيات الحجِّ من سورة البقرة.

ففي الآية الأولى من هذه الآيات قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾[1]، وفي أثناء هذه الآيات قال سبحانه: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾[2]، وختم جلَّ وعلا آيات الحجِّ بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾[3].

والتقوى هي أعظمُ وصيَّة وخيرُ زاد ليوم المعاد، وهي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين من خلقه، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ ﴾[4]، وهي وصيَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ لأمَّته، فقد كان ﷺ إذا بعث أميراً على سريَّة أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبِمَن معه من المسلمين خيراً، وكان كثيرَ الوصيَّة بها في خُطبه، ولَمَّا خطب الناسَ في حجَّة الوداع يوم النحر وصَّى الناسَ بتقوى الله، ولم يزل السَّلف الصالح يتواصون بها، وذلك لأنَّها خيرُ زاد يبلغ إلى رضوان الله، ولَمَّا قال رجل لعمر بن الخطاب ﵁: اتَّق الله، أجابه عمرُ بقوله: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها»، والنقول عن السلف في هذا كثيرة[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٣١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٥) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ١٥٠ ـ ١٥١).

وللتقوى على أهلها منافعُ عظيمةٌ وثمارٌ كريمةٌ وفوائدُ جمَّةٌ في الدنيا والآخرة، فمن ثمارها حصولُ العلم النافع، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾[(1)]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[(2)]، ومن ثمارها الخروج من المحن وتحصيل الرّزق الطيِّب وتيسُّر الأمور، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾[(3)]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ﴾[(4)]، ومن ثمارها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾[(5)]، و﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[(6)]، ومن ثمارها نيلُ الفلاح والفوزُ بالمغفرة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[(7)]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(8)]، ومن ثمارها حصولُ الرِّفعة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(9)]، وحصولُ العاقبة الحميدة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[(10)]، ومن أجَلِّ ثمارها دخولُ جنَّة الله والتشرُّف برؤيته، قال الله تعالى:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ٤.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٤.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٨) سورة الأنفال، الآية: ٦٩.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

(١٠) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝ ﴾[(١)].

وثمارُ التقوى لا تُحصَى، وفضائلُها لا تُستقصى، وأكرمُ الناس عند الله أعظمهم تقوىً له سبحانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[(٢)]، وتقوى الله جلَّ وعلاَ أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه ويخشاه من غضبه وعقابه وقايةً تقيه، وذلك لا يكون إلاَّ بفعل الأوامر واجتناب النواهي، كما قال الحسن البصري رحمه الله: ((المتَّقون اتَّقوا ما حرَّم الله عليهم وأدَّوا ما فرض عليهم))، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ((ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل مع التخليط فيما بين ذلك، ولكنَّ تقوى الله تركُ ما حرَّم الله وأداءُ ما افترض الله))، وقال طلق ابن حبيب رحمه الله: ((تقوى الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله))[(٣)].

وأساسُ التقوى هو القلب، كما قال ﷺ: ((التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرَّات))[(٤)]، فمتى أصلح العبدُ قلبَه صلَحَ البدنُ كلُّه تبَعاً لذلك، ومتى خضع القلبُ لطاعة الله خضعت الجوارح، كما قال ﷺ: ((ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب))[(٥)].

والله جلَّ وعلا لا ينظر إلى الصور والأموال، وإنَّما ينظر إلى القلوب

---

(١) سورة القمر، الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) انظر هذه الآثار في جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ١٤٩).

(٤) صحيح مسلم (٢٥٦٤).

(٥) صحيح البخاري (٥٢)، وصحيح مسلم (١٥٩٩).

والأعمال، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ الله لا ينظر إلى صوَرِكم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[١].

وإنَّ مِمَّا يُعينُ العبدَ على تحقيق التقوى والعناية بها أن يتذكَّر الموتَ والوقوفَ بين يدي الله والجزاءَ والحسابَ والجنَّةَ والنارَ، ولقد أحسن مَن قال:

فيا عجباً ندري بنارٍ وجَنَّةٍ ... وليس لذي نشتاقُ أو تلك نحذرُ
إذا لم يكن خوفٌ وشوقٌ ولا حيا ... فماذا بقي فينا من الخير يذكرُ
وليس لِحَرٍّ صابرين ولا بلى ... فكيف على النيران يا قوم نصبرُ
نبيع خطيراً بالحقير عِمايةً ... وليس لنا عقلٌ ولبٌّ منورُ
فطوبى لِمَن يؤتى القناعة والتُّقى ... وأوقاتُه في طاعة الله يَعمرُ

إنَّ وصيَّةَ الله بالتقوى المتكرِّرة في آيات الحجِّ ودعوتَه سبحانه لأولي الألباب إلى تقواه تدلُّ على أنَّ أهلَ العقول والألباب ينبغي عليهم وقد أكرمهم الله بالحجِّ أن يُعملوا عقولَهم وألبابَهم في تلك المشاعر العظيمة ليستفيدوا منها تقوى الله، فالحجُّ مدرسةٌ عظيمةٌ للتقوى وبابٌ عظيمٌ من أبوابها.

والواجب على مَن أكرمه الله بالحجِّ أن يستفيدَ من حجِّه تقوى الله، وأن يتزوَّد فيه بزادها المبارك، وأن ينهل من معينها العذب، وأن يتقي الله بصيانة حجِّه عن الرَّفث والفسوق والجدال، وأن يتقي الله بحفظ وقته عن كلِّ إسفاف، وأن يشغلَه بذكر الله والنافع من القول، وأن يتقي الله بالحرص على اتِّباع السنَّة ولزوم هدي خير الأمَّة محمد ﷺ، وبالحذر من البدع والأهواء، وأن يتقي الله في مراعاة جميع أعمال الحجِّ من ركن وواجب ومستحبٍّ دون تساهل أو إهمال، وأن يتقي الله بالتفقُّه في دينه والإتيان بعبادته على بصيرة، وأن يتقي الله في إخوانه المسلمين من الحُجَّاج

---

(١) صحيح مسلم (٢٥١٤).

وغيرهم، وأن يكون عوناً لهم على كلِّ خير يلقاهم بطلاقة وجهٍ وصفاء قلب وحسن الحديث، ويتقي الله بتوقير الكبير ورحمة الصغير وتعليم الجاهل وإرشاد الضال، وأن يتقي الله بحفظ لسانه وغضِّ بصره وكفِّ يده، وأن يتقي الله باجتناب الغشِّ والكذب والشُّحِّ والسبِّ والبذاء وسوء الظنِّ.

وكلَّما عظم نصيبُه وحظُّه في حجِّه من التقوى عظم حظُّه ونصيبه من الأجر والثواب، وغفران الذنوب، كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ ﴾[1] أي: فلا إثم عليه لِحطِّ الله ذنوبَه إن كان قد اتَّقى الله في حجِّه، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه وفعل ما أمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلَّفه من حدوده[2].

جعلنا الله جميعاً من المتقين، وسلك بنا صراطه المستقيم، إنَّه سميع مجيب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

(٢) جامع البيان للطبري (٣/٣٠٩).

٩. يوم عرفة والتذكيرُ بالموقف يوم القيامة

إنَّ من عبر الحجِّ العظيمة ومواقفه المؤثرة غاية التأثير ذلكم الجمعُ العظيمُ والموقف المباركُ الذي يشهده جميعُ الحُجَّاج في يوم عرفة على أرض عرفة، حيث يقفون جميعاً ملبِّين ومبتهلين إلى الله، يرجون رحمتَه ويخافون عذابَه، ويسألونه من فضله العظيم، في أعظم تجمُّع إسلاميٍّ يُشهد.

وهذا الاجتماع الكبير يذكِّر المسلم بالموقف الأكبر يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأوَّلون والآخرون ينتظرون فصل القضاء ليصيروا إلى منازلهم؛ إمَّا إلى نعيم مقيم أو إلى عذاب أليم.

قال ابن القيم -رحمه الله- في ميميَّته:

فلله ذاك الموقفُ الأعظمُ

كموقف يوم العرضِ بل ذاك أعظمُ

ولا ريب في عِظم يوم العرض، يقول الله تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[2].

ففي ذلك اليوم العظيم يجمع الله جميعَ العباد، كما قال سبحانه: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[5].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٧.

(٤) سورة التغابن، الآية: ٩.

(٥) سورة هود، الآية: ١٠٣.

ويستوي في هذا الجمع الأوَّلون والآخرون، فالكلُّ مجموع إلى ذلك الميقات العظيم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾[1].

ولن يتخلَّف عن هذا الجمع أحدٌ، مَن هلكوا في أجواء الفضاء، ومَن ضلُّوا في أعماق الأرض، ومَن أكلتهم الطيورُ والسِّباع، الكلُّ سيُجمعُ ولا مَفرَّ، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝﴾[4].

وسيُجمعون على أرض غير هذه الأرض، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝﴾[5]، وقد بيَّن لنا الرسولُ ﷺ صفةَ هذه الأرض التي يُجمع عليها الناس، ففي صحيح البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحشرُ الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرصة النَّقيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»[6] أي: على أرض مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ولا جبال ولا صخور، وليس فيها علامةُ سكنى أو بناء.

ويُجمعون حُفاةً لا نعال عليهم، عُراةً لا لباس عليهم، غُرْلاً أي غير مختونين،

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٤) سورة مريم، الآيات: ٩٣ ـ ٩٥.

(٥) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٦) صحيح البخاري (٦٥٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٠).

ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((إنَّكم محشورون حُفاةً عُراةً غُرلاً، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[1]))[2].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنَّها لَمَّا سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: ((يُحشر الناسُ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرلاً)) قالت: يا رسول الله، الرِّجال والنساء جميعاً ينظر بعضُهم إلى بعض؟ قال: ((يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعض))[3].

وفي ذلك اليوم تدنو الشمسُ من الخلائق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فلا ظلَّ في ذلك اليوم إلاَّ ظلُّ عرش الرحمن، فمن مستظلٍّ بظلِّ العرش، ومن مُضحٍ بحرِّ الشمس، قد صهرته واشتدَّ فيها كربُه وأقلقته، وقد ازدحمت الأمم وتضايقت ودفع بعضُهم بعضاً، واختلفت الأقدامُ وانقطعت الأعناق من العطش، قد اجتمع عليهم في موقفهم حرُّ الشمس مع وَهَج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم، ففاض العرقُ منهم على وجه الأرض، ثم على أقدامهم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربِّهم من السعادة والشقاء، فمنهم من يبلغ العرقُ منكبيه وحقويه، ومنهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من قد ألجمه العرقُ إلجاماً[4]، نسأل الله العافية والسلامة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يَعرَقُ الناسُ يوم القيامة حتى يذهبَ عرقُهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم))

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٤٩)، وصحيح مسلم (٢٨٦٠).

(٣) صحيح البخاري (٦٥٢٧)، وصحيح مسلم (٢٨٥٩).

(٤) انظر التذكرة للقرطبي (١/٣٥٧).

رواه البخاري[١].

وعن المقداد بن الأسود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((تدنى الشمسُ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كقدر ميل، فيكون الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً))، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه[٢].

ويكون وقوفهم في يوم مقداره خمسون ألف سنة، قال الله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ ﴾[٣]، وفي صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((ما من صاحب ذهب ولا فضَّة لا يُؤدِّي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنَّم، فيُكوى بها جنبُه وجبينُه وظهرُه، كلَّما برَدت أُعيدَت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيلَه إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النار))[٤].

ويهوِّن الله أمرَ الوقوف على أهل الإيمان، نسأل الله الكريم من فضله، ففي المستدرك للحاكم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يومُ القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر))[٥].

ويُظلِّهم الله سبحانه في ظلِّه الظليل يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه، ويقول سبحانه في ذلك الموقف العظيم: ((أين المتحابُّون بجلالي، اليوم أُظلُّهم في ظلِّي، يوم لا ظلَّ

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٣٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٤).

(٣) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٤) صحيح مسلم (٩٨٧).

(٥) المستدرك (١/ ٨٤)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٨١٩٣).

إلاَّ ظلِّي»[(١)].

وفي ذلك اليوم يفزَعُ الناسُ إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعةَ عند الله في أن يبدأ في القضاء والحكم بين العباد، فيعتذرون إلاَّ نبيّنا محمداً ﷺ، فإنَّه يقول: أنا لها، فيذهبُ ويَخرُّ ساجداً تحت العرش لربِّ العالمين، ويفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبله ثم يقول له: ارفع رأسَك وسَلْ تُعطَ، واشفع تشفَّع، وحينئذ يجيء الربُّ جلَّ وعزَّ للفصل بين العباد.

قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ ﴾[(٢)].

تذكَّــر يــوم تــأتي الله فــرداً وقــد نُصبت موازيــنُ القضــاء
وهُتِّكــت السُّتور عــن المعاصــي وجــاء الذنــبُ منكشــف الغطــاء[(٣)].

فتفكَّر في هذا اليوم الذي وُصف لك، وفي هذا الحال الذي حُدِّثتَ عنه، وأعِدَّ له عدَّته، وعليك بتقوى الله، فإنَّها خيرُ زاد، وقد قال الله تعالى في ختام آيات الحج ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣ ﴾[(٤)].

جعلنا الله وإيَّاكم من عباده المتَّقين، وأعاذنا جميعاً من خزي يوم الدِّين، وجعلنا بمنِّه وكرمه يوم الفزَع من الآمنين.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٦٦).

(٢) سورة الفجر، الآيات: ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) انظر البيتين في التذكرة للقرطبي (٢/١٧).

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

١٠. الحجُّ والرابطة الإسلامية

إنَّ من مجالات الحجِّ المباركة في تهذيب النفوس ما يشهده الحاجُّ في يوم عرفة من تجمُّع عظيم وتجمهر كبير، بل هو أعظمُ تجمُّع إسلاميٍّ، وفي هذا التجمُّع الإسلامي الكبير وكذا في بقيَّة المشاعر يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فيتعارفون ويتناصحون، ويتعرَّف بعضُهم على أحوال بعض، فيتشاركون في الأفراح والمسرَّات، كما يُشارك بعضُهم بعضاً في آلامه ويُرشده إلى ما ينبغي له فعله، ويتعاونون جميعاً على البرِّ والتقوى، كما أمرهم الله سبحانه بذلك.

وفي هذا اليوم المبارك يوم عرفة يُكْثِرُ الحجيجُ من قول لا إله إلاَّ الله، فهي خيرُ ما يُقال في هذا اليوم، بل هي خير الكلمات على الإطلاق وأحبُّها إلى الله، وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «خيرُ الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وخيرُ ما قلته أنا والنبيُّون من قبلي لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير»[1].

وفي هذا إشارةٌ عظيمةٌ إلى أنَّ اجتماعَ المسلمين لا يكون إلاَّ على التوحيد لله والمتابعة للرسول ﷺ؛ إذ بهما تذوب الأهواءُ وتتبدَّد العداوةُ والبغضاء، وتلتقي القلوبُ وتجتمع الكلمة وتتَّحدُ الصفوف، وكلَّما ضعُف استمساكُهم بهذه الكلمة ضعُف حظُّهم من الاجتماع والأُلفة بحسب ذلك.

ثمَّ إنَّ هذه الجموعَ الغفيرةَ على اختلاف ألوانهم وتباين ألسنتهم وتباعد بلدانهم قد اجتمعوا على مقصَد واحد وغاية واحدة، تتَّضح من خلال هذه الكلمة التي يهتفون بها ويُردِّدونها، فالذي جمعهم هو توحيدُ الله والإيمانُ به، والذي ألَّف بينهم هو الخضوعُ لله والتذلُّلُ بين يديه رغَباً ورهباً، رجاءً وخوفاً، حُبًّا وطمعاً.

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٨٥)، وحسنه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٧، ٨).

فكلمة التوحيد «لا إله إلاَّ الله» هي الرابطةُ الحقيقيَّةُ التي اجتمع عليها أهلُ دين الإسلام، فعليها يُوالون ويُعادون، وبها يُحبُّون ويُبغضون، وبسببها أصبح المجتمعُ المسلم كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص يشدُّ بعضُه بعضاً.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في كتابه أضواء البيان: «والحاصلُ أنَّ الرابطةَ الحقيقيَّةَ التي تجمع المفترقَ وتؤلِّفُ المختلفَ هي رابطةُ لا إله إلاَّ الله، ألا ترى أنَّ هذه الرابطةَ التي تجمع المجتمعَ الإسلاميَّ كلَّه كأنَّه جسدٌ واحدٌ، وتجعله كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً عطفت قلوب حملة العرش ومَن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝ ﴾[1].

فقد أشار تعالى إلى أنَّ الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومَن حوله وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنَّما هي الإيمان بالله جلَّ وعلا.

إلى أن قال رحمه الله: وبالجملة فلا خلاف بين المسلمين أنَّ الرابطةَ التي تربطُ أفرادَ أهل الأرض بعضهم ببعض وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة لا إله إلاَّ الله، فلا يجوز البتة النداءُ برابطة غيرها»[2] اهـ.

---

(١) سورة غافر، الآيات: ٧ ـ ٩.

(٢) أضواء البيان (٤٤٧/٣، ٤٤٨).

وتقريراً لهذا المعنى العظيم وتأكيداً عليه قال النَّبيُّ ﷺ في خُطبته بمنى يوم النحر: «يا أَيُّها الناس، ألا إنَّ ربَّكم عزَّ وجلَّ واحدٌ، ألا وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على عجمي، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلاَّ بالتقوى، أَبَلَّغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهدُ الغائبَ» رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح[1].

ومن منافع الحجِّ العظيمة تقوية هذه الرابطة وتوثيق هذه الصلة فالربُّ المعبود واحد، والقبلة المتَّجه إليها واحدة، والرسول المتَّبع واحد، ولباس الإحرام، ومشاعر الحجِّ وأعماله واحدة، ومكان تجمع المسلمين وزمانه واحد، وشعار الجميع «لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيك» خضوعاً واستكانةً وانقياداً وامتثالاً، فأيُّ رابطة أوثقُ من هذه، وأيُّ صلة أعظمُ من هذه الصلة.

ألا فليَعِ المسلمون ذلك، وليحمدوا ربَّهم على هذا الوشاج المبارك والوفاق الكريم، والحب والإخاء، ولْيَسْعَ كلُّ واحد منهم في تحقيق كلِّ ما يقوِّي هذه الصلةَ وينميها، وليبتعدوا عن كلِّ أمر يضعفها ويوهيها، ومن الدعوات المأثورة «اللَّهم أصلح ذات بيننا وألِّف بين قلوبنا واهدنا سُبُل السلام وأخرجنا من الظلمات إلى النور»، وليطرح الجميعُ العصبيات العرقية، والشعارات القومية، والنَّعرات الجاهلية، والتحزبات الضيقة.

روى أبو داود وغيرُه بإسناد صحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهليَّة وفخرها بالآباء، مؤمنٌ تقيٌّ أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، لَيدَعنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام إنَّما هم فَحْمٌ من فَحْم جهنَّم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعَلان التي تدفع بأنفها النَّتَن»[2].

وفي المسند للإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «انظر، فإنَّك ليس

---

(١) المسند (٢٣٤٨٩).

(٢) سنن أبي داود (٥١١٦)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٧٨٧).

بخير من أحمر ولا أسود إلاَّ أن تفضله بتقوى»[١].

ثمَّ إنَّ من استطال على غيره بنسب أو غيره بحقٍّ فقد افتخر، وإن استطال على غيره بغير حقٍّ فقد بغى، والفخرُ والبغيُ كلاهما محرَّم، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنِّي أوحي إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[٢].

فنهى سبحانه فيما أوحاه إلى نبيِّه ﷺ عن نوعي الفخر والبغي اللذين هما استطالة على الخلق، فمَن استطال بحقٍّ فقد افتخر، ومن استطال بغير حقٍّ فقد بغى، ولا يحلُّ هذا ولا ذاك.

نعوذ بالله من الفخر والخيلاء، ومن البغي والظلم، ونعوذ به من كلِّ خطيئة وإثم ونسأله سبحانه أن يجمع المسلمين على البر والتقوى، وأن يصلح ذات بينهم وأن يؤلِّف بين قلوبهم وأن يهديهم سبل السلام، وأن يوحِّد صفوفَهم وأن يجمع كلمتهم، وأن يُبطل كيدَ عدوِّهم، إنَّه سبحانه سميع مجيب.

* * *

---

(١) المسند (٢١٤٠٧).

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

١١ . الحجُّ وزيادةُ الإيمان

إنَّ في الحجِّ مجالاً واسعاً لإصلاح النفوس وتهذيب القلوب وزيادة الإيمان، وكم في الحجِّ من الدروس الرائعة والعبر المؤثِّرة في إقبال القلوب على الله، وشدَّة رغبها ورهبها ورجائها وخوفها، وكثرة رجوعها وإنابتها، فكم من دمعة صادقة في الحجِّ أُريقت، وكم من توبة نصوح قُبلت، وكم من عثرة أُقيلت، وكم من خطيئةٍ حُطَّتْ، وكم من دعاء خاشع أجيب، وكم من رقبة من النار أُعتقت.

وعندما نتأمَّل نصوصَ الكتاب والسنَّة المتعلِّقة بالحجِّ نجدُ فيها من الضوابط العظيمة والتوجيهات الحكيمة التي تحقِّق للعبد صلاحاً وزكاءً في حجِّه، بل في حياته كلِّها، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾[1].

فكم في هذه النواهي ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ﴾ من دعوة وتوجيه إلى كبح جماح النفس والحدِّ من ميلها إلى رغباتها وشهواتها، وكم في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ من دعوة إلى المسارعة في فعل الخيرات والمسابقة لأداء الطاعات، وكم في قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ من دعوة لأخذ الأُهبة والاستعداد بالتَّزوُّد ليوم المعاد، كشأن المسافر الذي يأخذ زاده معه في سفره.

قال ابن القيم رحمه الله: «الناسُ منذ خُلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلاَّ في الجنَّة أو النار، والعاقل يعلم أنَّ السفرَ مبنيٌّ على المشقَّة وركوب الأخطار، ومن المحال عادةً أن يطلب فيه نعيماً ولذَّةً وراحةً، إنَّما ذلك بعد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

انتهاء السفر))[(١)]. اهـ.

إلاَّ أنَّ العبدَ يأتيه في هذه الحياة من الصوارف والشواغل والمُلهيات ما يشغله عن أخذ الزاد ليوم المعاد، ويذهبُ جدةَ إيمانه وجماله وحيويته، بل لقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ الإيمانَ قد يَخْلَقُ في جوف الإنسان، فيحتاج العبدُ إلى تجديده والسعي في تقويته، روى الحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ الإيمانَ لَيَخلَقُ في جوف أحدكم كما يَخلَقُ الثوبُ، فاسألوا الله أن يُجدِّدَ الإيمانَ في قلوبكم))[(٢)]، فوصف عليه الصلاة والسلام الإيمانَ بأنَّه يَخلَق كما يخلَق الثوب، أي: يبلى ويضعف ويدخله الوهن والنقص من جرَّاء ما يلقاه العبدُ في هذه الدنيا من فتن ومُلهيات، وما يقع فيه من معاصٍ وذنوب، وأرشد عليه الصلاةُ والسلام إلى تعاهد الإيمان والعمل على تقويته، وسؤال الله زيادته وثباته، والله تعالى يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾[(٣)]، فمن الخير للعبد أن ينصح لنفسه في إيمانه الذي هو أغلى شيء لديه وأثمنُ شيء عنده، وخيرُ زاد يلقى به ربَّه سبحانه وتعالى.

ومجالات تقوية الإيمان وأسبابُ زيادته عديدةٌ ومتنوِّعةٌ، ومن هذه المجالات العظيمة الحجُّ، فهو يهدمُ ما كان قبله، والمبرورُ منه ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة، ومن أدَّاه بلا رفث ولا فسوق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه، وهو ينفي الذنوب كما ينفي

---

(١) الفوائد (ص: ١٩٠).

(٢) المستدرك (١/٤)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٥٩٠).

(٣) سورة الحجرات، الآيتان: ٧، ٨.

الكيرُ خبَثَ الحديد، كما صحَّت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

وكم كان الحجُّ نقطةَ تحوُّلٍ في حياة كثير من الناس من سيِّءٍ إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، والشواهدُ على هذا والوقائعُ المؤكَّدةُ له تفوق الحصر.

وكم من حاجٍّ تحرَّى مواطنَ الإجابة في الحجِّ ومدَّ يديه إلى ربِّه خاشعاً متذلِّلاً طامعاً في فضله العظيم، وسأله أن يُجدِّد الإيمانَ في قلبه وأن يثبته عليه، وأن يصرفَ عنه الفتنَ ما ظهر منها وما بطن، وأن يُصلح له دينَه ودنياه وآخرته، وأن يُزيِّنه بزينة الإيمان، وأن يجعله من الهُداة المهتدين.

والله عـزَّ وجلَّ لا يُخيبُ عبداً دعاه ولا يردُّ عبداً ناجاه، وهو القائلُ سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[1]، وثبت في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((الحُجَّاجُ والعُمَّار وفدُ الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم))[2].

فحريٌّ بمَن أكرمه الله بالحجِّ أن يكون في حجِّه مخبتاً لربِّه متواضعاً لجَنابه، منكسراً بين يديه، يرجو رحمتَه ومغفرتَه ويخاف عذابه ومقتَه، تائباً من كلِّ ذنب اكتسبته يداه، ومن كلِّ خطيئة مشت إليها قدماه، مُكثراً من الذِّكر والدعاء والاستغفار والتضرُّع؛ لينقلب من حجِّه خير منقلب، وليعودَ إلى أهله وبلده على خير حال، فيبدأ صفحةً جديدة في حياته، عامرةً بالطاعة والصلاح والاستقامة، بقلب مطمئنٍّ ونفس منيبة وفؤاد مخبت، سائلاً ربَّه الثبات على الإيمان والسلامةَ من الفتن.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) رواه البزار في مسنده كما في كشف الأستار (١١٥٣)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في السلسلة الصحيحة (١٨٢٠).

أليس من الجدير بالحاجِّ أن يتنبَّه لهذا الأمر الجلل العظيم، ليربحَ من حجِّه ويستفيد، ولا سيما مع كثرة الأمور التي تضعف الإيمان في هذه الحياة، فما بالنا لا نستفيد من هذا الباب المبارك لتقويته وتتميمه وتكميله، فإنَّ الحجَّ إيمانٌ، وما يقع فيه من مواهب وكمالات كلُّ ذلك كمالٌ في الإيمان وقوَّة.

والعبدُ المؤمن الموَفَّق لا يزال يسعى في تحقيق أمرين عظيمين ومَقصَدين جليلَين:

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً.

والثاني: السعي في دفع ما يُنافيه وينقضه أو ينقصه من الفتن الظاهرة والباطنة، ويُداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرَّأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

وتأمَّل هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1]، فذكر سبحانه الأمرين دفع المفسدات والمنقصات، والسعي في تحصيل الخيرات والكمالات.

نسأل الله جلَّ وعلا أن يُصلحَ لنا جميعاً ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كلِّ خير، والموت راحة لنا من كلِّ شرٍّ، وأن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هُداةً مهتدين غير ضالّين ولا مُضلّين، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

١٢ ـ الحجُّ وإرغام الشيطان

روى الإمام مالك ـ رحمه الله ـ في موطئه عن طلحة بن عبيد الله بن كَريز: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((ما رُئي الشيطانُ يوماً هو أصغرُ ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلاَّ لِمَا يرى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام))[١]، وهذا حديث مرسل.

وفي نصوص الشرع شواهد عديدة تدلُّ على صحَّة معناه، فإنَّ الشيطانَ ـ وما من ريب في ذلك ـ يغيظُه ويسوؤه تنزُّل الرحمة والمغفرة على عباد الله، وصفحُه وعفوُه عنهم سبحانه، وعتقُه لرقابهم من النار أعاذنا الله والمؤمنين منه.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطانُ يبكي، فيقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار))[٢].

ولهذا فإنَّ عدوَّ الله حريصٌ غاية الحرص على إفساد حجِّ الإنسان وتفويت ثوابه عليه من خلال سبل عديدة ومسالك متنوِّعة بدءً من أوَّل مسير الإنسان وانطلاقه إلى الحجِّ، ومروراً بجميع أعماله وسائر مناسكه ويجند لذلك جنوده ويُهيِّئ لذلك عتاده.

يقول الإمام مجاهد بن جبر رحمه الله: ((ما من رفقة تخرج إلى مكة إلاَّ جهَّز معهم إبليس مثلَ عُدَّتهم)) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره[٣].

ويشهد لهذا قول الله تعالى عن عدوِّه إبليس: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ

---

(١) الموطأ (١٢٦٩).

(٢) صحيح مسلم (٨١).

(٣) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/١٠٩).

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[(١)].

قال عون بن عبد الله رحمه الله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: ((طريق مكة))، وهذا بلا ريب من صراط الله المستقيم الموصل إلى رضوانه والمفضي إلى جنَّة النعيم، والصراط معناه أوسعُ من هذا.

ولذا قال ابن جرير رحمه الله: ((والذي قاله عونٌ وإن كان من صراط الله المستقيم، فليس هو الصراطَ كلَّه، وإنَّما أخبر عدوُّ الله أنَّه يقعد لهم صراطَ الله المستقيم، ولم يُخصِّص منه شيئاً دون شيء؛ لأنَّ الخبيث لا يألو عباد الله الصدَّ عن كلِّ ما كان لهم قُربةٌ إلى الله))[(٢)]. اهـ.

وفي المسند للإمام أحمد من حديث سَبْرَة بن فاكِه ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ الشيطان قعد لابن آدمَ بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتُسلم وتذَرُ دينَك ودينَ آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلَم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال أتُهاجر وتَذَرُ أرضَك وسماءَك؟ وإنَّما مثلُ المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل، قال: فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جَهْدُ النَّفْس والمال، فتُقاتِلُ فتُقتَلُ فتُنكَحُ المرأةُ ويُقسَمُ المالُ؟ قال: فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمَن فعل ذلك منهم فمات كان حقًّا على الله أن يُدخلَه الجنَّة، أو قُتل كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنَّة، وإن غرِقَ كان حقًّا على الله أن يُدخلَه الجنَّة، أو وَقَصَتْهُ دابَّةٌ كان حقًّا على الله أن يُدخلَه الجنَّة))[(٣)].

والشاهد من هذا الحديث أنَّ الشيطان جالسٌ للإنسان في كلِّ طريق،

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٢) جامع البيان (٥/٤٤٤).

(٣) المسند (١٥٩٥٨)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٦٥٢).

وهو أحرصُ ما يكون عليه عندما يهمُّ بالخير أو يدخلُ فيه، فهو يشتدُّ عليه حينئذ ليقطعه عنه.

وقد ثبت في الصحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ عفريتاً من الجنِّ تفلّت عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ صلاتي»[١]، وكلّما كان الفعلُ أنفعَ للعبد وأحبَّ إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر، فهو عدوٌّ لدودٌ للمؤمنين، لا همَّ له ولا غاية إلاّ إفسادُ عقائدهم وهدمُ إيمانهم، وخلخلةُ يقينهم، وصرْفهم عن السبيل المفضية إلى رضوان الله والجنَّة.

ولهذا فإنَّ الله حذَّرنا منه أشدَّ التحذير، وبيَّن لنا أخطارَه وعواقبَ اتِّباعه الوخيمة، وأنَّه عدوٌّ للمؤمنين، وأمرهم أن يتَّخذوه عدوًّا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوٞ مُّبِينٞ ۝﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾[٥].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فالواجبُ على العاقل أن يأخذَ حذرَه من هذا العدوِّ الذي قد أبان عدواتَه من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمرَه

---

(١) صحيح البخاري (٤٦١)، وصحيح مسلم (٥٤١).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٤) سورة النور، الآية: ٢١.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

ونفسَه في فساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله بالحذر منه ...))[١]، ثم ذكر نصوصاً عديدة في التحذير منه ومن كيده.

والآياتُ في التحذير منه ومن كيده كثيرة، والعبدُ لا وقاية له من الشيطان إلاَّ بالالتجاء إلى الله والتعوُّذ به من شرِّه وملازمة ذكره والمحافظة على طاعته، ومَن استعاذ بالله أعاذه الله وحفظَه ووقاه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

ومَن لازَمَ ذكرَ الله كان في حصنٍ من الشيطان وفي حرزٍ من شرِّه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[٤].

روى الإمام أحمد في مسنده عن النَّبيِّ ﷺ أنَّ يحيى بن زكريا عليهما السلام قال لقومه: ((... وآمرُكم بذكر الله كثيراً، وإنَّ مثلَ ذلك كمثل رجل طلبه العدوُّ سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً، فتحصَّن فيه، وإنَّ العبدَ أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله))[٥].

---

(١) تلبيس إبليس (ص: ٢٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

(٤) سورة ، الآية: ٣٦.

(٥) المسند (١٧٨٠٠)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (١٧٢٤).

والشيطانُ لا سلطان له على أهل الإيمان الملتجئين إلى الله المعتمدين عليه سبحانه، فإنَّ اللهَ يحفظُهم منه ويَصرفُ عنهم كيدَه وشرَّه، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[1].

فبيَّن سبحانه في هذه الآية السببَ الأقوى في دفع الشيطان، وهو التحلِّي بحلية الإيمان والتوكل على الله، فإنَّ الشيطان ليس له قدرةٌ على التسلُّط على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون.

والفقه في دين الله حرزٌ من الشيطان؛ لأنَّ العلمَ الشرعيَّ نورٌ لصاحبه، ومَن تبصَّر بنور العلم وعرف مصايد الشيطان وحبائلَه ووسائلَه وطرائقَه، وعرف نهاية أتباعه ومآل أوليائه، حذره أشدَّ الحذر، واعتصم بالله منه واستعاذ به سبحانه من شرِّه، وسلك صراط الله المستقيم الذي لا خوف على أهله ولا هم يحزنون.

فنسأل الله أن يعيذنا وإيَّاكم من الشيطان الرجيم، وأن يهدينا جميعاً صراطَه المستقيم، إنَّه سميع مجيب.

* * *

---

(١) سورة ، الآيات: ٩٨ ـ ١٠٠.

١٣ ـ الحج والاستغفار

كثيراً ما يأمر الله بالاستغفار، ولا سيما في نهاية الطاعة وعند إتمام العبادة، قال الله تعالى في آيات الحجِّ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1].

والمراد بالإفاضة هنا أي إلى منى، حيث يقوم الحاجُّ بإكمال أعمال الحجِّ التي هي آخر أعماله، وأمر سبحانه في هذه الأثناء بملازمة الاستغفار؛ ليكون جابراً لما حصل من العبد من نقص، ولما وقع منه من تقصير.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: ((والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار، وذبحُ الهدايا، والطوافُ والسعيُ، والمبيتُ بمنى ليالي التشريق، وتكميلُ باقي المناسك، ولَمَّا كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكره، والمذكوراتُ آخرُ المناسك أمر الله تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذِكْرُ اللهِ شُكْرُ اللهِ على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنَّة الجسيمة، وهكذا ينبغي للعبد كلَّما فرغ من عبادة أن يستغفرَ الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمَن يرى أنَّه قد أكملَ العبادةَ ومنَّ بها على ربِّه، وجعلت له محلاًّ ومنزلةً رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل كما أنَّ الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أُخر)). اهـ.

وقد كان من هدي النَّبيِّ ﷺ ختمُ الأعمال الصالحة بالاستغفار، ولهذا ثبت في صحيح مسلم: ((أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً))[2]،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

(٢) صحيح مسلم (٥٩١).

وورد ختم صلاة الليل بالاستغفار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[(١)]، وكان يختم مجالسه بالاستغفار، روى أبو داود عن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: ((كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك))[(٢)]، وروى أبو داود عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: ((مَن جلس في مجلس فكثر فيه لغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللَّهمَّ ربَّنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاَّ غفر له ما كان في مجلسه ذلك))[(٣)].

بل لقد ختم عليه الصلاة والسلام حياتَه العامرةَ بتحقيق العبودية وكمال الطاعة بالاستغفار، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّها سمعت رسول الله ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مُسنِدٌ إليها ظهرَه يقول: ((اللَّهمَّ اغفر لي وارحَمني وأَلحِقنِي بالرَّفيق الأعلى))[(٤)] مع ملازمة عظيمة منه للاستغفار في أيام حياته الزكيَّة.

روى مسلم في صحيحه عن الأغر المزني ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إنَّه لَيُغانُّ على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة))[(٥)].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧.

(٢) سنن أبي داود (٤٨٥٩)، وصحَّحه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الترغيب (١٥١٧).

(٣) سنن أبي داود (٤٨٥٨)، وسنن الترمذي (٣٤٣٣)، وصحَّحه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الترغيب (١٥١٦).

(٤) صحيح البخاري (٤٤٤٠).

(٥) صحيح مسلم (٢٧٠٢).

يقول: ((والله إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّة))[(١)].

وروى أبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كنَّا نعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرَّة: ربِّ اغفر لي وتُب عليَّ، إنَّك أنت التوَّاب الرحيم))[(٢)].

وروى النسائي عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ جمع الناسَ فقال: ((يا أيُّها الناس توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرَّة))[(٣)].

وثبت عنه في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعريِّ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو بهذا الدعاء: ((اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجَهلِي، وإِسرافِي فِي أَمرِي، وما أنت أعْلَمُ به مِنِّي، اللّهُمَّ اغفِر لي جِدِّي وهزْلِي، وخطئِي وعمدي، وكلّ ذلك عندي، اللَّهمَّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منّي، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كلّ شيءٍ قدير))[(٤)].

وثبت في الاستغفار صيغٌ كثيرة، وكان كثيرَ الاستغفار صلوات الله وسلامه عليه، حتى قال أبو هريرة ﷺ: ((ما رأيت أحداً أكثرَ من أن يقول أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ﷺ))[(٥)].

هذا مع أنَّه ﷺ قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ

---

(١) صحيح البخاري (٦٣٠٨).

(٢) سنن أبي داود (١٥١٦)، وسنن الترمذي (٣٤٣٤)، وصححه الألباني -رحمه الله- في الصحيحة (٥٥٦).

(٣) النسائي في الكبرى (١٠٢٦٥)، وهو عند مسلم من حديث الأغر (٤/٢٠٧٦) بلفظ مقارب.

(٤) صحيح مسلم (٢٧١٩).

(٥) السنن الكبرى للنسائي (١٠٢٨٨)، وصحيح ابن حبان (٩٢٨).

عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾﴾[(١)].

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا صلّى قام حتى تتفطّر رجلاه، فقلت له: يا رسول الله، أتصنعُ هذا، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً»[(٢)].

وثمارُ الاستغفار وبركاته على أهله لا تُعدُّ ولا تُحصى في تتميم أعمالهم وجبر تقصيرهم، ورفعة مقامهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، من العمل الناقص إلى العمل التامّ، ويرفع العبدَ من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فإنَّ العابد لله والعارف بالله في كلِّ يوم، بل في كلِّ ساعة، بل في كلّ لحظة يزداد علماً بالله وبصيرةً في دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله. ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية وإعطائها حقّها. فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطرٌّ إليه دائماً في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد، لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرّات، وطلب الزيادة في القوّة في الأعمال القلبية والبدنيّة اليقينية الإيمانية»[(٣)]. اهـ.

وقد أعدَّ اللهُ في الدنيا والآخرة للمستغفرين من عظيم أجوره وكريم مواهبه وجزيل عطاياه ما لا يمكن عدُّه والإحاطةُ به. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١، ٢.

(٢) صحيح البخاري (٤٨٣٧)، وصحيح مسلم (٢٨٢٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٦٩٦).

(٤) سورة النساء، الآية: ١١٠.

ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[١]، وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾[٢].

روى ابن ماجة في سننه عن عبد الله بن بشر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لِمَن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»[٣].

نسأل اللهَ جلَّ وعلا أن يجعلنا من عباده التائبين الأوّابين المستغفرين وأن يهدينا سواء السبيل.

وختاماً أسأل الله العليَّ القدير أن يُوفِّق المسلمين لحسن الإفادة من حجِّهم إلى بيته العتيق، وأن يتقبَّل عملَهم بقبول حسن، وأن يغفرَ لنا أجمعين، وأن يجعلنا من عباده المتَّقين الذين يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا وعلى آله وصحبه أجمعين.

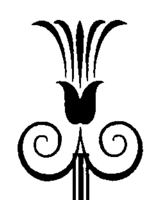
* * *

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٢) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

(٣) سنن ابن ماجه (٣٨١٨)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع (٣٩٣٠).



الرسالة الثامنة

تأملات في قوله تعالى:

﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد: فهذا بحثٌ مشتملٌ على لطائفَ متفرقةٍ وفوائدَ متنوعةٍ مستفادةٍ من النظر والتأمل لقوله تعالى في حقِّ أزواج النبي ﷺ ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وذلك في الآية السادسة من سورة الأحزاب حيث جعلهنَّ تبارك وتعالى أمهات للمؤمنين.

ولا ريب أنَّ هذه درجةٌ رفيعةٌ نلنها، ومكانةٌ ساميةٌ تبوأنها، تكرمةً من الله لهنَّ وتشريفاً، ولله ما أعظمها من مكانةٍ وأعلاها من درجةٍ شَرُفْنَ بها بزواجهنَّ من رسول الله ﷺ.

والله تعالى بهذا التكريم لهنَّ والتشريف يُعظم حقهنَّ، ويعلي بين الأمة قدرهنَّ، وينوِّه بلزوم الاهتمام بالواجب لهنَّ رضي الله عنهنَّ وأرضاهنَّ.

وقد انتظم هذا البحث خمس عشرة مسألة تدور حول فقه هذه الآية وتأملها. وقصدي من وراء ذلك نفع نفسي ومن يقف عليه من إخواني، والقيام بشيء من واجبات أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ.

والمسائل المبحوثة هنا هي:

المسألة الأولى: في بيان معنى الأزواج.

المسألة الثانية: في بيان معنى الأمهات.

المسألة الثالثة: في فائدة الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾.

المسألة الرابعة: في فائدة الإضافة في قوله تعالى: ﴿أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

المسألة الخامسة: في وجه كون أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين.

المسألة السادسة: إذا قيل: إنَّ أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين فهل يقال إنَّ النبي ﷺ أبٌ لهم؟

المسألة السابعة: هل أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين فقط؟ أو أمهات للمؤمنين والمؤمنات؟

المسألة الثامنة: هل يقال لإخوان أزواج النبي ﷺ بأنهم أخوال للمؤمنين؟ وهل يقال لبناتهنَّ بأنهنَّ أخوات للمؤمنين؟

المسألة التاسعة: هل يقال لسراري النبي ﷺ أمهات المؤمنين أو لا يقال؟

المسألة العاشرة: هل النساء اللاتي عقد عليهنَّ ﷺ ولم يدخل بهنَّ معدودات في أمهات المؤمنين؟

المسألة الحادية عشرة: في ذكر عدد أزواجه ﷺ والتعريف بهنَّ رضي الله عنهنَّ.

المسألة الثانية عشرة: في ذكر بعض فضائلهنَّ وخصائصهنَّ.

المسألة الثالثة عشرة: في واجبنا نحو أزواجه ﷺ.

المسألة الرابعة عشرة: في الحكمة من تعدد أزواجه ﷺ.

المسألة الخامسة عشرة: في التحذير من المواقف المنحرفة تجاه أزواجه ﷺ.

وهذا أوان الشروع في المراد، وبالله وحده التوفيق[١].

---

(١) وقد تمَّ نشرُ هذا البحث في العدد الثالث والخمسين من مجلة البحوث الإسلامية.

المسألة الأولى: في بيان معنى الأزواج

الأزواج في اللغة: جمع زَوْج، وأصله من مادة ((زوج)) الدالة على مقارنة شيء لآخر، واقتران الذكر بالأنثى يسمى زواجاً، ويسمى كل واحد منهما زوجاً للآخر، ومنه قوله تعالى لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[1]، وقوله عن زكريا: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾[2]، وقد يقال للمرأة زوجة وتجمع على زوجات، إلاَّ أنَّ الأول أفصح[3].

والزواج يعدُّ من النعم العظيمة التي امتن الله بها على عباده، ومن الآيات الكبيرة الدالة على كمال قدرة الله تبارك وتعالى، وتمام حكمته، ووجوب إخلاص الدين له دون ما سواه.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[6].

---

(١) الأعراف، آية ١٩.

(٢) الأنبياء، آية ٩٠.

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٣٥)، وجلاء الأفهام لابن القيم (ص: ١٥٠، ١٥١).

(٤) النحل، آية ٧٢.

(٥) الشورى، آية ١٠، ١١.

(٦) الروم، آية ٢١.

المسألة الثانية: في بيان معنى الأمهات

الأمهات: جمعٌ مفرده أم، وهي لغةً بإزاء الأب، وهي الوالدة القريبة التي ولدته، والبعيدةُ التي ولدت من ولدته، ولهذا قيل لحواء هي أمنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط، ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود الشيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه أمٌّ.

قال الخليل: كل شيءٍ ضُمَّ إليه سائر ما يليه يسمَّى أمّاً[١].

وقد وردت كلمة (أمّ) في القرآن الكريم على أوجه عديدة:

الأول: بمعنى نفس الأصل ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] أي: أصله.

الثاني: بمعنى المرجع والمأوى ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾[٣] أي: مسكنه النار.

الثالث: بمعنى الوالدة ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾[٤].

الرابع: بمعنى الظئر ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾[٥].

الخامس: بمعنى أزواج النبي ﷺ ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[٦].

السادس: بمعنى اللوح المحفوظ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٧].

---

(١) انظر: المفردات للراغب (ص: ٢٢).

(٢) آل عمران، آية ٧.

(٣) القارعة، آية ٩.

(٤) طه، آية ٤٠.

(٥) النساء، آة ٢٣.

(٦) الأحزاب، آية ٦.

(٧) الزخرف، آية ٤.

السابع: بمعنى مكة شرفها الله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾[١].

وبما تقدم يعلم أن المرأة قد تكون أمّاً من أحد أوجه ثلاثة:

١ - إمَّا من جهة الولادة، فالوالدة أمٌّ لمن ولدته، وأمٌّ لولد من ولدته.

٢ - وإمَّا من جهة الرضاعة، فالمرضع أمٌّ لمن أرضعته، وأمٌّ لولد من أرضعته.

٣ ـ وإما من جهة التربية والإصلاح، فالمربية والمصلحة أمّ لمن ربته وأصلحته.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾.

ومن الثالث قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

---

(١) الشورى، آية ٧.

وانظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٢/١١، ١١٢).

المسألة الثالثة : في فائدة الإضافة في قوله تعالى:

﴿ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾

لا شك أنَّ هذه الإضافة تعد شرفاً عظيماً لهنَّ حيث تميزن عن نساء العالمين بذلك، فاختارهنَّ الله واصطفاهنَّ ليكنَّ زوجاتٍ لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، وصِرن بذلك أفضلَ وأكملَ من غيرهنَّ، ولَسْنَ كسائر النساء، بل أحسن وأطيب وأكمل، قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[(١)] فبزواج النبي ﷺ بهنَّ نِلْن تلك الفضيلة وتبوأن تلك الدرجة السامقة السامية الرفيعة، التي لم تتحقق لأحد من النساء غيرهن رضي الله عنهنَّ.

وقد خيَّرهنَّ عليه الصلاة والسلام بين البقاء في هذه المنزلة وإن قلَّ العيش وضاق الرزق وبين الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل فلم يردن شيئاً غير البقاء معه ﷺ، وآثرن ذلك على الدنيا ومتاعها وزينتها قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[(٢)]، فلم يخترن رضي الله عنهنَّ غير الله ورسوله والدار الآخرة، وكنَّ خير زوجات لخير زوج، مؤمنات قانتات عابدات صالحات، فآتاهنَّ الله على ذلك الأجر العظيم، ونلن أجرهنَّ مرتين، وأعد الله لهنَّ الرزق الكريم والثواب الجزيل المضاعف، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[(٣)].

---

(١) الأحزاب، آية ٣٢.
(٢) الأحزاب، آية: ٢٨، ٢٩.
(٣) الأحزاب، آية: ٣١.

وعندما نتأمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾(١) نعلم عظيم قدر أزواج رسول الله ﷺ فهو عليه الصلاة والسلام الطيب المطيَّب، ونساؤه الطيبات، بل هو عليه الصلاة والسلام خير الطيبين وأفضلهم، ونساؤه عليه الصلاة والسلام خير الطيبات وأفضلهنَّ، ولم يكن الله ليختار لنبيه عليه الصلاة والسلام إلا خير النساء وأفضلهنَّ.

فالإضافة في قوله: ﴿ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ ـ ولا شك ـ فيها شرف وأيّما شرف لهنَّ رضي الله عنهنَّ، لا سيما وأنَّ الله أخبر عن ذلك بلفظ الأزواج المشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وقد وقع في القرآن الإخبار عن أهل الإيمان بلفظ الزوج مفرداً وجمعاً كقوله تعالى لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾(٢)، وقال تعالى في حق زكريا: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾(٤)، والإخبار عن أهل الشرك بلفظ المرأة، قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ ﴾(٥) فلما كانتا مشركتين

---

(١) النور، آية ٢٦.

(٢) الأعراف، آية ١٩.

(٣) الأنبياء، ٩٠.

(٤) الأحزاب، آية ٥٩.

(٥) التحريم، آية ١٠.

أوقع عليهما اسم المرأة، وقال في فرعون: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾(١) لما كان هو المشرك وهي مؤمنة لم يسمها زوجاً له، وقال في حق آدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾(٢)، وقال للنبي ﷺ: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾(٣)، وقال في حق المؤمنين: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾(٤).

فقالت طائفة منهم السهيلي وغيره: إنما لم يقل في حق هؤلاء الأزواج؛ لأنَّهنَّ لَسْنَ بأزواج لرجالهم في الآخرة، ولأنَّ التزويج حلية شرعية وهو من أمر الدين فجرد الكافرة منه كما جرد منها امرأة نوح وامرأة لوط، ثم أورد السهيلي على نفسه قول زكريا: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾(٥)، وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾(٦)، وأجاب بأنَّ ذكر المرأة أليق في هذه المواضع لأنَّه في سياق ذكر الحمل والولادة فذكر المرأة أولى به؛ لأنَّ الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع، لا من حيث كانت زوجاً.

قلت: ولو قيل إنَّ السرّ في ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ الأزواج أنَّ هذا اللفظ مشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، كما هو المفهوم من لفظه؛ فإنَّ الزوجين هما الشيئان المتشابهان المتشاكلان والمتساويان، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾(٧) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أزواجهم: أشباههم

(١) التحريم، آية ١١.
(٢) الأعراف، آية ١٩.
(٣) الأحزاب، آية ٥٠.
(٤) البقرة، آية ٢٥.
(٥) مريم، آية ٥.
(٦) الذاريات، آية ٢٩.
(٧) الصافات، آية ٢٢.

ونظراؤهم))[١]، وقاله الإمام أحمد أيضاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾[٢] أي قُرن بين كل شكل وشكله في النعيم والعذاب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية: ((الصالح مع الصالح في الجنة، والفاجر مع الفاجر في النار))[٣]، وقاله الحسن، وقتادة، والأكثرون[٤]، وقيل: ((زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين، وأنفس الكافرين بالشياطين))[٥]، وهو راجع إلى القول الأول، وقال تعالى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾[٦] ثم فسرها (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين) فجعل الزوجين هما الفردان من نوع واحد، ومنه قولهم ((زوجا خُفٍّ، وزوجا حمام)) ونحوه، ولا ريب أنَّ الله سبحانه قطع المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾[٧]، وقال تعالى في حقِّ مؤمن أهل الكتاب وكافرهم: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴾[٨]، وقطع المقارنة سبحانه بينهما في أحكام الدنيا فلا يتوارثان، ولا يتناكحان، ولا يتولى أحدهما صاحبه، فكما انقطعت الوصلة بينهما في المعنى انقطعت في الاسم، فأضاف فيها المرأة بلفظ الأنوثة المجرد، دون لفظ المشاكلة والمشابهة.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٧/٧).

(٢) التكوير، آية ٧.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٥١٦).

(٤) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٨/٤٣٠).

(٥) قاله الكلبي. انظر الدر المنثور للسيوطي (٨/٤٣٠).

(٦) الأنعام، آية ١٤٣.

(٧) الحشر، آية ٢٠.

(٨) آل عمران، آية ١١٣.

فتأمل هذا المعنى تجده أشد مطابقة لألفاظ القرآن ومعانيه؛ ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر، وعلى الكافرة امرأة المؤمن لفظ المرأة دون الزوجة تحقيقاً لهذا المعنى والله أعلم.

وهذا أولى من قول من قال: إنَّما سمى صاحبة أبي لهب امرأته، ولم يقل لها زوجته؛ لأنَّ أنكحة الكفار لا يثبت لها حكم الصحة بخلاف أنكحة أهل الإسلام، فإن هذا باطل بإطلاقه اسم المرأة على امرأة نوح وامرأة لوط، مع صحة ذلك النكاح.

وتأمل هذا المعنى في آية المواريث وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾[1] إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين))[2].اهـ كلامه رحمه الله.

وبهذا التقرير الدقيق والتحقيق القيم ـ الذي ذكره رحمه الله ـ يتبين ما في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ من تكريم بالغ، وتشريف عظيم لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنهنَّ أجمعين.

(١) النساء، آية ١٢.

(٢) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (ص: ١٥١ـ١٥٤).، بتصرف يسير.

المسألة الرابعة: في فائدة الإضافة في قوله تعالى ﴿أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾

وفيها فائدتان:

الأولى: تتعلق بأزواج النبي عليه الصلاة والسلام حيث شرَّفهنَّ الله وأكرمهنَّ بهذا الوصف العظيم، ويعلم عظيم قدر هذا التشريف إذا علم نوع هذه الأمومة التي وُصفن بها رضي الله عنهن، ولهذا تفصيل وإيضاح يأتي في المسألة القادمة إن شاء الله.

الفائدة الثانية: تتعلق بالمؤمنين حيث أكرمهم الله بأن جعل أزواج النبي ﷺ أمهات لهم، ولا ريب أنَّ في هذا تكريماً للمؤمنين وحفزاً لهم لمعرفة قدر أزواج النبي ﷺ وفضلهنَّ وما لهنَّ على المؤمنين من حقوق وواجبات، ومتى قوي استشعار المؤمن لأمومة أزواج النبي ﷺ له قَوِيَ إقباله على القيام بحقوقهنَّ وزاد اهتمامه بما لهنَّ من واجبات.

المسألة الخامسة: في وجه كون أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين

لقد وصف الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أزواج النبي ﷺ بأنهنَّ أمهات المؤمنين، وذكر تعالى في آية أخرى ما يدل على أنَّ الأم إنَّما هي الوالدة، وذلك في قوله: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾[(١)]، وكتاب الله لا تعارض فيه و لا اختلاف، ومن هنا فلا بد من بيان معنى الأمومة التي وصف بها أزواج رسول الله ﷺ.

وفيما يلي أذكر بعض ما أورده أهل العلم في بيان معنى الآية، ثم أتبع ذلك بذكر ما يتلخص من كلامهم رحمهم الله.

فقد روى ابن جرير عن قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ قال: ((يعظم بذلك حقهنَّ))[(٢)].

وروى ابن أبي حاتم عنه رحمه الله أنَّه قال: ((أمهاتهم في الحرمة، لايحل لمؤمن أن ينكح امرأة من نساء النبي ﷺ في حياته إن طلّق ولا بعد موته، هي حرام على كل مؤمن مثل حرمة أمِّه))[(٣)].

وروى ابن جرير عن ابن زيد في معنى الآية: أي ((محرمات عليهم))[(٤)].

وقال الشافعي رحمه الله: ((وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ مثل ما وصفت من اتساع لسان العرب وأنَّ الكلمة الواحدة تجمع معاني مختلفة ... فقوله: ﴿أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ يعني في معنى دون معنى، وذلك أنَّه لا يحل لهم نكاحهنَّ بحال، ولا يحرم عليهم

---

(١) المجادلة، آية ٢.

(٢) جامع البيان (١١/١٢٢).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢١/٥٦٦).

(٤) جامع البيان (١١/١٢٢).

نكاح بناتٍ لو كان لهنَّ، كما يحرم عليهم نكاح بنات أمهاتهم اللاتي ولدنهم أو أرضعنهم.

قال الشافعي: فإن قال قائل: ما دلَّ على ذلك؟ فالدليل عليه أنَّ رسول الله ﷺ زوَّج فاطمة بنته وهو أبو المؤمنين وهي بنت خديجة أم المؤمنين زوَّجها عليّاً رضي الله عنه، وزوَّج رقيَّة وأم كلثوم عثمان وهو بالمدينة، وأنَّ زينب بنت أم سلمة تزوجت، وأنَّ الزبير بن العوام تزوج بنت أبي بكر، وأنَّ طلحة تزوج ابنته الأخرى، وهما أختا أم المؤمنين، وعبد الرحمن بن عوف تزوج ابنة جحش أخت أم المؤمنين زينب، ولا يرثهنَّ المؤمنون ولا يرثنهم كما يرثون أمهاتهم ويرثنهم، ويشبهن أن يكنَّ أمهاتٍ لعظم الحق عليهم مع تحريم نكاحهنَّ»[1].

وقال ابن جرير الطبري: «وحرمة أزواجه حرمة أمهاتهم عليهم في أنَّهنَّ يحرم عليهنَّ نكاحهنَّ من بعد وفاته، كما يحرم عليهم نكاح أمهاتهم»[2].

وقال القرطبي: «أي: في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهنَّ رضي الله عنهنَّ بخلاف الأمهات، وقيل: لما كانت شفقتهنَّ عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثاً كأمومة التبني، وجاز تزويج بناتهنَّ، ولا يجعلن أخوات للناس»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد أجمع المسلمون على تحريم نكاح هؤلاء بعد موته على غيره، وعلى وجوب احترامهنَّ، فهنَّ أمهات المؤمنين في الحرمة والتحريم، ولسن أمهات المؤمنين في المحرمية، فلا يجوز لغير أقاربهنَّ الخلوة

---

(١) الأم (٥/١٥١).

(٢) جامع البيان (١٤/١١٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/٨٢).

بهنَّ، كما يخلو الرجل ويسافر بذوات محارمه؛ ولهذا أمرن بالحجاب فقال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾[٢]))[٣].

وقال ابن كثير رحمه الله: ((أي: في الحرمة والاحترام والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهنَّ ولا ينتشر التحريم إلى بناتهنَّ وأخواتهنَّ بالإجماع ...)).

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله بعد أن نقل كلام ابن كثير السابق: ((وما ذكر من أنَّ المراد بكون أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين هو حرمتهنَّ عليهم كحرمة الأم واحترامهم لهنَّ كاحترام الأم ... إلخ واضح لا إشكال فيه، ويدل له قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ﴾[٤]؛ لأنَّ الإنسان لا يسأل أمَّه الحقيقية من وراء حجاب، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ ﴾[٥]، ومعلوم أنهنَّ رضي الله عنهنَّ لم يلدن جميع المؤمنين الذين هنَّ أمهاتهم))[٦].

وبهذا يتبيَّن وجه الجمع بين قوله: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ ﴾، وقوله: ﴿ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ

---

(١) الأحزاب، آية ٥٩.

(٢) الأحزاب، آية ٥٣.

(٣) منهاج السنة (٤/ ٣٦٩).

(٤) الأحزاب، آية٥٣.

(٥) المجادلة، آية٢.

(٦) أضواء البيان (٦/ ٥٧٠).

إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ﴾، ويتبيَّن أيضاً معنى الأمومة التي وصف بها أزواج النبي ﷺ.

فالأمومة نوعان:

١ـ **أمومة دينية:** وهي التي يكون سببها الدين، وأزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين من هذا الوجه، لكونهنَّ أزواج النبي ﷺ الذي هو للمؤمنين بمنزلة الوالد، ولما قمن به من جهود عظيمة في نقل أحاديثه ﷺ أقواله وأعماله وأخلاقه وعباداته، وصار بسببهنَّ نفع للأمة عظيم.

وهذه الأمومة تقتضي وجوب تقديرهنَّ واحترامهنَّ والقيام بحقوقهنَّ فإنَّهنَّ بمنزلة الأمهات، وتقتضي كذلك تحريمهنَّ على المؤمنين فلا يجوز نكاحهنَّ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[1].

وهي لا توجب ميراثاً كأمومة النسب، ولا تنتشر؛ ولهذا جاز تزويج بناتهنَّ وأخواتهنَّ، وقد مضى أدلة ذلك في كلام أهل العلم المتقدم.

٢ ـ **وأمومة طريقها النسب:** ويسميها بعض أهل العلم أمومة طينية وهي التي قال الله عنها: ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ﴾[2]، فالوالدة أم لولدها، إذ هي التي أنجبته وولدته، ولهذه الأمومة أحكامها وحقوقها المعلومة.

وخلاصة القول: أنَّ النبي ﷺ لما كان للمؤمنين بمنزلة الوالد «يربيهم كما يربي الوالد أولاده، فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية»[3].

فهنَّ أمهات للمؤمنين أي: في تحريم نكاحهنَّ على التأبيد ووجوب إجلالهنَّ وتعظيمهنَّ، ولا تجري عليهنَّ أحكام الأمهات في كل شيء إذ لو كنَّ كذلك لما جاز أن يتزوج بناتهنَّ، ولورثن المسلمين ولجازت الخلوة بهنَّ.

---

(١) الأحزاب، آية ٥٣.

(٢) المجادلة، آية ٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٩٨/٦).

المسألة السادسة: إذا قيل إنَّ أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين، فهل يقال إنَّ النبي ﷺ أب لهم؟

وهذه مسألة مهمة تكلم عليها أهلُ العلم عند تفسيرهم لهذه الآية ؛ إذ إنَّ هذه الآية الكريمة يفهم منها أنَّ النبي ﷺ أبٌ لهم كما أنَّ أزواجه أمهات لهم ، بل كما قال شيخ الإسلام : ((فإنَّ نساءه إنَّما كنَّ أمهات المؤمنين تبعاً له ، فلولا أنَّه كالأب لم يكن نساؤه كالأمهات))[١] .

وقد جاء في قراءة شاذة للآية عن بعض الصحابة والتابعين قراءة الآية هكذا (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم).

فقد أخرج الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنَّه كان يقرأ هذه الآية : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه أمهاتهم)[٢] .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد : أنَّه قرأ (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم)[٣] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : كان في الحرف الأول : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم)[٤] .

---

(١) منهاج السنة (٥/٢٣٨).

(٢) المستدرك (٢/٤١٥) وقال : ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه))، ورواه الفريابي وابن مردويه والبيهقي كما في الدر المنثور للسيوطي (٢١/٥٦٧).

(٣) جامع البيان (٢١/١٢٢)، ورواه الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي (٢١/٥٦٧).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢١/٥٦٧).

قال ابن كثير: «وقد روي عن أُبي بن كعب وابن عباس أنَّهما قرءا (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن ...»[١].

وهذه القراءة وإن كانت شاذة إلا أنَّ «القراءة المشهورة تدل على ذلك»[٢].

فالنبي ﷺ أبٌ للمؤمنين أبوةً دينيةً بمعنى أنَّه يربيهم ويرشدهم ويدلهم على الخير وعلى عبادة الله وطاعته والاستقامة على دينه، بل إنَّ كلَّ الأنبياء بهذا المعنى آباءٌ لأممهم، ولهذا نقل عن مجاهد أنَّه قال: «كل نبي أبٌ لأمته»[٣]؛ لأنَّهم نصحوا لأممهم وأرشدوهم إلى الخير ونهوهم عن الشر.

ومما يدل على هذا المعنى ويقويه ما ثبت في السنن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه، وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرُّمَة»[٤] فهذا الحديث فيه دلالة على أنَّ النبي ﷺ أبٌ للمؤمنين على المعنى الذي ذُكِرَ في الحديث وهو بالنظر إلى ما يقوم به ﷺ لهم من نصح وبيان وإرشاد.

ولهذا يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: «وهو ﷺ أبٌ للمؤمنين كما في قراءة بعض الصحابة يربيهم كما يربّي الوالد أولاده»[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٣٨٢).

(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٥/٢٣٨).

(٣) ذكره الألوسي في تفسيره (٢١/١٥٢).

(٤) رواه أحمد (٢/٢٤٧، ٢٥٠) وأبو داود (١/٣) والنسائي (١/٣٨) وابن ماجه (١/١١٤)، وحسَّنه الألباني. انظر صحيح الجامع (٢/٢٨٤). والرمة: العظم.

(٥) تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٦/٩٨).

وعلى هذا فلا مانع من وصفه ﷺ بأنَّه أبٌ للمؤمنين على المعنى الذي سبق بيانه.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنَّه لا يجوز أن يسمى النبي ﷺ أباً للمؤمنين محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(١) قالوا: ولكن يقال: مثل الأب للمؤمنين كما قال ﷺ في الحديث المتقدم: ((إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ...))(٢).

ذكر هذا القرطبي رحمه الله تعالى، ثم قال: ((والصحيح أنَّه يجوز أن يقال إنَّه أبٌ للمؤمنين أي في الحرمة، وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ ﴾ أي في النسب))(٣).

فلا تعارض بين الأبوَّة المثبتة والأبوَّة المنفية، فالأبوة المنفية هي أبوة النسب، وأما الأبوَّة التي أثبتها أهل العلم واحتجوا لها بما تقدم فهي أبوة التعليم والنصح والبيان.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: ((ويفهم من قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ أنه ﷺ أبٌ لهم، وقد روي عن أُبي بن كعب وابن عباس أنهما قرءا: (وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وهذه الأبوة أبوة دينية، وهو ﷺ أرأف بأمته من الوالد الشفيق بأولاده، وقد قال جل وعلا في رأفته ورحمته بهم ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾(٤)، وليست الأبوة أبوة نسب كما بينه تعالى بقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾.

---

(١) الأحزاب، آية ٤٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(١٤/ ٨٤)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير(٦/ ٣٨٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/ ٨٤).

(٤) التوبة، آية ١٢٨.

ويدل لذلك أيضاً حديث أبي هريرة عند أبي داود والنسائي وابن ماجه أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه، وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة». فقوله ﷺ في هذا الحديث: «إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد» يبين معنى أبوته المذكورة كما لا يخفى»[١].

وقال في كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» عندما أورد هذا الأشكال: «والجواب ظاهر، وهو أنَّ الأبوة المثبتة دينية والأبوة المنفية طينية»[٢].

والخلاصة أنَّ النبي ﷺ أبٌ للمؤمنين أبوة دينية تفوق أبوة النسب وتعلوها قدراً ومكانة وشأناً؛ ولهذا صح عنه ﷺ أنَّه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٣].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، والله أعلم.

---

(١) أضواء البيان (١٥/٥٧٠، ٥٧١).

(٢) طبع في آخر أضواء البيان (١٠/٢٣٩).

(٣) رواه البخاري (١/٢٢)، ومسلم (١/٦٧).

المسألة السابعة: هل أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين فقط؟ أو أمهات للمؤمنين والمؤمنات؟

في هذا قولان مشهوران لأهل العلم:

الأول: أنَّ أزواج النبي ﷺ أمهاتٌ للمؤمنين فقط، ويستدلون على ذلك بما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّ امرأة قالت لها: يا أمي، فقالت: ((أنا أمّ رجالكم ولست أمّ نسائكم))[١].

قال ابن العربي: ((وهو الصحيح))[٢]، وقال ابن كثير: ((وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي رحمه الله))[٣].

والثاني: أنَّهنَّ أمهاتٌ للمؤمنين والمؤمنات، ويستدلون على ذلك بما جاء عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنَّها قالت: ((أنا أم الرجال منكم والنساء))[٤].

يقول القرطبي مرجّحاً هذا القول: ((... والذي يظهر لي أنَّهنَّ أمهات الرجال والنساء، تعظيماً لحقهنَّ على الرجال والنساء، يدل عليه صدر الآية ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة، ويدل على ذلك حديث أبي هريرة وجابر، فيكون قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ عائداً إلى الجميع، ثم إنَّ في مصحف أُبَي بن كعب (وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وقرأ ابن عباس (من

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٨/٦٤)، والبيهقي في السنن (٧/٧٠)، وقال ابن كثير في تفسيره (٦/٣٨١): ((صحَّ عن عائشة رضي الله عنها)).

(٢) أحكام القرآن (٣/٥٤٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٣٨١).

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات كما في الدر المنثور للسيوطي (٢١/٥٦٧) ولم أهتد إليه في الطبقات.

أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم) وهذا كله يوهن ما رواه مسروق [أي عن عائشة] إن صحَّ من جهة الترجيح وإن لم يصح فيسقط الاستدلال به في التخصيص، ويقينا على الأصل الذي هو العموم الذي يسبق إلى الفهوم، والله أعلم))(١).

وما ذهب إليه واحتج له هو الأقرب، على أنَّه يمكن الجمع بين المروي عن عائشة رضي الله عنها والمروي عن أم سلمة رضي الله عنها بأن يقال: إذا كان المقصود بالأمومة تحريم نكاحهنَّ من بعده ﷺ وتحريم النظر إليهنَّ والخلوة بهنَّ فلا يخفى أنَّ هذا أمر خاص بالرجال دون النساء.

وإن كان المقصود بالأمومة التوقير والاحترام والقيام بالحقوق والواجبات ونحو ذلك فهذا شاملٌ للنساء والرجال للمؤمنين والمؤمنات، فلعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لحظت بقولها المعنى الأول، وأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها لحظت بقولها المعنى الثاني، والله أعلم.

---

(١) الجامع لأحكام القران (١٤/ ٨٤).

المسألة الثامنة: هل يقال لإخوان أزواج النبي ﷺ بأنَّهم أخوال للمؤمنين؟ وهل يقال لبناتهنَّ أخوات للمؤمنين؟

لما كان أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين في حكم التحريم دون المحرمية تنازع العلماء في إخوانهنَّ هل يقال لأحدهم خال المؤمنين وكذلك في بناتهنَّ هل يقال لهنَّ أخوات المؤمنين؟

ولهم في هذه المسألة قولان:

الأول: المنع من الإطلاق.

قال شيخ الإسلام: «ومن علماء السنة من قال: لا يطلق على إخوة الأزواج أنَّهم أخوال المؤمنين، فإنَّه لو أطلق ذلك لأطلق على أخواتهنَّ أنَّهنَّ خالات المؤمنين، ولو كانوا أخوالاً وخالات لحرم على المؤمنين أن يتزوج أحدهم خالته وحرم على المرأة أن تتزوج خالها.

وقد ثبت بالنص والإجماع أنَّه يجوز للمؤمنين والمؤمنات أن يتزوجوا أخواتهنَّ وإخوتهنَّ كما تزوج العباس أم الفضل أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وولد له منها عبد الله والفضل وغيرهما، وكما تزوج عبد الله بن عمر وعبيد الله ومعاوية وعبد الرحمن بن أبي بكر ومحمد بن أبي بكر من تزوجوهنَّ من المؤمنات، ولو كانوا أخوالاً لهنَّ لما جاز للمرأة أن تتزوج خالها.

قالوا: وكذلك لا يطلق على أمهاتهنَّ أنَّهنَّ جدَّات المؤمنين، ولا على آبائهنَّ أنَّهم أجداد المؤمنين؛ لأنَّه لم يثبت في حق الأمهات جميع أحكام النسب، وإنَّما ثبت الحرمة والتحريم، وأحكام النسب تتبعض كما يثبت بالرضاع التحريم والمحرمية ولا يثبت سائر أحكام النسب، وهذا كلّه متفق عليه»[1].

---

(١) منهاج السنة (٦/ ٣٧٠).

وقال القرطبي: «قال قوم: لا يقال بناته أخوات المؤمنين ولا إخوانهنَّ أخوال المؤمنين وخالاتهم، قال الشافعي رضي الله عنه: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي أخت عائشة ولم يقل: هي خالة المؤمنين ...»(١).

الثاني: جواز إطلاق ذلك.

وهو كما يقول ابن كثير: «من باب إطلاق العبارة، لا إثبات الحكم»(٢).

قال شيخ الإسلام عقب كلامه السابق: «والذين أطلقوا على الواحد من أولئك أنَّه خال المؤمنين لم ينازعوا في هذه الأحكام، ولكن قصدوا بذلك الإطلاق أنَّ لأحدهم مصاهرة مع النبي ﷺ، واشتهر ذكرهم لذلك عن معاوية رضي الله عنه كما اشتهر أنَّه كاتب الوحي، وقد كتب الوحي غيره، وأنَّه رديف رسول الله ﷺ وقد أردف غيره ...»(٣).

وقد أفرد القاضي أبو يعلى رحمه الله مصنفاً في الدفاع عن معاوية وتبرئته من الظلم والفسق أسماه «تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان من الظلم والفسق في مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنهما» عقد فيها فصلاً نافعاً بيَّن فيه صحة هذا الإطلاق وذكر ما يشهد له ويدل عليه.

قال رحمه الله: «ويسمى إخوة أزواج رسول الله ﷺ أخوال المؤمنين ولسنا نريد بذلك أنَّهم أخوالٌ في الحقيقة كأخوال الأمهات من النسب، وإنَّما نريد أنَّهم في حكم الأخوال في بعض الأحكام، وهو التعظيم لهم، لأنَّ النبي ﷺ قال: «الخال والد»(٤)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/٣٨١).

(٣) منهاج السنة (٤/٣٧٠، ٣٧١).

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٤٨) وعزاه للخرائطي في مكارم الأخلاق وقال: «في سنده سعيد كذَّبه أحمد»، وأورده الديلمي في الفردوس (٢/٢٠٧) عن عبد الله بن عمر بلا سند.

تعظيماً له.

وقد نصَّ أحمد على إطلاق هذه التسمية في رواية أبي طالب فقال: ((معاوية خال المؤمنين وابن عمر خال المؤمنين))[١].

وقال أبو بكر المروذي: سمعت هارون بن عبد الله يقول لأبي عبد الله: جاءني كتاب من الرقة أنَّ قوماً قالوا: لا نقول: معاوية خال المؤمنين، فغضب. وقال: ((ما اعتراضهم في هذا الموضع؟ يُجفون حتى يتوبوا))[٢].

إلى أن قال: والدليل على أنَّ هذه التسمية ليس طريقها اللغة ولا القياس وإنَّما طريقها التوقيف والشرع، وقد ورد الشرع بتسمية الإخوة أخوالاً.

ثم ساق بسنده إلى ابن عباس في هذه الآية ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[٣] قال: ((فكانت المودة التي جعلها الله بينهم تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين، ومعاوية خال المؤمنين))[٤].

ثم نقل عن ابن بطة ما رواه بإسناده في "جزء له فيه فوائد من تخريجاته" عن محمد ابن قحطبة الدمشقي قال: ((جئت إلى معاوية بن أبي سفيان فقلت: يا أبا عبد الرحمن قد جاء الحسن بن علي بن أبي طالب زائراً فدعه يصعد المنبر، فقال: دعني

---

(١) رواه الخلال في السنة برقم (٦٥٧).

(٢) رواه الخلال في السنة برقم (٦٥٨).

(٣) الممتحنة، آية ٧.

(٤) رواه الآجري في الشريعة (٢٤٤٨/٥) (١٩٣٠)، ورواه عبد ابن حميد وابن المنذر وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. انظر: الدر المنثور للسيوطي (١٣٠/٨).

وفي إسناده الكلبي وهو متهم بالكذب ومتروك الحديث.

أفتخر على أهل الشام، فقلت: شأنك وإياه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال له معاوية: سألتك بالله يا أبا محمد ألستُ من بطحاء مكة؟ فقال: أي والله الذي لا إله إلا هو. قال: اللهم اشهد، ثم قال: سألتك بالله يا أبا محمد ألستُ خال المؤمنين؟ قال: أي والذي لا إله إلا هو، قال: اللهم اشهد ...)) وذكر الخبر بتمامه.

ثم قال: ولأنَّه إذا جاز إطلاق تسمية الأمهات على أزواج النبي ﷺ وإن لم يكونوا أمهات في الحقيقة لأنَّه يجوز التزويج بأخواتهنَّ وبناتهنَّ، وإنَّما جاز لأنَّهنَّ في حكم الأمهات في تحريم العقد عليهنَّ، كذلك جاز إطلاق تسمية الأخوال على إخوانهنَّ في بعض الأحكام وهو التعظيم لهنَّ، ولا معنى لقولهم إنَّ هذه التسمية طريقها التوقيف والشرع لم يرد بذلك توقيف؛ لأنَّا قد بينا وروده عن جماعة من الصحابة منهم ابن عباس ومنهم قول معاوية على المنبر ومنهم تصديق الحسن له على ذلك، ولا معنى لقولهم إنَّهم لو كنَّ أخوالاً لما جاز التزويج بهم؛ لأنَّا قد بيَّنا أن لا نطلق هذه التسمية حقيقة، وإنَّما نطلقها على وجه التعظيم للحرمة.

فإن قيل: فهل تطلقون تسمية الخالات على أخواتهنَّ؟ قيل: لا نطلق ذلك؛ لأنَّه لم يرد بذلك توقيف، وقد ورد التوقيف في الأخوال، هذه التسمية طريقها التوقيف، وعلى أنَّه لا يمتنع أن نطلق عليهم اسم الخالات، وإن لم ينص على هذه التسمية؛ لأنَّ الله تعالى نص على الأمهات والأخوات من الرضاعة، ثم قد أطلق الفقهاء تسمية الخالات من الرضاعة))[1] .اهـ.

وعلى كلٍّ فالإطلاق صحيح على وجه الاحترام والتوقير، لا على وجه إثبات الحكم، والله أعلم.

---

(١) تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان (ص: ٧٤-٧٩)، والنسخة الخطية منه، والنص المثبت هنا منقول كما هو في النسخة الخطية.

المسألة التاسعة: هل يقال لسراري النبي ﷺ أمهات المؤمنين أو لا يقال؟

وقد نقل ابن القيم في زاد المعاد عن أبي عبيدة أنَّه قال: ((كان له أربع: مارية وهي أم ولده إبراهيم، وريحانة، وجارية أخرى جميلة أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش))[١].

فهل هؤلاء يطلق عليهن أمهات المؤمنين أم أنَّ الإطلاق خاص بأزواجه ﷺ؟

والجواب: أنَّ هذا خاصٌ بأزواج النبي ﷺ كما هو ظاهر القرآن ولم يرد ما يدل على مشروعية إطلاقه على سراري النبي ﷺ، بل ثبت في الصحيح أنَّ النبي ﷺ لما اصطفى صفيَّة بنت حيي قال الصحابة: ((إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين وإلاَّ فهي مما ملكت يمينه))[٢].

قال شيخ الإسلام وقد ذكر هذا الحديث: ((وفي الحديث دليل على أنَّ أمومة المؤمنين لأزواجه دون سراريه، والقرآن ما يدل إلا على ذلك؛ لأنَّه قال: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ ...))[٣].

---

(١) زاد المعاد (١/١١٤).

(٢) رواه البخاري (٩/١٢٦ فتح) ومسلم (٢/١٠٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/٤٤٨، ٤٤٩).

المسألة العاشرة: هل النساء اللاتي عقد عليهنَّ ﷺ ولم يدخل بهنَّ معدودات في أمهات المؤمنين؟

سيأتي ذكر أزواج النبي ﷺ المعروفات اللاتي دخل بهنَّ ﷺ، واللاتي ثبت لهنَّ في القرآن الوصف بأمهات المؤمنين لكن من خطبها ﷺ ولم يتزوجها، ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها، وهنَّ نحو أربع أو خمس نسوة كالجونية التي بعث إليها ليتزوجها، فدخل عليها ليخطبها فاستعاذت منه، فأعاذها ولم يتزوجها، وكذلك الكلبية، وكذلك التي رأى بكشحها بياضاً فلم يدخل بها، والتي وهبت نفسها له فزوجها غيره على سور من القرآن[1].

فهل هؤلاء أيضاً يوصفن بأنهنَّ أمهات المؤمنين؟

يقول ابن القيم رحمه الله: «... فمن فارقها في حياتها ولم يدخل بها لا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتي دخل بهنَّ ومات عنهنَّ ﷺ وعلى أزواجه وذريته وسلم تسليماً»[2].

وبهذا يعلم جواب هذه المسألة، والله أعلم.

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/١١٣، ١١٤).

(٢) جلاء الأفهام (ص: ١٧٢).

المسألة الحادية عشرة: في ذكر عدد أزواجه ﷺ والتعريف بهنَّ رضي الله عنهنَّ

لا ريب أنَّ من تمام تدبر الآية معرفةَ أزواج النبي ﷺ وعددهنَّ وشيءٍ من حياتهنَّ رضي الله عنهنَّ، وكتب السير والتراجم حافلة ببيان ذلك، لكن من المفيد هنا أن نشير إلى شيء من ذلك ولو على وجه الاختصار(١).

عدد أزواجه ﷺ إحدى عشرة امرأة توفي في حياته اثنتان منهنَّ، ومات ﷺ عن التسع الباقيات.

١ ـ أولهنَّ خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية تزوجها قبل النبوة، ولها أربعون سنة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم رضي الله عنه فإنَّه من سريته مارية، وهي التي آزرته على النبوة وجاهدت معه، وواسته بنفسها ومالها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين.

ومن خصائصها: أنَّ الله سبحانه بعث إليها السلام مع جبريل فبلَّغها النبي ﷺ ذلك فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريل

---

(١) من المصادر والمراجع التي يمكن الإفادة منها في ترجمة أزواج النبي ﷺ ما يلي:

١ ـ طبقات ابن سعد (٥٢/٨ وما بعدها).

٢ ـ تسمية أزواج النبي ﷺ وأولاده لأبي عبيدة معمر بن المثنى.

٣ ـ الاستيعاب لابن عبد البر (٤٤/١ وما بعدها).

٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر «كتاب النساء» (٢٢٤/٤ وما بعدها).

٥ ـ زاد المعاد لابن القيم (١٠٥/١ وما بعدها).

٦ ـ جلاء الأفهام له (ص ١٥٤ وما بعدها).

٧ ـ أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ دراسة حديثية للدكتور عبد العزيز العبد اللطيف، رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة.

النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب))[1].

ومن خصائصها: أنّها لم تسؤه قط ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء ولا عتب قط ولا هجر.

ومن خصائصها: أنّها أول امرأة آمنت بالله ورسوله ﷺ من هذه الأمة.

٢ ـ ثم تزوج بعد موتها بأيام سودة بنت زمعة بن قيس القرشية رضي الله عنها، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة رضي الله عنها، فأمسكها[2]، وهذا من خواصها أنّها آثرت يومها حِب النبي ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ وحبّاً له، وإيثاراً لمقامها معه، فكان يقسم لنسائه ولا يقسم لها وهي راضية بذلك مؤثرة لرضى رسول الله ﷺ رضي الله عنها، وتوفيت في آخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنها وعن الصحابة أجمعين.

٣ ـ ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديقة بنت الصديق في شوال قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث وهي بنت ست سنين، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه في السنة الأولى وهي بنت تسع سنين، وقد عرضها عليه المَلَك قبل نكاحها في سَرَقَة من حرير، ففي الصحيحين عنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((أريتك في المنام مرتين إذا رجل يحملك في سَرَقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك فأكشف فإذا هي أنت. فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه))[3].

---

(١) البخاري (١٣/ ٤٦٥ فتح) ومسلم (٤/ ١٨٨٧).

(٢) رواه البخاري (٩/ ٣١٢ فتح).

(٣) البخاري (١٢/ ٣٩٩ فتح) ومسلم (٤/ ١٨٨٩).

ومن خصائصها: أنها كانت أحبَّ أزواج رسول الله ﷺ إليه كما ثبت عنه ذلك في البخاري ومسلم وقد سئل: «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قيل: فمن الرجال؟ قال: أبوها»(١).

ومن خصائصها أيضاً: أنَّه لم يتزوج امرأة بكراً غيرها، وقد جاء في البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت يا رسول الله، أرأيت لو نزلت وادياً فيه شجرةٌ قد أُكِل منها، وشجرةٌ لم يؤكل منها، ففي أيّها كنت تُرتع بعيرك، قال: في التي لم يرتع فيها»(٢) تعني أنه لم يتزوج بكراً غيرها.

ومن خصائصها: أنَّه كان ينزل عليه الوحي ﷺ وهو في لحافها دون غيرها، ففي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «يا أم سلمة! لا تؤذيني في عائشة، فإنِّي والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنَّ غيرها»(٣).

ومن خصائصها: أنَّ الله سبحانه برَّأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحياً يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها بأنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وكانت رضي الله عنها تتواضع وتقول: «ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلى...»(٤).

ومن خصائصها: أنَّها كانت أفقه نسائه ﷺ وأعلمهن، بل أفقه نساء الأمة وأعلمهنَّ على الإطلاق، وكان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ يرجعون إلى قولها ويستفتونها.

---

(١) البخاري (٨/٧٤ فتح) ومسلم (٤/١٨٥٦).
(٢) البخاري (٩/١٢٠ فتح).
(٣) رواه البخاري (٧/١٠٧ فتح).
(٤) رواه البخاري (٧/٤٣١ فتح) ومسلم (٤/٢١٢٩).

ومن خصائصها: أنَّ رسول الله ﷺ توفي في بيتها، وفي يومها، وبين سحرها ونحرها، ودفن في بيتها(١).

وقد مات عنها ﷺ وهي بنت ثمان عشرة سنة، وتوفيت بالمدينة ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة رضي الله عنه، سنة ثمان وخمسين من الهجرة.

واختلف أهل العلم هل هي أفضل أو خديجة على ثلاثة أقوال:

فقال بعضهم: هي أفضل، وقال بعضهم: خديجة أفضل، وتوقف آخرون.

قال السيوطي في ألفيته في علم الحديث:

وأفضل الأزواج بالتحقيق ... خديجة مع ابنة الصديق
وفيهما ثالثها الوقفُ وفي ... عائشة وابنته الخلف قفي
يليهما حفصة فالبواقي ... وآخر الصِّحاب باتفاق(٢)

قال ابن القيم رحمه الله: «وسألت شيخنا ابن تيمية فقال: اختص كل واحدة منهما بخاصة فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تسلي رسول الله ﷺ وتثبته وتسكنه، وتبذل دونه مالها فأدركت غرة الإسلام، واحتملت الأذى في الله وفي رسوله، وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها، وعائشة رضي الله عنها تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين، وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها، هذا معنى كلامه»(٣).

٤ ـ ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها وعن أبيها في السنة

---

(١) رواه البخاري (٨/١٤٤ فتح) ومسلم (٤/١٨٩٣).
(٢) ألفية السيوطي في علم الحديث (ص: ١٩٦).
(٣) جلاء الأفهام (ص: ١٥٤).

الثالثة للهجرة، وكانت قبله عند خنيس بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدراً، وقد توفيت عام سبع أو ثمان وعشرين من الهجرة.

٥ ـ ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية من بني هلال بن عامر، وتوفيت عنده ﷺ بعد ضمه لها بشهرين، وكانت تسمى أم المساكين لكثرة إطعامها للمساكين رضي الله عنها.

٦ ـ ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية وقيل هي آخر نسائه موتاً، وقد توفيت سنة اثنتين وستين للهجرة، ودفنت في البقيع، وقد تزوجها النبي ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة.

ومن خصائصها: أن جبرائيل دخل على النبي ﷺ وهي عنده فرأته في صورة دحية الكلبي. ففي صحيح مسلم عن أبي عثمان قال: «نبئت أنَّ جبرائيل أتى النبي ﷺ وعنده أمّ سلمة قال: فجعل يتحدث ثم قام فقال النبي ﷺ لأم سلمة من هذا؟»[١] الحديث.

٧ ـ ثم تزوج زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكانت قبلُ عند مولاه زيد بن حارثة، فطلقها فزوجها الله إياه من فوق سبع سموات وأنزل عليه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[٢] فقام فدخل عليها بلا استئذان، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج رسول الله ﷺ وتقول: «زوجكن أهاليكنَّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سمواته»[٣].

وهذا من خصائصها، توفيت بالمدينة سنة عشرين، ودفنت بالبقيع وهي أول

---

(١) صحيح مسلم (٤/١٩٦).

(٢) الأحزاب، آية ٣٧.

(٣) رواه البخاري (١٣/٤٠٣ فتح).

نسائه لحوقاً به بعد موته عليه الصلاة والسلام.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً. قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنَّها كانت تعمل بيدها وتتصدَّق»[١].

٨ ـ وتزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية، وكانت سبيت في غزوة بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فقضى رسول الله ﷺ كتابها وتزوجها سنة ست من الهجرة، وتوفيت سنة ست وخمسين.

ومن فضائلها: أنَّ المسلمين أعتقوا بسببها مائة أهل بيت من الرقيق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ[٢]، وكان هذا من بركاتها على قومها.

٩ ـ ثم تزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب القرشية الأموية، وقيل اسمها هند، تزوجها وهي ببلاد الحبشة مهاجرة، وأصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار، وسيقت إليه من هناك، وماتت في أيام أخيها معاوية بن أبي سفيان.

١٠ـ وتزوج في السنة السابعة صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير من ولد هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، فهي ابنة نبي وعمها نبي وزوجها نبي، وكانت من أجمل نساء العالمين، وكانت قد صارت له من الصفيِّ أمة فأعتقها وجعل عتقها صداقها، وهذا من خصائصها رضي الله عنها.

١١ ـ ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج بها، تزوجها بسرف، وبنى بها بسرف، تزوجها في السنة السابعة من الهجرة بعد عمرة القضاء، وماتت بسرف سنة ثلاث وستين من الهجرة في أيام معاوية رضي الله عنه وعنها وعن الصحابة أجمعين.

---

(١) رواه مسلم (٤/١٩٠٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦/٢٧٧).

فهؤلاء نساؤه المعروفات اللاتي دخل بهنَّ، وهنَّ إحدى عشرة امرأة، وهنَّ فقط أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ أجمعين.

قال الحافظ العراقي في ألفيته في السيرة النبوية:

زوجاتُه اللاتي بهنَّ قد دخل ... ثنتا أو إحدى عشرة خُلْف نقل
خديجةُ الأولى تليها سودة ... ثمَّ تلي عائشةُ الصديقةُ
وقيل قبل سودة فحفصةُ ... فزينبٌ والدها خزيمةُ
فبعدها هندٌ أي أم سلمة ... فابنةُ جحش زينب المكرمة
تلي ابنة الحارث أي جويريةْ ... فبعدها ريحانةُ المسبيَّة
وقيل بل مِلْكَ يمينٍ فقط ... لم يتزوجها وذاك أضبطُ
بنتُ أبي سفيان وهي رَمْلَة ... أم حبيبةٍ تلي صفيَّة
من بعدها فبعدها ميمونةْ ... حلاًّ وكانت كاسمها ميمونةْ
وابن المثنى معمر قد أدخلا ... في جملة اللاتي بهنَّ دخلا
بنت شريح واسمها فاطمة ... عرفها بأنها الواهبة
ولم أجد من جمع الصحابة ... ذكرها ولا بأسد الغابة
وعلها التي استعاذت منه ... وهي ابنت الضحاك بانت منه
وغير من بنى بها أو وهبت ... إلى النبي نفسها أو خطبت
ولم يقع تزويجها فالعدةُ ... نحو الثلاثين بخلف أثبتوا[1]

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وقال بعضهم هنَّ ثلاثون امرأة، وأهل العلم بسيرته وأحواله ﷺ لا يعرفون هذا، بل ينكرونه، والمعروف عندهم أنَّه بعث إلى الجونية ليتزوجها فدخل عليها ليخطبها فاستعاذت منه فأعاذها ولم يتزوجها، وكذلك الكلبية، وكذلك التي رأى بكشحها بياضاً فلم يدخل بها، والتي وهبت نفسها له فزوجها غيره على سور من القرآن، هذا هو المحفوظ، والله أعلم»[2].

(١) العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية للعراقي تأليف عبدالرزاق المناوي (ص ٢٥٥، ٢٥٦).
(٢) زاد المعاد (١/١١٣).

المسألة الثانية عشرة: في ذكر بعض فضائلهنَّ وخصائصهنَّ

مرَّ معنا في المسألة السابقة بعض الفضائل والخصائص التي تميز بها بعض أزواج النبي ﷺ، وفي هذه المسألة سأشير إلى بعض فضائلهنَّ وخصائصهنَّ إجمالاً، أو الفضائل والخصائص المشتركة بينهنَّ رضي الله عنهن أو بين أكثرهنَّ.

أولاً: فمن خصائصهنَّ أنَّ الله أكرمهنَّ وشرفهنَّ بأن كنَّ أزواج النبي ﷺ، وهذه فضيلةٌ عظيمةٌ ومنقبةٌ كبيرةٌ منَّ الله عليهنَّ بها، وهنَّ أزواجه في الدنيا والآخرة.

ثانياً: ما ترتب على ذلك، وهو أنَّهنَّ صرن بذلك أمهات للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ فهذه فضيلةٌ أخرى وخاصيةٌ ثانية نلنها لما أكرمهنَّ بأن كنَّ أزواجاً للنبي ﷺ.

ثالثاً: وصف الله لهنَّ في القرآن بأنَّهنَّ لسن كأحد من النساء، قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[1]، بل أحسن وأفضل.

رابعاً: ومن خصائصهنَّ أنَّهنَّ لا يجوز نكاحهنَّ من بعده كما قال تعالى: ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾[2]، وهذه خاصة بهنَّ دون سائر النساء.

خامساً: أنَّ النبيَّ ﷺ نصَّ على الصلاة عليهنَّ، ففي الصحيحين من حديث أبي حميد الساعدي: أنَّهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلّي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ قولوا: «اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[3].

---

(١) الأحزاب، آية ٣٢.

(٢) الأحزاب، آية ٥٣.

(٣) البخاري (٦/٤٠٧ فتح) ومسلم (١/٣٠٦).

سادساً: إيثارهنَّ البقاء مع النبي ﷺ على الحياة الدنيا وزينتها لما خُيِّرنَ في ذلك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1] فاخترن البقاء معه ﷺ.

سابعاً: أنّهنَّ داخلات في آل النبي ﷺ، ويدل على دخولهنَّ في الآل أمور عديدة منها:

١ ـ قوله تعالى في حقهنَّ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

٢ ـ قوله ﷺ في حديث أبي حميد المتقدم: ((اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته)) وفي غيره من الأحاديث: ((اللهم صل على محمد وعلى آل محمد))[3].

وهذا غايته أن يكون الأول منهما قد فسَّره اللفظ الآخر.

٣ ـ ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً))[4].

وكان رزق أزواجه ﷺ قوتاً، وما كان يحصل لهنَّ بعدُ من الأموال كنَّ يتصدقن بها ويجعلن رزقهنَّ قوتاً.

---

(١) الأحزاب، آية ٢٨، ٢٩.

(٢) الأحزاب، آية ٣٣.

وانظر ما كتبه الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي في بيان دلالة الآية على ذلك: أضواء البيان (٥٧٧/٦، وما بعدها).

(٣) رواه البخاري (البخاري ٤٠٨/٦ فتح) ومسلم (٣٠٥/١) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(٤) البخاري (٢٨٣/١١ فتح) ومسلم (٢٢٨١/٤).

٤ ـ ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بر مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل))[(١)] وأزواجه كان أمرهنَّ كذلك.

٥ ـ وإنما دخل أزواج النبي ﷺ في الآل تشبيهاً لذلك؛ لأنَّ اتصالهنَّ بالنبي ﷺ غير مرتفع، وهنَّ محرمات على غيره في حياته وبعد مماته، وهنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة، فالسبب الذي لهنَّ بالنبي ﷺ قائم مقام النسب[(٢)].

ثامناً: أنهنَّ تحرم عليهنَّ الصدقة، وهذا مترتبٌ على الذي قبله، لقوله ﷺ: ((إنَّ الصدقة لا تنبغي لآل محمد))[(٣)].

وهنَّ داخلات في الآل كما تقدم، فالصدقة تحرم عليهنَّ لأنَّها من أوساخ الناس، وقد صان الله سبحانه ذلك الجناب الرفيع من كل أوساخ بني آدم[(٤)].

تاسعاً: أنَّهنَّ من اللذين يؤتون أجرهم مرتين، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[(٥)].

((فقنتَ لله ورسوله وعملن صالحاً، فعلم بذلك أجرهنَّ))[(٦)] رضي الله عنهنَّ أجمعين.

وقد أفرد السيوطي رسالة لطيفة فيمن يؤتى أجره مرتين، جمع فيها من ورد في حقهم هذا الأجر المضاعف، بدأها بأزواج النبي ﷺ[(٧)]، وأورد الآية الكريمة

---

(١) البخاري (٥٥٢/٩ فتح) ومسلم (٢٢٨١/٤).
(٢) انظر: جلاء الأفهام لابن القيم (ص ١٤٢، ١٤٣).
(٣) رواه مسلم (٧٥٣/٢).
(٤) جلاء الأفهام لابن القيم (ص: ١٤٣).
(٥) الأحزاب، آية ٣١.
(٦) تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (١٠٦/٦).
(٧) مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين، للسيوطي (ص: ١٩، ٢٢).

المتقدمة، ثمَّ ساق ما رواه الطبراني[١] عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أربعة يؤتون أجرهم مرتين: أزواج النبي ﷺ، ومن أسلم من أهل الكتاب، ورجل كانت عنده أمة فأعجبته فأعتقها ثمَّ تزوجها، وعبد مملوك أدى حق الله وحق ساداته)).

إلا أنَّ الحديث غير ثابت عن النبي ﷺ لضعف إسناده[٢]، والآية كافيةٌ في الدلالة على هذه الفضيلة وإثباتها.

وقد قال السيوطي في آخر رسالته المتقدمة[٣] نظماً:

وجمـعٌ أتـى فـيما رُوِينا أنَّهـم　　يثـنَّى لهـم أجـرٌ حـووه محققـا

فـأزواجُ خـير الخلـق أولهـم ومـن　　عـلى زوجهـا أو القريـب تصـدقا

فهذه بعض خصائص وفضائل أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ، والمقصود الإشارة ليس إلا، والله أعلم.

---

(١) في معجمه الكبير (٢٥٢/٨، رقم ٧٨٥٦).

(٢) ففي إسناده علي بن يزيد الألهاني "ضعيف" كما في التقريب لابن حجر (ص:٧٠٧). وقد أورد الهيثمي الحديث في مجمع الزوائد (٢٦٠/٤) وقال: "رواه الطبراني، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف وقد وثق". وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٥٥/١).

(٣) مطلع البدرين (ص: ٥٨).

المسألة الثالثة عشرة: في واجبنا نحو أزواجه ﷺ

يمكن أن نلخص الواجب علينا نحو أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين في النقاط التالية:

١ ـ تولي أزواج رسول الله ﷺ وحبهنَّ، ومعرفة فضلهنَّ وقدرهنَّ ومنزلتهنَّ العظيمة التي شرفهنَّ الله بها.

٢ ـ احترامهنَّ وتوقيرهنَّ واعتقاد أنَّهنَّ أمهات للمؤمنين، وأنَّهنَّ أزواج للرسول ﷺ في الآخرة. قال أبو عثمان الصابوني في رسالته في اعتقاد أهل السنة وأصحاب الحديث والأئمة[(١)]: «وكذلك يرون تعظيم قدر أزواجه رضي الله عنهنَّ والدعاء لهنَّ ومعرفة فضلهنَّ والإقرار بأنَّهنَّ أمهات المؤمنين».

٣ ـ سلامة الصدر تجاههنَّ من الغل أو الغش، وملؤه بالحب والنصح.

٤ ـ إحسان القول فيهنَّ، وسلامة اللسان تجاههنَّ، يقول الطحاوي رحمه الله: «ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذريته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق». قال الشارح: «وإنَّما قال: "برئ من النفاق" لأنَّ أصل الرفض إنَّما أحدثه منافق زنديق قصده إبطال دين الإسلام والقدح في الرسول ﷺ كما ذكر ذلك العلماء»[(٢)].

٥ ـ البراءة من طريقة الروافض ومن نحا نحوهم تجاه أزواج النبي عليه الصلاة والسلام من تكفير أو سب أو وقيعة أو سخرية أو تنقص أو نحو ذلك.

٦ـ الذبّ عنهنَّ، والرد على من يريد التنقص من قدرهنَّ أو يحط من شأنهنَّ أو يقلل من مكانتهنَّ.

---

(١) (ص: ١٠٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٧٣٧، ٧٣٨).

٧ـ دراسة سيرتهنَّ، ومعرفة أخبارهنَّ وآدابهنَّ وعبادتهنَّ، فإنَّهنَّ أعظم النساء تعلماً في مدرسة النبوة، بل إنَّ هناك أموراً عديدة من هديه ﷺ لا يمكن العلم بها إلا من طريقهنَّ رضي الله عنهنَّ أجمعين.

المسألة الرابعة عشرة: في الحكمة من تعدد أزواجه ﷺ

تقدم معنا أنَّ عدد أزواج النبي ﷺ إحدى عشرة امرأة، وقد جمع في عصمته بين تسع نسوة، والجمع لهذا العدد هو من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، وأمَّا من سواه من الأمة فلا يجوز لأحد منهم أن يجمع بين أكثر من أربع، لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[1]، ولما روى ابن ماجه وأحمد والحاكم وغيرهم أنَّ النبي ﷺ قال لغيلان بن أمية الثقفي وقد أسلم وتحته عشر نسوة: ((اختر منهنَّ أربعاً وفارق سائرهنَّ))[2].

وروى أبو داود عن الحارث بن قيس قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: ((اختر منهنَّ أربعاً))[3].

ولا يجوز لِمسلمٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقف ههنا على غير قدم التسليم، بل يجب أن يعتقد أنَّ قضاء الله الذي أبرمه لخلقه لا يخرج عن حِكم أرادها تبارك وتعالى.

ولا ريب أنَّ في إباحته تبارك وتعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ في أن يجمع بين هذا العدد من النسوة حكماً عظيمة وغايات جليلة لم يؤمر العباد بتكلف بحثها وتطلبها، لا سيما وإن كان هذا البحث ناشئاً عن اعتراض على قدر الله وتشكيك في أحكامه، فهذا النوع من البحث إنما يقع من الزنادقة والملاحدة ومن في دينهم رقة، وأمَّا

---

(١) النساء، آية ٤.

(٢) ابن ماجه (١/٦٢٨)، المسند (٢/٤٤)، المستدرك (٢/١٩٢)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٦/٢٩١).

(٣) سنن أبي داود (٢/٢٧٢)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٦/٢٩٥).

المؤمنون بالله ورسوله فلا يقع عندهم شيء من هذا، ولا يغشى قلوبهم المطمئنة قليل منه ولا كثير، بل إن وقفوا على شيء من الحكم في هذا أخذوا بها، وإن لم يقفوا على شيء منها كفوا عن التكلف والتخرص والبهتان، ووقفوا عند قدم التسليم والتصديق والإيمان.

هذا وقد ترتب على زواجه ﷺ بهذا العدد من النسوة مصالح عديدة وفوائد عظيمة؛ «فقد ترتب على زواجه بعائشة حفظ الألوف من الأحاديث لدخولها في عصمة الرسول ﷺ حال صغرها وحداثة نشأتها، وترتب على زواجه بجويرية عتق قومها بني المصطلق، وترتب على جمعه لتسع نسوة في عصمته ﷺ إحاطتهن بكل شؤونه داخل البيت، فما خفي على واحدة فعلمه عند أخرى، ومن ثمَّ تحققت المصلحة الكبرى للأمة بنقل أمهات المؤمنين لجانب عظيم من التشريع لا يطلع عليه سواهنَّ»[1].

وغير ذلك من المصالح العظيمة لكن ليس لنا سبيل إلى الجزم بأنَّها هي عين السبب الذي لأجله تمَّ زواجه ﷺ بهنَّ، والله أعلم.

---

(١) أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ دراسة حديثية. للدكتور عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم العبد اللطيف (٢/٦٦٥).

المسألة الخامسة عشرة: في التحذير من المواقف المنحرفة تجاه أزواجه ﷺ

بعد أن عرفنا شيئاً يسيراً من فضل أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، ومكانتهن، وما لهنَّ من درجة عالية، ومكانة سامقة، ومنزلة رفيعة، فيحسن الإشارة في مختتم هذه المسائل إلى بعض المواقف الشاذة والمذاهب المنحرفة تجاه أزواج النبي ﷺ الطاهرات المطهَّرات، الطيبات المكرَّمات.

وتتمثل هذه المواقف تجاههنَّ رضي الله عنهنَّ في الطائفة المخذولة والفرقة المرذولة، الرافضة الأشرار، والمسلم لا ينقضي عجبه عند ما يقرأ في كتب هؤلاء ويرى ما يوجهونه لهنَّ رضي الله عنهنَّ، بل ولسائر الصحابة من تكفير وسب وغير ذلك، وهو ناشئ ولا ريب عن حقد دفين، وغلٍّ مكين في قلوب هؤلاء المرضة ونفوسهم الفاسدة.

وفيما يلي ذكرٌ لبعض هذه المواقف مع مراعاة الاختصار، وإلا فكتبهم ملأى بمثل ذلك، وكل قول أورده أذكره موثقاً من كتبهم المعتبرة ومؤلفاتهم المعتمدة عندهم[1].

١ ـ تغيظهم وعدم رضاهم من تسميتهنَّ بأمهات المؤمنين، ولا سيما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

يقول ابن المطهر الحلي الرافضي: «وسموها أم المؤمنين، ولم يسموا غيرها بذلك الاسم»[2].

---

(١) وقد أفدت كثيراً في هذا من كتاب «أوجز الخطاب في بيان موقف الشيعة من الأصحاب نصوص من كتب الشيعة تبين موقفهم من الصحابة بإيجاز»، لأبي محمد الحسيني وفقه الله.

(٢) انظر ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية عليه في قوله هذا في منهاج السنة (٤/٣٦٨).

٢ ـ قال محمد باقر المجلسي في كتابه حق اليقين (ص: ٥١٩): ((وعقيدتنا في التبرؤ أننا نتبرأ من الأصنام الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية، ومن النساء الأربع عائشة وحفصة وهند وأم الحكم، ومن جميع أشياعهم وأتباعهم، وأنَّهم شر خلق الله على وجه الأرض، وأنَّه لا يتم الإيمان بالله ورسوله والأئمة إلا بعد التبرؤ من أعدائهم)).

٣ ـ الدعاء المسمى بدعاء صنمي قريش، وهو موجود في عدد من كتب الرافضة، وهو دعاء يدعون به صباحاً ومساءً إلى وقتنا الحاضر، ونصه: ((اللهم صل على محمد وآل محمد، والْعن صنمي قريش وجبتيهما وطاغوتيهما وأفاكيهما وابنتيهما اللذين خالفَا أمرك وأنكرَا وحيك وجحدَا أنعامك وعصيا رسولك وقلبا دينك ... إلخ)).

وينسبون هذا الدعاء كذباً وباطلاً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ويقولون إن علياً قال: ((إن الداعي به كالرامي مع النبي ﷺ في بدر وأحد وحنين بألف ألف سهم)).

ذكر ذلك محسن الكاشاني في كتابه علم اليقين (٢/ ٧٠١).

وحاشا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من ذلك، بل هو من إفك هؤلاء المبين.

٤ـ وذكر المجلسي في كتاب عين الحياة (ص: ٥٩٩) أنَّ جعفرًا الصادق [وحاشاه] كان يلعن في دبر كلِّ مكتوبة أربعة من الرجال وأربعة من النساء التيمي والعدوي وعثمان ومعاوية يسميهم وعائشة وحفصة وهند وأم الحكم أخت معاوية.

٥ ـ ويزعمون كما في الصراط المستقيم للبياضي (٣/ ١٦٨) أنَّ عائشة وحفصة وأبا بكر تآمروا على أن يَسُمُّوا رسول الله ﷺ.

٦ ـ ويقول المجلسي في كتابه حياة القلوب (٢/٧٠٠): «إنَّ عائشة وحفصة لعنة الله عليهما وعلى أبويهما قتلتا رسول الله ﷺ بالسم دبرتاه».

٧ ـ وذكر العياشي في تفسيره (٢/٢٦٩): أنَّ التي ﴿ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ هي عائشة نكثت إيمانها.

أي أنَّها ارتدَّت.

٨ ـ ويعتقد هؤلاء أنَّ عائشة من أهل النار ولم يثبت لها إيمان كما في تفسير سورة الحجر للعياشي (٢/٢٤٣).

٩ ـ ويذكر القمي في تفسيره (ص: ٣٤١) أنَّ قائمهم المهدي إذا قام سيقيم عليها [أي عائشة] حد القذف.

١٠ـ ويقول محمد صادق الصدر وهو من الروافض المعاصرين: «والحق أن من يقرأ صفحة حياة عائشة جيداً يعلم أنَّها كانت مؤذية للنبي ﷺ بأفعالها وأقوالها وسائر حركاتها».

١١ ـ وقد أفرد النباطي في كتابه الصراط المستقيم لمستحقي التقديم (٣/١٦١) فصلين خاصين في الطعن في عائشة وحفصة رضي الله عنهما سمى الأول (فصل في أم الشرور) يعني أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أورد تحته أقذع السباب وألوان الطعن فيها رضي الله عنها، ولقَّبها بالشيطانة، والفصل الآخر (في أختها حفصة).

١٢ ـ ويذكرون في تفاسيرهم أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾[1] أي: عائشة.

ويذكر عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية أن من حماقتهم أنهم يأتون في يوم من

---

(١) البقرة، آية ٦٧.

السنة بشاة حمراء لكون عائشة رضي الله عنها تسمَّى الحميراء يجعلونها عائشة ويعذّبونها بنتف شعرها وغير ذلك، ويرون أنَّ ذلك عقوبة لعائشة[١].

فهذه الأقوال جميعها في الحقيقة تصك الأسماع وتؤذي القلوب، لكن لا بد من إيرادها لتعرف حقيقة القوم، وما ينطوون عليه من خبث ومكر تجاه أزواج النبي ﷺ بل تجاه أصحاب النبي ﷺ عامة، وكتبهم مليئة بمثل هذا السبّ والقدح والتكفير لخيار الصحابة وأفاضل الأمة وصفوة القرون.

وما ذُكِر هنا إنَّما هو غيض من فيض، وقليل من كثير مما يقوله هؤلاء تجاه أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، وليس هذا بغريب من هؤلاء فإن دأبهم الكذب والافتراء على خيار المتقين، وديدنهم التكفير واللعن والوقيعة في صفوة المؤمنين.

والنقول السابقة اشتملت على طوام عظيمة وموبقات كبيرة وكفريات مردية لهؤلاء، كاعتقادهم التبرؤ من خيار الصحابة، ولعنهم لهم، واعتقادهم أنَّهم شرار الخلق، واعتقادهم في أبي بكر وعمر أنَّهما خالفا أمر الله وأنكرا وحيه وجحدا أنعمه وعصيا رسوله وقلبا دينه ... ووصفهم لأبي بكر وعمر وعائشة وحفصة بأنَّهم تآمروا على أن يَسُمُّوا رسول الله ﷺ، وأنَّهم دبروا أمر قتله، ووصفهم لعائشة بأنَّها ارتدت عن الدين، ورميهم لها بالإفك الذي برأها الله منه، ووصفها بأمِّ الشرور وأنَّها شيطانةٌ وغير ذلك.

نعوذ بالله من سبيل المجرمين، وطريق المغضوب عليهم والضالين، ونسأله أن يحشرنا في زمرة المؤمنين المتقين.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[٢].

---

(١) منهاج السنة (١/٤٩).

(٢) آل عمران، آية ٨.

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

وختاماً فهذا ما تيسر جمعه من مسائلَ تتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا الجهد لوجهه الكريم خالصاً، وأن يتقبله بقبولٍ حسنٍ، وأن ينفع به عباده المؤمنين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى أزواجه وذريته وجميع أصحابه.

---

(١) الحشر، آية ١٠.





الرسالة التاسعة

تأملات في مماثلة المؤمن للنخلة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غرس شجرةَ الإيمانِ في قلوب من اختارهم لعبوديته، واختصَّهم بوافرِ فضلِه وجزيل نعمته، وفضّلهم بمنِّه ورحمتِه على سائر خليقتِه، فهي ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد بن عبد الله ورسوله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أرسله رحمةً للعالَمين، وقُدوةً للعامِلين، ومَحَجَّةً للسالكين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فلا يخفى على مسلمٍ ما للإيمانِ من أهميّةٍ عظيمةٍ، ومكانةٍ عاليةٍ رفيعةٍ، ودرجةٍ ساميةٍ مُنيفةٍ، فهو أعظمُ المطالبِ، وأَجَلُّ المقاصدِ، وأنبلُ الأهداف؛ إذ به ينال العبدُ سعادةَ الدنيا والآخرة، ويُدرِك أهمَّ المطالب وأجَلَّ المقاصد، ويظفرُ بالجنَّةِ ونعيمِها، وينجو من النارِ وسخَطِ الجبَّارِ، وينالُ رضى الربِّ فلا يسخط عليه أبداً، ويتلذّذُ بالنظرِ إلى وجهه الكريم في غير ضرّاءَ مضرّة ولا فتنةٍ مضلّةٍ، وثمراتُ الإيمان وفوائدُه كثيرةٌ لا تُحصى، فكم للإيمان من فوائدَ عظيمة، وثمارٍ يانِعةٍ، وخيرٍ مستمرٍّ في الدنيا والآخرة.

ولما كان الإيمان بهذه المثابة وعلى هذا القدرِ من الأهمية، كانت النصوص المبيّنة لفضله والدالّة على شريف قدره كثيرةً جداً ومتنوّعةً؛ إذ إنَّ مِن حكمة الله البالغة ونعمته السابغة على عباده أنْ جعل الأمر كلّما كانت الحاجة إليه أعظم والضرورة إليه ألزم كانت براهينُه وطرقُ تحصيله وسُبُلُ نيلِه أوفر وأكثر، وحاجة العباد إلى الإيمان هي أعظم الحاجات، وهي أعظم من حاجتهم إلى طعامهم وشرابهم وسائر شؤونهم؛ ولذا كانت دلائلُ الإيمانِ أقوى الدلائل، وبراهينُه أصحَّ البراهين، وسبلُ نيله وتحصيله أيسرَ السبل مسلكاً وأقربَها مأخذاً وأسهلَها مُتناولا؛ ولذا أيضا تنوّعت وتعدّدت براهينُ الإيمان ودلائله الموضحة له إجمالاً وتفصيلاً.

وإنَّ مِن أعظم دلائل الإيمان التي اشتمل عليها القرآن ضربَ الأمثال التي بها تتّضح حقيقتُه، وتستبينُ تفاصيلُه وشعبُه، وتظهرُ ثمرتُه وفوائدُه.

والمَثَلُ هو عبارة عن قولٍ في شيء يُشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة لتبيين أحدهما من الآخر وتصويره، ولا ريب «أنَّ ضربَ الأمثالِ مما يأنسُ به العقلُ، لتقريبها المعقول من المشهود، وقد قال تعالى - وكلامه المشتمل على أعظم الحِجَج وقواطع البراهين -: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[(١)]، وقد اشتمل منها [أي القرآن] على بضعة وأربعين مثلاً، وكان بعضُ السلف إذا قرأ مثلاً لم يفهمه يشتدُّ بكاؤه ويقول: لست من العالِمين»[(٢)].

وكان قتادة يقول: «اعقِلوا عن الله الأمثال»[(٣)].

ومن هنا رأيتُ أن أقدِّم هذه الدراسة لأحدِ أمثال القرآن والسنة المشتملة على بيان الإيمان وتقريبه، وإيضاح أصلِه وفرعه وشُعبه وثمراته، ومن الله وحده العونُ والتوفيقُ.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[(٤)]، فهذا مَثَلٌ بديعٌ عظيمُ الفائدةِ، مُطابقٌ لما ضُرِب له تمام المطابقة، وقد بدأه الله بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي: ألم ترَ بعين قلبك فتعلمَ كيف مثّل الله مثلاً وشبّهه شبهاً للكلمة الطيّبة كلمة الإيمان، وختَمَه بقوله:

(١) سورة: العنكبوت، الآية: (٤٣).
(٢) الكافية الشافية لابن القيم (ص: ٩).
(٣) رواه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٢٦).
(٤) سورة: إبراهيم، الآيات (٢٤، ٢٥).

﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: أن القصد من ضرب هذا المثل وغيرِه من الأمثال هو تذكيرُ الناس ودعوتُهم إلى الاعتبار وعقلِ الخطاب عن الله.

ولا شك أنَّ هذا البدء والختم في الآية فيه أعظم حَضٍّ على تعلُّمِ هذا المثل وتَعَقُّلِه، وفيه دلالة على عِظم شأن هذا المثل المضروب، كيف لا وهو يتناول بيان الإيمان الذي هو أعظم المطالب وأشرف المقاصدِ على الإطلاق.

وعندما نتأمّل هذا المثل العظيم نجِدُ أنَّ الله تبارك وتعالى ذَكَر فيه مُمثَّلاً له، ومُمثَّلاً به، ووجهَ المثلية بينهما، فالممثَّلُ له هو الكلمة الطيّبة، والممثَّلُ به الشجرة الطيّبة، ووجه المثلية هو كما قال الله: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾، فشبَّهَ تبارك وتعالى كلمةَ الإيمان الثابتة في قلب المؤمن وما يترتّب عليها من فروع وشُعب وثمار بالشجرة الطيّبة الثابتة الأصل الباسقةِ الفرع في السماء علوّاً، التي لا تزالُ تؤتي ثمراتها كلَّ حين، ومن يتأمّل في المُمثّلِ به وهو الشجرة الطيّبة، والممثّل له وهو كلمة الإيمان في قلب المؤمن وما يترتّب عليها من ثمارٍ يجدُ أوصافاً عديدةً متطابقة بينهما، وقد أُشيرَ إلى بعضها في الآية كما تقدّم.

ولذا يقول ابن القيّم رحمه الله: «وإذا تأمَّلتَ هذا التشبيه رأيتَه مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعُها من الأعمال الصالحة صاعدةً إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تُثمر الأعمال الصالحة كلَّ وقتٍ، بحسب ثباتها في القلب، ومحبَّة القلب لها، وإخلاصِه فيها، ومعرفتِه بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتِها حقَّ رعايتها، فمَن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتَّصف قلبُه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسنَ صبغة منها، فعرَفَ حقيقةَ الإلهية التي يُثْبِتها قلبُه لله ويشهدُ بها لسانُه وتصدِّقُها جوارحه، ونفى

تلك الحقيقة ولوازمَها عن كلِّ ما سوى الله، وواطأ قلبُه لسانَه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحُه لمن شهد له بالوحدانية طائعةً سالكةً سُبلَ ربِّه ذُللاً غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلبُ سوى معبودِه الحق بدلا؛ فلا ريب أنَّ هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرَتَها من العمل الصالح الصاعدِ إلى الله كلَّ وقت، فهذه الكلمة الطيّبةُ هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الربِّ تعالى، وهذه الكلمةُ الطيّبةُ تُثمرُ كلماً كثيراً طيّباً يقارنُه عملٌ صالحٌ فيرفع العملُ الصالح الكلمَ الطيّب، كما قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾، فأخبر سبحانه أنَّ العملَ الصالحَ يرفعُ الكلِمَ الطيِّب، وأخبر أنَّ الكلمةَ الطيّبة تُثمر لقائلها عملاً صالحاً كلَّ وقت.

والمقصود أنَّ كلمةَ التوحيد إذا شهد بها المؤمنُ عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً وإثباتاً، متَّصفاً بموجبها قائماً قلبُه ولسانُه وجوارحُه بشهادته؛ فهذه الكلمةُ الطيّبةُ هي التي رفعتْ هذا العملَ من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متَّصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كلَّ وقت))[1].

وقد صحّ في الحديث عن النبي ﷺ أنَّ الشجرةَ الطيّبة هي النخلة، وذلك فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما، وهو مخرّج في الصحيحين من طرق كثيرة عنه ﷺ.

فقد روى البخاري ومسلم عن إسماعيل بن جعفر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقطُ ورقُها، وإنَّها مثلُ المسلم، فحدِّثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي[2]. قال

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧٢، ١٧٣).

(٢) أي: ((ذهبت أفكارهم في أشجار البادية، فجعل كلٌّ منهم يفسِّرها بنوع من الأنواع، وذهلوا عن النخلة)). فتح الباري لابن حجر (١/ ١٤٦).

عبد الله : ووقع في نفسي أنَّها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ فقال : هي النخلة)).

قال : فذكرتُ ذلك لعمر. قال : لأَنْ تكون قلتَ : هي النخلة ، أحبّ إليّ من كذا وكذا[١]. وهذا لفظ مسلم.

ورواه البخاري من طريق سليمان ، عن عبد الله بن دينار به[٢].

ومن طريق مالك ، عن عبد الله بن دينار به[٣].

وروى البخاري ومسلم عن ابن أبي نُجيح ، عن مجاهد قال : صحِبتُ ابنَ عمر إلى المدينة فلم أَسمعهُ يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً قال : كنا عند النبي ﷺ ، فأُتي بجُمّار ، فقال : ((إنَّ من الشجر شجرةً مثلها كمثل المسلم)). فأردتُ أن أقول هي النخلة ، فإذا أنا أصغر القوم فسكتُّ. قال النبي ﷺ : ((هي النخلة))[٤].

ورواه البخاري من طريق أبي بشر ، عن مجاهد ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ((كنت عند النبي ﷺ وهو يأكل جُمَّاراً ، فقال : ((من الشجر شجرةٌ كالرجل المؤمن)). فأردتُ أن أقول هي النخلة ، فإذا أنا أحدثهم. قال : ((هي النخلة))[٥].

ورواه البخاري من طريق الأعمش قال : حدّثني مجاهد ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : ((بينا نحن عند النبي ﷺ جلوسٌ ، إذ أُتي بجُمّار نخلة ، فقال النبي ﷺ : إنَّ من الشجر لما بركته كبركة المسلم)). فظننت أنَّه يعني النخلة ، فأردت أن

---

(١) البخاري (١/٣٨) ، ومسلم (٤/٢١٦٤).

(٢) البخاري (١/٣٨).

(٣) البخاري (١/٦٣).

(٤) البخاري (١/٤٣) ، ومسلم (٤/٢١٦٥).

(٥) البخاري (٢/١١٥).

أقول هي النخلة يا رسول الله، ثم التفتُّ فإذا أنا عاشر عشرة، أنا أحدثهم، فسكتُّ، فقال النبي ﷺ: ((هي النخلة))[١].

ورواه البخاري من طريق زُبيد، عن مجاهد به مختصراً[٢].

ورواه مسلم من طريق أبي خليل الضُّبَعيِّ، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: ((أخبروني عن شجرة، مثلُها مثلُ المؤمن))، فجعل القوم يذكرون شجراً من البوادي. قال ابن عمر: وأُلقي في نفسي أو روعي أنها النخلة. فجعلتُ أريد أن أقولها، فإذا أسنانُ القوم، فأهابُ أن أتكلّم، فلما سكتوا، قال رسول الله ﷺ: ((هي النخلة))[٣].

ورواه مسلم أيضاً من طريق سيف، عن مجاهد به[٤].

وروى البخاري ومسلم عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أخبروني بشجرة تُشبه أو كالرجل المسلم لا يتحاتُّ ورقُها ولا ولا ولا[٥]، تؤتي أكلها كلَّ حين. قال ابن عمر: فوقع

---

(١) البخاري (٣/٤٤٤).

(٢) البخاري (٣/٤٤٥).

(٣) مسلم (٤/٢١٦٥).

(٤) مسلم (٤/٢١٦٦).

(٥) تكرّر النفي ثلاث مرات هكذا على طريق الاكتفاء في لفظ البخاري، ووقع ذكر النفي مرة واحدة في رواية مسلم، فاستشكل ذلك بعض الرواة، وظنَّ ((لا)) زائدة.
قال إبراهيم بن سفيان ـ أحد رواة صحيح مسلم ـ: ((لعلّ مسلماً قال: ((وتؤتي أكلها)). وكذا وجدت عند غيري أيضاً، ولا تؤتي أكلها كلّ حين)). صحيح مسلم (٤/٢١٦٦).
ظنّ أنَّ لفظة ((لا)) في الحديث متعلّقةٌ بقوله: ((تؤتي أكلها))، فاستشكل هذا، فقال: ((لعل مسلماً رواه ((وتؤتي أكلها)) أي بإسقاط ((لا)).
=

في نفسي أنَّها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلّمان، فكرهتُ أن أتكلّم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: هي النخلة. فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد وقع في نفسي أنَّها النخلة. فقال: ما منعك أن تكلَّم؟ قال: لم أركُم تكلَّمون فكرهتُ أن أتكلم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأَنْ تكون قلتَها أحبُّ إليّ من كذا وكذا))[1].

وروى البخاري من طريق محارب بن دِثار: سمعت ابنَ عمر يقول: قال النبي ﷺ: ((مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء، لا يسقط ورقها ولا يتحاتُّ. فقال القوم: هي شجرة كذا، هي شجرة كذا، فأردتُ أن أقول هي النخلة ـ وأنا غلام شاب ـ فاستحييت، فقال: هي النخلة))[2].

ورواه البخاري تعليقاً من طريق حفص بن عاصم، عن ابن عمر مثله[3].

فهذا مجموع ما في الصحيحين من طرق لهذا الحديث العظيم، وللحديث طرقٌ أخرى خارج الصحيحين في السنن والمسانيد والمعاجم، سيأتي الإشارة إلى شيء منها.

= قال القاضي وغيرُه من الأئمة: ((وليس هو بغلط كما توهّمه إبراهيم، بل الذي في مسلم صحيحٌ، بإثبات ((لا))، وكذا رواه البخاري بإثبات ((لا))، ووجهه أنَّ لفظة ((لا)) ليست متعلّقة بـ ((تؤتي))، بل متعلقّة بمحذوف تقديره: لا يتحات ورقها، ولا مكرّر، أي لا يصيبها كذا ولا كذا)). شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/١٥٦).

قال الحافظ ابن حجر: ((وقد وقع عند الإسماعيلي بتقديم: ((تؤتي أكلها كل حين)) على قوله: ((لا يتحاتُّ ورقها)) فسلِم من الإشكال)). فتح الباري (١/١٤٦).

(١) البخاري (٣/٢٤٦)، ومسلم (٤/٢١٦٦).

(٢) صحيح البخاري (٤/١١٣).

(٣) صحيح البخاري (٤/١١٣).

ثم إنَّ البخاري ـ رحمه الله ـ وقد روى الحديث في مواطن عديدة من صحيحه فقد روى الحديث في كتاب التفسير من صحيحه، في باب: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾، وهو بذلك يشير إلى أنَّ المراد بالشجرة المذكورة في الآية هي النخلة، فيكون الحديث بذلك مفسِّراً للآية.

وقد ورد هذا صريحاً فيما رواه البزار من طريق موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر قال: ((قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴾، فقال: أتدرون ما هي؟ قال ابن عمر: لم يَخْفَ عليَّ أنَّها النخلة، فمنعني أن أتكلّم مكان سِنِّي، فقال رسول الله ﷺ: هي النخلة))[1].

قال ابن حجر: ((ويُجمع بين هذا وبين ما تقدّم أنَّه ﷺ أُتي بالجُمّار فشرع في أكله تالياً للآية قائلاً: إنَّ مِنَ الشجر شجرةً ... إلى آخره، ووقع عند ابن حبان من رواية عبد العزيز بن مسلم، عن عبد الله ابن دينار، عن ابن عمر: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((مَنْ يخبرني عن شجرة مثلها مثل المؤمن، أصلها ثابت وفرعها في السماء؟...)) فذكر الحديث، وهو يؤيّد رواية البزار))[2].

ويؤيّد هذا أيضاً الروايات الكثيرة الواردة عن السلف الصحابة وغيرهم في تفسير الشجرة الطيّبة في الآية بأنَّها النخلة.

فقد روى الترمذي وغيره عن شعيب بن الحبحاب قال: كنّا عند أنس فأتينا بطبق عليه رطب، فقال أنس ﷺ لأبي العالية: ((كُلْ يا أبا العالية، فإنَّ هذا من الشجرة التي ذكَر الله في كتابه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثَابِتٌ أَصْلُهَا﴾ قال: هكذا قرأها يومئذ أنس)).

---

(١) أورده الحافظ في الفتح (١/١٤٦).

(٢) فتح الباري (١/١٤٦، ١٤٧).

ورواه الترمذي من وجه آخر مرفوعاً، وقال: ((هذا الموقوف أصح))[١].

وقد جاء هذا المعنى عن غير واحد من السلف، منهم: ابن عباس، ومجاهد، ومسروق، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد[٢].

وقد أفصح رسول الله ﷺ عن المعنى المتقدّم، وهو تشبيه المؤمن بالنخلة في أوجز عبارة، وذلك فيما رواه الطبراني في المعجم الكبير والبزار من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((مثل المؤمن مثل النخلة ما أخذت منها مِنْ شيء نفعك))[٣].

والنخلة إنما حازت هذه الفضيلة العظيمة بأنْ جُعلت مثلاً لعبد الله المؤمن؛ لأنّها أفضلُ الشجر وأحسنُه، وأكثرُه عائدة.

وقد أفرد أبو حاتم السجستاني ـ رحمه الله ـ كتاباً خاصاً بالنخل، بيّن فيه فضله وخصائصه وأسماءَه، وذكر أبحاثاً عديدةً مفيدةً متعلّقةً به، قال في أوله:

---

(١) سنن الترمذي (رقم: ٣١١٩)، ورواه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والرامهرمزي في الأمثال كما في الدرّ المنثور للسيوطي (٥/٢٢).

(٢) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري (٨/٢٠٤ ـ ٢٠٦)، والدر المنثور للسيوطي (٥/٢٢، ٢٣).

ومن السلف من ذهب إلى أنَّ المراد بالشجرة الطيبة هي المؤمن نفسه، وممن روي عنه ذلك ابن عباس، وعطية العوفي، والربيع ابن أنس، روى ذلك عنهم ابن جرير في تفسيره (٨/٢٠٤).

قال ابن القيّم رحمه الله: ((ولا اختلاف بين القولين، والمقصود بالمثل المؤمن، والنخلة مشبّهةٌ به وهو مشبّه بها، وإذا كانت النخلة شجرةً طيّبةً، فالمؤمن المشبّه بها أولى أن يكون كذلك)). إعلام الموقعين (١/١٧٣).

ومنهم من ذهب إلى أن المراد بالشجرة الطيّبة شجرة في الجَنَّة، روى ذلك ابن جرير (٨/٢٠٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ثم قال: ((أولى القولين بالصواب في ذلك قول من قال هي النخلة لصحَّة الخبر عن رسول الله ﷺ ...)).

قال ابن القيّم رحمه الله: ((ومن قال من السلف إنها شجرة في الجنة فالنخلة من أشرف أشجار الجنّة)). إعلام الموقعين (١/١٧٣).

(٣) المعجم الكبير للطبراني (١٢/رقم: ١٣٥١٤).

قال الحافظ في الفتح (١/١٤٧): ((وإسناده صحيح)).

((النخلة سيّدة الشجر، مخلوقة من طين آدم صلوات الله عليه، وقد ضربها الله جلّ وعزّ مثلاً لقول ((لا إله إلاّ الله)) فقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي قول: ((لا إله إلا الله))، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة.

فكما أنَّ قول ((لا إله إلا الله)) سيّد الكلام، كذلك النخلة سيّدة الشجر))[(١)].

ثم أخذ يفصّل القول في الكلام على هذه الشجرة الكريمة الفاضلة، واستشهد لقوله إنَّها مخلوقة من طين آدم عليه السلام بما ساقه بسنده من طريق مسرور بن مسعود التميمي قال: حدّثني الأوزاعي، عن عروة بن رُويم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: ((أكرِموا عمَّتكم النخلة، فإنها خُلقت مِنَ الطين الذي خُلق منه آدم، وليس شيء يُلقح غيرها، وأطعِموا نساءكم الوُلَّد الرُّطَب فالتمر، وليس شيء من الشجر أكرم على الله جلّ وعزّ من شجرة نزلت تحتها مريم ابنة عمران)).

إلاّ أنَّ إسناد هذا الحديث واهٍ، فلا يصلح للاحتجاج، تفرّد به مسرور بن مسعود وهو متّهم.

قال ابن الجوزي: ((لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال ابن عدي: مسرور غير معروف وهو منكر الحديث، وقال ابن حبان: يروي عن الأوزاعي المناكير التي لا يجوز الاحتجاج بما يرويها))[(٢)]. وقال الذهبي: ((غمزه ابن حبان، فقال: يروي عن الأوزاعي المناكير الكثيرة))[(٣)].

وعلى كلٍّ، فلا ريب في فضل النخلةِ وشرفِها وتميّزها، ويكفيها فضيلةً أنّها خُصّت من بين سائر الشجر بأن جُعلت مثلاً للمؤمن، وفي النصوص المتقدّمة ما يدلّ

---

(١) كتاب النخل (ص: ٣٣).

(٢) الموضوعات (١/١٢٩).

(٣) الميزان (٥/٢٢٢)، وانظر: السلسلة الضعيفة للعلاّمة الألباني رحمه الله (١/٢٨٣، ٢٨٤).

على أنواع من الفضائل والميزات للنخلة؛ كثبات الأصل وارتفاع الفرع، وإيتائها أكلها كلّ حين، ووصفها بالبركة، وأنّها لا يؤخذ منها شيء إلا نفع، ونحو ذلك مما يدل على فضل النخلة وتميّزها.

ثمّ ها هنا أمرٌ مهمّ، وهو أنَّ النبي ﷺ عندما شَبَّه المؤمن بالنخلة، لا شك أنَّ ثمّ أوجهاً عديدةً في الشبه بين المؤمن المطيع لله الذي قامت في قلبه كلمةُ الإيمان وانغرست في صدره وأخذت تُثمر الثمارَ اليانعة والخيرَ المتنوّع وبين النخلة.

ولا ريب أنَّ الوقوفَ على أوجه الشبَّه بينهما والحرص على معرفة ذلك والفقه فيه أمرٌ جديرٌ بالاهتمام والعناية؛ لعظم فائدته وكثرة منافعه، والله تعالى قد أرشد في كتابه إلى فهم هذا عندما مثّل المؤمن بها وذكر بعض أوجهِ الشبَّه بينهما حيث قال: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ فهذه أربعة وجوه في الشبه بينهما، ومن يتأمّل في الممثَّل والممثَّل به يجد بينهما من أوجه الشبّه الشيء الكثير، ومن يطالع كلامَ أهل العلم في هذا الباب يقف من ذلك على لطائفَ جمّة وفوائد مهمّة. ولعلّي فيما يلي أستعرض جملةً من أوجه الشبه بينهما من خلال ما وقفت عليه من كلام أهل العلم في ذلك في كتب التفسير وشروحات الحديث وغيرها.

فمن هذه الأوجه[1]:

أولاً: أنَّ النخلة لا بدّ لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، وكذلك شجرة الإيمان لا بدّ لها من أصل وفرع وثمر، فأصلها الإيمان بالأصول الستة المعروفة،

---

(١) وانظر في ذلك: مفتاح دار السعادة (١/١١٦ ـ ١٢٢)، وإعلام الموقعين (١/١٧١ ـ ١٧٥)، تفسير البغوي (٣/٣٣)، فتح الباري لابن حجر (١/١٤٥، ١٤٦)، زاد المسير لابن الجوزي (٤/٣٥٩، ٣٦٠)، تفسير القاسمي (١٠/٣٧٢٧).

وفرعُها الأعمال الصالحة، والطاعات المتنوّعة، والقربات العديدة، وثمراتُها كلُّ خير يحصِّله المؤمن، وكلُّ سعادة يجنيها في الدنيا والآخرة.

روى عبد الله في السنة عن ابن طاووس، عن أبيه قال: ((مثل الإيمان كشجرة؛ فأصلها الشهادة، وساقها وورقها كذا، وثمرُها الورع، ولا خير في شجرة لا ثمر لها، ولا خير في إنسان لا ورع فيه))[1].

قال البغوي رحمه الله: ((والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة هي أنَّ الشجرةَ لا تكون شجرةً إلاَّ بثلاثة أشياء؛ عِرق راسخ، وأصلٌ قائم، وفرع عالٍ، وكذلك الإيمان لا يتمّ إلا بثلاثة أشياء؛ تصديقٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعمل بالأبدان))[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: ((الإخلاص والتوحيد شجرةٌ في القلب فروعُها الأعمال، وثمرها طِيبُ الحياة في الدنيا، والنعيمُ المقيمُ في الآخرة، وكما أنَّ ثمار الجَنّة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك، والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا الخوفُ والهمُّ والغمُّ وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزَّقومُ والعذاب المقيم، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم))[3].

ثانياً: أنَّ النخلة لا تبقى حيّةً إلاّ بمادة تسقيها وتنميها، فهي لا تحيا ولا تنمو إلاّ إذا سُقيت بالماء، فإذا حبس عنها الماء ذبلت، وإذا قطع عنها تماماً ماتت، فلا حياة لها بدونه، وهكذا الشأنُ في المؤمن لا يحيا الحياة الحقيقية ولا تستقيم له حياته

---

(١) السنة لعبد الله (١/٣١٦).

(٢) تفسير البغوي (٣/٣٣).

(٣) الفوائد (ص: ٢١٤، ٢١٥).

إلاّ بسقي من نوع خاص، وهو سقيُ قلبه بالوحي، كلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ ولهذا سمَّى الله الوحيَ روحاً في نحو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾[1]، وقوله: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾[2]؛ لأنَّ حياة القلوب الحقيقية إنَّما تكون به، وبدونه فإنَّ الإنسان يكون ميتاً ولو كان بين الناس من الأحياء ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴾[3]، ولذا يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾[4]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فهذا وجه شبهٍ ظاهرٍ بين المؤمن والنخلة، فالنخلة لا تحيا إلاَّ إذا سُقيت بالماء، والمؤمن لا يحيا قلبُه إلاَّ إذا سُقي بالوحي، وكما أنَّ الأرض الميتة إذا أنزل الله عليها الماء اهتزَّت وربَتْ وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، فكذلك القلب الميّت إذا سمع الوحي وقَبِلَه صَلُحَ وحسُنَ ونما فيه من الخير الشيءُ الكثير.

ولذا لَمّا حذّر الله في سورة الحديد من عدم الخشوع لذكر الله كحال الذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، قال عقِب ذلك سبحانه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[5] وفي هذا إشارة إلى أنَّ الذي يُحيى الأرض بعد موتها بالماء فهو كذلك يُحيى القلوبَ بعد

---

(١) سورة: الشورى، الآية: (٥٢).

(٢) سورة: النحل، الآية: (٢).

(٣) سورة: الأنعام، الآية: (١٢٢).

(٤) سورة: الأنفال، الآية: (٢٤).

(٥) سورة: الحديد، الآية: (١٧).

موتها بالوحي، ولكن ذلك إنّما يكون لمن عقل آيات الله.

وبهذا يتبيّن أنَّ «شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبُها بسقيها كلَّ وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكّر على التفكّر والتفكّر على التذكّر، وإلاّ أوشك أن تيبس، وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان يَخْلَقُ في القلب كما يَخلَقُ الثوبُ فجدّدوا إيمانكم»[1].

وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا تعلم شدّة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظّفها عليها وجعلها مادة لسقي غِراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم»[2].

ثالثاً: أنّ النخلةَ شديدةُ الثبوت، كما قال الله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾، وهكذا الشأنُ في الإيمان إذا رسخ في القلب فإنه يصير في أشدّ ما يكون من الثبات لا يزعزعه شيء، بل يكون ثابتاً كثبوت الجبال الرواسي.

سئل الأوزاعي رحمه الله عن الإيمان أيزيد؟ قال: «نعم حتى يكون كالجبال، قيل: أينقص؟ قال: نعم حتى لا يبقى منه شيء»[3].

وسئل الإمام أحمد رحمه الله عن زيادة الإيمان ونقصانه فقال: «يزيد حتى يبلغ

---

(١) روى الحاكم (٤/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الإيمان ليخلَق في جوف أحدكم كما يخلَق الثوب فاسألوا الله أن يجدّد إيمانكم».
وقال الحاكم: «رواته مصريون ثقات»، ووافقه الذهبي.
ورواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد (٥٢/١)، وقال الهيثمي: «إسناده حسن»، وصححه الألباني. انظر: صحيح الجامع (رقم: ١٥٩٠)، والسلسلة الصحيحة (١١٣/٤).

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (١٧٤/١).

(٣) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٩٥٩/٥).

أعلى السموات السبع ، وينقص حتى يصير إلى أسفل السافلين السبع))[١] .

رابعاً : أنَّ النخلة لا تنبت في كلِّ أرض ، بل لا تنبت إلاّ في أراضٍ معيّنةٍ طيّبة التربة ، فهي في بعض الأماكن لا تنبت مطلقاً ، وفي بعضها تنبت ولكن لا تثمر ، وفي بعضها تُثمر ولكن يكون الثمر ضعيفاً ، فليس كلُّ أرض تناسب النخلة.

قال أبو حاتم السجستاني : ((قالوا : وإنَّما يرديه ويسيء نبته طعمة الأرض ، فيجيء ضخماً كثير القشر ، سريع اليبس ثَنِتاً ، أي : عَفِناً ، جَخِراً نَخِراً ، والجخرُ : الضخم الذي ليست له قوة ولا تعجبه الأرض فيميل وينتفخ وتخوي نخلته وتردؤ ، وإذا كان في أرض جيّدة السر جاء أبيضَ رقيقاً ، وتراه كأنَّ طرفه يدري لا يُعوِّجه شيء حتى يدرك الماء بعُدَ أو قَرُب ، وإذا كان العِرْق في أرضٍ طيّبةِ الطين وقف ساعةً يشرع في الماء ؛ لأنَّه يرجع إلى طينة طيبة وطعمة تعجبه ، ولم ينحدِر إلاّ طلبَ الماء ، فلما شام الماءَ وقف ، وإذا انحدر من أرضٍ خبيثة الطين ليس لها سرٌّ انخرط حتى يتثنى في الماء عفناً ؛ لأنّه إنما ساقه طلب الماء ، فلما وجد طعمة الماء جعل انخراطاً فيه مِن بُغض ما فوقه))[٢] . فليست كلُّ أرضٍ تناسب النخلة.

وهكذا الشأنُ في الإيمان فهو لا يثبت في كلِّ قلبٍ ، وإنَّما يثبتُ في قلب من كتب الله له الهدايةَ وشرح صدرَه للإيمان ، والقلوب أوعيةٌ متفاوتةٌ ، ولهذا صحّ في الحديث عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ((مثلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب الأرضَ ، فكانت منها طائفةٌ قبلت الماءَ فأنبتت الكلأَ والعشبَ الكثيرَ ، وكانت منها أجادِب قد أمسكت الماءَ فنفع الله به النَّاسَ فشربوا منها ورعوا وسقوا ، وأصابت طائفة أخرى إنَّما هي قِيعان فلا تُمسك ماءً

---

(١) رواه ابن أبي يعلى في الطبقات (١/٢٥٩).

(٢) كتاب النخل (ص : ٦٦ ، ٦٧).

ولا تنبتُ كلأً، كذلك مثلي ومثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِمَ وعلَّم، ومثَل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به))[١].

خامساً: أنَّ النخلةَ قد يخالطها دغلٌ ونبت غريبٌ ليس من جنسها قد يؤذي النخلةَ، ويضعف نموها، ويزاحمها في سقيها؛ ولهذا تحتاج النخلة في هذه الحالة إلى رعايةٍ خاصّة وتعاهدٍ من صاحبها بحيث يُزال عنها هذا الدغل والنوابت المؤذية، فإن فعل ذلك كمُل غرسه، وإن أهمله أوشك أن يغلب على الغرس فيكون له الحكم ويضعف الأصل.

وهكذا الأمر بالنسبة للمؤمن، لا شك أنَّه يصادفُه في الحياة أمورٌ كثيرةٌ قد توهي إيمانَه وتُضعف يقينَه، وتزاحم أصلَ الإيمان الذي في قلبه؛ ولهذا يحتاج المؤمن أنْ يحاسب نفسَه في كلِّ وقت وحين، ويجاهدها في ذلك، ويجتهد في إزالة كلِّ وارد سيئٍ على القلب، ويُبعد عن نفسه كلَّ أمر يؤثِّر على الإيمان كوساوس الشيطان، أو النفس الأمّارة بالسوء، أو الدنيا بفتنها ومغرياتها أو غير ذلك، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾[٢].

سادساً: أنَّ النخلةَ كما أخبر الله ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ والأكل الثمر، فهي تؤتي ثمرها كلَّ حين ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً إمّا تمراً أو بُسراً أو رُطَباً.

وكذلك المؤمن يصعد عملُه أوّل النهار وآخره، قال الربيع بن أنس: ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾: ((أي كلّ غدوة وعشية؛ لأنَّ ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً، إمّا تمراً أو رطباً أو بُسراً، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره))[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٤٥/١)، وصحيح مسلم (١٧٨٧/٤).

(٢) سورة: العنكبوت، الآية: (٦٩).

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٣٣/٣).

وقال الضحاك: ﴿ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ ﴾: «تخرج ثمرها كلَّ حين، وهذا مثل المؤمن يعمل كلَّ حين كلَّ ساعة من النهار، وكلَّ ساعة من الليل وبالشتاء والصيف بطاعة الله»[١].

وقد أورد ابن جرير رحمه الله عن السلف عدّةَ أقوال في المراد بقوله تعالى: ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾، ثم قال: «وأولى الأقوال في ذلك عندي قول من قال: عنى بالحين في هذا الموضع: غدوة وعشية وكلَّ ساعة؛ لأنَّ الله تعالى ذِكرُه ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كلّ حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلاً، ولا شك أنَّ المؤمنَ يُرفع له إلى الله في كلِّ يوم صالح من العمل والقول، لا في كل سنة أو في كل ستة أشهر أو في كلِّ شهرين، فإذا كان ذلك كذلك فلا شك أنَّ المثل لا يكون خلافاً للممثَّل به في المعنى، وإذا كان ذلك كذلك كان بيِّناً صحة ما قلنا. فإن قال قائل: فأيُّ نخلة تؤتي في كلِّ وقت أكلاً صيفاً وشتاء؟ قيل: أما في الشتاء فإنَّ الطلع من أكلها، وأما في الصيف فالبَلَح والبُسر والرطب والتمر، وذلك كلّه من أكلها»[٢].

ثم روى عن قتادة أنه قال: ﴿ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ ﴾: «يؤكل ثمرها في الشتاء والصيف».

سابعاً: أنَّ النخلةَ فيها بركةٌ في كلِّ جزء من أجزائها، فليس فيها جزء لا يُستفاد منه، وهكذا الشأنُ بالنسبة للمؤمن، وقد جاء في صحيح البخاري في بعض ألفاظ حديث ابن عمر المتقدّم من رواية الأعمش، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «إنَّ من الشجر لَما بركته كبركة المسلم ...» الحديث.

«وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها، مستمرّة في جميع أحوالها، فمن

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٨/٢٠٨).

(٢) تفسير الطبري (٨/٢١٠).

حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعاً، ثم بعد ذلك يُنتفع بجميع أجزائها حتى النَّوى في علف الدوابّ والليف في الحبال وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم عامّة في جميع الأحوال، ونفعُه مستمر له ولغيره حتى بعد موته»[١].

ثامناً: أنَّ النخلةَ كما وصفها النبيّ ﷺ: «لا يسقط ورقُها» وبين المسلم والنخلة في هذا وجه شبه يتضح بما رواه الحارث بن أبي أسامة في هذا الحديث من وجه آخر عن ابن عمر، ولفظه: قال: «كنا عند رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: إنَ مثل المؤمن كمثل شجرة لا تسقط لها أنملة، أتدرون ما هي؟ قالوا: لا. قال: هي النخلة، لا تسقط لها أنملة، ولا تسقط لمؤمن دعوة»[٢].

قال القرطبي في تفسيره مبيِّناً أهميةَ هذه الزيادة وعِظم فائدتها: «وزاد فيه الحارث بن أسامة زيادةً تساوي رحلة عن النبي ﷺ قال: «وهي النخلة لا تسقط لها أنملة، وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة» فبيّن معنى الحديث والمماثلة»[٣].

والدعاء مأمور به كما هو معلوم، وموعود عليه بالإجابة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٤]، لكن الدعاء سببٌ مقتضٍ للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه، وقد تتخلّف الإجابة لانتفاء بعض شروطه أو وجود بعض موانعه وآدابه والتي من أعظمها حضور القلب ورجاء الإجابة، والعزم في المسألة[٥].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/١٤٥، ١٤٦).

(٢) فتح الباري (١/١٤٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/٢٣٦).

(٤) سورة: غافر، الآية: (٦٠).

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:٣٦٨).

وذكر ابن القيّم رحمه الله في معنى الحديث وجهاً آخر وهو أنَّ ذلك يدلّ على: ((دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاءً، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافيَ ربَّه تعالى))[١].

تاسعاً: أنَّ النخلة وُصفت في الآية بأنَّها طيّبة، وهذا أعمّ من طيب المنظر والصورة والشكل، ومن طيب الريح وطيب الثمر وطيب المنفعة، والمؤمن أجلّ صفاته الطيب في شؤونه كلِّها وأحواله جميعها، في ظاهره وباطنه وسرِّه وعلنه؛ ولهذا عندما يدخل المؤمنون الجَنَّةَ تتلقّاهم خزنتها وتقول لهم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝ ﴾[٤].

فالطيب أجَلُّ صفاتهم وأجمل نعوتهم وأحسن حليتهم في أحوالهم كلها، في أقوالهم وأعمالهم وفي حركاتهم وسكناتهم وشؤونهم جميعها.

عاشراً: أنَّ النخلةَ وُصفت بأنّها: ((ما أخذتَ منها من شيء نفعك)) كما في حديث ابن عمر المتقدّم، و ((النخلة كلُّها منفعة، لا يسقط منها شيء بغير منفعة، فثمرها منفعة، وجذعها فيه من المنافع ما لا يُجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١١٦).

(٢) سورة: الزمر، الآية: (٧٣).

(٣) سورة: النحل، الآية: (٣٢).

(٤) سورة الحج، الآية: (٢٣، ٢٤).

وسعفُها تُسقف به البيوت مكان القصب، ويُستر به الفُرَج والخَلَلُ، وخوصُها يُتخذ منه المكاتل والزنابيلُ وأنواعُ الآنية، والحُصُر وغيرها، وليفُها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس))[1].

وهكذا الشأن بالنسبة للمؤمن مع إخوانه وجلسائِه ورفقائه، لا يُرى فيه إلاّ الأخلاق الكريمة، والآداب الرفيعة، والمعاملة الحسنة، والنصح لجلسائه، وبذل الخير لهم، ولا يصل إليهم منه ما يضر، بل لا يصل إليهم منه إلاَّ ما ينفع كالكلمة الطّيبة والموعظة الحسنة والخلق الجميل والعون والمساعدة ونحو ذلك، فهو كالنخلة ما أخذتَ منه من شيء نفعك.

حادي عشر: أنّ النخل بينه تفاوت عظيمٌ في شكله ونوعه وثمره، فليست النخيل في مستوى واحد في الحسن والجودة، بل بينه من التفاوت والتمايز الشيء الكثير، كما قال الله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾[2]، فهو متفاوت في طعمه ومنظره ونوعه، وبعضه أفضل من بعض.

وهكذا الشأن بين المؤمنين، فالمؤمنون متفاوتون في الإيمان، وليسوا في الإيمان على درجة واحدة، بل بينهم من التفاوت والتفاضل الشيء الكثير، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾[3].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيّم (١/ ١٢٠).

(٢) سورة الرعد، الآية: (٤).

(٣) سورة فاطر، الآية: (٣٢).

ثاني عشر: أنَّ النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد، وغيرُها من الدوح العظام تميلها الريح تارة، وتقلعها تارة، وتقصف أفنانها، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة، فكذلك المؤمن صبورٌ على البلاء لا تزعزعه الرياح، وقد اجتمع فيه أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصيه، والصبر على أقداره المؤلمة، قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝ ﴾[2].

ثالث عشر: أنَّ النخلةَ كلَّما طال عمرُها ازداد خيرُها وجاد ثمرُها، وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيرُه وحسن عمله.

روى الترمذي عن عبد الله بن بُسر: أنَّ أعرابياً قال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: ((من طال عمرُه وحَسُن عملُه))[3].

وروى أيضاً عن أبي بكرة: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله أيّ الناس خير؟ قال: ((من طال عمرُه وحَسُن عملُه)). قال: فأيّ الناس شرّ؟ قال: ((من طال عمره وساء عملُه))[4].

وروى الإمام أحمد، والنسائي في عمل اليوم والليلة بإسناد حسن عن عبد الله ابن شدّاد: أنَّ نفراً من بني عُذْرَة ثلاثةً أتوا النبيَّ ﷺ فأسلموا قال: فقال النبي ﷺ:

---

(١) سورة البقرة، الآيات: (١٥٥، ١٥٦، ١٥٧).

(٢) سورة الزمر، الآية: (١٠).

(٣) سنن الترمذي (٤/٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٢٧١).

(٤) سنن الترمذي (٤/٥٦٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٢٧١).

((من يكفينيهم)) قال طلحةُ: أنا، قال: فكانوا عند طلحة فبعث النبي ﷺ بعثاً فخرج فيه أحدُهم فاستشهدَ، قال: ثم بَعَثَ بعثاً آخر، فخرج فيهم آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالثُ على فراشه، قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استُشهد أخيراً يليه، ورأيت الذي استُشهد أوَّلَهم آخرَهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، قال: فقال رسول الله ﷺ: ((ما أنكرتَ من ذلك، ليس أحدٌ أفضل عند الله من مؤمن يُعمّرُ في الإسلام يَكثُر تكبيرُه وتسبيحُه وتهليلُه وتحميدُه))[1].

رابع عشر: أنَّ قلبَ النخلة ـ وهو الجُمّار ـ من أطيب القلوب وأحلاها، وقد مرّ معنا في بعض طرق حديث ابن عمر المتقدّم: ((أنَّ النبي ﷺ أُتي بجُمَّار وشرع في أكله ثم قال: إنَّ من الشجر شجرة مثلها كمثل المسلم)).

وجُمّار النخلة حلو الطعم جميل المذاق، وهو من أطيب القلوب وأحسنها، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب وأحسنها، لا يحمل إلاّ الخير ولا يبطن سوى الاستقامة والصلاح والسلامة.

خامس عشر: أنَّ النخلة لا يتعطّل نفعها بالكليّة أبداً، بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع أخر، حتى لو تعطّلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وآراب، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط، بل إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانبٌ، فلا يزال خيرُه مأمولاً وشرُّه مأموناً، روى الترمذي عن النبي ﷺ أنّه قال: ((خيركم من يُرجى خيرُه ويؤمنُ شرُّه، وشرُّكم من لا يُرجى خيره ولا يُؤمن شرُّه))[2].

---

(١) المسند (١/١٦٣)، والسنن الكبرى للنسائي كتاب: عمل اليوم والليلة (رقم: ١٠٦٧٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (رقم: ٦٥٤).

(٢) سنن الترمذي (رقم: ٢٢٦٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٣٣٢٠).

ولذا ورد عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: ((هي النخلة لا تزال فيها منفعة))[1]، وهكذا الشأن في المؤمن ـ كما هو في النخلة ـ لا يزال فيه منفعة، بل منافع وذلك بحسب حظّه ونصيبه من الإيمان.

سادس عشر: أنَّ النخلةَ سهلٌ تناول ثمرها ومتيسّر، فهي إمَّا قصيرة فلا يحتاج المتناول أن يرقاها، وإمّا باسقة فصعودها سهلٌ بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال غيرها، فتراها كأنَّها قد هُيِّئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها، وكذلك المؤمن خيره سهلٌ قريبٌ لمن رام تناوله لا بالغرِّ ولا باللئيم.

سابع عشر: أنَّ ثمرتها من أنفع ثمار العالَم، فإنَّه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة، ويابسُه يكون قوتاً وأُدْماً وفاكهة، ويُتخذ منه الخلّ والحلوى، ويدخل في الأدوية والأشربة، وعموم النفع به أمرٌ ظاهر، وهكذا الشان في المؤمن في عموم منافعه وتنوّع خيراته ومحاسنه.

وكما أنَّ ثمر النخلة لطعمه حلاوة فكذلك الإيمان له حلاوة لا يذوقها إلاَّ صحيح الإيمان، ولهذا قال ﷺ: ((ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وَجَد بهنَّ حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلاّ لله، وأن يكرهَ أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار))[2].

قال أبو محمد بن أبي جمرة: ((إنَّما عبّر بالحلاوة لأنَّ اللهَ شبَّه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ فالكلمة هي كلمة الإخلاص، والشجرة أصلُ الإيمان، وأغصانها اتّباع الأمر واجتناب النهي، وورقُها ما يهتمُّ به المؤمنُ من الخير، وثمرها الطاعات، وحلاوة الثمر جني الثمرة، وغاية كماله تناهي نضج

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٨/٢٠٥).

(٢) رواه البخاري (١/٢٢)، ومسلم (١/٦٦).

الثمرة وبه تظهر حلاوتها))[١].

ثامن عشر: ومن طريف ما يُذكر هنا حول تطابق الصفات بين النخلة في كلِّ أجزائها مع صفات المؤمن ما ذكره ابن القيم رحمه الله حيث قال: ((وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكلِّ منفعة منها صفة في المسلم تقابلها، فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفةَ الحدَّة على أعداء الله وأهل الفجور، فيكون عليهم في الشدّة والغلظة بمنزلة الشوك، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وليناً ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٢]))[٣].

ولذا يوصف بعض أهل العلم الذين لهم بلاءٌ في الردّ على المبطلين، وبعضُ المجاهدين الذين لهم بلاءٌ في مقاتلة أعداء المسلمين بأنَّهم شوكة في حلوق الأعداء.

فهذه بعض أوجه الشبه بين المؤمن وبين النخلة، وقد ذكر بعضُ الشرّاح أوجهاً في الشبه أخرى لكنها ضعيفة وبعضها باطل، وقد لخّص ذلك الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري فقال: ((وأمّا من زعم أنَّ موقعَ التشبيه بين المسلم والنخلة من جهة كون النخلة إذا قُطع رأسها ماتت، أو لأنَّها لا تحمل حتى تلقح، أو لأنَّها تموت إذا غرقت، أو لأنَّ لطلعها رائحة مَنيِّ الآدمي، أو لأنَّها تعشق، أو لأنَّها تشرب من أعلاها فكلّها أوجه ضعيفة؛ لأنَّ جميع ذلك من المشابهات مشترك في الآدميين لا يختصّ بالمسلم، وأضعف من ذلك قول من زعم أنَّ ذلك لكونها خُلقت من فضلة طين آدم، فإنَّ الحديث في ذلك لم يثبت، والله أعلم))[٤].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ٦٠).

(٢) سورة: الفتح، الآية: (٢٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٠، ١٢١).

(٤) فتح الباري (١/ ١٤٧).

بما تقدّم يُعلم أنَّ الإيمان شجرةٌ مباركة عظيمةُ النفع غزيرةُ الفائدة كثيرةُ الثمر، لها مكان خاص تُغرس فيه، ولها سقيٌ خاص، ولها أصل وفرع وثمار.

أمَّا مكانها فهو قلب المؤمن، فيه توضع بذورها وأصولها، ومنه تتفرّع أغصانها وفروعها.

وأمّا سقيها فهو الوحي المبين، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فبه تُسقى هذه الشجرة، ولا حياة لها ولا نماء إلا به.

وأمّا أصلها فهو أصول الإيمان الستة وأعلاها الإيمان بالله تعالى، فهو أصل أصول هذه الشجرة المباركة.

وأمّا فروعها فهي الأعمال الصالحة والطاعات المتنوّعة والقربات العديدة التي يقوم بها المؤمن.

وأمّا ثمراتها فكلُّ خير وسعادة ينالها المؤمن في الدنيا والآخرة، فهو ثمرة من ثمار الإيمان ونتيجة من نتائجه.

وقد أفرد الشيخ العلاّمة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في هذا الباب رسالة لطيفة أسماها: «**التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**» أتى فيها على أهمّ معالم هذه الشجرة المباركة شجرة الإيمان بدأها رحمه الله بتفسير الإيمان وبيان حدِّه، ثمّ ثنّى بذكر أصوله ومقوّماته ومن أيّ شيء يستمدّ، ثم ثلّث بذكر فوائده وثمراته، وانطلق في ذلك رحمه الله من الآية الكريمة المتقدّمة المشتملة على تمثيل كلمة الإيمان في قلب المؤمن التي هي أفضل الكلمات بالنخلة التي هي أطيب الأشجار.

ثم إنَّ «هذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتاً عظيماً، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها، فعلى العبد الموفّق أن يسعى لمعرفتها ومعرفة أوصافها وأسبابها وأصولها وفروعها ويجتهد في التحقق بها علماً وعملاً، فإنَّ نصيبه

من الخير والفلاح والسعادة العاجلة والآجلة بحسب نصيبه من هذه الشجرة))[(١)].

وخير ما يُوضّح به أصول هذه الشجرة وفروعها حديث شعب الإيمان المعروف الذي خرّجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شُعب الإيمان))، فهذا الحديث فيه أعظم بيان لهذه الشجرة المباركة أصولها وفروعها سواء القائم منها بالقلب أو اللسان أو الجوارح، ولهذا يقول الإمام ابن منده ـ رحمه الله ـ في كتابه الإيمان بعد أن أورد حديث ابن عمر المتقدّم والمشتمل على تمثيل المؤمن بالنخلة: ((... ثم فسّر النبي ﷺ الإيمان بسنته إذ فهم عن الله مَثَلَه فأخبر أن الإيمان ذو شُعب أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، فجعل أصله الإقرار بالقلب واللسان، وجعل شعبه الأعمال))[(٢)].

وقد اجتهد جماعةٌ من شراح هذا الحديث في عدِّ هذه الشُعب وحاولوا حصرها، وصنّفوا في هذا مصنّفات عديدة مختصرة ومطوّلة، واتّبعوا في ذلك طرائق متنوّعة، إلاّ أنَّ أحسن طريقةٍ في ذلك طريقةُ ابن حبان رحمه الله، إذ هي طريقة فذّة فريدة استغرقت وقتاً طويلاً وجهداً بالغاً.

قال رحمه الله في وصف طريقته هذه: ((وقد تتبّعت معنى الخبر مدّةً، وذلك أنَّ مذهبنا أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتكلّم قطّ إلاّ بفائدة، ولا من سننه شيءٌ لا يُعلم معناه، فجعلتُ أعُدُّ الطاعات مِن الإيمان، فإذا هي تزيد على هذا العدد شيئاً كثيراً، فرجعتُ إلى السنن، فعددتُ كلَّ طاعةٍ عدَّها رسول الله ﷺ من الإيمان، فإذا هي تنقُصُ من البضع والسبعين، فرجعتُ إلى ما بين الدّفتين من كلام ربّنا، وتلوتُه آيةً

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان لابن سعدي (ص: ٦، ٧).

(٢) الإيمان (٢/٣٥٠).

آيةً بالتدبّر، وعددتُ كلَّ طاعةٍ عدَّها الله جلّ وعلا من الإيمان، فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فضممتُ الكتاب إلى السنن، وأسقطتُ المُعادَ منها، فإذا كلّ شيء عدّه الله جلَّ وعلا من الإيمان في كتابه، وكلُّ طاعة جعلها رسول الله ﷺ من الإيمان في سننه تسعٌ وسبعون شعبةً لا يزيد عليها ولا ينقُص منها شيء، فعلمتُ أنَّ مراد النبي ﷺ كان في الخبر أنَّ الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة في الكتاب والسنن، فذكرتُ هذه المسألة بكمالها بذكر شعبه في كتاب «وصف الإيمان وشعبه» بما أرجو أنَّ فيها الغُنْية للمتأمّل إذا تأمّلها، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب»[١].

وهي طريقةٌ مجهدةٌ ولا شك، ومما يؤسف حقاً أنَّ كتابه «وصف الإيمان وشعبه» الذي أودعه جهده هذا مفقودٌ لا يُعرف له وجود الآن، بل أشار الحافظ ابن حجر في الفتح إلى أنّه لم يقف عليه.

وقد قام الحافظ رحمه الله بتلخيص شعب الإيمان من خلال ما جمعه غيرُ واحد من أهل العلم فخرج بملخّص عظيم النفع لشُعب الإيمان، فقال رحمه الله: «وقد لخّصتُ ممّا أوردوه ما أذكره، وهو أنَّ هذه الشُعب تتفرّع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن.

فأعمال القلب فيه المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله، ويدخل فيه: الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده بأنّه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه. والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه: المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار. ومحبة الله، والحب والبغض فيه، ومحبة النبي ﷺ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه: الصلاة عليه، واتباع سنته.

---

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لابن بلبان (١/٣٨٧، ٣٨٨).

والإخلاص، ويدخل فيه: ترك الرياء والنفاق. والتوبة، والخوف، والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه: توقير الكبير، ورحمة الصغير. وترك الكِبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحِقد، وترك الغضب.

وأعمال اللسان، وتشتمل على سبع خصال: التلفّظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلّم العلم وتعليمه، والدعاء، والذّكر، ويدخل فيه: الاستغفار. واجتناب اللّغو.

وأعمال البدن، وتشتمل عل ثمان وثلاثين خصلة، منها ما يختصّ بالأعيان، وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حساً وحكماً، ويدخل فيه: اجتناب النجاسات. وستر العورة، والصلاة فرضاً ونفلاً، والزكاة كذلك، وفكّ الرّقاب، والجود، ويدخل فيه: إطعام الطعام، وإكرام الضيف. والصيام فرضاً ونفلاً، والحج، والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه: الهجرة من دار الشرك. والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمان، وأداء الكفّارات. ومنها ما يتعلّق بالاتباع، وهي ست خصال: التعفّف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه اجتناب العقوق. وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة أو الرفق بالعبيد. ومنها ما يتعلّق بالعامة، وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه: قتال الخوارج والبغاة. والمعاونة على البر، ويدخل فيه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه المرابطة، وأداء الأمانة، ومنه أداء الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه جمع المال من حلّه. وإنفاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف. وردّ السلام، وتشميت العاطس، وكفّ الأذى عن الناس، واجتناب اللّهو، وإماطة الأذى عن

الطريق، فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدّها تسعاً وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضمّ بعضه إلى بعض مما ذُكر، والله أعلم»[١].

لكن ينبغي أن يُعلم أنَّ حصرَ هذه الشُعب وعدّها ليس شرطاً في الإيمان، بل يكفي المسلم من ذلك أن يقرأ كتاب الله وسنةَ رسوله ﷺ ويقوم بما فيهما من أوامر، وينتهي عمّا فيهما من نواهي، ويصدِّق بما فيهما من أخبار، فمن قام بذلك فقد قام بشعب الإيمان، ونصيبُ العبد من هذه الشُعب هو بحسب نصيبه من القرآن والسنة علماً وعملاً وتطبيقاً.

ولذا يقول القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: «تكلّف جماعةٌ حصرَ هذه الشُعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان»[٢].

ثم إذا كان مثلُ المؤمن مثل النخلة ووجه الشبه بينهما ظاهرٌ في أمورٍ كثيرةٍ تقدّم الإشارة إلى شيء منها، فإنَّ المؤمنين في ديارهم مثلهم مثل نخيل كثيرة في جنّة مباركة تؤتي أطايب الثمار وأحسن الأكل في كلِّ حين بإذن ربِّها.

وإذا كان هذا مثلُ المؤمنين في ديارهم فإنَّ مَثَل المصلحين فيهم مثل الفلاّح في بستانه، ومعلوم أنَّ أهل الفلاحة في بساتينهم ليسوا على مستوى واحد في الكفاءة والقدرة وحسن الرعاية للنخيل والزروع والثمار، بل بينهم مِن التفاوت في ذلك ما الله به عليم، ولا بأس هنا من ضرب ثلاثة أمثلة لثلاثة من الفلاّحين في مزارعهم يتّضِحُ به المُرَادُ والمقصود.

المثال الأول:

فلاّحٌ صفتُه فيما يراه الرائي غير مرضيّة، فهو حادُّ الطبع، أحمر العينين، شديدُ

---

(١) فتح الباري (١/٥٢، ٥٣).

(٢) فتح الباري (١/٥٢).

الغضب، سريعٌ في اتّخاذ تدابيره، قليلُ الأناة، يتعامل مع نخيله في حديقته معاملة غريبة خرج بها عن سمت الحق في الفلاحة، واعتزل فيها طريق الصواب في ذلك، وذلك أنّه اعتقد في نخله أنَّ النخلة لا تكون مستحقةً هذا الاسم [أي النخلة] وما يصحب ذلك من رعاية وعناية إلاّ إذا كانت صحيحةً سليمةً مكمّلةً لا نقص فيها بوجه، ولهذا فإنَّه إذا دبَّ إلى نخلةٍ من نخيله شيءٌ من النقص أو اعتراها شيءٌ من المرض أو داخلها شيءٌ من الخلل، فإنَّه يبادر بلا هوادةٍ ولا أناة إلى اجتثاثها من أصلها وقلعِها من جذورها، ثم يلقي بها بأبعد ما يكون من مكان وراء حائطه. هذا دأبه مع نخيله، لا يهتمّ بأمر الإصلاح ولا يعتني بجانب الرعاية والعناية فيه، ولا ريب أن النتيجة الحتمية لهذا العمل هو تبدُّد حديقته، وتفكّك نخيله، وتناقصُه شيئاً فشيئاً.

أما المثال الثاني:

فهو فلاّحٌ آخر يتعامل مع نخيله بطريقة أخرى غريبة وعجيبة، إذ يعتقد أنَّ النخلة لا يصح وصفُها بالنقص مطلقاً، فكما أنَّ النخلة الميتة لا ينفعها وجود بعض أجزائها، فكذلك النخلة الحيّة القائمة لا يضرّها نقص بعض أجزائها، فالنخيل جميعه عنده سواء في درجة واحدة، المريض منه وما اعتراه نقصٌ والصحيح، كلُّه عنده بمستوى واحد وعلى درجة واحدة، بل يصرّح بأنّه سواسية كأسنان المشط لا فرق بينه ولا تمايز ولا تفاضل، حتى آل به الأمرُ إلى عدم التمييز بين ثمار النخيل وأنواع التمور مما يُعلم بالضرورة عند كلّ أحد تمايزه وتفاضله.

ثم إنَّ هذا المعتقد الغريب أورث عند هذا الفلاح نوعاً غريباً من التعامل مع حديقته، فهو لا يتعاهدها بالرعاية، ولا يهتمّ بها في أمر السقاية، ولا يعتني بها، ولا يتفقّدها، وقد يمرض الكثير من نخيله، وقد يعتري العديد منه أنواعٌ من النقص

والخلل والفساد فلا يكترث بهذا ولا يهتم، بل لا يزال مع ذلك كلّه معتقداً تمامَه وكماله وسلامته، ولا ريب أنَّ النتيجة الحتمية لهذا التصرّف هو ذهاب حديقته وزوالها بأسرع ما يكون.

أما المثال الثالث:

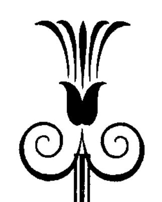
فهو فلاّحٌ نشأ على حبّ فلاحته منذ صغره، فهو حكيمٌ في رعايته لها، عالمٌ بطرق إصلاحِها وأسبابِ قوّتِها ونمائها، صبورٌ على شدّتها ولأوائها، دقيقٌ في القيام بمستلزماتها ومتطلباتها، يهتم بنخله من أوّل غرْسه تمام الاهتمام، ويتعاهده بالسقي والإصلاح وإزالة النباتات الغريبة الدخيلة التي قد تؤذيه وتضرّه، يهتم بنخله كلّه دون تفريق بين قويّه وضعيفه وجيّده ورديئه، فما كان منه قوياً صحيحاً سليماً فإنَّ عينَه تقرُّ به ويَسُرُّ تمامَ السرور بحسنه وسلامته وكماله، ويواصل معه في تهيئة أسباب ثباته وبقائه، وما كان منه ضعيفاً مريضاً ناقصَ النموِّ فإنَّ قلبه يألم له ويحزن لضعفه ونقصه ويتعامل معه معاملةً حكيمةً، فلا يجتُّه من أصله ويطرحه خارج حديقته، ولا يهمله بالكلية فيتركه بدون رعاية وعناية، بل يتّخذ في سبيل إصلاحه وتقويمه التدابيرَ الحكيمةَ، والمناهجَ السليمةَ، والطرقَ الصحيحةَ القويمة، والتي من شأنها بتوفيق الله وتسديده صلاحُ نخله وثباته وحسن نمائه، ولا ينقطع عند اتّخاذ هذه التدابير عن مشاورة ذوي الفضل والحنكة والتجربة، ثم هو قبل هذا كلّه قويُّ الصلة بالله عظيمُ الثقة به، يبرأ من حول نفسه وقوّته، ويعتقد أنّه لا حول له ولا قوّة إلاّ بالله العظيم الذي بيده أزمَّةُ الأمور، ولذا فإنّ لسانه رطبٌ من ذكر الله، يُكثر من قول «ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله»، فلا تزال حديقتُه في نماء، ولا تزال نخيله في كثرة وازدياد بمرأى جميل ومظهر حسن تؤتي من أنواع الثمار وأطايب الأكل كلَّ حين بإذن ربِّه، ثم هو عظيم الحمد لربِّه، كثيرُ الثناء عليه، عالمٌ بأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فهذه ثلاثة أمثلة يتّضح من خلالها تنوّعُ مناهج المشتغلين بالإصلاح وتباينُ طرائقهم، ولا بأس من إيضاح أمرٍ غير خافٍ على المتأمِّل، وهو أنَّ المثال الأول مضروب لحال المعتزلة والخوارج في التعامل مع عباد الله المؤمنين، فهم أهل شدّةٍ وغِلظةٍ وفضاضةٍ، ومِن معتقداتهم الفاسدة الحكمُ على مرتكب الكبيرة بالخروج من الإيمان والخلود يوم القيامة في النيران، والمثال الثاني مضروب للمرجئة في تعاملهم مع المؤمنين، فهم أهل ارتخاء وخَوَر، وقلّة مبالاة بأمر المؤمنين، وقد نشأ هذا فيهم بسبب شؤم معتقدهم حيث يرون أنَّ الأعمال ليست من الإيمان، ثم هم متفاوتون في ذلك تفاوتاً عظيماً حتى إنَّ منهم من صار إلى القول بأنَّ الإيمان لا يضرّ معه ذنبٌ مهما عظُم، كما أنَّ الكفرَ لا تنفع معه طاعةٌ، وأما المثال الثالث فهو مضروب لأهل السنة والجماعة والحق والاستقامة أهل المنهج العدل الوسط، وخيرُ الناس النمط الأوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين، ومنهج أهل السنة مع العصاة من أهل الملَّة هو أنَّهم لا يكفِّرونهم ولا يخرجونهم بذلك من الدين كالخوارج والمعتزلة، ولا يحكمون بكمال إيمانهم وتمامه كالمرجئة، بل يقولون: هم مؤمنون ناقصو الإيمان، فيحبّونهم على ما عندهم من الإيمان، ويُبغضونهم على ما عندهم من العصيان، ويرحمونهم وينصحون لهم ويحرصون على استصلاحهم وهدايتهم بأرفق السُبل وأحسن الأساليب في حدود قواعد الشريعة وأصولها المعلومة.

وبهذا تمّت هذه الرسالة، والله أعلم،

وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وآله وأصحابه أجمعين(*).

(*) وهي في الأصل محاضرة أُلقيت بقاعة المحاضرات في الجامعة الإسلامية في العام الهجري (١٤١٧)، ثم تمَّ تنقيحها وإضافة بعض الزيادات إليها، وبالله وحده التوفيق.



الرسالة العاشرة

ثبات عقيدة السلف

وسلامتها من التغيرات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتَّقين، والصلاةُ والسلام على إمام المرسَلين، نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فإنَّ للعقيدةِ الإسلاميةِ الصافيةِ النقيَّةِ المتلقَّاة من الكتابِ والسُّنَّة مكانةً عاليةً ورفيعةً في الدين، بل إنَّ منزلتَها فيه منزلةُ الأساس من البُنيان، والقلب من الجسد، والأصل من الشجرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾[1].

فهذا شأن العقيدة، شأنٌ عظيم، ومكانة عالية، ومنزلة رفيعة، أمرها مستقرٌّ في نفوس أهلها، وكامِنٌ في قلوب أصحابها، فمنها ينْطَلقون، وعليها يُعوِّلون، ولأجلها يُناضِلون، سَمَا قدرُها في نفوسِهم، وعَلَت مكانتُها في قلوبِهم، فتمكَّنت منها القلوب، واستقرَّت في النفوس، فترتَّب على ذلك وانبنى عليه صلاحٌ في السُّلوك، واستقامةٌ في المنهج، وتَمامٌ في الأعمال، ودأبٌ على الطاعةِ والعبادة، ولزومُ أمرِ الله تبارك وتعالى، وكلَّما كانت العقيدةُ أعظمَ تَمكُّناً في نفوسِهم، وأقوى استقراراً في قلوبِهم، كان ذلك دافعاً لهم لكلِّ خير، مُعيناً لهم على كلِّ فلاحٍ وصلاحٍ واستقامةٍ.

ومِن هنا عَظُمت عنايتُهم بها، وزاد اهتمامُهم بها اهتماماً وعناية مقدَّمة على كلِّ اهتمامٍ وعنايةٍ، هي عندهم أهمُّ من طعامِهم وشرابهم ولباسِهم وسائر شؤونهم؛ لأنَّها هي حقيقة حياة قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: (٢٤).

ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾(١).

فهي حياة قلوبهم حقيقة، وأساسُ نَماءِ أعمالهم، واستقامةِ سلوكهم، وحسنِ نَهجِهم وطريقِهم، ولهذا عَظُمت عنايتُهم بها علماً واعتقاداً، وما يتبع ذلك ويترتَّب عليه من جدٍّ واجتهادٍ واستقامةٍ ومحافظةٍ على طاعة الله تبارك وتعالى.

إنَّ العقيدةَ الإسلاميةَ الصحيحةَ الصَّافيةَ النقيَّةَ هي أهمُّ المُهمَّات، وآكدُ الواجبات، والعنايةُ بها ينبغي أن تُقدَّم على كلِّ عنايةٍ واهتمام، وعندما نتأمَّل سيرةَ سلفنا الأخيار ـ رحمهم الله وأسكنهم الجنَّة، وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء ـ نرى عِظَم عنايتِهم بالعقيدة، وشِدَّةَ اهتمامِهم بها، وأنَّهم يُقدِّمونها في الاهتمام والعناية على كلِّ الأمور، فهي أعظمُ مطالبِهم، وغايةُ مقاصدِهم، وأنبلُ وأشرفُ أهدافهم، وقد تنوَّعت عنايتُهم بالعقيدة عَبر مجالاتٍ مختلفةٍ وجهودٍ متنوِّعة، ومن عنايتِهم بها وهو من أسباب حِفظِها وثباتِها وبقائها، تأليفُهم فيها المؤلَّفات النافعة، والكتبَ المفيدة التي تُقرِّرُ العقيدة، وتُبيِّنها وتوضِّحُها وتذكر شواهدَها ودلائِلها، وتذُبُّ عنها كيدَ الكائدين، واعتداءَ المُعتَدِين، وتعطيلَ المعطِّلين، وتحريفَ الغالين، ونحوَ ذلك مِمَّا قد يُحاك حولها وتُستهدف به، فقام السَّلفُ ـ رحمهم الله ـ في هذا المجال العظيم بجهود ضخمة، وأعمال كبيرة، خدمة للعقيدة، ونُصرة لها، وقياماً بالواجب العظيم تجاهها، وكتبوا فيها بياناً وتوضيحاً، واستشهاداً واستدلالاً مئات الكتب، بل الآلاف بين مطوَّل ومختصَر، وبين شامل لجميع أبوابها، ومختص في جانب من جوانبها، بين مُؤَصِّل للحقِّ والصواب، ورادٍّ على المخالف المرتاب، ثمَّ اللاَّحق منهم يأخذ العقيدةَ عن السابق واضحةً وضوح الشمس في رابعة النهار، بيِّنة لا لَبس فيها ولا غموض؛ لصحَّةِ شواهدها، وسلامةِ دلائلها وقوَّتها، ووضوحها وبيانها،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٢٤).

فتوارثها المؤمنون المتَّبعون جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كلُّ جيل يأتي يتعاهدها تعاهداً عظيماً، ويرعاها رعاية كبيرة ثمَّ يُؤدِّيها إلى مَن بعده كما هي دون تغييرٍ أو تبديل أو تحريف أو نحوِ ذلك، فيأتي الجيلُ الذي بعدهم فيعتنِي بها عنايةَ أسلافه، ويهتمُّ بها اهتمامَ مَن قبلَه فيُحافظُ عليها، وهكذا توارثتها القرون جيلاً بعد جيل، ولا تزال طائفةٌ من أمَّة محمد ﷺ على الحقِّ منصورةً لا يضرُّهم مَن خَذَلَهم، ولا مَن خالَفهم إلى أن تقوم الساعة.

وموضوع هذه الكلمة هو عن ثبات هذه العقيدة، عقيدة السَّلف الصالِح ـ رحِمهم الله ـ وسلامتها من التغييرات عبر عمر مديد وزمان طويل، بقيت سالِمةً متماسكةً، فالعقيدة التي عند أهل السُّنَّة الملتزمين بالكتاب والسُّنَّة في هذا الزمان، هي العقيدة التي دعا إليها النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام، وهي العقيدة التي كان عليها الصحابةُ ومَن تبعهم بإحسان، وتناقلوها فيما بينهم، وتوارثوها إلى أن وصلت إلى زماننا هذا صافية نقيَّة.

نعم ضلَّ عنها أقوامٌ، وانحرف عنها أناسٌ كثيرون، تفرَّقت بهم السُّبُل، وحادوا عن الجادَّة الصحيحة والطريق المستقيم، وقد أشار النَّبيُّ الكريم عليه الصلاة والسلام إلى أنَّ هذا سيقع وسيكون، فقال: «إنَّه مَن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تَمسَّكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثَة بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة»[1]، وقال في الحديث الآخر: «وستفترق هذه الأُمَّةُ على ثلاث وسبعين فرقة، كلُّها في النار إلاَّ واحدة»[2]، فرقةٌ واحدةٌ سلِم لها دينُها، واستقام

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٢) رواه أحمد (١٠٢/٤)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٣).

لها منهجُها، وصحَّ لها معتقدُها؛ لأنَّها أخذتهُ من نَبعِه الصافي، ومَعِينِه الذي لَم يَشُبْه أيُّ كَدَر، أخذته من كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، فكان حظُّهم في الاعتقاد وسائر شؤون الدِّين السلامةَ والعلم والحكمة والرِّفعة، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها؛ لأنَّهم أخذوها من مصدرها ومَنبَعها؛ كتاب ربِّهم وسنَّة نبيِّهم ﷺ، سلمهم الله فلم تخطفهم الأهواء، ولم تتلقَّفهم الشُّبهات، ولم يَميلوا إلى عقولهم أو آرائهم أو أذواقِهم أو مواجيدهم، أو نحو ذلك طلباً لمعرفة الاعتقاد الصحيح، وإنَّما عوَّلوا على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ.

وما من شكٍّ أنَّ هناك أسباباً متعدِّدة كانت داعيةً لبقاء هذه العقيدة وسلامتها واستقرارها في نفوس أهلها بتوفيقٍ من الربِّ سبحانه وتعالى، فهو الموفِّق وحده والمَانُّ، بيده الفضل يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، فتوفيق الله وتسديده وهدايتُه وإعانتُه لهم هو أعظمُ أمر تحقَّقت به سلامتُهم، وكان به بقاءُ هذه العقيدة في نفوسهم، والله خيرٌ حافظاً، وهو أرحمُ الراحمين.

ولهذا يلزم كلَّ مسلم أن يُقوِّي صلتَه بالله، وأن يسأله دائماً الإعانة والتوفيق والسدادَ والسلامةَ؛ لأنَّ الأمرَ بيده تبارك وتعالى ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

لا شكَّ أنَّ هناك أسباباً كثيرةً بعد توفيق الرَّبِّ جلَّ وعلا وحفظِه سبحانه كانت وراء ثباتِ هذه العقيدة وبقائها واستقرارِها في نفوس أهلها، وسبباً لسلامة أهلها من التغيُّر والتلوُّن والانحراف، ولا شكَّ أيضاً أنَّ من النافع للمسلم والمفيد له في حياته أن يقفَ على الأسباب التي بها ثبات العقيدة وسلامتها؛ ليتعاهدها في نفسه، وليرعاها أحسن الرِّعاية مستعيناً على ذلك كلِّه بالله تبارك وتعالى.

---

(١) سورة هود، الآية: (٨٨).

وقد تلخَّص لي من خلال التأمُّل والنَّظر لكلام أهل العلم - رحمهم الله - في هذا الباب العظيم أسباباً كثيرةً أدَّت إلى ثبات العقيدة في نفوس أهلها وأصحابها، وإلى بقائها وسلامتها من التغيُّر والانحراف، وأوجز ما تيسَّر لي من ذلك في النِّقاط التالية:

أوَّلاً: اعتصامُ أهلها بكتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وإيمانُهم بجميع ما جاء في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه عليه الصلاة والسلام، واعتقادُهم الكامل بأنَّ ما في الكتاب والسُّنَّة لا يجوز تركُ شيء منه، بل الواجب على كلِّ مسلم الإيمانُ والتصديقُ بكلِّ ما جاء في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه عليه الصلاة والسلام، فآمَنوا بجميع النصوص المشتملة على الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته، وأنبيائه، واليوم الآخر، والقدر، ونحو ذلك، آمنوا بها إيماناً مُجملاً ومفصَّلاً؛ إيماناً مُجملاً بكلِّ ما أخبر الله تبارك وتعالى به من أمور الإيمان، وإيماناً مفصَّلاً بكلِّ ما بلغهم علمُه من ذلك في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[1]، هذا شأنهم مع جميع نصوص الكتاب والسنَّة، سلَّموا بالجميع، وآمنوا بالجميع، وشأنهم كما قال بعضُ السَّلف: «من الله الرسالةُ، وعلى الرسول البلاغُ، وعلينا التسليمُ»، ومَن كان معتصماً بكتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، معوِّلاً عليهما، معتمِداً عليهما، فإنَّه بإذن الله تبارك وتعالى سيكون حليفُه الثبات والسلامة والاستقامة والبُعد عن الانحراف.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «جِماعُ الفرقان بين الحقِّ والباطلِ، والهُدى والضلال، والرَّشاد والغيِّ، وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوةِ والهلاك؛ أن يجعل ما بعثَ اللهُ به رسلَه وأنزل به كتبَه هو الحق الذي يجبُ اتِّباعه، وبه يحصل الفرقان والهُدى والعلم والإيمان، فيُصدِّق بأنَّه حقٌّ وصِدقٌ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حقٌّ، وإن خالفه فهو باطلٌ، وإن

---

(١) سورة الحجرات، الآية: (١٥).

لَم يعلم هل هو وافقه أو خالفه ؛ لكون ذلك الكلام مُجملاً لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مرادَه ، ولكن لم يعرف هل جاء الرَّسول بتصديقه أو تكذيبه ، فإنَّه يُمسك فلا يتكلَّم إلاَّ بعلم ، والعلمُ ما قام عليه دليلٌ ، والنافعُ منه ما جاء به الرسولُ ﷺ»[1].

هذه خلاصة طريقة أهل السُّنَّة والجماعة ـ رحمهم الله ـ في هذا الباب العظيم ، يُعوِّلون على الكتاب والسُّنَّة ، وبهذا التَّعويل نالوا السَّلامةَ والثباتَ ، وكما قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في مقام آخر ؛ بل كان كثيراً ما يقول : «مَن فارق الدليلَ ضلَّ السبيل ، ولا دليل إلاَّ بما جاء به الرسول ﷺ»[2] ، ويقول ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية : «كيف يُرام الوصول إلى علمِ الأصول بغير ما جاء به الرَّسول ﷺ»[3] ، أي أنَّ هذا غيرُ مُمكن ، وغيرُ متَأتٍ ، فإذاً تعويلُهم رحمهم الله على ما جاء في كتاب الله ، وسُنَّة نبيِّه عليه الصلاة والسلام ، واعتمادُهم على ما جاء فيهما كان سبباً عظيماً لثبات عقيدتهم ، ولم يكن أحدٌ من أهل السُّنَّة والجماعة رحمهم الله يُنشئ اعتقاداً من قِبَل نفسه ، أو يأتي باعتقادٍ أو دين من رأيه وذوْقه وفِكرِه ، والذين يفعلون ذلك هم أهل الأهواء ، ولهذا يُفارقهم الثبات ويكثر فيهم التنقُّل والتلوُّن ، كما سيأتي بيانُ ذلك.

أمَّا أهلُ السُّنَّة فإنَّه لم يكن أحدٌ منهم ينشئ شيئاً من الاعتقاد من قبل نفسه ، بل جميعُهم يُعوِّلون ويعتمدون على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ.

وهنا أنقل كلمةً رائعةً غايةً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول فيه : «ليس

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) انظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم (ص : ٩٠).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص : ١٨).

الاعتقاد لي، ولا لِمَن هو أكبرُ منِّي[١]، بل الاعتقاد يُؤخذ عن الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ وما أجمع عليه سلفُ الأمَّة، يُؤخذ من كتاب الله، ومن أحاديث البخاري ومسلم وغيرهما، من الأحاديث المعروفة، وما ثبت عن سلف الأمَّة»[٢].

ويقول أيضاً رحمه الله: «اعتقاد الشافعي رضي الله عنه واعتقاد سلف الإسلام، كمالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وهو اعتقاد المشايخ المقتَدَى بهم كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسَهل بن عبد الله التستري وغيرهم، فإنَّه ليس بين هؤلاء الأئمَّة وأمثالهم نزاع في أصول الدِّين، وكذلك أبو حنيفة رحمة الله عليه، فإنَّ الاعتقادَ الثابتَ عنه في التوحيدِ والقدَرِ ونحوِ ذلك موافقٌ لاعتقاد هؤلاء، واعتقادُ هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهو ما نطق به الكتاب والسُّنَّة»[٣].

إذاً هذا الأصل الأول أو النقطة الأولى من أسباب ثبات هذه العقيدة في نفوس أهلها: الاعتماد على الكتاب والسُّنَّة، وبدون الاعتماد عليهما لا سبيل إلى الثبات، ولا إلى السلامةِ والاستقامة.

ثانياً: اعتقادُهم أي السلف -رحمهم الله- أنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ مشتملان على المعتقَد الحقِّ لا نقصَ فيهما بأيِّ وجه من الوجوه، فإنَّ المعتقَدَ الحق بَيِّنٌ تَمامَ البيانِ، وواضحٌ كامل الوضوح في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: عقيدة وعبادة وسلوكاً، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

---

(١) أي: ليس شأني أن آتي باعتقاد من نفسي أنشئه وأخترعه، ولا أيضاً مَن هو أكبر منِّي كالإمام أحمد والشافعي ومالك وغيرهم من أئمَّة الدِّين، لم يكن أحدٌ منهم ينشئ اعتقاداً من قِبَل نفسه.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٢٠٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٢٥٦).

ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[(١)].

فالكتاب والسُّنة بُيِّن فيهما كلُّ ما يحتاج إليه الناسُ مِمَّا يتعلَّق بالاعتقاد، وما يتعلَّق بالعبادة، وما يتعلَّق بالمعاملة والأخلاق والسلوك، بل كما في الحديث الصحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّه لم يكن نَبيٌّ قبلي إلاَّ كان حقًّا عليه أن يدلَّ أمَّته على خير ما يعلمه لهم، ويُنذرهم شرَّ ما يعلمه لهم»[(٢)].

فلمَّا آمن أهل السُّنَّة إيماناً كاملاً، واقتنعوا اقتناعاً تامًّا بأنَّ دينَهم اعتقاداً وعبادةً وسلوكاً بُيِّن في القرآن والسُّنَّة غايةَ البيان، التزموا تَمامَ الالتزام، وعوَّلوا كامل التعويل على ما جاء في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، ولم يحتاجوا أن يرجعوا في هذا الباب إلى غير ما جاء في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، فثبتوا تمام الثبات على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، فتحقَّق لهم بذلك السلامةُ التامَّةُ الكاملة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ رسولَ الله ﷺ بيَّن جميعَ الدِّين؛ أصولَه وفروعَه، باطنَه وظاهرَه، عِلمَه وعملَه، فإنَّ هذا الأصل هو أصلُ أصول العلم والإيمان، وكلّ مَن كان أعظمَ اعتصاماً بهذا الأصل كان أولَى بالحقِّ علماً وعمَلاً»[(٣)].

ويقصد بهذا الأصل أي التعويل التَّامُّ، والاعتماد الكامل على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ؛ لأنَّهما قد بُيِّن فيهما الدِّينُ كلُّه عقيدةً وعبادةً وسلوكاً.

لقد بُيِّن فيهما الدقائق اليسيرة المتعلِّقة بالآداب، كآداب قضاء الحاجة، وآداب الطهارة، وآداب المعاملة ونحو ذلك، فهل من الممكن أن تُبَيَّن فيهما هذه الآداب

---

(١) سورة: المائدة، الآية: (٣).

(٢) صحيح مسلم (١٨٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/١٥٥).

الدقيقة، ويُترك الاعتقاد دون أن يُبيَّن؟!

هذا مُحالٌ كما قال الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله: ((مُحالٌ أن يكون النَّبيُّ ﷺ بيَّن للأمة كلَّ شيءٍ حتى الخِراءةَ ولا يكون بيَّن لهم التوحيد)).

ولهذا فالقرآن والسُّنة مشتملان على الخير كلِّه، والهدى كلِّه، والرشاد جميعه في العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، وحظُّ الإنسان من السلامة والاستقامة بحسب حظِّه من الاعتماد على كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، كما قال مالك رحمه الله: ((السُّنَّةُ سفينةُ نوح، مَن ركبها نجا ومَن تركها غرق)).

ثالثاً: من أسباب ثبات العقيدة في نفوس أهلها؛ أنَّ أهلَ السُّنَّة بناء على ما سبق فقد استقرَّ في نفوسهم أنَّهم في حال وقوع أيِّ نزاع أو خلاف أو نحوِ ذلك لا يُعوِّلون على شيء، ولا يرجعون إلى شيء إلاَّ إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وهم يعلمون علم اليقين أنَّ النزاعَ والخلاف ونحو ذلك لا يتمُّ حلُّه ورفعُ الإشكال فيه إلاَّ بالاعتمادِ على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1].

وما مِن شكٍّ أنَّ مَن كان هذا شأنُه معوِّلاً في الأمور التي قد يقع فيها خلافٌ بين الناس على كتاب ربِّه وسُنَّة نبيِّه عليه الصلاة والسلام، فإنَّ حليفه الثبات والسلامة وعدم الاضطراب والتذبذب، فهم دائماً يُعوِّلون في أمور النزاع وفيما يختلف فيه الناسُ على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، ومِن المعلوم والمتقرِّر أنَّ كلَّ نزاع يقع أو خلاف يوجد لا حلَّ له بين الناس إلاَّ بالاعتماد على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ؛ لأنَّ الآراءَ متباينةٌ، والعقولَ مختلفةٌ، ووجهات النظر متباعدةٌ، فلا مجالَ لحلِّ النزاع ورفع الخلاف إلاَّ إذا عاد الجميعُ عودةً صادقةً ورجعوا رجوعاً حميداً إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ.

(١) سورة النساء، الآية: (٥٩).

فهذا سببٌ عظيمٌ من أسباب ثبات أهل الحقِّ على الحقِّ.

رابعاً: سلامة فطرتِهم، والفطرة نعمةٌ من الله عزَّ وجلَّ، ومِنَّةٌ منه تبارك وتعالى على عباده، وهو جلَّ وعلا تفضَّل على عباده ومَنَّ عليهم بأن خلقهم جميعَهم على الفطرة، كما قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولود يولَد على الفِطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه»[(١)]، فخلقهم على الفطرة، وأهل السُّنَّة بقيت فطرتُهم سالِمةً لم تتغيَّر، حفظَها اللهُ لهم من التغيُّر والتبدُّل والانحراف، وبقية الناس تلوَّثت فطرُهم، ولَحِقَها من الانحراف ما لَحقَها، بين مُقلٍّ ومستكثر.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[(٢)]، وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[(٣)]، فالشيطان وجندُه صرفوا الناسَ وحرَّفوهم عن فطرهم.

ولهذا فإنَّ من أسباب الثبات أن يجتهد الإنسانُ في المحافظة على سلامةِ فِطرتِه ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[(٤)]، وسلامةُ الفطرة مرتبطةٌ بسلامةِ المصدر، فإذا كان صاحبُ الفطرة السليمة مستنداً ومعتمداً على كتاب ربِّه وسُنَّة نبيِّه عليه الصلاة والسلام، فإنَّ فطرتَه لا تتبدَّل، وإن سَلَّمَ فطرتَه للأهواء المردية والشبهات المفسدة والآراء المنحرفة والتكلُّفات البعيدة ونحو ذلك انحرفت فطرته.

---

(١) صحيح البخاري (١٣٨٥).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ٢٣٦٥).

(٣) سورة الزخرف، الآية: (٣٧).

(٤) سورة الروم، الآية: (٣٠).

خامساً: صحَّة عقولهم ؛ فأهل السُّنَّة والجماعة أحسنُ الناس عقولاً ، وأسلمُهم رأياً وفِكراً ومنهجاً ، لهم عقولٌ راجحة ، ليس فيها غلوٌّ أو جفاء كما هو الشأن في غيرهم من أهل الأهواء والبدع ، فأهل السُّنَّة ليس عندهم في العقول غلوٌّ كما يُرى واضحاً في أرباب الكلام والمتفلسفة ومَن لَفَّ لفَّهم ، وسار على منهجهم مِمَّن يُنحِّي الكتاب والسُّنَّة جانباً ، ويعتمد تَمام الاعتماد على عقله وفِكرِه ورأيه ، فما رآه صحيحاً بعقله اعتمده ، وما رآه بخلاف ذلك تركه ، وإن كان قاله الله أو قاله رسول الله ﷺ ؛ لأنَّ المُعوَّلَ عنده والعِبرةَ على ما توصَّلت إليه العقولُ والآراء.

ومن المعلوم أنَّ عقولَ الناسِ ليست على عقل رجل واحد ، ولهذا لَمَّا كان الاعتمادُ على العقل عند فئاتٍ من الناس ، كان ذلك سبباً لكثرة الانحراف وكثرة الآراء والمذاهب ؛ لأنَّ العقولَ مختلفةٌ ، وكما قال بعضُ السَّلف : «لو كانت الأهواء هوى واحداً لقيل إنَّه الحقُّ ، ولكنَّها أهواء» ، وكذلك نقول : لو كانت العقولُ عقلاً واحداً لقيل إنَّه الحقُّ ، ولكنَّها عقولٌ مختلفةٌ.

وهؤلاء يُقدِّمون عقلَهم على ما جاء به الرسول ﷺ ، ويجعلون العُمدةَ العقلَ ، فعليه يُعوِّلون ، وقد ألزمهم أحدُ السَّلف قديماً بأنَّ مِن لازمِ قول هؤلاء أن يقول أحدُهم : أشهد أنَّ عقلي رسولُ الله ، بدلاً من أن يقول أشهد أنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ ؛ لأنَّ المعوَّل عليه والمعتدَّ به عنده عقله.

فهذا جانب منحرفٌ في العقل ، وهو جانب الغلوِّ في العقل ورفعه فوق مكانته ، وهناك جانبٌ آخر في العقل منحرفٌ وهو جانب الجفاء ، وهذا يكثر في ضُلاَّل المتصوِّفة وجُهَّالهم الذين يُنحُّون عقولَهم جانباً ، ثم يَدخلون باسم التصوُّف إلى أمور يُسمُّون بعضها بالجذب أو الشطح أو الجنون أو نحو ذلك ، فيقعون في أنواع قبيحة من الانحرافات لا يقبلُها عقلٌ ولا يرتضيها فكرٌ ويأنف منها كلُّ إنسان ، يقعون فيها بسبب تنحيتهم الكاملة للعقل.

وأهل السُّنَّة رحمهم الله أهل توسُّط واعتدال، فلا يتجاوزون بالعقل حدَّه، ولا يُنحُّونه ويُلغونه، بل يضعون العقلَ في حدوده وأُطُرِه المحدَّدة، وكما أنَّ سمعَ الإنسانِ له حدٌّ معيَّن لا يمكن أن يتجاوزه، وكذلك بصرُه وسائرُ حواسِّه، فكذلك العقل.

فالعقلُ له حدٌّ معيَّن، فمَن حاول أن يُقحِمَ عقلَه في غير حدوده ومجاله يضلُّ كما ضلَّ أقوامٌ كثيرون.

ولهذا صحَّت عقول أهل السُّنَّة والجماعة، وسلِمت من الانحراف؛ لأنَّهم أعمَلوها في حدودها المعيَّنة، ولم يُهملوها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[1] فهم أولوا الألباب الصحيحة والعقول الراجحة، وَضعوا عقولَهم في حدِّها المحدود ومجالها المعيَّن، دون غلوٍّ أو جفاء، أو إفراطٍ أو تفريط، أو زيادة أو نقصان، فهذا أمر عظيم كان من أسباب ثبات هؤلاء على الحقِّ.

سادساً: من أسباب ثبات عقيدتهم في نفوسهم وسلامتها؛ أنَّ نفوسَ أهل السنَّة اطمأنَّت بهذه العقيدة غايةَ الطمأنينة، يشعر كلُّ واحد منهم براحةٍ في قلبه، وطمأنينةٍ في نفسه، وأُنسٍ وسعادةٍ، بل وفرحٍ ولذَّةٍ بهذا المعتقَد الحقِّ الذي أنعم الله تبارك وتعالى عليه به، وهذا أمرٌ لا يَجِده أيُّ صاحب هوى، وهيهات أن يَجده، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾[2].

ففي نفوسهم طمأنينة تامَّة، وراحة عظيمة بهذا المعتقَد الحق، الذي تلقَّوه من كتاب ربِّهم، وسُنَّة نبيِّهم ﷺ، وفي هذا يقول ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ في كتابه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٩٠).

(٢) سورة الرعد، الآية: (٢٨).

الصواعق المرسلة: «سكونُ القلب إلى شيء ووثُوقه به، وهذا لا يكون إلاَّ مع اليقين، بل هو اليقينُ بعينه، ولهذا تَجد قلوبَ أصحاب الأدلة السمعية - يعني أهل السُّنَّة - مطمئنَّةً بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته واليوم الآخر، لا يضطربون في ذلك، ولا يتنازعون فيه»[(١)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأمَّا أهل السُّنَّة والحديث فما يُعلم أحدٌ من علمائهم ولا صالِح عامَّتهم رجع قطُّ عن قوله واعتقاده، بل هم أعظمُ الناس صبراً على ذلك، وان امتُحِنوا بأنواع المِحَن، وفُتِنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدِّمين»[(٢)].

ويقول عبد الحق الإشبيلي رحمه الله: «واعلم أنَّ سوءَ الخاتمة أعاذنا الله تعالى منها لا تكون لِمَن استقام ظاهرُه وصلُح باطنُه، ما سُمع بهذا، ولا عُلِم به ولله الحمد، وإنَّما تكون لِمَن له فسادٌ في العقد، أو إصرارٍ على الكبائر، وإقدام على العظائم»[(٣)].

فهذا من الأسباب العظيمة التي أدَّت إلى ثبات أهل الحقِّ، مطمئنَّةً بالحقِّ نفوسُهم، ساكنةً به قلوبُهم، مرتاحةً تَمام الارتياح.

فلماذا عنه يَعدلون؟ ولماذا لغيرِه يَطلبون وهم به مطمئُّنون غاية الاطمئنان، مرتاحون غاية الارتياح؟

سابعاً: من أسباب ثباتهم على الاعتقاد الحقِّ: ارتباطُهم بفهم السَّلف الصالح؛ الصحابة ومَن اتَّبعهم بإحسان، فهم مع الأمور المتقدِّمة يُعوِّلون في فهم النصوص

---

(١) الصواعق المرسلة (٧٤١/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٠/٤).

(٣) نقله ابن القيم في الجواب الكافي (ص:١٩٨).

ومعرفة دلالتها على ما جاء عن الصحابة ومَن اتَّبعهم بإحسان؛ لأنَّ الأفهامَ قد يجنحُ بعضُها وقد ينحرف، لكن مَن أخذ الدِّينَ غضًّا طريًّا من النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام مباشرة مع زكاءٍ في القلب، وصحَّة في العقل، وحُسن رغبة وصِدق، مَن كان هذا شأنه كان حقيقاً بالعلم والسلامة والحكمة، ولهذا يرتبط أهل السُّنَّة والجماعة غاية الارتباط بفهم الصحابة للنصوص والأدلة، يقول السِّجزي رحمه الله في كتاب «الرد على من أنكر الحرف والصوت» واصفاً أهل السُّنَّة: «هم الثابتون على اعتقاد ما نقله إليهم السَّلف الصالح رحمهم الله عن الرسول ﷺ، أو عن أصحابه رضي الله عنهم فيما لم يثبت فيه نصٌّ في الكتاب ولا عن الرسول ﷺ؛ لأنَّهم رضي الله عنهم أئمَّةٌ، وقد أُمرنا باقتداء آثارهم واتِّباع سنَّتِهم، وهذا أظهر من أن يُحتاج فيه إلى إقامة برهان، والأخذ بالسُّنَّة واعتقادها مِمَّا لا مِرية في وجوبه»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا تَجدُ إماماً في العلم والدِّين، كمالك والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ومثل الفضيل وأبي سليمان ومعروف الكرخي وأمثالهم، إلاَّ وهم مُصرِّحون بأنَّ أفضلَ علمِهم ما كانوا فيه مُقتدين بعلم الصحابة، وأفضلَ عملِهم ما كانوا فيه مُقتدِين بعمل الصحابة، وهم يَرون أنَّ الصحابةَ فوقهم في جميع أبواب الفضائل والمناقب»[٢].

ويقول الآجري ـ رحمه الله ـ في كتابه الشريعة: «علامةُ مَن أراد اللهُ عزَّ وجلَّ به خيراً سلوك هذه الطريق، كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنن رسوله ﷺ، وسنن أصحابه رضي الله عنهم ومَن تَبعهم بإحسان رحمة الله تعالى عليهم، وما كان عليه أئمَّة

---

(١) الرد على مَن أنكر الحرف والصوت (ص: ٩٩).

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٢٨).

المسلمين في كلِّ بلد، إلى آخِر ما كان من العلماء؛ مثل الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل والقاسم بن سلاَّم، ومَن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كلِّ مذهبٍ لا يذهب إليه هؤلاء العلماء»[(١)].

ويقول ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ كلمة جميلة في هذا الباب: «ولو أردنا ـ رحمك الله ـ أن ننتقل عن أصحاب الحديث، ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام، ونرغب فيهم؛ لخرجنا من اجتماعٍ إلى تشتُّت، وعن نظام إلى تفرُّق، وعن أُنسٍ إلى وَحشةٍ، وعن اتِّفاق إلى اختلاف»[(٢)].

وهذا يوضِّح أنَّه لا يُمكن أن يكون الثباتُ إلاَّ بالارتباط التَّامِّ بفهم السَّلف الصالح رحمهم الله، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[(٣)].

ثامناً: من أسباب ثباتِهم على الحقِّ واستقامتهم عليه: توسُّطهم رحمهم الله واعتدالهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[(٤)] أي: شهوداً عدولاً، فكانوا وَسَطاً لا غُلوَّ ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، ولا زيادة ولا نقصان، وتوسُّطُهم هو لزومهم للحقِّ واستقامتُهم وثباتهم عليه، ومجانبتهم للطُّرُق المنحرفة، سواء ما كان منها مائلاً إلى الغلوِّ أو إلى الجفاء، فتوسَّطوا في الحقِّ واستقاموا عليه، وثبتوا عليه بتثبيت الله تبارك وتعالى لهم، فكان هذا سبباً عظيماً من أسباب ثباتِهم، وخيار الأمور أوسطُها، لا تفريطها ولا إفراطها، وكلَّما كان

---

(١) الشريعة (١/٣٠١).

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص:١٦).

(٣) سورة النساء، الآية: (١١٥).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).

الإنسانُ متوسِّطاً معتدلاً كان أحرى بالحقِّ وأولَى به.

قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنَّ دِينَ الله بين الغالِي والمقصِّر، فعليكم بالنُّمْرقة الوسطى؛ فإنَّ بها يلحق المقصِّر، وإليها يرجع الغالِي».

والتوسُّط لا يكون أبداً إلاَّ بلزوم الحقِّ وعدم الزيادة فيه أو النقص منه، فمَن كان كذلك كان أولَى بالحقِّ، وأبعدَ من الانحراف، وأحقَّ بالثبات والسلامة، ولهذا قال ﷺ: «القصدَ القصدَ تبلغوا» رواه البخاري[(١)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم هديًا قاصدًا، فإنَّه مَن يشادَّ الدِّينَ يَغلِبه» رواه أحمد[(٢)].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «فدينُ الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوِّ المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسّطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط، والآفات إنّما تتطرّق إلى الأطراف والأوساط محميةٌ بأطرافها فخيار الأمور أوساطها»[(٣)].

تاسعاً: من أسباب ثباتِهم على الحقِّ وسلامتِهم من الانحراف والتغيُّر: عدمُ تقديمهم لعقولهم وأذواقهم على ما جاء في الكتاب والسُّنَّة، وهذا أمرٌ أيضاً سبقت الإشارةُ إلى جانبٍ منه، وأنقل هنا كلاماً لأبي المظفر السمعاني، نقله عنه التيمي في كتابه الحجة، وابن القيم في كتابه الصواعق، وهو كلامٌ عظيمٌ متين في هذا الباب، يقول فيه السمعاني: «وكان السببُ في اتِّفاق أهل الحديث أنَّهم أخذوا الدِّينَ من الكتاب والسُّنَّة وطريق النقل، فأورثهم الاتفاق والائتلاف، وأهل البدع أخذوا

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ٦٤٦٣).

(٢) المسند (٥/٣٥٠، ٣٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٤٠٨٦).

(٣) إغاثة اللهفان (١/٢٠١).

الدِّين من عقولهم، فأورثهم التفرُّق والاختلاف، فإن النَّقلَ والرواية من الثقات والمتقنين قلَّ ما تختلف، وإن اختلفت في لفظةٍ أو كلمةٍ فذلك الاختلاف لا يضُرُّ في الدِّين، ولا يقدحُ فيه، وأمَّا المعقولات والخواطر والآراء فقلَّ ما تتَّفق، بل عقلُ كلِّ واحد أو رأيُه وخاطرُه يُري صاحبَه غيرَ ما يرى الآخر»[١].

فهذا من أسباب ثباتِهم: أنَّهم لا يقدِّمون عقلاً أو رأياً أو وَجْداً أو ذَوْقاً، أو نحو ذلك على كتاب ربِّهم وسُنَّة نبيِّهم ﷺ.

وأمَّا أهل الأهواء فإنَّهم يُقدِّمون هذه الأمور على الكتاب والسُّنَّة، منهم مَن يُقدِّم العقلَ، ومنهم من يُقدِّم الرأي، ومنهم مَن يُقدِّم الذَّوْقَ والوَجْدَ، ومنهم من يُقدِّم الحكايات والمنامات، ومنهم من يُقدِّم ما تهواه نفسُه على ما أمره به ربُّه تبارك وتعالى، يتفاوتون ولكلِّ واحد منهم منهجه وطريقه ومسلكه، أمَّا أهل السُّنَّة فقد سلِموا من هذه الآفات كلِّها، وثبتوا على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، فكان ذلك سبباً عظيماً من أسباب ثباتهم، ومَن أخذ من المَنهلِ الأوَّل والمعين الصافي وجد بقيَّة الموارد كدِرة.

عاشراً: حسن صلتِهم بالله وشِدَّة ارتباطهم به واعتمادهم عليه، وهذا أمرٌ أشرتُ إليه في التقديم والتمهيد؛ لأنَّ التوفيقَ بيده سبحانه وتعالى، فحسُنت صِلتُهم بالله، وقويَ اعتمادُهم عليه، يسألونه، ويستعينون به، ويدعونه، ويطلبون منه الثباتَ، متَّبعِين في ذلك نهجَ نبيِّهم صلوات الله وسلامه عليه.

وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ الهُدَى والسَّدَادَ»، ويقول في دعائه: «اللَّهمَّ إنِّي أسألكَ الهُدى والتُّقى والعفافَ والغنى»، ويقول في دعائه: «اللَّهمَّ آتِ نُفُوسَنَا تَقْوَاها، زَكِّهَا أنتَ خَيرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»، ويقول في دعائه:

---

(١) مختصر الصواعق (ص: ٥١٨).

«اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»، ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»، ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ»، ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[١].

وأتباعُه صلوات الله وسلامه عليه يَلزمون نهجه، ويرتبطون بالله تبارك وتعالى كلَّ وقت وحين، يسألونه الثباتَ والسداد والإعانةَ والتوفيق، لهذا وفَّقهم الله وأعانَهم وسدَّدهم، وحفظَهم وكلأهم برعايتِه وعنايتِه، وحفظُه سبحانه وتعالى والتوفيق بيده وحده.

ثم إنَّ هذا الارتباطَ منهم بالله تبارك وتعالى أورَثهم صلاحاً في العبادةِ، واستقامةً في السلوك والأخلاق، ولهذا فإنَّ من فوائد العقيدة الحميدة وآثارها العظيمة أنَّها تنعكسُ على عمل الإنسانِ وسلوكه قوَّةً ورِفعةً ونَماءً وزكاءً، وهذا من بركة العقيدة الصحيحة، ومن منافعها وفوائدها العظيمة، أمَّا العقيدةُ المنحرفة فإنَّ لها شؤماً على صاحبها، ولهذا يتبَعُ فسادَ العقيدة فسادُ العمل وفسادُ السلوك، وهذا

---

(١) وهذه الأدعية كلُّها عند مسلم في صحيحه، إلاَّ الثلاثة الأخيرة، فالأول والثاني منها عند أحمد (٣٠١/٦)، (٢٠٠/١)، والثالث عند النسائي (رقم: ١٣٠٥).

من شُؤم الاعتقاد، ومَن يتَتَبَّع وبخاصَّة رؤوس الباطل ودعاة الضلال يَجِد هذا واضحاً جليًّا فيهم، لا يرى فيهم عنايةً بالعبادة واهتماماً بها ومحافظةً عليها، ولا يرى أيضاً فيهم الخُلُقَ الواضح الكامل البيِّن، وإن وُجد فيهم شيءٌ من ذلك، فما عند أهل السُّنَّة والحقِّ والاستقامة من ذلك أعظمُ وأعظمُ.

وهذا من آثار الاستقامة على العقيدة والارتباط بالله تبارك وتعالى.

حادي عشر: يقينُهم التَّامُّ بهذا المُعتقَد الذي استقاموا عليه، وبعدُهم عن تعريضه للخصومة والجَدَل، وهذا جانبٌ غايةٌ في الأهميَّة للثبات على المعتقَد الحقِّ؛ أن يكون صاحبُه مقتنعاً به، وأهلُ السُّنَّة لديهم قناعة تامَّة وثِقة كاملة بما هم عليه من دين ومُعتقَد، ولهذا لم يحتاجوا كغيرهم إلى عَرْضِ ما عندهم على آراء الرِّجال وعقولهم، بينما صاحب الهوى والبدعة تَجدُه يتنقَّل بين الرِّجال، يسألهم ويستشيرهم فيما هو عليه من دين؛ لأنَّه في شكٍّ منه وعدم ثِقة واطمئنان، أمَّا صاحب السُّنَّة فهو على يقين تامٍّ، لا يقبل في عقيدته خصومةً ولا جدلاً، فهو مقتنعٌ بها غاية الاقتناع، مطمئنٌّ بها غاية الاطمئنان؛ لأنَّ ارتباطَه بها ارتباطٌ بكتاب ربِّه وسُنَّة نبيِّه ﷺ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسُنَّة نبيِّه الذي لا ينطق عن الهوى، فهو مطمئنٌ غاية الاطمئنان، وواثقٌ غاية الثقة بما عنده من معتقَد، لم يحتج في شيء منه إلى عرضِه على جدلِيٍّ أو مُخاصِمٍ أو نحو ذلك، بل هو ماضٍ في عقيدته على وتيرةٍ واحدة، وعلى طريق واحد من أوَّل أمره إلى نهايته، لا تردّد ولا اضطراب، ولا تنقُّل ولا ارتياب.

أمَّا أهل الباطل فشأنُهم آخر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾[1]، فتجدهم يضطربون ويرتابون، ويَعرضون ما عندهم

---

(١) سورة الزخرف، الآية: (٥٨).

على آراء الرِّجال وعقولِهم، ويُكثرون التنقُّلَ في الدِّين.

وأنقل هنا في هذا المقام جملةً من الآثار عظيمة النفع عن السَّلف رحمهم الله تعالى:

قال حذيفة لأبي مسعود: «إنَّ الضلالةَ حقَّ الضلالة أن تعرفَ ما كنتَ تُنكر، وتُنكرَ ما كنتَ تعرف، وإيَّاك والتلوُّنَ في دين الله، فإنَّ دينَ الله واحدٌ»[(١)].

وقال عمر بن عبد العزيز: «مَن جعل دينَه غرضاً للخصومات أكثر التنقُّلَ»[(٢)].

وقال أيضاً رحمه الله: «مَن عمل بغير علم كان ما يُفسِد أكثرَ مِمَّا يُصلِح، ومَن لم يَعُدَّ كلامَه من عملِه كثرت خطاياه، ومَن كثرت خصومتُه لم يزل يتنقَّل من دين إلى دين»[(٣)].

وقال معن بن عيسى: «انصرفَ مالكٌ يوماً من المسجد وهو متَّكئٌ على يدي، فلَحِقه رجلٌ يُقال له أبو الجويرية ـ كان يُتَّهمُ بالإرجاء ـ فقال: يا أبا عبد الله اسْمَع منِّي شيئاً أُكلِّمُك به وأحاجّك وأُخبِرُك برأيي، قال: فإن غلبتَني؟ قال: فإن غلبتُك اتَّبَعتَنِي، قال: فإن جاء رجلٌ آخر فكلَّمنا فغلبنا؟ قال: نتَّبعه، قال مالك: يا عبد الله، بعث الله محمداً ﷺ بدين واحد، وأراك تتنقَّل من دينٍ إلى دين»[(٤)].

أصبحت القضيَّةُ إذاً عند هؤلاء تنقُّلاً من شخصٍ إلى شخص، ومِن رأيٍ إلى آخر، وهو معنى قول عمر بن عبد العزيز المتقدِّم: «مَن جعل دينَه غرضاً للخصومات أكثر التنقُّلَ».

---

(١) الإبانة لابن بطة (٢/٥٠٥).
(٢) الإبانة (٢/٥٠٣).
(٣) الإبانة (٢/٥٠٤).
(٤) الإبانة (٢/٥٠٨).

وقال مالكٌ: «كان ذلك الرجل[1] إذا جاءه بعضُ هؤلاء أصحاب الأهواء قال: أمَّا أنا فعلى بيِّنة من ربِّي، وأمَّا أنتَ فشاكٌّ، فاذهب إلى شاكٍّ مثلك فخاصِمه، قال مالك: وقال ذلك الرَّجل: يلبسون على أنفسهم ثم يطلبون من يُعرِّفهم»[2].

يعني بدينهم، يلبسون على أنفسهم أي: أهل الأهواء بالشكوك والظنون، ونحو ذلك، ثم يطلبون من يُعرِّفهم بدينهم، ويُزيل عنهم الشكوكَ التي اعترتهم، فيأتون يَعرضون ما عندهم من آراء وأهواء على عقول الرِّجال.

وقال إسحاق بن عيسى الطباع: «كان مالك بن أنس يَعيبُ الجدال في الدِّين ويقول: كلَّما جاءنا رجلٌ أجدل من رجل أردنا أن نردَّ ما جاء به جبريل إلى النَّبيِّ ﷺ»[3].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «رأسُ مال المؤمن دينُه، حيثما زال زال دينُه معه، لا يخلفه في الرِّجال ولا يأتمن عليه الرِّجال»[4].

فهذا شأنُ أهل السُّنَّة لا يعرضُ أحدٌ منهم دينَه ومعتقدَه على عقول الرِّجال وأهوائهم وآرائهم، وإنَّما يلتزم بما جاء في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، على ضوءِ ما كان عليه سلفُ الأمَّة.

وقال ذكوان: «كان الحسن البصري ينهى عن الخصومات في الدِّين، وقال: إنَّما يُخاصم الشَّاكُّ في دينه»[5].

---

(١) يشير إلى أحد أئمَّة السَّلف لم يُسمِّه.

(٢) الإبانة (٢/٥٠٩).

(٣) الإبانة (٢/٥٠٧).

(٤) الإبانة (٢/٥٠٩).

(٥) الإبانة (٢/٥١٩).

أمَّا مَن ليس عنده في دينه شكٌّ فليس له أيّ حاجة إلى شيءٍ من هذه الخصومات.

وقال هشام بن حسَّان: «جاء رجلٌ إلى الحسن البصري، فقال: يا أبا سعيد تعال حتى أُخاصِمك في الدِّين، فقال الحسن: أمَّا أنا فقد أبصرتُ دينِي، فإن كنتَ أضللتَ دينَك فالتمِسه»[1].

أي: اذهب وابحث عن دينِك، أمَّا أنا فواثقٌ بدينِي، مُطمئنٌّ له، عارفٌ به، لست بحاجة إلى هذه الخصومات والجدل.

وقال أحمد بن سنان: «جاء أبو بكر الأصم إلى عبد الرحمن بن مهدي فقال: جئتُ أناظرك في الدِّين، فقال: إن شككتَ في شيءٍ من أمر دينِك فقِفْ حتى أخرج إلى الصلاة، وإلاَّ فاذهب إلى عملك، فمضى ولَم يثبت»[2].

وهذا فيه أنَّ أهلَ السُّنَّة مشغولون بما هم عليه من حقٍّ، وبعبادة الله تبارك وتعالى، فقال له: إن شككتَ في شيء من أمر دينِك فقِف حتى أخرجَ إلى الصلاة، أي: أنا مشغول بطاعة الله، أريد أن أُصلِّي، فقِف حتى أخرج إلى الصلاة فلا شأن لي بك، وإلاَّ فاذهب إلى عملِك، فمضى الرَّجلُ ولم يثبت.

هذه جملةٌ من النقول المفيدة، نقلتُها من كتاب الإبانة لابن بطة العُكبُري رحمه الله، وهو كتاب عظيمٌ في بابه، وجميع هذه النقول عن السَّلف رحمهم الله توضح متانةَ الدِّين عندهم، وقوَّته في نفوسِهم، وشدَّةَ رعايتِهم وعنايتِهم به، وعدمَ تعريضهم له إلى خصوماتٍ أو جدل، أو رأي منحرف، أو نحو ذلك، فكان ذلك من أعظم أسباب ثباتهم على الحقِّ.

ثاني عشر: اعتقادُهم ـ أي السلف ـ أنَّ مسائلَ الاعتقادِ من الإيمان بالله وأسمائه

---

(١) الإبانة (٢/٥٠٩).

(٢) الإبانة (٢/٥٣٨).

وصفاته، واليوم الآخر، ونحو ذلك من الأمور التي جاءت بها الرُّسل واتَّفقت كلمتُهم عليها، جميعها أمورٌ ثوابت، لا يدخلها نسخٌ أو تبديل، أو نحوُ ذلك؛ لأنَّ العقيدةَ ليست مِمَّا يدخلها النسخُ، ولهذا فإنَّ كلمةَ الأنبياء متَّفِقَةٌ عليها من أوَّلهم إلى آخرهم، كما جاء في الحديث الصحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الأنبياءُ إخوةٌ مِن عَلاَّتٍ، وأمَّهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ»[1].

ثالث عشر: وضوحُ عقيدتهم ـ أي أهل السُّنَّة ـ ويُسرُها وبُعدُها عن الغموض، بينما العقائد الأخرى تراها يكتنفُها أنواعٌ من الغموض وعدم الوضوح، وكثير من الشبهات.

أمَّا عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة فهي واضحةٌ وضوح الشمس في رابعة النهار، وهي تكتسب وضوحها من وضوح مَنبعِها ومصدرها.

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه «الصواعق» في بيان هذه العقيدة الحقِّ ووضوحِها لوضوح مصدرها، يقول: «مثل ضوء الشمس للبصر، لا يلحقها إشكال، ولا يغيِّر في وجه دلالتها إجمال، ولا يعرضها تجويز واحتمال، تَلِج الأسماعَ بلا استئذان، وتحلُّ من العقول محلَّ الماء الزُّلال من الصادي الظمآن، فضلُها على أدلَّة العقول والكلام كفضل الله على الأنام، لا يُمكن أحدٌ أن يقدحَ فيها قَدْحاً يُوقِعُ في اللَّبس، إلاَّ إن أمكنه أن يقدحَ بالظهيرة صحواً في طلوع الشمس»[2].

فالذي يريد أن يقدحَ في العقيدة الصحيحة السليمة المأخوذة من الكتاب والسُّنَّة مثَلُه مثل رجلٍ يأتي إلى الناسِ في وسط النهار، ويقول لهم: أريد أن أثبت لكم الآن

---

(١) صحيح مسلم (١٨٣٧/٤).

(٢) الصواعق المرسلة (١١٩٩/٣).

أنَّ الوقتَ ليلٌ وليس بنهار، هذا مثل لِمَن يأتي ويريد أن يُشكِّك في صحَّة العقيدة الصحيحة السليمة المأخوذة من كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، والأمر كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

رابع عشر: في ثبات أهل العقيدة وسلامتهم من الانحراف، اعتبارُهم واتِّعاظُهم بحال أهل الأهواء، وقديماً قيل: «السعيد مَن اتَّعظ بغيره»، فأهل الأهواء الذين تركوا الكتاب والسُّنَّة، أورثهم هذا التركُ تذبذُباً وانحرافاً، وتنقُّلاً واضطراباً، وبُعداً عن الاستقرار والثبات، ولا تَجدُ لصاحب هوى ثباتاً واستقراراً، وإنَّما هم دائماً وأبداً في تنقُّل، وأنقل هنا نقولاً عن أهل العلم في وصف حال أهل الأهواء:

قال شيخ الإسلام: «أهلُ الكلام أكثرُ الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع، وجزما بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليلُ عدم اليقين؛ فإنَّ الإيمانَ كما قال فيه قيصر لَمَّا سأل أبا سفيان عمَّن أسلم مع النَّبيِّ ﷺ، قال: هل يرجع أحدٌ منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب لا يسخطُه أحدٌ»[2].

فهذا فيه عبرة وعِظة من حال أهل الأهواء أنَّهم لا قرار لهم ولا ثبات، وأنَّهم دائماً وأبداً في تنقُّل واضطراب.

ومِمَّا وصف به أهلُ العلم أهلَ الأهواء، وبيَّنوا فيه حالهم قول أبي المظفَّر السمعاني فيما نقله عنه التيمي وابن القيم، قال: «وأمَّا إذا نظرتَ إلى أهل البدَع رأيتَهم متفرِّقين مختلفين، شيعاً وأحزاباً، لا تكاد تجد اثنين منهم على طريقة واحدة في الاعتقاد، يُبدِّعُ بعضُهم بعضاً، بل يرتقون إلى التكفير، يُكفِّرُ الابن أباه، والأخُ

(١) سورة الحج، الآية: (٤٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٥٠).

أخاه، والجارُ جارَه، وتراهم أبداً في تنازع وتباغض واختلاف، تنقضي أعمارُهم ولم تتَّفق كلماتُهم»[(١)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في وصفه لأهل الهواء: «وأيضاً المخالفون لأهل الحديث، هم مَظنَّةُ فساد الأعمال، إمَّا عن سوء عقيدة ونفاق، وإمَّا عن مرض في القلب وضعف إيمان، ففيهم مِن تَرْكِ الواجب، واعتداء الحدود، والاستخفاف بالحقوق وقسوة القلوب ما هو ظاهرٌ لكلِّ أحد، وعامَّةُ شيوخهم يُرمَوْن بالعظائم، وإن كان فيهم من هو معروف بزهدٍ وعبادة، ففي زهد بعض العامَّة من أهل السُّنَّة وعبادته ما هو أرجحُ مِمَّا هو فيه، ومِن المعلوم أنَّ العلمَ أصلُ العمل، وصِحَّةُ الأصول توجبُ صحَّةَ الفروع»[(٢)].

وقال إبراهيم النخعي: «كانوا يرون التلوُّنَ في الدِّين من شكِّ القلوب في الله عزَّ وجلَّ»[(٣)].

وقال مالك بن أنس: «الداءُ العُضال، التنقُّلُ في الدِّين»، وقال: «قال رجل: ما كنتَ لاعباً به، فلا تلعبنَّ بدينِك»[(٤)].

فمَن ينظر إلى حال أهل الأهواء يَجدُ أنَّ حالَهم في حقيقة الأمر لعبٌ بالدِّين، تنقُّلٌ، آراءٌ، عقلياتٌ، أفكارٌ، أشياء من هذا القبيل متنوِّعة ومختلفة، لا ثبات لهم ولا قرار، حتى إنَّ أحدَ كبار رؤوس علماء الكلام وهو في حيرة وشكٍّ واضطراب، دخل عليه أحد الفضلاء من أهل السنة فسأله: ماذا تعتقد؟ قال: أعتقدُ ما يعتقده

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ص:٥١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٥٣).

(٣) الإبانة لابن بطة (٢/٥٠٥).

(٤) الإبانة (٢/٥٠٦).

المسلمون - أي مِمَّا جاء في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ - فقال له: وأنت مُطمئنٌّ بذلك مُنشرح الصَّدر؟ قال: نعم، قال: اشكر الله على هذه النعمة، أمَّا أنا فوالله ما أدري ما أعتقد؟ والله ما أدري ما أعتقد؟ والله ما أدري ما أعتقد؟ وبكى حتى أخضل لِحيتَه(١).

وذلك لأنَّ المسألةَ أصبحت جدلاً وحواراً وما إلى ذلك، فالذي ينظر في حال أهل الأهواء يجد فيهم العِظةَ والعِبرةَ، وكما قدَّمت: السَّعيد من اتَّعظ بغيره، فصاحبُ السُّنَّة يَحمد الله على السُّنَّة، ويسأله تبارك وتعالى أن يُثبِّتَه عليها.

خامس عشر: من أسباب ثباتهم على الاعتقاد الحقِّ: اتِّفاقُ كلمتهم وعدمُ تفرُّقهم، أمَّا أهل الأهواء فقد فرَّقوا دينَهم وكانوا شِيَعاً، كلُّ حزب بما لديهم فرحون، قال قتادة: «لو كان أمر الخوارج هدى لاجتمع، ولكنَّه كان ضلالاً فتفرَّق»(٢)، ومثل هذا فقُل في سائر أهل البدع، أمَّا أهل السُّنَّة فكلمتهم متَّفقة، وأمرهم مجتمع، وليس عندهم تفرُّقٌ أو اختلاف في دين الله، فهم على جادَّة سويَّة وصراطٍ مستقيم، يتعاهدون ذلك، ويتواصون به، ويصبرون عليه.

قال أبو المظفر السمعاني: «ومِمَّا يدلُّ على أن أهل الحديث على الحقّ أنك لو طالعتَ جميع كتبهم المصنَّفة من أوّلها إلى آخرها، قديمها وحديثها، وجدتَّها مع اختلاف بلدانهم وزمانهم وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كلِّ واحد منهم قطراً من الأقطار، في بيان الاعتقاد على وتيرةٍ واحدةٍ ونمطٍ واحدٍ، يجْرون فيه على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون عنها، قلُوبهم في ذلك على قلب واحد، ونقلُهم لا ترى فيه اختلافاً ولا تفرّقاً في شيء ما وإن قلّ، بل لو جمعت جميع ما جرى على

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٤٦).

(٢) تفسير الطبري (١٧٨/٣).

ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء عن قلب واحد وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبيَن من هذا؟ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[2]))[3].

فهذا أيضاً من الأسباب العظيمة التي أدَّت إلى ثبات أهل السُّنَّة على الحقِّ، واستقامتهم على العقيدة الصحيحة، وسلامتهم من الانحراف والتلوُّن والتغيُّر.

وهذا الأمر هو آخر النقاط التي أردتُ بيانها، لكنَّني أقف عنده وقفة أوضِّح فيها بعضَ الجوانب من الاعتقاد التي تُبيِّن اتِّفاقَ أهل السُّنة والجماعة على العقيدة، وسَيرهم فيها على وتيرة واحدة من أوَّلهم إلى آخرهم، إذا نظرت في كلامهم في هذا الزمان، ونظرتَ في كلامهم أوَّل الأزمان، في زمن النَّبيِّ ﷺ، تجد ما عندهم شيئاً واحداً؛ لأنَّه مأخوذٌ من مشكاة واحدة.

فقد قال الإمام مالك رحمه الله: ((ما لم يكن ديناً زمن النَّبيِّ ﷺ فلن يكون اليوم ديناً، ولن يكون ديناً إلى قيام الساعة، ولن يصلح آخر هذه الأمَّة إلاَّ بما صلح بها أوَّلها)).

فأنتَ إذا نظرتَ إلى عقيدتهم في هذا الزمان، وفي جميع الأزمان الماضية، تجدها عقيدةً واحدة، وأضرب على ذلك بعضَ الأمثلة:

فمثلاً إذا جئتَ إلى جانب التوحيد والإخلاص، إخلاص العمل لله تبارك

---

(١) سورة النساء، الآية: (٨٢).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٠٣).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ص: ٥١٨).

وتعالى، تجدُهم كلَّهم من أوَّلِهم إلى آخرهم دعاةً إلى التوحيد، كلّهم يدعون إلى إخلاص العمل لله، كلّهم يُحذِّرون من الشرك بالله وصرف شيءٍ من العبادات لغير الله.

لا ترى فيهم مَن يدعو إلى شيء من الشرك أو المخالفة للتوحيد، كما يفعله كثيرٌ من أهل الأهواء، يدعون إلى أشياء من هذه الانحرافات، ويُسمُّونها بغير أسمائها؛ فيُسمُّون أنواعاً من الشرك توسُّلاً، أو شفاعةً، أو نحو ذلك.

مثال آخر: أنَّهم جميعاً متَّفقون على الحثِّ على السُّنَّة، والنهيِ عن البدع والأهواء، لا ترى فيهم إلاَّ الداعيةَ للسُّنَّة، المحذِّرَ من البدع، لا تجد فيهم مَن يحسن الأهواء ويرغب في البدع، أو مَن يُحاول أن يُبيِّنَ أنَّ للبدع محاسن، أو نحو ذلك، هذا لا يوجد في أهل السُّنَّة، وإنَّما الجميع من أوَّلهم إلى آخرهم يُحذِّرون من البدع والأهواء، ويدعون الناسَ إلى التمسُّك بكتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ.

مثالٌ ثالث: إيمانهم بأسماء الله تبارك وتعالى وصفاته؛ تجدهم من أوَّلِهم إلى آخرهم على وتيرة واحدة، يُثبتون لله ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، ولا يُحرِّفون ولا يُعطِّلون ولا يُكيِّفون ولا يُمثِّلون، وقاعدتهم في ذلك كما أخبر الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]، فكلُّهم في هذا الباب على وتيرة واحدة.

أمَّا مَن سواهم فتجد فيهم المحرِّفَ أو المعطِّلَ، أو المكيِّفَ أو الممثلَ، أو غيرَ ذلك من الطرق مع اختلاف عريض لدى كلٍّ أهل مذهب من هذه المذاهب.

مثال أخير: اتِّفاق منهجهم في طريقة الاستدلال، وهذا أمر سبق أن أوضحته،

---

(١) سورة الشورى، الآية: (١١).

فطريقتهم في الاستدلال واحدة، ومعتمدُهم فيها واحد، وهو كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ.

وفي ختام هذه الكلمة أتوجَّه إلى الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يُلحقني وإياكم بالصالحين من عباده، وأن يَمنَّ علينا وعليكم بلزوم السنَّة واتِّباع أثر سلف الأمة، وأن يُجنِّبنا الأهواءَ والبدع، وأن يَمنَحنا صحَّةً في الاعتقاد، وسلامةً في الإيمان، واستقامة في السلوك، وحُسناً في الآداب والأخلاق، وأن يُوفِّقنا جميعاً بتوفيقه، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل، وأن يجعلنا هُداةً مهتدين، من الذين يستمعون القول فيَتَّبعون أحسنه، إنَّه وَليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبيِّه محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين(*).

(*) هي في الأصل محاضرة ألقيت في دولة الكويت في المخيم الربيعي الذي أقامته جمعية إحياء التراث الإسلامي في ١٤٢٠/٣/٧هـ أثابهم الله وبارك في جهودهم، وقد فُرِّغت من الشريط وأجْرَيْتُ عليها تعديلات يسيرة، وفضَّلتُ أن تبقى بأسلوبها الإلقائي كما كانت في المحاضرة، والله وحده الموفِّق.



الرسالة الحادية عشرة

مكانة الدعوة إلى الله

وأسس دعوة غير المسلمين



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكمل لنا الدِّين، وأتمَّ علينا النِّعمة، وجعل أمَّتنا أمَّةَ الإسلام خيرَ أمَّة، وبعث فينا رسولاً منَّا يتلو علينا آياته ويزكِّينا ويعلِّمنا الكتاب والحكمة، والصلاة والسلام على من أرسله الله للعالمين رحمة، نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أهمية الدعوة إلى الله وحاجة البشرية إليها

أما بعد: فلا شكٌّ أنَّ الدعوةَ إلى الله تعالى من أهم الواجبات الدينية، ومن أجلِّ القربات وأفضل الطاعات؛ إذ بها يتبيّن الهدى من الضلال، والحق من الباطل، والغي من الرشاد، والخطأ من السداد، والصلاح من الفساد، وهي وظيفة الرسل وأتباعهم إلى يوم القيامة.

فإنَّ الله تبارك وتعالى قد بعث رسلَه عليهم السلام دعاةً إلى دينه، وهداةً لعباده، فأوضح على أيديهم صراطه المستقيم ودينه القويم، وقد رحم عباده وأكرمهم ببعث الرسل إليهم ليعرفوا تفاصيل دينه، وليعبدوا الله على بصيرة، ولينتهوا عما نهوا عنه على بصيرة، ولئلاَّ يقولوا لا ندري ما أراد الله منَّا، أو ما جاءنا من بشير ولا نذير، فأقام بهم الحجة، وأزال الشبهة، وقطع المعذرة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[1].

فدعوا الناسَ إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم، وبيّنوا لهم ما فيه خيرهم وسعادتهم، وحذّروهم من الوقوع في مهاوي الردى ومنزلقات الضلالة، وطهَّروا

---

(١) سورة: الأنفال، الآية: (٤٢).

قلوبهم ونفوسهم من أدران الخسائس والرذائل، وحرَّروا قلوبهم من رقِّ الأهواء والشهوات، وأيقظوا بصائرهم لطلب رفيع المنازل وعالي الدرجات، وبلّغوهم دين الله البلاغ المبين، فما تركوا خيراً إلاّ دلُّوا أممهم عليه، ولا شرًّا إلاّ حذّروهم منه، وأعظم خير دلُّوا عليه هو توحيد الله وإخلاص الدين له، وأعظم شرٍّ حذّروا منه هو الكفر به وإشراك غيره معه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[4]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ثم إنَّ الله تعالى إنَّما خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، وليعظّموا أمره ونهيه، وليعرفوه بأسمائه وصفاته، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ

---

(١) سورة: النحل، الآية: (٣٦).

(٢) سورة: الأنبياء، الآية (٢٥).

(٣) سورة: الحديد، الآية: (٢٥).

(٤) سورة: البقرة، الآية: (٢١٣).

(٥) سورة: الذاريات، الآية: (٥٦).

(٦) سورة: البقرة، الآية: (٢١).

شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[1]، ولمّا كان غير ممكن للعقول أن تستقلَّ بمعرفة تفاصيل ذلك بعث الله رسلَه وأنزل كتبه لإيضاحه وبيانه وتفصيله للناس حتى يقوموا بعبادة الله على علم وبصيرة، فتتابع رسل الله على تبليغه، وتوالوا في بيانه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾[3]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((يعني يتبع بعضهم بعضاً))[4]، حتى ختمهم الله بسيّدهم، وأفضلهم وإمامهم نبيّنا محمد ﷺ، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقَّ جهاده حتى أتاه اليقين، ودعا إلى الله سرًّا وجهراً، وقام بأعباء الرسالة أكمل قيام، وأوذي في الله أشدَّ الأذى، فصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ولم يزل داعياً إلى الله هادياً إلى صراطه المستقيم حتى أظهر الله به الدِّين، وأتمَّ به النعمة، ودخل الناس بسبب دعوته في دين الله أفواجاً، ولم يمت صلوات الله وسلامه عليه حتى أكمل الله به الدِّين وأتمّ به النعمة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[5].

ثم سار أصحابُه الكرام من بعده على هذا السبيل القويم والصراط المستقيم، وقاموا به خير قيام، فنشروا الإسلام ورفعوا لواءه في كثير من البلاد لكمال صدقهم وقوة يقينهم وشدَّة ثباتهم وكمال إيمانهم، فضربوا للناس في ذلك بعد الرسل أروع الأمثال وأصدقها، وحازوا قصب السبق في هذا الميدان المبارك، ثم قفا نهجهم في ذلك تابعوهم بإحسان من الهداة المصلحين والدعاة الناصحين والأئمة المخلصين.

---

(١) سورة: الطلاق، الآية: (١٢).

(٢) سورة: فاطر، الآية: (٢٤).

(٣) سورة: المؤمنون، الآية: (٤٤).

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٢٤٥).

(٥) سورة: المائدة، الآية: (٣).

فبهذا انتشر دين الله وعلت كلمته وعمَّ في أرجاء المعمورة ؛ إذ «معلوم أنّه ما قام دين من الأديان ولا انتشر مذهب من المذاهب، ولا ثبت مبدأ من المبادئ إلاَّ بالدعوة، ولا هلكت أمة في الأرض إلاَّ بعد أن أعرضت عن الدعوة، أو قصر عقلاؤها في الأخذ على يد سفهائها، وما تداعت أركان ملّة بعد قيامها، ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها إلاَّ بترك الدعوة، فإذا أُهملت الدعوة فشت الضلالة وشاعت الجهالة، وخربت البلاد، وهلك العباد»[١].

فالدعوة إلى الله ضمان للمجتمع الذي توجد فيه من الهلاك العاجل والآجل.

ومن هنا أيضاً كانت «حاجة الأمة إلى الدعوة إلى الله الخالصة المخلصة التي تصحح عقائدهم وتنقّيها من الأكدار والشوائب وتحثُّهم على أداء ما يجب لله أو لخلقه واجتناب ما يحرم، وتحذّرهم من مغِبَّة الفساد والإفساد كحاجتهم إلى نزول الغيث وإلى الطعام الشهي والماء البارد، بل أشدّ لأنَّ مَن فقد الطعام والشراب غايته الموت، وربَّما أفضى به الموت إلى الجنة، أمَّا فقدَ الدِّين فهو يترتّب عليه الخسران الأبدي الذي يفضي بالعبد إلى النار وبئس القرار، وفرْقٌ بين الخسارتين»[٢].

حقيقةُ الدعوة إلى الله

ثمَّ إنَّ الدعوةَ إلى الله التي تكون بها سعادة الناس وفلاحهم في الدنيا والآخرة وسلامتهم من الخسران في الدارين «هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمّن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة

---

(١) فتاوى سماحة الشيخ عبد الله بن حميد (ص: ٣٠٨).

(٢) نصيحة للدعاة إلى الله تعالى للشيخ أحمد النجمي (ص: ٩، ١٠)، وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٥).

إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه، والدعوة إلى أن يعبد العبدُ ربَّه كأنَّه يراه ...

فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه، وأصلُ ذلك عبادته وحده لا شريك له، كما بعث الله بذلك رسلَه وأنزل به كتبَه، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[4].

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّا معاشر الأنبياء دينُنا واحد، الأنبياء إخوةٌ لعلاّت، وإنَّ أولى الناس بابن مريم لأنا، إنَّه ليس بيني وبينه نبيٌّ»[5]، فالدين واحد، وإنَّما تنوَّعت شرائعهم ومناهجهم كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[6]...»[7].

---

(١) سورة: الشورى، الآية: (١٣).

(٢) سورة: الزخرف، الآية: (٤٥).

(٣) سورة: النحل، الآية: (٣٦).

(٤) سورة: الأنبياء، الآية (٢٥).

(٥) انظر: صحيح البخاري (رقم: ٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، وصحيح مسلم (رقم: ٢٣٦٥). بألفاظ مقاربة لما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله.

(٦) سورة: المائدة، الآية: (٤٨).

(٧) مجموع الفتاوى (١٥/١٥٧ ـ ١٥٩).

فدين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد لا اختلاف بين أديانهم ولا تعارض، كلهم يدعون إلى توحيد الله وإخلاص الدين له والخضوع لأمره والبعد عن مساخطه والإقبال على طاعته، بعثوا جميعهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ولإنقاذهم من النار، ومن طاعة الشيطان، ولتخليصهم من طاعة الهوى ورِقِّ الشهوات إلى طاعة الله واتِّباع رسله عليهم الصلاة والسلام، مما يكفل لهم السعادة في الدين، والفوز والفلاح في الآخرة، فمن اتّبعهم هُدِيَ إلى سبيل الرّشاد، وظفر بمعاقد الصلاح والفلاح، وسلم من أوضار الرّدى والانحراف، وسمى بنفسه في أعلى درجات الفضيلة وأرفع منازل الإحسان.

«وليس من الخافي على كل من له أدنى علم أو بصيرة أنَّ العالم الإسلامي اليوم، بل العالم كلَّه في أشدِّ الحاجة إلى الدعوة الإسلامية الواضحة الجليّة التي تشرح للناس حقيقة الإسلام وتوضح لهم أحكامه ومحاسنه، وتشرح لهم معنى لا إله إلاَّ الله ومعنى شهادة أنَّ محمّداً رسول الله، فإنَّ أكثر الخلق لم يفهموا هاتين الشهادتين كما ينبغي، ولذلك دعوا مع الله غيره وابتعدوا عنه، إنَّ هاتين الشهادتين هما أصلُ الدين وأساسُ الملة وقاعدة الإسلام التي عليها مداره»[1].

فالدعوة إلى الله هي الدعوة إلى دينه القويم وصراطه المستقيم، القائم على إخلاص الدين له، والمتابعة لرسله عليهم الصلاة والسلام، وهو الدين الحق القويم، الذي كلَّما تأمّل فيه الناظر أو دافع عنه المناظر، ظهر له فيه صادقُ البراهين، وقويَ به اليقين، وازداد إيمان المؤمنين، وأشرق نورُه في صدور العالمين، بخلاف الأديان الباطلة والمذاهب المختَرَعة التي ليست من وحي ربِّ العالمين ولا من تنزيل

(١) مجموع فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (٢/٣٣٦).

خالق الخلق أجمعين، فإنَّها إذا جادل عنها المجادل ورام أن يقيم عودَها المائل لم يظفر منها إلاَّ بالقبح والفساد والتناقض والتضاد، وشقاء وهلاك العباد.

ولهذا فإنَّ الواجب على كلِّ إنسان أن يعلم أنَّ قطبَ السعادة التي عليه تدور، ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور، لا يكون إلاَّ بطاعة الله ورسوله ﷺ، إذ بذلك دون غيره يتبيّن الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، والنجاة من الوبال، والغي من الرشاد، والزيغ من السداد، وأهل الجنة من أهل النار، والمتَّقون من الفجار، وهذا أمرٌ لا يمكن للعقول أن تهتدي إليه وأن تُلِمَّ بحسنه إلاَّ إذا طلع عليها نورُ الرسالة ووصل إليها حقيقة الإسلام وحسنه وكماله.

حكم الدعوة إلى الله

ولهذا كان تبليغ هذا الدين ونشره بين العالمين واجبٌ من الواجبات الدينية وفريضةٌ من فرائض الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[1]، وهي من فروض الكفاية إذا قام بها بعض أفراد الأمة المسلمة سقط الإثم عن الباقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنَّها فرضٌ على الكفاية، وإنَّما يجب على الرجل المعيَّن من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأنُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول والجهاد في سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن ...»[2].

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «وصرّح العلماء أنَّ الدعوة

---

(١) سورة: آل عمران، الآية: (١٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١٦٦).

إلى الله عزَّ وجلَّ فرض كفاية، إذا قام بها من يكفي بالنسبة إلى الأقطار التي يقوم فيها الدعاة، فإنَّ كل قطر وكل إقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها، فهي فرضُ كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن الباقين ذلك الواجب، وصارت الدعوة في حق الباقين سنّةً مؤكَّدةً وعملاً صالحاً جليلاً.

وإذا لم يقم أهلُ الإقليم أو أهلُ القطر المعيَّن بالدعوة على التمام صار الإثمُ عاماً، وصار الواجب على الجميع، وعلى كل إنسان أن يقوم بالدعوة حسب طاقته وإمكانه، أمّا بالنظر إلى عموم البلاد، فالواجب أن يوجد طائفةٌ منتصبةٌ تقوم بالدعوة إلى الله جلّ وعلا في أرجاء المعمورة تبلّغ رسالات الله، وتبيِّن أمر الله عزَّ وجلَّ بالطرق الممكنة»[1].

فضل الدعوة إلى الله والحثّ عليها والثناء على القائمين بها

وقد تضافرت النصوص في الكتاب والسنة الدالّة على فضل الدعوة والمبيّنة لعظيم مكانة الدعاة ورفيع قدرهم عند الله، حيث إنَّه سبحانه قد رفع مِن شأن الدُّعاة وأَبْلَغَ في الثناء عليهم ومَدَحَهم وبيَّن فضلَهم في آي كثيرة من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

والاستفهام هنا للتقرير، أي لا أحد أحسن قولاً مِمَّن دعا إلى الله بتعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، وقام بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحثّ عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عمّا نهى الله عنه وتقبيحه

(١) مجموع فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (٢/٣٣٤ ـ ٣٣٥).
(٢) سورة: فصلت، الآية: (٣٣).

بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذا الدعوةُ إلى أصل دين الإسلام وتحسينه ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك[(١)]، فمن كان كذلك فهو أحسن النَّاس قولاً وأصحهم طريقة وأقومهم مسلكاً.

تلا الحسن البصري رحمه الله هذه الآية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، ثم قال: ((هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب اللهَ في دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب اللهَ فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين، هذا خليفة الله))[(٢)].

ولا ريب أنَّ هذا الثناء البالغ يحفِّز الهمم ويلهب الشعور ويحرِّك النفوس إلى الدعوة إلى الله والقيام بها على أحسن وجه.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[(٣)]، وفي هذه الآية الإخبارُ بأنَّ سبيلَ النبي الكريم ﷺ ومسلكه وطريقه وكذلك من اتَّبعه بإحسان هو الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له على بصيرة من الله ونور وبرهان.

ويقول تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[(٤)]، ويقول تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾[(٥)]،

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (٨٤/٧).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١٠١/٤).

(٣) سورة: يوسف، الآية: (١٠٨).

(٤) سورة: النحل، الآية: (١٢٥).

(٥) سورة: القصص، الآية: (٨٧).

فذكر الدعوة إليه والدعوة إلى سبيله ؛ لأنَّ الداعيَ الذي يدعو غيره إلى أمر لا بدَّ فيما يدعو إليه من أمرين :

أحدهما : المقصود المراد.

والثاني : الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود.

فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله فإنَّه سبحانه المعبود المراد المقصود بالدعوة[١].

ويقول تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[٢]، والآيات في الحثِّ على الدعوة إلى الله والترغيب في ذلك وبيان ما أعدَّ الله للدعاة إليه من الثواب والأجر والرفعة في الدنيا والآخرة كثيرة جدًّا.

وهكذا السُنَّة النَّبوية ورد فيها أحاديثُ كثيرةٌ دالَّةٌ على فضل الدعوة إلى الله وعِظم ثواب الداعين إليه، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((مَن دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله))[٣]، وروى أيضاً مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور مَن تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً))[٤].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/١٦٢).

(٢) سورة: آل عمران، الآية: (١٠٤).

(٣) صحيح مسلم (رقم: ١٨٩٣).

(٤) صحيح مسلم (رقم: ٢٦٧٤).

وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ((فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النّعم))، رواه البخاري ومسلم[(١)].

أصنافُ المَدْعُوِّين

ينقسم المدعوون إلى صنفين رئيسين ويندرج تحت كلٍّ صنف منهما أقسام عديدة:

الصنفُ الأوَّلُ: أهلُ الإسلام الذين قبلوا هذا الدين وخضعوا لربِّ العالمين، وآمنوا برسوله الكريم ﷺ، ويُعرفون بأمَّة الإجابة، وهم في الجملة على ثلاث درجات: سابقٌ بالخيرات، ومقتصدٌ، وظالمٌ لنفسه، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾[(٢)]، وجميعهم من أهل الجنة، ولذا قال تعالى في الآية التي تليها: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[(٣)]، إلاَّ أنَّ السابقَ بالخيرات والمقتصدَ كلاهما يدخل الجنَّةَ بغير حساب، وأمَّا الظالم لنفسه فأمره إلى الله، إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له، وإن عذَّبه فإنَّه لا يَخلُدُ في النار. فهؤلاء يُدعون إلى الثبات عليه، والتزوّد منه، والبعد عمَّا ينقصه ويخلُّ به، كلٌّ منهم بحسبه.

الصنفُ الثاني: أهلُ الكفر أو غير المسلمين؛ لأنَّ مَن لم يكن مسلماً فهو كافر،

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ٣٠٠٩)، صحيح مسلم (رقم: ٢٤٠٦).

(٢) سورة: فاطر، الآية: (٣٢).

(٣) سورة: فاطر، الآية: (٣٣).

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١)، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝﴾(٢)، وهؤلاء ينقسمون إلى أقسامٍ كثيرةٍ وطرائقَ متنوِّعةٍ، وألوانٍ مختلفةٍ في الكفر والضلال والباطل، لكن يمكن إجمالُهم في الأصناف التالية:

١ ـ **الملاحدة**: الذين ينكرون وجود الله ويجحدون ربوبيّته كالدَّهريين قديماً الذين ذكر الله عنهم في القرآن قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝﴾(٣)، وكالشيوعيين حديثاً الذين شعارهم: أن لا إله والحياة مادة، فأنكروا وجود الله وجميع الأمور الغيبية كالبعث والحساب والجنة والنار ونحو ذلك، ويقولون: نحن نؤمن بثلاثة: ماركس، ولينين، وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، والدِّين، والملكية الخاصة، قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون.

٢ ـ **المشركون**: وهم أهل الأوثان والأصنام الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا معه سواه من الأنداد والوسطاء، يحبونهم كحب الله، ويصرفون لهم من الخضوع والذّلّ والعبادة ما لا يصرف إلاَّ لله، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾(٤)، ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٥)، وهؤلاء لا ينكرون وجود الله وخلقه للأشياء، بل يؤمنون بأنه الخالق الرازق المنعم المدبِّر،

---

(١) سورة: آل عمران، الآية: (١٩).

(٢) سورة: آل عمران، الآية: (٨٥).

(٣) سورة: الجاثية، الآية: (٢٤).

(٤) سورة: البقرة، الآية: (١٦٥).

(٥) سورة: الزمر، الآية: (٣).

لكن جعلوا بينهم وبينه الوسطاء والشفعاء يدعونهم ويسألونهم ويستغيثون بهم، ويصرفون لهم أنواع العبادة ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1].

٣ ـ **المرتدُّون**: وهم الذين دخلوا في هذا الدين وأذعنوا لشرع ربِّ العالمين، ثم نكصوا على أعقابهم، وكفروا بعد إيمانهم، وارتدُّوا بعد إسلامهم ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾[2].

والمُرتدُّون في الجملة صنفان:

١ ـ صنفٌ ارتدُّوا عن الدِّين ونابذوا المِلَّةَ وعادوا إلى الكُفر.

٢ ـ وصنفٌ آخرُ وهم الذين فرّقوا بين أحكام الدِّين فآمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ، كالذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة[3].

والارتدادُ عن الدين والخروج منه يكون بأمور عديدة عقد لها أهل العلم أبواباً خاصة في كتب الأحكام في كتاب «أحكام المرتدِّين». وللردَّة أسبابٌ عديدةٌ، ودوافعُ متنوِّعة، منها اتِّباع الأهواء، والجهل بالدين، والطمع في الدنيا، ودعاة السوء.

٤ ـ **أهل الكتاب**: وهم الذين لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ من أهل الديانات السماوية السابقة؛ كاليهود والنصارى، وسُمُّوا أهل كتاب لكونهم منتسبين إلى كتبهم السابقة مع ما اعتراها من تحريف وتغيير وتبديل، فمن لم يؤمن بنبوة محمد ﷺ ويتبعه من هؤلاء فهو كافر؛ لأنَّ رسالةَ محمد ﷺ ناسخةٌ للشرائع السابقة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمع بي أحدٌ مِن هذه الأمَّة

---

(١) سورة: يونس، الآية: (١٨).

(٢) سورة: البقرة، الآية: (١٠٨).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنّووي (١/ ٢٠٢).

يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمَّ يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلاَّ كان من أصحاب النار»[١].

٥ ـ **المنافقون**: وهم أغلظ الكفار كفراً، وأشدّهم على المسلمين خطراً، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون في قلوبهم الكفر والفسوق والعصيان، ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[٢]، ولذا فإنَّ الله تعالى قد جعل عقوبات هؤلاء في النار أشدَّ العقوبات وجعلهم في أسفل دركاتها وأحطّ منازلها: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾[٣].

وجميع هؤلاء الكفار على اختلاف أصنافهم وتباين طرائقهم مخاطَبون بالدعوة الإسلامية، مُطالَبون بالدخول في الدِّين الإسلامي؛ لينقذوا أنفسهم من النار يوم القيامة، وليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة، وليسلموا من الخزي العظيم والخسران المبين، ويجب على المسلمين أن يبلِّغوهم رسالة الإسلام وأن يبيّنوا لهم هذا الدِّين، ولا سيما في وقتنا الحاضر، فـ «قد يسّر الله عزَّ وجلَّ أمر الدعوة أكثر بطرق لم تحصل لمن قبلنا، فأمور الدعوة اليوم متيسّرة أكثر، من طرق كثيرة، وإقامة الحجة على الناس اليوم ممكنة بطرق متنوِّعة عن طريق الإذاعة، وعن طريق التلفزة، وعن طريق الصحافة، ومن طرق شتى»[٤].

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ١٥٣).

(٢) سورة: البقرة، الآية: (١٤).

(٣) سورة: النساء، الآية: (١٤٥). وهذا فيه دلالةٌ على أنَّ الكفارَ متفاوتون يوم القيامة في عذاب النَّار بحسب كفرهم وإيذائهم للمسلمين وصدِّهم عن سبيل الله، وانظر: فتحَ الباري لابن حجر (١١/ ٤٢٣).

(٤) مجموع فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (١/ ٣٣٥).

وينبغي عند دعوة هؤلاء أن تُراعى أحوالُهم، وأن يعرف الداعيةُ نوعَ كفرهم، وما لديهم من شُبَهٍ فيه وأسبابَه ودواعيَه، ثم يخاطب كلَّ قومٍ بالأسلوب المناسب لهم، وكلَّ فئة بالطريقة المؤثِّرة فيها، ولا ريب أنَّ طريقة إبلاغ الدعوة للملحد مختلفة عن إبلاغها للمشرك، وطريقة إبلاغها للمشرك مختلفة عن طريقة إبلاغها للكتابي، وهكذا، كما ينبغي أيضاً أن تُراعى نفسياتهم وأحوالهم ومواقفهم من الدِّين؛ فمنهم الراغب في الخير، ولكنه غافلٌ قليلُ البصيرة، ومنهم المعرضُ عن الحق المشتغل بغيره، ومنهم المعاندُ المجادل، ولكلٍّ صنف من هؤلاء أسلوبٌ يناسبه عند دعوته.

مراتب الدعوة بحسب حال المدعوِّين

تبيّن بما تقدّم ضرورةُ مراعاة حال المدعوِّين عند دعوتهم إلى الله، وأهميّةُ مخاطبة كلٍّ منهم بالأسلوب المناسب له، والأقربِ للتأثير فيه؛ إذ إنَّ مقصودَ الداعية الناصح هو إيصالُ الخيْر إلى المدعوِّين بأنجح طريقٍ وأقربِ سبيلٍ، مراعياً في كلٍّ منهم ما يناسبه وما يكون أقوى تأثيراً فيه.

ويمكن في الجملة أن يُقال: إنَّ مراتبَ الدعوة عند مراعاة حال المدعوِّين ثلاثٌ هي: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلى هذه الأقسام الثلاثة أشار الله في القرآن الكريم بقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[1].

قال ابن القيم رحمه الله في بيان معنى هذه الآية: ((فذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعوِّ، فإنَّه إمَّا أن يكون طالباً للحق راغباً فيه محبًّا له مؤثراً له على غيره إذا عرفه، فهذا يُدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة

---

(١) سورة: النحل، الآية: (١٢٥).

ولا جدال، وإمَّا أن يكون معرضاً مشتغلاً بضدِّ الحق ولكن لو عُرِّفَهُ عَرَفَهُ وآثره واتَّبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإمَّا أن يكون معانداً معارضاً فهذا يُجادَل بالتي هي أحسن»[1].

فهذه الآية الكريمة فيها تحديدٌ للخطوط العريضة ـ كما يُقال ـ للمراتب الناجحة في الدعوة بحسب حال المدعوِّين «لأنَّ المدعوِّين أصنافٌ كثيرةٌ وطبقاتٌ مختلفةٌ:

١ ـ فمنهم الراغبُ في الخير ولكنه غافلٌ قليلُ البصيرة فيحتاج إلى دعوته بحكمة، وهي تفهيمه الحق وإرشاده إليه وتنبيهه على ما فيه من المصلحة العاجلة والآجلة، فعند ذلك يقبل الدعوةَ ويتنبَّه من غفلته وجهله ويبادر إلى الحق.

٢ ـ ومنهم المعرضُ عن الحق المشتغل بغيره، فمثلُ هذا يحتاج إلى الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتنبيه على ما في التمسك بالحق من المصالح العاجلة والآجلة، وعلى ما في خلافه من الشقاء والفساد وسيِّء العواقب، ولعلّه بهذا يجيب إلى الحق ويترك ما هو عليه من الباطل.

٣ ـ الطبقة الثالثة من النَّاس مَن له شبهةٌ قد حالت بينه وبين فهم الحق والانقياد له فهذا يحتاج إلى مناقشة وجدال بالتي هي أحسن حتى يفهم الحق وتنزاح عنه الشبهةُ، ومثل هذا يجب على الداعي أن يرفق به أكثر من الذين قبله وأن يصبر على مناقشته واقتلاع جذور الشبهة من قلبه، وذلك بإيضاح الأدلّة الدّالة على الحق وتنويعها وشرحها شرحاً وافياً جلياً على حسب لغة المدعو وعرفه»[2].

ولا ريب أنَّ هذا يتطلّب من الداعي مزيداً من الفقه في الدين، والبصيرة بأحكام الشريعة، والمعرفة بأحوال المدعوين.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٢٧٦ ـ ١٢٧٧).

(٢) مجموع فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (١/٣٤١، ٣٤٢).

ترتيبُ الأولويات في الدعوة

ثمَّ مع ذلك كلّه لا بدَّ من مراعاة الأولويات في الدعوة إلى الله، فلا يبدأ بالمهم قبل الأهمّ، ولا يبدأ بالفروع قبل الأصول، بل لا بدَّ أوَّلاً من ترسيخ العقيدة وبيان الإيمان وتقرير أصول الدين، ثم بعد ذلك ينتقل إلى بيان الأحكام الشرعية والأوامر والنواهي والأخلاق والآداب، فالداعية «إذا أراد الدعوة إلى ذلك، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلاَّ الله إذ لا تصح الأعمال إلاَّ به فهو أصلها الذي تبنى عليه، ومتى لم يوجد لم ينفع العمل بل هو حابط، إذ لا تصح العبادة مع الشرك كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1]، ولأنَّ معرفةَ معنى الشهادة هو أوّلُ واجب على العباد فكان أوّل ما يبدأ به في الدعوة»[2].

فهذا هو منهجُ الأنبياء جميعهم في الدعوة إلى الله يبدؤون أوَّلاً بدعوة أقوامهم إلى توحيد الله وإخلاص الدين له ونبذ الشّرك ثم بعد ذلك يعلّمون مَن نطق بالتوحيد وأقرَّ به بقيَّةَ شرائع الدين، وهكذا كان الشأن في خاتم النبيّين ﷺ وأتباعه بإحسان إلى يوم الدّين.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ لّما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إنَّك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أوّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلاّ الله - وفي رواية: «أن يوحدوا الله» - فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمسَ صلوات في كلِّ يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم

---

(١) سورة: التوبة، الآية: (١٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الله (ص: ١٢٢، ١٢٣).

فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم واتّقِ دعوةَ المظلوم فإنَّه ليس بينه وبين الله حجاب)) [١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أنَّ أصلَ الإسلام وأوّل ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدوُّ ولياً، والمباحُ دمُه ومالُه معصومَ الدم والمال)) [٢].

ثم بعد الدعوة إلى التوحيد تبيّن الأحكام ويُدعى الناسُ إليها وتعالج الأمراض الفاشية في المجتمع، فنبيُّ الله لوط عليه السلام ركّز بعد الدعوة إلى التوحيد على التحذير من فاحشة اللّواط لفشوِّها وانتشارها في قومه، ونبيُّ الله شعيب عليه السلام ركّز على التحذير من نقص الكيل والوزن، وهكذا بقيّة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين يهذِّبون العقائد أوّلاً ثم يستصلحون بعد ذلك الجوانب الأخرى من الفساد، وهدفهم ومقصودهم من ذلك كله هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإرشادهم إلى الحق حتى يأخذوا به وينجوا من النار وسخط الجبار.

طريقة دعوة الكفار إلى الإسلام

إنَّ الطريقةَ المثلى الكاملة في دعوة الكفار إلى الإسلام هي طريقة القرآن الكريم بحججه الناصعة وبراهينه الساطعة ودلالاته القويمة وإرشاداته البيِّنة الواضحة، وعندما نتأمّل في الطرق التي في القرآن لدعوة الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم نجد أنَّها تتركّز في النقاط التالية [٣]:

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٣٩٥)، صحيح مسلم (رقم: ١٩).

(٢) نقله الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد (ص: ١٢٧).

(٣) انظر في ذلك: القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ص: ٩).

١ ـ بيان محاسن الدين الإسلامي وكماله وجماله في عقائده وعباداته وآدابه، يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: ((المسلمون اليوم بل العالم كله في أشد الحاجة إلى بيان دين الله وإظهار محاسنه وبيان حقيقته، والله لو عرفه الناس اليوم ولو عرفه العالم على حقيقته لدخلوا فيه أفواجاً))(١).

٢ ـ ذكر البراهين الدالة على رسالة محمد ﷺ ليهتدي من قصده الحق والإنصاف ولتقوم الحجة على المعاند.

٣ ـ إبطال شبهات الكفار حول الدين، ونقض ما يحتجون به أو يجادلون به المسلمين، وقد دلّ القرآن الكريم على أوضح البراهين وأقوى الحجج الكافية لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

٤ ـ تذكير الكفار بعقوبات الأمم السالفة وإهلاك الله للأمم العاتية بأنواع من العقوبات وصنوف من المَثُلات.

٥ ـ تحذيرهم من عقوبات الدنيا وعقوبات الآخرة التي أعدّها الله للكافرين.

٦ ـ الجمع لهم بين الترغيب والترهيب بذكر ما يترتّب على إسلامهم من الفوائد العظيمة والثمار النافعة والخير المستمر في الدنيا والآخرة، وما يترتب على بقائهم على الكفر من الشرور الكثيرة والأضرار الخطيرة والمفاسد المتوالية في الدنيا والآخرة، ومن ذلك قول النبي ﷺ في كتابه إلى هرقل ملك الروم: ((... أما بعد فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلَم يؤتك الله أجرك مرَّتين، فإن تولّيت فإنَّ عليك إثم الأريسيّين))(٢).

فجمع ﷺ في هذه الجملة بين الترغيب والترهيب(٣).

---

(١) مجموع مؤلفاته (١/ ٣٣٨).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٧).

(٣) وانظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٣٩).

٧ ـ تنبيههم إلى ما في أديانهم الباطلة من أنواع الشرور والفساد والعواقب الوخيمة والتناقض والاضطراب.

٨ ـ تحذيرهم من طاعة رؤساء الشر ودعاة النار، وأنّهم لا بدّ أن تتقطّع نفوسهم على طاعتهم حسرات.

٩ ـ تذكيرهم بآلاء الله المتوالية ونعمه المتتالية عليهم، وبيان أنّه المنفردُ بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة، وأنَّ من كان كذلك فهو الذي يستحق أن يعبد ويطاع دون ما سواه.

١٠ ـ عقد المقارنات بين ما في الإسلام من محاسن وكمالات وما في أديانهم من مساوئ وجهالات وتناقضات.

١١ ـ مناظرتهم بالعلم الثاقب والبرهان الواضح والحجج البيِّنات، وفي مناظرتهم «فائدتان:

إحداهما: أن يردّ عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكفّ شرّه وعداوته ويتبيّن للناس أنَّ الذي معه باطل»[(١)].

١٢ ـ إزالة ما لديهم من مفاهيم خاطئة عن الدين أو تصوّرات مشوَّهة حوله، إذ إنَّ من هؤلاء من قد يبلغه الدين بصورة مشوَّهة بسبب فساد في بعض منتحليه من الفرق الضالة المنتسبة إلى الإسلام أو جهل في بعض ناقليه فلا يظهر للمدعوِّين روحُ الإسلام وحقيقتُه وجماله وكماله، فيكون ذلك سبباً في نكوص بعضهم وعدم إقبالهم، فإذا أزيلت تلك التصورات المشوّهة والمفاهيم الخاطئة بدا للمدعوِّين حسن هذا الدين وكماله وبعده عن الشطط والانحراف.

دخل مرّة على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ثلاثة رهبان فناظرهم، وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار، وأنّهم ليسوا على دين إبراهيم والمسيح عليهما السلام.

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم (٤/١٢٧٦).

فقالوا له: نحن نعمل مثل ما تعملون: أنتم تقولون بالسيدة نفيسة ونحن نقول بالسيدة مريم، وقد أجمعنا نحن وأنتم على أنَّ المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك.

فقال لهم: إي مَن فعل ذلك ففيه شبهٌ منكم، وهذا ما هو دين إبراهيم الذي كان عليه، فإنَّ الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام أن لا نعبد إلاَّ الله وحده لا شريك له ولا ندَّ له ولا صاحبةَ له ولا ولدَ له، ولا نشرك معه ملَكاً ولا شمساً ولا قمراً ولا كوكباً، ولا نشرك معه نبياً من الأنبياء ولا صالحاً ... وأخذ يبيِّن لهم توحيد الأنبياء والمرسلين وحقيقته وأنَّه بخلاف ما عليه أولئك المبطلون.

فلمّا سمعوا ذلك منه قالوا: الدين الذي ذكرتَه خيرٌ من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه، ثم انصرفوا من عنده[1].

١٣ ـ الرفق بهم والاجتهاد في مناصحتهم وتأليف قلوبهم والصبر في ذلك وعدم استعجال النتائج والثمرات.

وتأليف قلوب هؤلاء له أثره البالغ عليهم في جلب قلوبهم للخير وتحبيبهم في الهداية وترغيبهم في الإسلام، ((كما روى أبو داود أنه استسقى لبعض المشركين لَمَّا طلبوا منه أن يستسقي لهم فاستسقى لهم[2]، وكان ذلك إحساناً منه إليهم يتألّف به قلوبَهم كما كان يتألّفهم بغير ذلك))[3].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/٣٧٠ ـ ٣٧١).

(٢) لم أقف عليه في سنن أبي داود، وروى البخاري في صحيحه (رقم: ٤٨٢١) نحوه من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه: ((فأُتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله لمُضر. قال: لمضر؟! إنَّك لجريء، فاستسقى فسُقوا ...))، الحديث.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/١٤٥).

وروى الإمام أحمد عن صفوان بن أميّة رضي الله عنه قال: «أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنَّه لأبغضُ النّاس إليَّ فما زال يعطيني حتى صار وإنَّه لأحبُّ النّاس إليَّ»[١].

وروى البخاري في الأدب المفرد بإسناد جيِّد عن مجاهد قال: كنتُ عند عبد الله بن عمرو وغلامُه يسلخ شاةً فقال: يا غلام إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي، فقال رجلٌ من القوم: اليهودي؟ أصلحك الله، قال: «إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو رُؤينا أنَّه سيورِّثه»[٢].

فتأليف القلوب، والرفق بالمدعوِّين، والإحسان إليهم ونحو ذلك له تأثيرٌ بالغٌ في نفوسهم لقبول الخير والقناعة به.

الركائز والأسس التي ينبغي أن تتوفّر في الداعية

وهذا يدعونا للحديث عن صفات الداعية الناجح المؤثِّر، أو الركائز والأسس التي ينبغي أن يكون عليها الداعية حتى تؤتي دعوتُه ثمارَها، وهي كثيرة وسأقتصر على ذكر أهمها وأبرزها:

أوّلاً: الإخلاص.

وهو أساس قبول الأعمال كلِّها، فإذا عريت منه لم تقبل، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤]، فالداعية لا بدَّ أن يكون مخلصاً لله في أعماله ودعوته لربِّه لا يريد بذلك

---

(١) المسند (٦/٤٦٥)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٦٤)، تفسير قوله: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ من سورة التوبة.

(٢) الأدب المفرد (رقم: ١٢٨)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب المفرد (رقم: ٩٥).

(٣) سورة: الزمر، الآية: (٣).

(٤) سورة: البيِّنة، الآية: (٥).

رياءً ولا سمعةً ولا ثناءَ الناس ولا مدحهم وإنَّما يريد بذلك وجه الله، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾[1]، ففي هذه الآية الكريمة «التنبيه على الإخلاص؛ لأنَّ كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه»[2]. ولهذا فإنَّ الداعية المخلص لا يكون همُّه تكثير أتباعه أو ذيوع صيته أو كثرة مدحه أو نحو ذلك، وإنّما همّه ووكده دخول الناس في دين الله وإنقاذهم من النار.

ثانياً: الصدق مع الله:

وهو أساسٌ عظيمٌ لا بدَّ من توافره في الداعية إلى الله في قصده وقوله وعمله، فيمضي في دعوته بعزيمة صادقة ونية صالحة وإرادة صحيحة، كما قال الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾[3]، وإذا كان الداعية صادقاً مع الله في دعوته عباده آتت دعوته ثمارها واطمأنَّ الناس له، وقبلوا دعوته، وأقبلوا عليه، ونفذ كلامه إلى قلوبهم، فإنَّ الذي يخرج من القلب ينفذُ إلى القلب، والذي يخرج من اللسان لا يتجاوز السمع.

ثالثاً: التأسي بالنّبيِّ ﷺ:

إذ هو القدوة والأسوة الحسنة في كلِّ شيء، كما قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[4]، وأولى

---

(١) سورة: يوسف، الآية: (١٠٨).

(٢) كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ص: ٣٣).

(٣) سورة: الأحزاب، الآية: (٢٣، ٢٤).

(٤) سورة: الأحزاب، الآية: (٢١).

الناس بالاقتداء به هم الدعاة إلى الله ؛ لأنّهم يدعون الناس إلى اتباعه والاقتداء به، فوجب أن يكونوا هم السابقين إلى ذلك.

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه أثر في المدعوين بالغ التأثير بكمال سيرته وحسن خُلُقه وجمال آدابه ورفق معاملته ونبل هديه وسمته، ولهذا كان الرجل المنصف بمجرد أن يراه ويسمع حديثه يتيقّن صدقه وصدق ما يدعو إليه، وبمجرد أن يرى وجهه الكريم يعرف أنه ليس بوجه كذاب، فحريٌّ بالدعاة إلى الله أن يكونوا أكمل الناس اقتداءً به، وأعظم الناس تقيُّداً بسيرته وهديه وآدابه ﷺ.

رابعاً: العلم:

وهو شرط لا بدَّ من توافره في الداعية إلى الله، لا بدَّ أن يدعو إلى الله بعلم وبصيرة، ومن تكلّم فيما لا يعلم يهدم ولا يبني ويفسد ولا يصلح، يقول الله تعالى مبيِّناً نهج النبي ﷺ وأتباعه في الدعوة إلى الله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]، والبصيرة هي العلم الصحيح المبني على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والعلم مقدم على القول والعمل والدعوة إلى الله، كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[2]، فبدأ سبحانه بالعلم قبل القول والعمل؛ لأنه «شَرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدّم عليهما لأنّه مصحح للنية المصححة للعمل»[3].

وكما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «مَن عبَدَ اللهَ بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[4].

---

(١) سورة: يوسف، الآية: (١٠٨).

(٢) سورة: محمد، الآية: (١٩).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١/١٦٠) وهو من كلام ابن المنير.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/١٣٦).

ولهذا مدح الله أهلَ العلم في كتابه ونوّه بذكرهم في آيٍ كثيرة منه، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(٢)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(٣).

والداعية إذا لم يصحبه العلم من أوّل قدم يضعه في طريق الدعوة إلى آخر قدم ينتهي إليه فيها، فسلوكه على غير طريق، ومسيره على غير سداد، وهو مقطوعٌ عليه طريق الوصول، مسدودٌ عليه سبيل الهدى والفلاح، ولا ينهى عن العلم إلا قطّاع الطريق ونواب إبليس وشُرَطِه(٤).

خامساً: الرفق:

فينبغي للداعية أن يكونَ رفيقاً بالمدعوين حليماً معهم، طليقَ الوجه ليِّن العريكة، لطيف العبارة كما قال النبي ﷺ: «إنَّ الرِّفقَ لا يكون في شيء إلاَّ زانه، ولا يُنزع من شيء إلاَّ شانه»(٥)، وقال ﷺ: «إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ، ويُعطي علي الرِّفق ما لا يعطي على العُنف، وما لا يعطي على ما سواه»(٦)، وقال ﷺ: «بشِّروا ولا تنفِّروا ويسِّروا ولا تعسِّروا»(٧)، وقال ﷺ: «من يُحرَم الرفقَ يُحرَم الخيرَ»(٨).

---

(١) سورة: الزمر، الآية: (٩).

(٢) سورة: المجادلة، الآية: (١١).

(٣) سورة: فاطر، الآية: (٢٨).

(٤) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/٤٦٤).

(٥) صحيح مسلم (رقم: ٢٥٩٤).

(٦) صحيح مسلم (رقم: ٢٥٩٣).

(٧) صحيح مسلم (رقم: ١٧٣٢).

(٨) صحيح مسلم (رقم: ٢٥٩٢).

وذلك أنَّ المقصودَ من الدعوة إلى الله تبليغُ شرائع الله إلى الخلق، ولا يتمُّ ذلك إلاَّ إذا مالت قلوبهم إلى الداعي وسكنت نفوسهم إليه، وذلك إنَّما يكون إذا كان الداعي رحيماً كريماً؛ ولذا قال الله تعالى في حق رسوله ﷺ سيِّد الأنبياء والمرسلين: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾[1]، أي لو كنت خشناً جافياً في معاملتهم لتفرقوا عنك، ونفروا منك، ولم يسكنوا إليك ولم يتم أمرك من هدايتهم وإرشادهم إلى الصراط السوي.

ثم إنَّ الداعية أياً كانت منزلته وأياً كان عقله وعلمه ليس بأفضل من موسى وهارون عليهما السلام، ومن وجّهت إليه الدعوة ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله باللين معه في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[2][3].

سادساً: الصبر:

وهو خُلُقٌ فاضلٌ كريمٌ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وزكاتها وقوامها، وهو من أهم المهمات ومن أعظم الواجبات، ولا سيما في حق الدعاة إلى الله وإلى دينه القويم، ولهذا أمر الله به أنبياءَه ورسلَه عليهم السلام وهم سادةُ الدعاة إلى الله ومقدموهم، وأمر به إمامَهم وخاتَمهم محمداً ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ

---

(١) سورة: آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٢) سورة: طه، الآية: (٤٤).

(٣) انظر: فتاوى سماحة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله (ص: ٣١١).

(٤) سورة: الأحقاف، الآية: (٣٥).

(٥) سورة: النحل، الآية: (١٢٧، ١٢٨).

فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، وإن لم يكن الداعية صبوراً انقطع من أوّل الطريق وانثنى من أوّل المسير؛ لأنّه لا بدّ أن ينتابه فيه شيء من الأذى والابتلاء، فإن لم يكن متحلّياً بالصبر لم يستطع المضي في طريق الدعوة، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2].

«فلا بدَّ من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كلٌّ من الثلاثة مستصحباً في هذه الأحوال، وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ... «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلاَّ مَن كان فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهى عنه رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه»»[3].

سابعاً: القدوة الحسنة:

فالداعية إلى الله ينبغي أن يكون سباقاً إلى الخير، منافساً في الطاعات، مبتعداً عن الشر، لا يرى فيه المدعوون إلاَّ الأخلاقَ الحميدة والمعاملات الكريمة وحسن السيرة والجد والاجتهاد في تطبيق ما يقول كما قال الله تعالى عن نبيِّه شعيب ﷺ: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ ﴾[4]، خلافاً للذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يأمرون من دعاة الباطل وأئمّة السوء.

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: (٣٤).

(٢) سورة: آل عمران، الآية: (١٢٠).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/١٣٧).

(٤) سورة: هود، الآية: (٨٨).

يقول ابن القيم رحمه الله: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلُمّوا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أوّل المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاّء وفي الحقيقة قطاع الطرق»(١).

والداعية بسيرته الحميدة وبحسن تطبيقه لما يدعو إليه يؤثر في الناس تأثيراً أبلغ من تأثير القول والكلام، فكما يقال: الدعوة بلسان الحال أبلغ منها بلسان المقال.

ثامناً: حسن الخلق:

فإنَّ الداعية بحسن خلُقه وطيب معاملته وكريم معشره يؤثِّر في المدعوين أعظم التأثير، ويجذب قلوبهم إليه، ويأسر نفوسهم ويحرِّك مشاعرهم، قال ﷺ: «إنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقاً»(٢)، وقال ﷺ: «إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٤).

وحسن الخلق كما يقول ابن القيم رحمه الله يقوم على أركان أربعة لا يتصور قيام ساقه إلاَّ عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

١ ـ فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكفِّ الأذى والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة.

---

(١) الفوائد (ص: ٨٠).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٣٥٥٩).

(٣) سنن الترمذي (رقم: ٢٠١٨)، وحسّنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٢٢٠١).

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم: ٢٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم: ٤٥).

٢ ـ والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

٣ ـ والشجاعة تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشِّيَم وعلى البذل والندى، وتحمله على كظم الغيظ والحلم.

٤ ـ والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة(١).

فبمثل هذه الصفات الرائعة والنعوت الكريمة والمثل الرفيعة أثّر سادات الدعاة وأئمة الهدى في الناس وجذبوا قلوبهم إلى هذا الدين الحنيف.

تاسعاً: بذل الوسع:

ولا بدَّ مع ذلك من بذل الوسع والطاقة في الدعوة إلى الله، والجد والاجتهاد في نشر الخير، وعدم التقاعس والكسل في هذا الأمر العظيم والله يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾(٢).

عاشراً:

الإيمانُ بأنَّ الهدايةَ والتوفيقَ بيد الله وحده، يهدي من يشاء ويضلل من يشاء كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ ﴾(٣)، والذي بيد الداعية بتوفيقٍ من الله هو البيانُ والإرشاد

---

(١) مدارج السالكين (٢/٣٠٨).

(٢) سورة: العنكبوت، الآية: (٦٩).

(٣) سورة: القصص، الآية: (٥٦).

والدعوةُ بالحكمة والموعظة الحسنة.

فعلى الداعية أن يأخذ بالأسباب المناسبة والطرق الصحيحة، وأن لا ييأس إن لم يُجِب إلى دعوته أحد فإنَّ الأمرَ لله من قبلُ ومن بعدُ، إذ إنَّ من أنبياء الله من يأتي يوم القيامة ولم يُجِب دعوته أحد ومنهم من يأتي ومعه الرجلُ والرجلان، كما قال عليه الصلاة والسلام: «عُرضت عليَّ الأممُ فرأيت النَّبيَّ ومعه الرُّهَيْط والنَّبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنَّبيَّ ليس معه أحد». رواه البخاري ومسلم(١).

حادي عشر:

الاستعانةُ بالله وحده واللجوءُ الدائم إليه، وكثرةُ دعائه وسؤاله العونَ والتوفيقَ كما قال تعالى عن نبيِّه شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾(٢)، وأن يدعو لهم بالهداية، كأن يقول للمدعو: هداك الله، وفقك الله لقبول الحق، أعانك الله على قبول الحق، ولهذا فإنَّ النبي ﷺ لما قيل له عن دوس: إنَّهم عصوا، قال: «اللَّهم اهْدِ دوساً وائْتِ بهم»(٣)، فدعا لهم صلوات الله وسلامه عليه بالهداية(٤).

وروى مسلم في صحيحه عن يزيد بن عبد الرحمن قال: حدّثني أبو هريرة رضي الله عنه قال: «كنت أدعو أمّي إلى الإسلام وهي مشركةٌ فدعوتُها يوماً فأسمعتني في رسول الله ما أكرهُ، فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله، إنِّي كنتُ أدعو أمِّي إلى الإسلام فتأبى عليَّ فدعوتُها اليوم فأسمعتني فيك

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ٥٧٥٢)، وصحيح مسلم (رقم: ٣٧٤). واللفظ لمسلم.

(٢) سورة: هود، الآية: (٨٨).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ٤٣٩٢).

(٤) انظر: فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (١/ ٣٥١).

ما أكرهُ فادعُ اللهَ أن يهديَ أمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اهد أمَّ أبي هريرة»، فخرجتُ مستبشراً بدعوةِ نبيِّ الله ﷺ، فلمَّا جئتُ فصرتُ إلى الباب، فإذا هو مجافٌّ، فسمعتْ أمّي خشفَ قدميَّ فقالت: مكانك يا أبا هريرةَ! وسمعتُ خضخضةَ الماء، قال: فاغتسلتْ ولبستْ درعَها وعجلتْ عن خمارها ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرةَ! أشهدُ أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال قلت: يا رسول الله! أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أمَّ أبي هريرة، فحمد اللهَ وأثنى عليه وقال خيراً.

قال قلت: يا رسول الله! ادعُ اللهَ أن يحبِّبني أنا وأمِّي إلى عباده المؤمنين، ويحبِّبهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ حبِّب عُبَيْدَكَ هذا ـ يعني أبا هريرة ـ وأمَّه إلى عبادك المؤمنين، وحبِّب إليهم المؤمنين»، فما خُلق مؤمنٌ يسمعُ بي ولا يراني إلاَّ أحبَّني»[1].

وفي هذه القصة فوائدُ جمَّة وعبَرٌ مهمّة يفيدها الداعيةُ عند التأمُّل لمعانيها والتفكُّر في دلالتها.

هذا، والتوفيق بيد الله وحده، وهو سبحانه الهادي إلى سواء السبيل، وصلّى اللهُ وسلّم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ٢٤٩١).



الرسالة الثانية عشرة

تكريم الإسلام للمرأة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا الدِّين، وأتمَّ علينا النِّعمة، وجعل أمَّتنا ـ أمَّةَ الإسلام ـ خيرَ أمَّة، وبعث فينا رسولاً منَّا يتلو علينا آياته ويزكِّينا ويعلِّمنا الكتاب والحكمة، والصلاةُ والسلامُ على من بُعث رحمةً للعالمين، وقدوةً للعاملين، ومحجّةً للسالكين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ نعمة الله على عبده المسلم عظيمةٌ، ومنَّتُه عليه كبيرةٌ بهدايته إلى هذا الدِّين العظيم، دينِ الإسلام، دين الله الذي ارتضاه لعباده، وكمَّله لهم، ولا يقبل منهم ديناً سواه، يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾[4]، إنَّه الدِّين الذي أصلح الله به العقائد والأخلاق، وأصلح به الحياة الدنيا والآخرة، وزيَّن به ظاهر المرء وباطنه، وخلّص به كلَّ مَن اعتنقه وتمسّك به من براثن الباطل، ومهاوي الرَّذيلة، ومنزلقات الانحراف والضلال. إنَّه الدِّين القويم المحكم

(١) المائدة، آية ٣.

(٢) آل عمران، آية ١٩.

(٣) آل عمران، آية ٨٥.

(٤) الحجرات، آية ٧ ـ ٨.

غاية الإحكام في أهدافه ومقاصده، وفي هداياته ودلالاته، وفي نهاياته وثمراته، أخباره كلّها حقٌّ وصدق، وأحكامه كلُّها عدلٌ وإحسانٌ، فلم يأمر بشيءٍ وقالت العقول السليمةُ: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيءٍ وقالت العقول السليمة: ليته لم ينه عنه، ولم يأت قطُّ علمٌ صحيحٌ ينقض شيئاً من أخباره العظيمة، ولا حكمٌ سليمٌ يبطل شيئاً من أحكامه القويمة.

إنَّه الدِّين العظيمُ الذي يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيمٍ، الصِّدقُ شعارُه، والعدلُ مدارُه، والحقُّ قِوامُه، والرَّحمةُ روحه وغايتُه، والخيرُ قرينُه، والصّلاحُ والإصلاحُ جمالُه وأعمالُه، والهدى والرُّشدُ زادُه، من تركه وترك الاهتداءَ به رحلت عنه العقيدةُ القويمةُ، والأعمالُ الجليلة، والأخلاق العاليةُ النَّبيلة، وحلّت محلّها أوهامُ العقول، وتفاهات الآراء، وسيِّء الأعمال، ورذيل الأخلاق.

ولهذا فإنَّ أعظم كرامةٍ ينالها العبدُ الهدايةُ لهذا الدِّين العظيم، والتوفيق للاعتصام به والتّمسّك بهداياته، والالتزام بدلالاته وإرشاداته، والبعد التام والحذر الكامل عن كلِّ ما ينهى عنه ويحذر منه.

ومن كمال هذا الدِّين العظيم وجماله تكريمه للمرأة المسلمة، وصيانته لها، وعنايته بحقوقها، ومنعه من ظلمها والاعتداء عليها، أو استغلال ضعفها، أو نحو ذلك، وجعل لها في نفسها ولمن تعيش معهم من الضوابط العظيمة، والتوجيهات الحكيمة، والإرشادات القويمة ما يحقق لها حياة هنيَّة، ومعيشة سويّة، وأُنساً وسعادة في الدنيا والآخرة.

أصول مهمّة

ولا بدَّ للمسلم في هذا المقام العظيم أن يكون مدركاً لجملةٍ من الأصول المهمّة، والضوابط العظيمة، ليتحقق له بالعلم بها وملاحظتها والسير على وفقها، الإكرامُ الحقيقي، والإنعام التام الكامل، والسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة.

أوّلاً: أن يعلم العبدُ علم اليقين أنَّ أحسن الأحكام وأقومها وأكملها وأجملها أحكامُ ربِّ العالمين وخالق الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[5].

ثانياً: أن يدرك العبدُ أنَّ سعادته وكرامته مرتبطةٌ تمام الارتباط بطاعته لربِّه، والتزامه بأحكامه، وأنَّ حظَّه ونصيبه من ذلك بحسب حظِّه ونصيبه من الطاعة والالتزام، قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[6]، وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى

---

(١) يوسف، آية ٤٠.

(٢) المائدة، آية ٥٠.

(٣) الأعراف، آية ٧، يونس، آية ١٠٩، يوسف، آية ٨٠.

(٤) التين، آية ٨.

(٥) النور، آية ٥٩.

(٦) النساء، آية ٣١.

مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[٣].

ثالثاً: أن يتنبّه العبدُ المسلم، أنَّ له في هذه الحياة الدنيا أعداءَ كثر، يسعون للإطاحة بكرامته، وخلخلة سبيل عزه وسعادته، ويقدِّمون كلَّ ما يستطيعون في سبيل النّيل منه وإهانته.

ويأتي في مقدمة هؤلاء الشيطانُ عدوُّ الله، وعدوُّ الإسلام، وعدوُّ عباده المؤمنين، الذي غاظه أشدَّ الغيظ إكرامُ الله للمؤمنين بهذا الدِّين، وهدايتُه لهم صراطه المستقيم، فأعلن عليهم حرباً شعواء، وقعد لهم بكلِّ صراطٍ، وأتى إليهم من كلِّ جانبٍ، يريد إهدارَ كرامتهم وتضييع عزِّهم وشرفِهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ

---

(١) يس، آية ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) الشمس، آية ٩ ـ ١٠.

(٣) المائدة، آية ١٥ ـ ١٦.

(٤) الإسراء، آية ٦١ ـ ٦٤.

﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1]. فوجب على كلِّ مسلمٍ أن يحذر منه، ومن كلِّ عدوٍّ يهدف إلى إبعاده عن هذا الإكرام.

رابعاً: أن يؤمن أنَّ توفيقَه، وصلاحَ أمره، واستقامة حاله، وتحقق كرامته، بيد سيِّده ومولاه: رب العزة سبحانه القائل: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[2]، ولهذا فإنَّ عليه أن يقوي صلتَه به سبحانه، ويطلب كرامته منه، وقد كان من دعاء النبيِّ ﷺ: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمةُ أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كلِّ خير، والموت راحةً لي من كلِّ شرٍّ**»[3]، وفي هذا دلالةٌ على أنَّه لا غنى لأحدٍ عن ربِّه في صلاح أموره، واستقامة شؤونه، وتحقق كرامته وإكرامه.

خامساً: أن يجعل أكبرَ همِّه في هذه الحياة الدنيا أن يكون كريماً عند الله، حتى يحظى بإكرام الله له، وأن يسعد بما أعدَّه اللهُ سبحانه لعباده المكرمين الذين قال فيهم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾[4]، فتلك هي الكرامةُ الحقيقيّة، ونيلُ ذلك إنَّما يكون بتحقيق تقواه سبحانه في السرِّ والعلن، والغيب والشهادة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[5]، وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قيل للنبيِّ ﷺ: من أكرمُ الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**»[6].

---

(١) فاطر، آية ٦.

(٢) الحج، آية ١٨.

(٣) رواه مسلم (رقم: ٢٧٢).

(٤) المعارج، آية ٣٥.

(٥) الحجرات، آية ١٣.

(٦) رواه البخاري (رقم: ٣٣٧٤).

ومن ابتغى الكرامةَ من غير هذا السبيل فإنَّما يركض في سراب، ويسعى في سبيل خيبةٍ وتباب.

سادساً: أنَّ المرأة على وجه الخصوص يلزمها أن تعلم أنَّ أحكام الشرع المتعلّقة بشأنها، محكمةٌ غايةَ الإحكام، متقنةٌ غايةَ الإتقان، لا نقص فيها ولا خلل، ولا ظلمَ فيها ولا زلل، كيف لا وهي أحكامُ خير الحاكمين، وتنزيلُ ربِّ العالمين، الحكيمُ في تدبيره، البصير بعباده، العليمُ بما فيه سعادتُهم وفلاحُهم، وصلاحُهم في الدنيا والآخرة، ولهذا فإنَّ من أعظم العدوان وأشدّ الإثم والهوان، أن يقال في شيءٍ من أحكام الله المتعلّقة بالمرأة أو غيرها، إنَّ فيها ظلماً، أو هضماً، أو إجحافاً، أو زللاً، ومن قال ذلك أو شيئاً منه فما قدر ربَّه حقَّ قدره، ولا وقّره حقَّ توقيره، واللهُ جلَّ وعلا يقول: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[1]، أي لا تعاملونه معاملة من توقّرونه، والتوقيرُ: التعظيم، ومن توقيره سبحانه أن تُلتزم أحكامُه، وتُطاع أوامرُه، ويُعتقد أنَّ فيها السلامةَ والكمال والرِّفعة، ومن اعتقد فيها خلاف ذلك فما أبعده عن الوقار، وما أجدره في الدنيا والآخرة بالخزي والعار.

فهذه أصولٌ مهمّةٌ، وضوابطُ عظيمة، يجدر التنبه لها والعنايةُ بها بين يدي هذا الموضوع، بل هي في الحقيقة ركائزه التي عليها يُبنى، وأُسُسُه التي عليها يقوم.

---

(١) نوح، آية ١٣.

من هي المرأة؟

المرأة في اللغة: تأنيثُ المرء، ويقال: امرأة، ومَرَة، ولا جمع لمفردها، وإنَّما تُجمع على نساء ونسوة، وهي ذلك المخلوق الذي أوجده الله عزَّ وجلَّ ليكون شريكاً للرجل في حياته، وقد خُلقت في الأصل من الرجل نفسه، ليكون ذلك أعمق في التجانس وأوثق في الصلة والتقارب، ولتتحقق بينهما المودَّة والرحمة في أبهى حلَّة، وأجمل صورة.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[3].

وقد دلّت الآيات على أنَّ حوّاء زوج آدم عليه السلام قد خلقت منه. ثمَّ بثَّ سبحانه منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وذلك عن طريق التزاوج، الذي يكون به الحمل والإنجاب.

وجعل في الرجل مقوِّماته وخصائصه، وجعل في المرأة مقوِّماتها وخصائصها، وخروج كلّ منهما عن مقوِّماته وخصائصه يُعدُّ ميلاً عن الفطرة، وانحرافاً عن

---

(١) النساء، آية ١.

(٢) الروم، آية ٢١.

(٣) النحل، آية ٧٢.

السبيل. وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ المرأة خلقت من ضلع، وإنَّ أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن استمتعتَ بها استمتعتَ بها وفيها عوج**»[١].

قال النووي رحمه الله: «وفيه دليلٌ لما يقوله الفقهاء أو بعضهم، أنَّ حواء خلقت من ضلع آدم، قال الله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[٢]»[٣]، وهذا يفيد أنَّ المرأة في أساس بنيتها، وأصل خلقتها قد مُيِّزت ببعض الخصائص، والمقوِّمات التي تجعل لها وضعاً خاصاً، وأسلوباً معيَّناً في الحياة، ينطلق من أنوثتها وأمومتها ورقَّتها وضعفها، وكثرة تقلُّب أحوالها، فهي تحيض، وتحمل، وتتوحَّم، وتلد، وتُرضع، وتباشر حضانة مولودها، إلى غير ذلك مما هي مختصَّة به، كما أنَّ الرجل له خصائصه ومقوِّماته.

وليس لأحد الطرفين أن يتطلَّع إلى خصائص الطرف الآخر، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[٥].

وقوامة الرجل على المرأة هو مما فضّل الله به بعضهم على بعض، ومن ذلك ما

---

(١) رواه البخاري (رقم: ٣٣٣١)، ومسلم (رقم: ١٤٦٨).

(٢) النساء، آية ١.

(٣) شرح صحيح مسلم (٥٧/١٠).

(٤) النساء، آية ٣٢.

(٥) النساء، آية ٣٤.

خُصَّ به الرجل من كمال العقل والرزانة والصبر والجلد والتحمّل والقوّة مما ليس للمرأة مثله، ولهذا جعل للرجل على المرأة حقوقاً تتناسب مع قدراتها وأساس تكوينها، وجعل للمرأة على الرجل حقوقاً تتناسب مع قدراته وأساس تكوينه.

ما حقيقة تكريم الإنسان؟

ومن يتأمّل في دلالات النصوص وهدايات الأدلّة يجد أنَّ تكريم الله جلَّ وعلا للإنسان على نوعين:

١ ـ تكريمٌ عام؛ وهو ما بيَّنه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[(١)].

قال القرطبي رحمه الله: ((وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة، وحسن الصورة، وحملهم في البرِّ والبحر مما لا يصحُّ لحيوانٍ سوى بني آدم، وأن يتحمّل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصّهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتّسع في حيوان كاتّساعه في بني آدم؛ لأنّهم يكسبون المال خاصّةً دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركّبات من الأطعمة. وغاية كلِّ حيوان يأكل لحماً نيِّئاً أو طعاماً غير مركّب))[(٢)].

وقال ابن كثير عليه رحمة الله: ((يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إيّاهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[(٣)]، أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كلّه وينتفع به، ويفرِّق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصّها، ومضارَّها في الأمور الدينية والدنيوية))[(٤)].

---

(١) الإسراء، آية ٧٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٩٩).

(٣) التين، آية ٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٥١).

٢ ـ **وتكريمٌ خاص**؛ وذلك بالهداية لهذا الدين، والتوفيق لطاعة ربِّ العالمين، وهذه هي الكرامة الحقيقية، والعزّ الكامل، والسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، إذ إنَّ الإسلام هو دينُ الله عزَّ وجلَّ، دين العزّة والكرامة، والرِّفعة والاستقامة، فلله العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين.

يقول الله تعالى مبيِّناً أنَّ الكرامة إنَّما تكون بالإذعان لعظمته، والخضوع لكبريائه، والامتثال لأوامره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾[1].

فمن لم يوفَّق للإيمان، ولم يلتزم بطاعة الرحمن، فهو مهان غير مكرم، وحظ الإنسان من الكرامة والسلامة من الإهانة بحسب حظه من الإيمان قولاً واعتقاداً وعملاً، فمن طلب العزَّة بغير الدِّين ذلّ، ومن رام الكرامة بغير الإسلام أُهين.

ومما ينبغي أن يعلم هنا أنَّ التكريم في النوع الأوّل، وهو التكريم العام يستلزم من الإنسان القيام بأسباب نيل التكريم الثاني وهو التكريم الخاص. بمعنى: أنَّ من أكرمه الله بالمال والصحّة والعافية إلى غير ذلك، يلزمه أن يبذل وسعه في طاعته، ويقدم جهده في سبيل مرضاته، وإلاَّ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ سيسأله يوم القيامة عن ذلك الإكرام.

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قالوا يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا: لا قال: فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ قالوا: لا، قال: فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربِّكم إلاَّ كما تضارون في**

(١) الحج، آية ١٨.

رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد فيقول: أي فُلْ ألم أُكرمْك وأسوِّدك وأزوِّجك وأُسخِّر لك الخيلَ والإبل وأذرك ترأس وتربْع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنَّك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإنِّي أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل ألم أكرمك وأسوِّدك وأزوِّجك وأسخِّر لك الخيلَ والإبل وأذرك ترأس وتربْع؟ فيقول: بلى أي ربّ، فيقول: أفظننت أنَّك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإنِّي أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: يا ربِّ آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصلّيتُ وصمت وتصدّقتُ، ويثني بخيرٍ ما استطاع، فيقول: ها هنا إذاً، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهداً عليك، ويتفكّر في نفسه من ذا الذي يشهد عليَّ؟! فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط اللهُ عليه»[1]. قوله: «أي فُل» أي: يا فلان.

والحديث واضح الدلالة في أنَّ الإنسان يُسأل يوم القيامة عن إكرام الله له بالعافية والصحة، والمال والمسكن، والطعام والشراب إلى غير ذلك، إذ إنّه سبحانه أكرمه بذلك ليقوم بطاعة الله وليعمل في مرضاته سبحانه، فإذا صرف النعمة في غير حقّها، واستعملها في غير وجهها حوسب على ذلك يوم القيامة.

---

(١) مسلم (رقم: ٢٩٦٨).

كرامة المرأة في الإسلام

إنَّ الدين الإسلامي الحنيف بتوجيهاته السديدة، وإرشاداته الحكيمة، صان المرأة المسلمة، وحفظَ لها شرفَها وكرامتَها، وتكفّل بتحقيق عزِّها وسعادتها، وهيّأ لها أسبابَ العيش الهنيء، بعيداً عن مواطن الريب والفتن، والشرِّ والفساد، وهذا كلُّه من عظيم رحمة الله بعباده حيث أنزل عليهم شريعته ناصحةً لهم، ومصلحةً لفسادهم، ومقوِّمةً لاعوجاجهم، ومتكفِّلةً بسعادتهم، وتلك التدابير العظيمة التي جاء بها الإسلام تُعدُّ صِمامَ أمانٍ للمرأة، بل للمجتمع بأسره من أن تحلَّ به الشرورَ والفتن، وأن تنزل به البلايا والمحن، وإذا ترحّلت ضوابط الإسلام المتعلّقة بالمرأة عن المجتمع حلَّ به الدمار، وتوالت عليه الشرورُ والأخطارُ، والتاريخُ من أكبر الشواهد على ذلك، إذ من يتأمّل التاريخ على طول مداه يجد أنَّ من أكبر أسباب انهيار الحضارات، وتفكُّك المجتمعات، وتحلل الأخلاق، وفشوِّ الرذائل، وفساد القيم، وانتشار الجرائم، هو تبرُّج المرأة وسفورُها ومخالطتُها للرجال، ومبالغتُها في الزينة والاختلاط، وخلوتُها مع الأجانب، وارتيادُها للمنتديات العامة، وهي في أتمّ زينتها، وأبهى حلّتها، وأكمل تعطُّرها.

قال ابن القيم رحمه الله: «ولا ريب أنَّ تمكين النساء من اختلاطهنَّ بالرجال أصلُ كلِّ بليّة وشرّ، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنَّه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سببٌ لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة[1] ولمّا اختلط البغايا بعسكر موسى، وفشت فيهم الفاحشة، أرسل اللهُ عليهم الطاعون، فمات في يومٍ واحدٍ سبعون ألفاً، والقصةُ مشهورةٌ في كتب التفاسير، فمن أعظم أسباب الموت العام

---

(١) مثل الإيدز والزهري والسل وغيرها.

كثرةُ الزنا، بسبب تمكين النساء من اختلاطهنَّ بالرجال، والمشي بينهم متبرِّجات ومتجمّلات، ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية - قبل الدين - لكانوا أشدَّ شيءٍ منعاً لذلك))[١] اهـ كلامه رحمه الله.

فالإسلام جاء فيه من التدابير الوقائية والإجراءات العلاجية ما يقطع دابر تلك الفتن ويخلص المجتمع من تلك الآفات والشرور، فهي تعاليم مباركة تعين على اجتناب الموبقات، والبعد عن الفواحش والمهلكات، رحمةً من الله بالعباد، وصيانةً لأعراضهم، وحمايةً لهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وقد جاء في الإسلام ما يدلّ على أنَّ الفتنة بالنساء إذا وقعت ترتّب عليها من المفاسد والشرور والأخطار ما لا يدرك مداه، ولا تُحمد نهايته وعقباه.

روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء**))[٢].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: "فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[٣].

ولأجل هذا جعل لها وللرجل من الضوابط القويمة، والتوجيهات العظيمة، التي يتحقق بالقيام بها كلُّ خيرٍ وفضيلةٍ وكرامةٍ في الدنيا والآخرة. يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٤]، ويقول

(١) الطرق الحكمية (ص: ٢٨١).

(٢) رواه البخاري (رقم: ٥٠٩٦)، ومسلم (رقم: ٢٧٤٠).

(٣) مسلم (ح ٢٧٤٢).

(٤) النور، آية ٣٠ - ٣١.

تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝ ﴾[2]، والنصوص في هذا المعنى في الكتاب والسنة كثيرة، والإسلام لم يفرض تلك الضوابط كبتاً للحريات، ولا لأجل التضييق على الناس، وإنَّما أمر بذلك صيانةً للمجتمع، ومحافظةً على فضيلته، وإبقاء على عزته وكرامته.

ولم يفرض الإسلام على المرأة المسلمة تلك الضوابط ليكبت حريَّتها، وإنَّما جاء بذلك ليصونها عن الابتذال، وليحميها من التعرض للفاحشة، وليمنعها من الوقوع في الجريمة والفساد، وليكسوها بذلك حلَّة التقوى والطهارة والعفاف، فسدَّ بذلك كلَّ ذريعةٍ تفضي إلى الفاحشة، أو توقع في الرذيلة، وتلك هي الكرامة الحقيقة للمرأة.

---

(١) الأحزاب، آية ٣٢ ـ ٣٥.

(٢) الأحزاب، آية ٥٩.

من هدايات القرآن في الإحسان إلى المرأة

من يتأمل كتاب الله عزَّ وجلَّ الذي أنزله الله على عباده هدى ورحمة، وضياء ونوراً، وذكرى للذاكرين، يجد فيه عنايةً عظيمةً بشأن المرأة، وحثّاً بالغاً على رعاية حقوقها، وتحذيراً شديداً من ظلمها والتَّعدّي عليها، وفي القرآن الكريم من الآيات الكريمة المقرّرة لهذا الأمر الشيء الكثير، بل في القرآن الكريم سورة النساء وفيها آياتٌ عديدةٌ تتعلّق بالنساء وبيان ما لهنَّ من الحقوق العظيمة، ومن هدايات القرآن في الإحسان إلى المرأة ما يلي:

١ ـ الأمر بالتعامل مع المرأة في حدود المعروف والإحسان، وفق حدود عظيمة وضوابط قويمة، وحذّر من ظلمها أو تعدّي حدود الله التي شرعها لعباده في التعامل معها.

قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

٢ ـ وضع الضوابط الدقيقة المتعلّقة بالنفقة على المرأة حال إمساكها، أو تسريحها مع الحثّ على مراعاة جانب الإحسان إليها وتغليب ذلك في كلّ الأحوال.

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢).

٣ ـ أوجب على الزوج إعطاء الزوجة المهر الذي قرّره لها، إلاّ إن تنازلت له عن شيءٍ منه فيكون له حلالاً.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ (٣).

٤ ـ حدّد لها نصيبها من الميراث مما تركه الوالدان أو غيرهما من أقاربها على حسب نوع القرابة وفي حدود ما تستحقّ. قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٤).

---

(١) البقرة، آية ٢٢٩ ـ ٢٣٢.

(٢) البقرة، آية ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٣) النساء، آية ٤.

(٤) النساء، آية ٧.

٥ ـ حذّر من عضل المرأة، أو التضييق عليها، أو الرجوع في شيء من صداقها.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١).

٦ ـ بيّن ما لكلٍّ واحدٍ من ميزات وفضائل، وحذّر من تطلُّع أحدهما إلى ما فُضِّل به الآخر.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢).

٧ ـ جعلها قرينةً للرجل في الطاعة والتقرُّب إلى الله، مأمورة بما أمره به من العبادة، ولكلٍّ منهما يوم القيامة أجرُه وثوابُه على قدر إخلاصه وجدِّه وعبادته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (٣).

---

(١) النساء، آية ١٩ ـ ٢١.

(٢) النساء، آية ٣٢.

(٣) الأحزاب، آية ٣٥.

٨- وضع الضوابط الدقيقة لمعالجة النشوز والإعراض، أو نحو ذلك من الخلافات التي قد تقع بين الزوجين، قال تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾[1].

٩- نعى على المشركين كراهيتهم للأنثى، وذمّهم غاية الذم في ذلك. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2].

١٠- حذّر غاية التحذير من رمي المؤمنات المحصنات مما هنَّ بريئات منه.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[4].

١١- بيَّن أنَّ الزواج من آيات الله العظيمة التي يتحقق بها السكون والمودّة والرحمة.

---

(١) النساء، آية ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) النحل، آية ٥٨ ـ ٥٩.

(٣) النور، آية ٤.

(٤) النور، آية ٢٣.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

١٢ - وضع الضوابط المتعلّقة بالطلاق والعدّة والشهود، والنفقة حال الفراق إلى غير ذلك.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾[3].

١٣ - حدّد عدد الزوجات لمن أراد التعدد بأربع نسوةٍ بعد أن كان مطلقاً، وشرطه بالعدل، قال الله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾[4].

فهذه بعض الأمثلة من هدايات القرآن الكريم، المتعلّقة بالمرأة والإحسان إليها،

---

(١) الروم، آية ٢١.

(٢) الطلاق، آية ١ - ٢.

(٣) الطلاق، آية ٦.

(٤) النساء، آية ٢.

والضوابط التي ينبغي أن تسلك في التعامل معها، وهي ضوابط حكيمة، وإرشادات قويمة لا تنضبط أحوال الناس، ولا تستقيم أمورهم إلاّ بالتزامها والتقيُّد بها، فهي تنزيل ربّ العالمين، العليم بخلقه، الحكيم في شرعه.

الحفاوة بالمرأة في ظلّ الإسلام

إنَّ المرأة المسلمة في ظلّ تعاليم الإسلام القويمة، وتوجيهاته الحكيمة، تعيش حياة كريمة، ملؤها الحفاوة والتكريم من أول يوم تقدم فيه إلى هذه الحياة، مروراً بكلِّ أحوالها في حياتها بنتاً، أو أمًّا، أو زوجة، أو أختاً، أو عمَّةً، أو خالةً، فهي في كلِّ حال من هذه الأحوال لها حقوقها الخاصة، ولها نصيبها من الحفاوة والتكريم.

١ ـ **ففي حال كونها ابنة:** فإنَّ الإسلام يدعو إلى الإحسان إليها، والاهتمام بتربيتها، ورعايتها، وحسن تأديبها، لتنشأ امرأة صالحة صيِّنة عفيفة، ونعى على الجاهلين وأْدهم لها، وكراهيتهم لمجيئها، يقول تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ ﴾[1].

وجاء في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات ...**»[2].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أنَّ أهل الجاهلية كانوا في صفة الوأد على طريقتين:

الأولى: أن يأمر امرأته إذا قرب وضعُها أن تطلق بجانب حفيرة، فإذا وضعت ذكراً أبقته، وإذا وضعت أنثى طرحتها في الحفيرة.

الثانية: كان بعضهم إذا صارت البنت في السنة السادسة، قال لأمّها: طيبيها وزيِّنيها لأزور بها أقاربها، ثم يبعد بها في الصحراء حتى يأتي البئر فيقول لها: انظري فيها ويدفعها من خلفها ويطمها[3].

---

(١) النحل، آية ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) رواه البخاري (رقم: ٥٩٧٥)، ومسلم (رقم: ٥٩٣).

(٣) انظر فتح الباري (١٠/٤٢١).

بينما الإسلام عدَّها نعمةً عظيمةً وهبةً كريمةً من الله جلَّ وعلا: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[١]، وحضَّ على العناية بها تأديباً وتربيةً وتعليماً.

ففي المسند للإمام أحمد عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يُهنها، ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله تعالى الجنّة**»[٢].

وروى ابن ماجه عن عقبة بن عامر ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان له ثلاث بناتٍ وصبر عليهنَّ، وكساهنَّ من جِدَته، كنَّ له حجاباً من النار**»[٣].

وروى مسلم في صحيحه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين**» وضمَّ أصابعه[٤].

وروى الإمام أحمد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**من عال ابنتين أو ثلاث بنات، أو أختين، أو ثلاث أخوات، حتى يبلغن، أو يموت عنهنَّ، أنا وهو كهاتين**» وأشار بأصبعه السبابة[٥].

وروى البخاري في الأدب المفرد عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان له ثلاث بناتٍ يؤويهنَّ، ويكفيهنَّ، ويرحمهنَّ، فقد وجبت له الجنّة**

---

(١) الشورى، آية ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) مسند أحمد (١/٢٢٣).

(٣) سنن ابن ماجه (رقم: ٣٦٦٩).

(٤) صحيح مسلم (رقم: ٢٦٣١).

(٥) مسند أحمد (٣/١٤٨).

البتّة»، فقال رجل من بعض القوم: وثنتين يا رسول الله؟ قال: «**وثنتين**»[(١)].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: أتقبِّلون صبيانكم؟ فما نقبِّلهم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة**»[(٢)].

٢ ـ **ودعا الإسلام إلى إكرام المرأة إكراماً خاصاً وعظيماً حال كونها أُماً**: ببرِّها والإحسان إليها، والسعي في خدمتها، والدعاء لها، وعدم تعريضها لأيِّ نوع من الأذى ومعاملتها معاملة أحسن الأصحاب، وأفضل الرفقاء، قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[(٤)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قيل «**يا رسول الله من أبرُّ؟ قال: أمّك، قال: ثم من؟ قال: أمَّك، قال: ثم من؟ قال: أباك**»[(٥)].

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (رقم: ١٧٨).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٥٩٩٨)، ومسلم (رقم: ٢٣١٧).

(٣) الأحقاف، آية ١٥.

(٤) الإسراء، آية ٢٣ ـ ٢٤.

(٥) صحيح البخاري (رقم: ٥٩٧١)، ومسلم (رقم: ٢٥٤٨).

وروى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النَّبيِّ ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان، فقال: «**ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتَهما**»(١).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت النَّبيَّ ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «**الصلاة على وقتها، قلت: ثم أيّ؟ قال: برُّ الوالدين، قلت: ثم أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله**»(٢).

وحذّر الإسلام من إيذاء الوالدين أو إلحاق أيّ نوعٍ من الضرر بهما، وعدَّ ذلك عقوقاً يحاسب المرء عليه يوم القيامة، بل عدَّ ذلك من كبائر الذنوب.

ففي الصحيحين عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متّكئاً فقال: ألا وقولُ الزور**» ما زال يكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت(٣).

وروى مسلم في صحيحه عن عليّ ﷺ قال: قال ﷺ: «**لعن اللهُ من لعن والديه**»(٤).

٣ ـ **وحثَّ الإسلام على إكرام المرأة حال كونها زوجة:** وجعل لها حقوقاً عظيمةً على زوجها، كما أنَّ له عليها حقوقاً عظيمةً، ومن حقوق الزوجة في الإسلام: المعاشرة بالمعروف، والإحسان إليها في المأكل والمشرب والملبس، والرفق بها، وإكرامها، والصبر عليها، ومعاملتها معاملةً كريمةً، وفي الإسلام خيرُ الناس

---

(١) أبو داود (رقم: ٢٥٢٨)، وابن ماجه (رقم: ٢٧٨٢).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٥٩٧٠)، ومسلم (رقم: ٨٥).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ٥٩٧٦)، ومسلم (رقم: ٨٧).

(٤) صحيح مسلم (رقم: ١٩٧٨).

خيرُهم لأهله، ومن حقوقها أن يعلّمها دينَها، وأن يغار عليها، ويحفظ كرامتها، ويحسن معاشرتها.

ومن الآيات الجامعة لحقوق الزوجة قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(١).

وقد جاء في السنة أحاديث عديدة في التأكيد على مراعاة حقوق الزوجة والعناية بها؛ ومن ذلك: ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإنَّ المرأة خُلقت من ضلعٍ أعوج، وإنَّ أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**»(٢).

قال النووي رحمه الله: «وفي هذا ملاطفةُ النساء والإحسان إليهنَّ، والصبر على عوج أخلاقهنَّ، واحتمال ضعف عقولهنَّ، وكراهة طلاقهنَّ بلا سبب، وأنَّه لا يطمع باستقامتها، والله أعلم»(٣).

وروى أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلقاً، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم**»(٤).

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع: «**فاتّقوا الله في النساء، فإنّكم أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، ولكم عليهنَّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مبرّح، ولهنَّ رزقهنّ وكسوتهنَّ بالمعروف**»(٥)،

---

(١) النساء، آية ١٩.

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٣٣٣١)، ومسلم (رقم: ١٤٦٨).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٠/٥٧).

(٤) أحمد (٢/٢٥٠، ٤٧٢)، وأبو داود (رقم: ٤٦٨٢)، والترمذي (رقم: ١١٦٢).

(٥) صحيح مسلم (رقم: ١٢١٨).

والمراد بقوله: «**أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه**» أي: لا يأذنَّ لأحدٍ تكرهونه في دخول بيوتكم، والجلوس في منازلكم؛ رجلاً كان أو امرأةً.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَفْرك مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر**»(١).

ومعنى لا يَفرك: أي: لا يبغض، فمن وجد في امرأته خلقاً لا يعجبه ولا يرضيه، ففيها من الأخلاق الفاضلة والمعاملات الكريمة الشيء الكثير.

وروى أحمد وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما النساء شقائق الرجال**»(٢).

قال ابنُ الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر: «أي: نظائرهم وأمثالهم في الأخلاق والطباع، كأنَّهنَّ شققن منهم، ولأنَّ حوّاء خلقت من آدم عليه السلام، وشقيق الرجل أخوه لأبيه وأمِّه، ويُجمع على أشقّاء»(٣).

وفي هذا من الدعوة إلى حسن العشرة، وطيب المعاملة، والتلطّف والإحسان ما لا يخفى.

٤ ـ **وأوصى الإسلام بالمرأة أُختاً وعمَّةً وخالةً**: وأمر بصلتها والإحسان إليها، ومعرفة حقِّها، ورتّب على ذلك ثواباً عظيماً، وأجراً جزيلاً.

روى البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه عن المقدام بن معدي كرب أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ يوصيكم بأمّهاتكم، ثمَّ يوصيكم بأمّهاتكم، ثمَّ يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب**»(٤).

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ١٤٦٩).

(٢) أحمد (٦/٢٥٦، ٢٧٧)، وأبو داود (رقم: ٢٣٦)، والترمذي (رقم: ١١٣).

(٣) النهاية لابن الأثير (٢/٤٩٢).

(٤) البخاري في الأدب المفرد (رقم: ٦٠)، وابن ماجه (رقم: ٣٦٦١).

وروى الترمذي وأبو داود عن أبي سعيد الخدري أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يكون لأحدٍ ثلاث بناتٍ، أو ثلاث أخوات فيحسن إليهنَّ إلاَّ دخل الجنّة**»[١].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الرحم شجنةٌ من الله، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله**»[٢].

وفي الصحيحين أيضاً عن أنس بن مالك ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من أحبَّ أن يُبسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثره، فليصل رحمه**»[٣].

٥- **بل لو كانت المرأة أجنبية على الإنسان ليست قريبةً له وهي بحاجة إلى العون** والمساعدة فالإسلام يحثُّ على رعايتها والإحسان إليها ومساعدتها ويرتّب على ذلك الأجورَ العظيمة.

ففي الصحيحين عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالقائم الذي لا يفتر، أو كالصائم الذي لا يفطر**»[٤].

فهذا نزرٌ قليل من الحفاوة والتكريم الذي تناله المرأة في ظلِّ تعاليم الإسلام، وهيهات أن تجد المرأة مثل هذه العناية العظيمة، والتكريم الرائع، والإحسان البالغ، بل ولا قريباً منه، في غير هذا الدين العظيم دينِ الله الذي رضيه لعباده.

---

(١) الترمذي (رقم: ١٩١٢)، وأبو داود (رقم: ٥١٤٧).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٥٩٨٩)، ومسلم (رقم: ٢٥٥٥).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ٥٩٨٦)، ومسلم (رقم: ٢٥٥٧).

(٤) صحيح البخاري (رقم: ٦٠٠٧)، ومسلم (رقم: ٢٩٨٢).

الغيرة على المرأة المسلمة[(١)]

إنَّ من روائع صور تكريم الإسلام للمرأة المسلمة ما غرسه في نفوس المسلمين من الغيرة على المحارم، وهي: خلق عظيم، ووصفٌ كريم، يقوم في قلب الرجل المسلم يدفعه إلى رعاية حريمه وحراستهنَّ، وصيانة شرفهنَّ وكرامتهنَّ، ومنعهنَّ من التبرج والسفور والاختلاط.

ويعد الإسلام الدفاع عن العرض، والغيرة على الحريم جهاداً يبذل من أجله الدم، ويضحى في سبيله بالنفس، ويجازى فاعله بدرجة الشهيد في الجنة.

فعن سعيد بن زيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد**)).

وفي لفظ: "**من مات دون عرضه فهو شهيد**"[(٢)].

بل يعد الإسلام الغيرة من صميم أخلاق الإيمان، فعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قال سعيد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ((**تعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، واللهُ أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**)) متفق عليه[(٣)].

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((**إنَّ الله يغار، وإنَّ المؤمن يغار، وإنَّ من غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرّم الله عليه**)) متفق عليه[(٤)].

---

(١) عودة الحجاب للشيخ محمد بن أحمد إسماعيل المقدّم ((القسم الثالث))، (ص: ١١٤ ـ ١٢٢).

(٢) رواه أبو داود (رقم: ٤٧٧٢)، والترمذي (رقم: ١٤٢٠).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ٦٨٤٦)، ومسلم (رقم: ١٤٩٩).

(٤) صحيح البخاري (رقم: ٥٢٢٣)، ومسلم (رقم: ٢٧٦١).

وضد الغيور: الدَّيُّوث، وهو الذي يقرُّ الخُبث في أهله، فلا يكون فيه غيرةٌ عليهم، وقد ورد في الإسلام الوعيد الشديد في حقِّ من كان كذلك.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا ينظر الله عزّ وجلَّ إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأة المترجّلة، والديُّوث**» رواه أحمد(١) وغيره.

والتاريخ مليءٌ بالقصص المعبِّرة عن شدّة غيرة المسلمين على حريمهم، وعظيم عنايتهم بهذا الأمر العظيم.

ومن الحوادث العجيبة في ذلك ما ذكره ابن الجوزي كتابه المنتظم عن محمد بن موسى القاضي قال: حضرتُ مجلس موسى بن إسحاق القاضي بالري سنة ست وثمانين ومائتين، فتقدّمت امرأةٌ فادّعى وليُّها على زوجها خمسمائة دينار مهراً، فأنكر، فقال القاضي: شهودك، قال: قد أحضرتهم، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد وقال للمرأة: قومي، فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قال: ينظرون إلى امرأتك وهي مسفرة لتصحَّ عندهم معرفتها، فقال الزوج: فإني أُشهد القاضي أنَّ لها عليَّ هذا المهر الذي تدَّعيه ولا يُسفر عن وجهها، فأُخبرت المرأة بما كان من زوجها، فقالت: فإني أُشهد القاضي بأني قد وهبت له هذا المهر، وأبرأته منه في الدنيا والآخرة.

فقال القاضي: يُكتب هذا في مكارم الأخلاق(٢).

نعم، يُكتب هذا في مكارم الأخلاق، وجليل الآداب، ورفيع القيم، وأين هذا ممن لا يقيم لحرمه وزناً، ولا يستشعر تجاه أهله شيئاً من هذه القيم النبيلة، والخصال الكريمة.

---

(١) مسند أحمد (٢/١٣٤، ٦٩، ١٢٨).

(٢) المنتظم لابن الجوزي (١٢/٤٠٣).

الإسلام منقذٌ للمرأة

إنَّ من ينظر إلى حال المرأة المسلمة في ظل تعاليم الإسلام الكريمة، وتوجيهاته العظيمة، يجد أنَّ الإسلامَ منقذٌ للمرأة من براثن الرذيلة، ومخلصٌ لها من حماة الفساد، فهي في كنف الإسلام وتحت رعايته، تعيش حياة الطهر والعفاف، والستر والحياء، منيعة الجانب، رفيعة القدر، في أدب رفيع، وخُلق عظيم، وحياء جمٍّ، بعيدة عن عبث الذئاب، وولوغ الفساق، وكيد المجرمين، ومَن يتأمَّل أحوال المرأة في الجاهلية ثم أحوالَها في الإسلام يتبيِّن هذه الحقيقة بجلاء.

روى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير: أنَّ عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ ﷺ أخبرته: «أنَّ النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرَّجلُ إلى الرَّجل وليَّته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يَمسُّها أبداً حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبيَّن حملُها أصابها زوجها إذا أحبَّ، وإنَّما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاحَ الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرَّهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرَّ ليل بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمِّي من أحبَّت باسمه، فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل، والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثيرون، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهنَّ البغايا، كنَّ ينصبن على أبوابهنَّ الرايات تكون علَماً، فمَن أرادهنَّ دخل عليهنَّ، فإذا حملت إحداهنَّ ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحَقوا ولدَها

بالذي يرون، فالتاطته به[١]، ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلمَّا بُعث محمد ﷺ بالحقِّ هدم نكاح الجاهلية كلّه إلاَّ نكاح الناس اليوم»[٢].

لقد «كانت المرأة تشترى وتباع كالبهيمة والمتاع، وكانت تُكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تورَث ولا ترث، وكانت تُملك ولا تَملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحقَّ في التصرف بمالها من دونها، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها إنساناً ذات نفس وروح خالدة كالرجل أم لا؟ وفي كونها تلقن الدِّين وتصح منها العبادة أم لا؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة أم لا؟ فقرَّر أحد المجامع في رومية أنَّها حيوان نجس لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكمَّ فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام؛ لأنَّها أحبولة الشيطان، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أنَّ للأب الحق في قتل بنته، بل في وأدها (دفنها حيَّة) أيضاً، وكان منهم من يرى أنَّه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية»[٣] إلى غير ذلك من أنواع الظلم والاضطهاد الذي كانت تقاسيه المرأة وتتجرَّع مرارته.

ولا تزال المرأة إلى يومنا هذا ـ في غير ظل الإسلام ـ تعاني أنواعاً قاسية من الأحزان المتتابعة، والصدمات العنيفة، حتى إنَّ بعضهنَّ يتمنَّينَ أن لو يُعامَلن معاملة المرأة المسلمة.

فهذه الكاتبة الشهيرة مس أترود[٤] تقول: «لأن يشغل بناتنا في البيوت خوادم

(١) أي: استلحقته به، وأصل اللوط اللصوق.

(٢) رواه البخاري (رقم ٥١٢٧).

(٣) حقوق النساء في الإسلام، لمحمد رشيد رضا (ص ٦).

(٤) نشر كلامها في جريدة (الاسترن ميل) في ١٠/مايو/١٩٠١م، كما في حقوق النساء في الإسلام، لمحمد رشيد رضا (ص ٧٦).

أو كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهنَّ في المعامل، حيث تصبح البنت ملوَّثة بأردان تذهب برونق حياتها إلى الأبد، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة، ردء الخادمة والرقيق يتنعَّمان بأرغد عيش ويُعاملان كما يُعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء.

نعم إنَّه لعار على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل على ما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها».

وتقول الكاتبة اللادي كوك، بجريدة ألايكو[1]: «إنَّ الاختلاطَ يألفه الرجال، ولهذا طمعت المرأة فيما يخالف فطرتها، وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا، وهنا البلاء العظيم على المرأة، فالرجل الذي علقت منه يتركها وشأنها تتقلَّب على مضجع الفاقة والعناء، وتذوق مرارة الذلِّ والمهانة والاضطهاد، بل الموت أيضاً، أمَّا الفاقة فلأنَّ الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذي تحصل به قوتها، وأمَّا العناء فهو أن تصبح شريرة حائرة لا تدري ماذا تصنع بنفسها، وأمَّا الذلُّ والعار فأيُّ عار بعد، وأمَّا الموت فكثيراً ما تبخع نفسها بالانتحار وغيره.

هذا والرجل لا يلم به شيء من ذلك، وفوق هذا كلِّه تكون المرأة هي المسؤولة وعليها التبعة، مع أنَّ عوامل الاختلاط كانت من الرجل.

أمَا آن لنا أن نبحث عمَّا يخفف ـ إذا لم نقل عما يزيل ـ هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية؟ أمَا آن لنا أن نتخذ طرقاً تمنع قتل ألوف الألوف من الأطفال الذين لا ذنب لهم، بل الذنب على الرجل الذي أغرى المرأة المجبولة على رقة القلب المقتضي تصديق ما يوسوس به الرجل من الوعود ويُمنِّي من الأماني، حتى إذا قضى منها وطراً تركها وشأنها تقاسي العذاب الأليم ...».

---

(١) حقوق النساء في الإسلام، لمحمد رشيد رضا (ص ٧٧ ـ ٧٨).

وهكذا يتوالى على المرأة أنواع الشرِّ والأذى والاضطهاد، وتعاني العذاب الأليم، وتتجرَّع غصص العيش، وتتمنَّى لو أُنقذت من ذلك كلّه؛ لتعيش عيشها الصحيح المتوائم مع فطرتها وتكوينها وما جبلت عليه، ويبقى الإسلام هو المنقذ الوحيد للمرأة، المخلص لها من ذلك كلّه، المحقق لها العزَّ والراحة والطمأنينة.

صيانة الإسلام للمرأة

لقد جعل الإسلام للمرأة ضوابط دقيقة تنال بها عفَّة نفسها، وصيانة فرجها، وسلامة عرضها، فأمرها بالحجاب، ورغَّبها في القرار في البيت، ومنعها من التبرُّج والسفور، ومن الخروج وهي متعطِّرة، ونهاها عن الاختلاط، إلى غير ذلك من الضوابط العظيمة، ولم تُؤمر بذلك كلِّه إلاَّ صيانة لها من الابتذال، وحماية لها من الشرِّ والفساد، ولتكسى بذلك حلل الطهر والعفاف، فهي في ميزان الإسلام درَّةٌ ثمينة، وجوهرةٌ كريمة، تُصان من كلِّ أذى، وتُحمى من كلِّ رذيلة.

وفيما يلي وقفة مختصرة مع أهمِّ هذه الضوابط والآداب:

١ . الحجاب:

وذلك بأن تستر المرأة جميعَ بدنها وزينتها عن الرجال الأجانب، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾[2].

٢ . أن لا تخرج إلاَّ لحاجة:

قال تعالى: ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾[3].

---

(١) الأحزاب، آية ٥٩.

(٢) الأحزاب، آية ٥٣.

(٣) الأحزاب، آية ٣٣.

روى الترمذي في سننه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((**المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان**))[١].

٣ ـ أن لا تخضع بالقول إن تحدَّثت مع أحد لحاجة:

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾[٢].

٤ ـ أن لا تجلس في خلوة مع رجل أجنبي عنها:

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ فقال: ((**لا يخلونَّ رجل بامرأة إلاَّ مع ذي محرم**))[٣].

٥ ـ أن لا تخالط الرجال:

وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: ((**خير صفوف النساء آخرها، وشرُّها أولها**))[٤]، هذا في المسجد، فكيف في غيره.

وللاختلاط أخطار عديدة، وأضرار كثيرة، سبق الإشارة إلى طرف منها.

٦ ـ أن لا تسافر إلاَّ مع ذي محرم:

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((**لا يحلُّ لامرأة أن تسافر إلاَّ ومعها ذو محرم منها**))[٥].

٧ ـ أن لا تضع شيئاً من الطيب على ملابسها عند خروجها:

روى مسلم في صحيحه عن النَّبيِّ ﷺ قال: ((**إذا شهدت إحداكنَّ المسجدَ**

---

(١) سنن الترمذي (رقم ١١٧٣).

(٢) الأحزاب، آية ٣٢.

(٣) صحيح البخاري (رقم ٥٢٣٣)، ومسلم (رقم ١٣٤١).

(٤) رواه مسلم (رقم ٤٤٠).

(٥) صحيح مسلم (رقم ١٣٣٨).

فلا تَمسَّ طيباً»[١].

وروى الإمام أحمد عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أيُّما امرأة استعطرت ثم خرجت، فمرَّت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكلُّ عين زانية»[٢].

٨ ـ أن لا تحاول لفت أنظار الرجال الأجانب إليها:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾[٣].

٩ ـ أن تغضَّ بصرَها عن النظر إلى الرجال الأجانب:

قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[٤].

١٠ ـ أن تحافظ على طاعة ربِّها وعبادته:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[٥].

وجميع هذه الضوابط وغيرها مِمَّا جاء في الكتاب والسنة المتعلقة بالمرأة المسلمة، تُعدُّ صمام أمان لها، وحارساً لشرفها وكرامتها.

ولهذا فإنَّ نعمة الله على المرأة المسلمة عظيمةٌ، ومنته عليها كبيرة جسيمة، حيث هيَّأ لها في الإسلام أسباب سعادتها، وصيانة فضيلتها، وحراسة عفَّتها، وتثبيت كرامتها، ودرء المفاسد والشرور عنها، لتبقى زكية النفس، طاهرة الخلق، منيعة الجانب، مصونة عن موارد التهتك والابتذال، محميَّة عن أسباب الزيغ والانحراف والانحلال.

---

(١) صحيح مسلم (رقم ٤٤٣).

(٢) مسند أحمد (٤/٤١٤، ٤١٨).

(٣) النور، آية ٣١.

(٤) النور، آية ٣١.

(٥) الأحزاب، آية ٣٣.

نعم لقد أكرم الإسلامُ المرأة المسلمة أعظم إكرام، وصانها أحسن صيانة، وتكفَّل لها بحياة كريمة، شعارُها الستر والعفَّة، ودثارُها الطهر والزكاء، ورايتُها إشاعة الأدب وتثبيت الأخلاق، وغايتها صيانة الشرف وحماية الفضيلة، وستبقى المرأةُ المسلمة عزيزة الجانب، رفيعة المنال، صيِّنة الأخلاق ما دامت متمسِّكةً بدينها، محافظة على أوامر ربِّها، مطيعة لنبيِّها ﷺ، مسلمة وجهها لله، مذعنة لشرعه وحكمه بكلِّ راحة وثقة واطمئنان، فتنال بذلك السعادة والراحة في الدنيا، والثواب العظيم والأجر الجزيل يوم القيامة.

وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا صلَّت المرأة خَمسَها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلَها، دخلت من أيِّ أبواب الجنَّة شاءت**» رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[1]، وروى الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا صلَّت المرأة خَمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي الجنَّة من أيِّ أبواب الجنَّة شئت**»[2].

فهنيئاً للمرأة المسلمة هذا الموعود الكريم وهذا الفضل العظيم، إذا عاشت حياتها ممتثلة هذا التوجيه الكريم، غير ملتفتة إلى الهمل من الناس من دعاة الفاحشة والفتنة: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾[3].

ومن المؤلم حقًّا أنَّ المرأةَ المسلمة في هذه الأزمان تتعرَّض لهجمات شرسة، ومؤامرات حاقدة، ومخططات آثمة، تستهدف الإطاحة بعفَّتها، وهتك شرفها، ودكِّ

---

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (رقم ٤١٦٣).

(٢) مسند أحمد (١/١٩١).

(٣) النساء، آية ٢٧.

كرامتها، ووأد فضيلتها، وخلخلة دينها وإيمانها، وإلحاقها بركب العواهر والفاجرات، وذلك من خلال قنوات فضائيَّة مدمِّرة، ومجلاَّت خليعة هابطة، وشغلها بأنواع من الألبسة الكاسية العارية، وتهييج قلبها إلى حبِّ التشبه بغير المسلمات مِمَّن يمشين على الأرض دون إيمان يردع، أو خُلق يزَع، أو أدب يمنع، وجرها من وراء ذلك إلى منابذة الشريعة، وجر أذيال الرذيلة، والبعد عن منابع العفَّة والفضيلة، لا مكَّنهم الله مِمَّا يريدون.

بيان مهم

في الوقت الذي يهتف فيه بعض مرضى النفوس وأرباب الشهوات مِمَّن لا يبالون بالضوابط الشرعية والحدود المرعية، التي تحقق للمرأة كرامتها، وتكفل لها عزَّها وسعادتها، مطالبين لها بحقوق مزعومة، وحريَّات محمومة، تجرُّ المرأة إلى أذيال لا تُدرك عاقبتها، ومهاوٍ لا تعلم شرها وخطرها، تحت رايات برَّاقة وشعارات أخَّاذة، مستغلين عواطف المرأة وسرعة استجابتها، وقصور نظرها في العواقب.

في هذا الوقت تأتي كلمات أهل العلم الناصحين، والدعاة الصادقين، والمحتسبين الغيورين آخذة بحُجَز المرأة عن السقوط في هذه المهاوي، والارتكاس في هذه السبل؛ حفاظاً على كرامتها ولتبقى عزيزة الجانب، صيِّنة الأكناف، حسنة السيرة، بعيدة عن التلوث بأوضار الفساد، وإن من أنفع ما ينبغي أن تقف عليه المرأة في هذا الباب البيان الصادر بهذا الخصوص عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في ١٤٢٠/١/٢٥هـ وفيما يلي نصُّه:

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه و بعد:

فمِمَّا لا يخفى على كلِّ مسلم بصير بدينه ما تعيشه المرأة المسلمة تحت ظلال الإسلام - وفي هذه البلاد خصوصاً - من كرامة وحشمة وعمل لائق بها، ونيل لحقوقها الشرعية التي أوجبها الله لها، خلافاً لِمَا كانت تعيشه في الجاهلية، وتعيشه الآن في بعض المجتمعات المخالفة لآداب الإسلام من تسيّب و ضياع و ظلم.

وهذه نعمة نشكر الله عليها، ويجب علينا المحافظة عليها، إلاَّ أنَّ هناك فئات من الناس مِمَّن تَلَوَّثت ثقافتُهم بأفكار الغرب، لا يرضيهم هذا الوضع المشرف الذي تعيشه المرأة في بلادنا من حياء، وستر، وصيانة، ويريدون أن تكون مثل المرأة في

البلاد الكافرة و البلاد العلمانية، فصاروا يكتبون في الصحف، و يطالبون باسم المرأة بأشياء تتلخص في:

١ ـ هتك الحجاب الذي أمرها الله به في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ ﴾[1]، وبقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾[2]، و بقوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ﴾[3] الآية، وقول عائشة رضي الله عنها في قصة تخلُّفها عن الركب ومرور صفوان بن معطّل ﷺ عليها وتخميرها لوجهها لَمَّا أحسَّت به قالت: (و كان قد رآني قبل الحجاب)، وقولها: (كنّا مع النبي ﷺ و نحن محرمات فإذا مَرَّ بنا الرجال سَدَلَت إحدانا خمارها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه)، إلى غير ذلك، مِمَّا يدلُّ على وجوب الحجاب على المرأة المسلمة من الكتاب والسنة، و يريد هؤلاء منها أن تخالف كتاب ربها وسنة نبيها، وتصبح سافرة يَتَمَتَّع بالنظر إليها كلُّ طامع و كلُّ مَن في قلبه مرض .

٢ ـ ويطالبون بأن تمكّن المرأة من قيادة السيارة رغم ما يترتب على ذلك من مفاسد، وما يعرضها له من مخاطر لا تخفى على ذي بصيرة .

٣ ـ ويطالبون بتصوير وجه المرأة ووضع صورتها في بطاقة خاصة بها تتداولها الأيدي، ويطمع فيها كلُّ مَن في قلبه مرض، ولا شكَّ أنَّ ذلك وسيلةٌ إلى كشف الحجاب.

٤ ـ ويطالبون باختلاط المرأة والرجال، وأن تتولّى الأعمال التي هي من اختصاص الرجال، وأن تترك عملَها اللائق بها والمتلائم مع فطرتها وحشمتها،

---

(١) الأحزاب، آية ٥٩.

(٢) الأحزاب، آية ٥٣.

(٣) النور، آية ٣١.

ويزعمون أنَّ في اقتصارها على العمل اللائق بها تعطيلاً لها.

ولا شك أنَّ ذلك خلاف الواقع، فإنَّ توليتها عملاً لا يليق بها هو تعطيلها في الحقيقة، وهذا خلاف ما جاءت به الشريعة من منع الاختلاط بين الرجال والنساء، ومنع خلو المرأة بالرجل الذي لا تَحلُّ له، ومنع سفر المرأة بدون محرم، لِمَا يترتب على هذه الأمور من المحاذير التي لا تحمد عقباها.

ولقد منع الإسلام من الاختلاط بين الرجال والنساء حتى في مواطن العبادة، فجعل موقف النساء في الصلاة خلف الرجال، ورغَّب في صلاة المرأة في بيتها، فقال النبي ﷺ: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وبيوتهن خير لهن)، كلُّ ذلك من أجل المحافظة على كرامة المرأة وإبعادها عن أسباب الفتنة.

فالواجب على المسلمين أن يحافظوا على كرامة نسائهم، وأن لا يلتفتوا إلى تلك الدعايات المضللة، وأن يعتبروا بما وصلت إليه المرأة في المجتمعات التي قبلت مثل تلك الدعايات وانخدعت بها، من عواقب وخيمة، فالسعيد مَن وُعظ بغيره، كما يجب على ولاة الأمور في هذه البلاد أن يأخذوا على أيدي هؤلاء السفهاء، ويَمنعوا من نشر أفكارهم السيئة؛ حماية للمجتمع من آثارها السيئة وعواقبها الوخيمة، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء» وقال عليه الصلاة والسلام: «واستوصوا بالنساء خيراً»، ومن الخير لهن المحافظة على كرامتهن وعفتهن وإبعادهن عن أسباب الفتنة.

وفق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وآله وصحبه.

ثم ذيِّل بتوقيع أعضاء اللجنة، وهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، وسماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ عبد الله الغديان، والشيخ بكر أبو زيد، والشيخ صالح الفوزان، أحسن الله للجميع وجزاهم خير الجزاء، ونفع

بجهودهم وبارك في أعمالهم.

وكان تاريخ صدور هذا البيان كما سبق في ١٤٢٠/١/٢٥هـ أي قبل وفاة سماحة الشيخ ابن باز بيومين، وفي هذا دلالة على عظم نصحه وتمام إرشاده إلى آخر أيام حياته رحمه الله، وهو بمثابة وصية المودِّع من هذا الإمام الناصح، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، وجعل جنة الفردوس الأعلى مأواه.

وبهذا نختم هذه الرسالة، ونسأل الله جلَّ وعلا أن يُصلح بنات المسلمين ونساءهم، وأن يُجنِّبهنَّ الفتن ما ظهر منها وما بطن، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.





الرسالة الثالثة عشرة

مفاتيح الخير



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحليم العظيم الكريم، يفتحُ على مَن يشاء من عباده بالحقِّ وهو الفتَّاح العليم، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، آتاه الله فواتحَ الخير وجوامعه وخواتمه، ووصفه بأنَّه بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ، صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإنَّ من أنفع أبواب العلم وأكثرها خيراً وعائدةً على المسلم معرفةَ مفاتيح الخير من مفاتيح الشرِّ، ومعرفةَ ما يحصل به النفعُ مِمَّا يحصل به الضرُّ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى جعل لكلِّ خير مفتاحاً وباباً يُدخل منه إليه، وجعل لكلِّ شرٍّ مفتاحاً وباباً يُدخل منه إليه، وما من مطلوب إلاَّ وله مفتاح به يُفتح، والمفتاح هو الآلةُ التي يُفتح بها المطلوب، وهو يُطلق على ما كان محسوساً مِمَّا يحلُّ مغلقاً كالقُفل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾[1]، ويُطلق على ما كان معنويًّا كما في الحديث «مفتاح الصلاة الطهور»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «والمفتاحُ ما يُفتَح به الشيءُ المغلَق، فيكون فاتحاً له، ومنه مفتاح الجنَّة لا إله إلاَّ الله»[3].

---

(١) سورة القصص، الآية: (٧٦).

جاء في بعض كتب التفسير أنَّ مفاتحه كانت من جلود، وكانت تُحمل على ستين بغلاً فالله أعلم، وقيل: إنَّ المراد بالمفاتح الكنوز والخزائن، قال الليث: «جمع المفتاح الذي يفتح به مفاتيح، وجمع المفتَح الخزانة المفاتح». انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٤/٤٤٦ ـ ٤٤٧).

(٢) رواه أبو داود (رقم: ٦١)، والترمذي (رقم: ٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٥٨٨٥).

(٣) حاشية تهذيب السنن (١/٤٥).

فصل

والفتَّاحُ هو الله عزَّ وجلَّ يحكم بين عباده بما يشاء، ويقضي فيهم بما يريد، ويَمنُّ على مَن يشاء منهم بما يشاء، لا رادَّ لحكمه ولا معقِّب لقضائه وأمره.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٣)]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

و«الفتَّاح» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو دالٌّ على صفةِ كمالٍ عظيمةٍ لله عزَّ وجلَّ، قال ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ في نونيَّته:

وكذلك الفتَّاح من أسمائه والفتحُ في أوصافه أمران
فتحٌ بحُكم وهو شرعُ إلَهنا والفتحُ بالأقدار فتحٌ ثان
والرَّبُّ فتَّاحٌ بذين كليهما عدلاً وإحساناً من الرحمن

قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في شرحه لهذه الأبيات: «فالفتَّاحُ هو الحكم المحسن الجواد، وفتْحُه تعالى قسمان: أحدهما فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي، والثاني الفتَّاح بحكمه القدري.

ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله جميعَ ما يحتاجه المكلَّفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم.

---

(١) سورة سبأ، الآية: (٢٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٨٩).

(٣) سورة فاطر، الآية: (٢).

وأمَّا فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفيهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء وأتباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم، وكذلك فتحُه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفَّى كلُّ عامل ما عمله.

وأمَّا فتحُه القدَري فهو ما يقدِّره على عباده من خير وشرٍّ ونفع وضرٍّ وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

فالرَّبُ تعالى هو الفتَّاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائنَ جوده وكرمه، ويفتحُ على أعدائه ضدَّ ذلك، وذلك بفضله وعدله))[2].

وقال رحمه الله: ((للفتَّاح معنيان:

الأول: يرجع إلى معنى الحَكَم الذي يفتح بين عباده، ويحكم بينهم بشرعه، ويحكم بينهم بإثابة الطائعين وعقوبة العاصين في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[4].

فالآيةُ الأولى فتحه بين العباد يوم القيامة، وهذا في الدنيا بأن ينصرَ الحقَّ وأهله، ويُذلَّ الباطل وأهله، ويوقع بهم العقوبات.

المعنى الثاني: فتحه لعباده جميع أبواب الخيرات، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ ﴾ الآية.

---

(١) سورة فاطر، الآية: (٢).

(٢) الحق الواضح المبين (ص: ٤٤، ٤٥).

(٣) سورة سبأ، الآية: (٢٦).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٨٩).

يفتح لعباده منافع الدنيا والدين، فيفتح لِمَن اختصَّهم بلطفه وعنايته أقفال القلوب، ويُدِرُّ عليها من المعارف الربَّانيَّة والحقائق الإيمانية ما يُصلح أحوالها وتستقيم به على الصراط المستقيم، وأخصُّ من ذلك أنَّه يفتح لأرباب محبَّته والإقبال عليه علوماً ربَّانيَّة، وأحوالاً روحانيَّة، وأنواراً ساطعة، وفهوماً وأذواقاً صادقة.

ويفتحُ أيضاً لعباده أبواب الأرزاق وطرق الأسباب، ويهيِّئ للمتَّقين من الأرزاق وأسبابها ما لا يحتسبون، ويُعطي المتوكِّلين فوق ما يطلبون ويؤمِّلون، وييسِّر لهم الأمور العسيرة، ويفتح لهم الأبواب المغلقة»[1].

وإنَّا لنسأل الله ونتوسَّل إليه بهذا الاسم العظيم، وندعوه بأنَّه الفتَّاح وبأنَّه خير الفاتحين أن يفتح على قلوبنا بالإيمان الصحيح والاهتداء الكامل واليقين الراسخ، وأن يفتح لنا خزائنَ رحمته وأبواب كرمه وموائدَ برِّه وواسع فضله، إنَّه سميع مجيب.

---

(١) فتح الرحيم الملك العلاَّم في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن (ص: ٤٨).

فصل

هذا وإنَّ أعظمَ المفاتيح وأنفعَها كلمةُ التوحيد لا إله إلاَّ الله فهي تمام المنَّة ومفتاح الجنَّة، وهي قوام الأمر ورأس الخير وأساسه، روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ ابن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((مفاتيح الجنَّة شهادةُ أن لا إله إلاَّ الله))[١]، وروى أبو نعيم من حديث أنس ﷺ قال: قال أعرابيٌّ: ((يا رسول الله، ما مفتاح الجنَّة؟ قال: لا إله إلاَّ الله))[٢].

وهذان الحديثان وإن كان في إسنادهما ضعف إلاَّ أنَّ معناهما حقٌّ صحيح لا ريب فيه، يشهد له نصوص كثيرة في الكتاب والسنَّة، منها ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما منكم من أحد يتوضَّأ فيبلغُ أو يُسبغُ الوضوءَ ثم يقول: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله إلاَّ فُتِحَت له أبوابُ الجنَّةِ الثمانية يدخل من أيِّها شاء))[٣].

فهذا دليل صحيح صريحٌ على أنَّ أبواب الجنَّة الثمانية تفتح بالتوحيد تفتح بشهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأمَّا مَن لَم يأتوا بالتوحيد، فشأنهم كما قال الله: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾[٤].

لكن ينبغي أن يُعلم أنَّ هذا المفتاح العظيم [لا إله إلاَّ الله] ليس ينفع صاحبه إلاَّ إذا قام بحقِّه، فلا إله إلاَّ الله إنَّما تنفع صاحبَها إذا أتى بأركانها والتزم شروطها وأداء

---

(١) المسند (رقم: ٢٢١٠٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١٦/١): ((رواه أحمد والبزار وفيه انقطاع بين شهر ومعاذ، وإسماعيل ابن عياش روايته عن أهل الحجاز ضعيفة، وهذا منها)).

(٢) ذكره ابن القيم في حادي الأرواح (ص: ٩٩).

(٣) صحيح مسلم (رقم: ٢٣٤).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٤٠).

حقوقها المعلومة من الكتاب والسنَّة، ولهذا ذكر البخاري في صحيحه عن وهب بن منبِّه أنَّه قيل له: أليس لا إله إلاَّ الله مفتاح الجنَّة؟ فقال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلاَّ له أسنان، فإن جئتَ بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلاَّ لَم يُفتح لك»[1]. يشير بذلك إلى شروط لا إله إلاَّ الله.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في نونيَّته تحت «فصل في مفتاح باب الجنَّة»:

هذا وفتحُ الباب ليس بممكن ... إلاَّ بمفتاح على أسنان
مفتاحه بشهادة الإخلاص والتَّـ ... ـوحيد تلك شهادةُ الإيمان
أسنانه الأعمالُ وهي شرائع الـ ... إسلام والمفتاحُ بالأسنان
لا تُلغيَن هذا المثالَ فكم به ... من حلِّ إشكالٍ لذي عرفان

وقد أشار سلفُنا الصالح رحمهم الله إلى أهميّة العناية بشروط لا إله إلا الله ووجوب الالتزام بها، وأنّها لا تُقبل إلا بذلك، ومن ذلك ما جاء عن الحسن البصري رحمه الله: أنّه قيل له: إنَّ ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فقال: من قال لا إله إلا الله فأدّى حقّها وفرضَها دخل الجنة.

وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته: «ما أعددتَّ لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. فقال الحسن: نِعمَ العُدّة، لكن للا إله إلا الله شروطاً فإياك وقذف المحصنات»[2]، وتقدَّم قول وهب رحمه الله.

ثم إنّه باستقراء أهل العلم لنصوص الكتاب والسنة تبيّن أنَّ لا إله إلا الله لا تُقبل إلا بسبعة شروط وهي:

١ ـ العلم بمعناها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل.

---

(١) صحيح البخاري (٢/٣٧٧).

(٢) انظر كلمة الإخلاص لابن رجب (ص: ١٤).

٢ ـ اليقين المنافي للشك والريب.

٣ ـ الإخلاص المنافي للشرك والرياء.

٤ ـ الصدق المنافي للكذب.

٥ ـ المحبّة المنافية للبغض والكره.

٦ ـ الانقياد المنافي للترك.

٧ ـ القبول المنافي للردّ.

وقد جمع بعضُ أهل العلم هذه الشروط السبعة في بيتٍ واحدٍ فقال:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقُك معْ   محبّةٍ وانقيادٍ والقَبولُ لها

ولنقِف وقفةً مختصرةً مع هذه الشروط لبيان المراد بكلٍّ واحدٍ منها، مع ذِكر بعض أدلّتها من الكتاب والسنة[1].

ـ **أما الشرط الأول**: وهو العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل، وذلك بأن يعلم من قالها أنّها تنفي جميع أنواع العبادة عن كلٍّ من سوى الله، وتُثبت ذلك لله وحده، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي نعبدُك ولا نعبد غيرَك، ونستيعن بك ولا نستعين بسواك.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3]، قال المفسِّرون: إلا من شهد بـ لا إله إلا الله، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: معنى ما شهدوا به في قلوبهم وألسنتهم.

وثبت في صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال

---

(١) وانظر شرحها موسعاً في: معارج القبول للشيخ حافظ حكمي (١/٣٧٧ وما بعدها).

(٢) سورة محمد، الآية: (١٩).

(٣) سورة الزخرف، الآية: (٨٦).

رسول الله ﷺ: ((من مات وهو يعلم أنَّه لا إله إلا الله دخل الجنة))[١]، فاشترط عليه الصلاة والسلام العلمَ.

ـ **أما الشرط الثاني**: فهو اليقين المنافي للشك والريب، أي أن يكون قائلها موقناً بها يقيناً جازماً لا شك فيه ولا ريب، واليقين هو تمام العلم وكماله، قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[٢]، ومعنى قوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ أي: أيقنوا ولَم يشكُّوا.

وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرُ شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة))[٣].

وثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلاَّ الله مستيقناً بها قلبه فبشِّره بالجنة))[٤]، فاشترط اليقين.

- **والشرط الثالث**: هو الإخلاص المنافي للشرك والرياء، وذلك إنَّما يكون بتصفية العمل وتنقيته من جميع الشوائب الظاهرة والخفيّة، وذلك بإخلاص النية في جميع العبادات لله وحده، قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ﴾[٥]، وقال تعالى:

---

(١) صحيح مسلم (رقم: ٢٦).

(٢) سورة الحجرات، الآية: (١٥).

(٣) صحيح مسلم (رقم: ٢٧).

(٤) صحيح مسلم (رقم: ٣١).

(٥) سورة الزمر، الآية: (٣).

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[١]، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال: ((أسعدُ الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه))[٢]، فاشترط الإخلاص.

ـ **والشرط الرابع**: هو الصدق المنافي للكذب، وذلك بأن يقولَ العبدُ هذه الكلمة صادقاً من قلبه، والصدق هو أن يواطئ القلبُ اللسانَ، ولذا قال الله تعالى في ذمِّ المنافقين: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[٣]، فوصفهم سبحانه بالكذب؛ لأنَّ ما قالوه بألسنتهم لم يكن موجوداً في قلوبهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[٤]، وثبت في الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله صادقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار))[٥]، فاشترط الصدق.

ـ **الشرط الخامس**: المحبَّة المنافية للبغض والكره، وذلك بأن يحب قائلُها اللهَ ورسولَه ودينَ الإسلام والمسلمين القائمين بأوامر الله الواقفين عند حدوده، وأن يُبغض من خالف لا إله إلا الله وأتى بما يُناقضها من شرك وكفر، ومّما يدل على اشتراط المحبة في الإيمان قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا

---

(١) سورة البينة، الآية: (٥).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٩٩).

(٣) سورة المنافقون، الآية: (١).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: (١ ـ ٣).

(٥) صحيح البخاري (رقم: ١٢٨)، وصحيح مسلم (رقم: ٣٢).

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1]، وفي الحديث: ((أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله))[2].

ـ **والشرط السادس**: القبول المنافي للردّ، فلا بدّ من قبول هذه الكلمة قبولاً حقاً بالقلب واللسان، وقد قصّ الله علينا في القرآن الكريم أنباء من سبق مِمَّن أنجاهم لقبولهم لا إله إلا الله، وانتقامه وإهلاكه لِمَن ردّها ولم يقبلها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، وقال سبحانه في شأن المشركين: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾[4].

ـ **الشرط السابع**: الانقياد المنافي للترك؛ إذ لا بد لقائل لا إله إلا الله أن ينقاد لشرع الله، ويُذعنَ لحكمه ويسلمَ وجهه إلى الله إذ بذلك يكون متمسكاً بـ لا إله إلا الله، ولذا يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ ﴾[5]، أي فقد استمسك بـ لا إله إلا الله، فاشترط سبحانه الانقياد لشرع الله، وذلك بإسلام الوجه له سبحانه.

فهذه هي شروط لا إله إلا الله، وليس المرادُ منها عدَّ ألفاظها وحفظَها فقط، فكم من عاميٍّ اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعددها لم يُحسن ذلك، وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها، فالمطلوب إذاً العلم والعمل معاً ليكون المرء بذلك من أهل لا إله إلا الله صدقاً، ومن أهل كلمة التوحيد حقاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٦٥).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٨٦/٤)، وحسّنه العلاّمة الألباني في الصحيحة (رقم: ١٧٢٨).

(٣) سورة يونس، الآية: (١٠٣).

(٤) سورة الصافات، الآية: (٣٥، ٣٦).

(٥) سورة لقمان، الآية: (٢٢).

فصل

قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾(١)، وقال عن النار: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾(٢).

فالنَّارُ لها أبوابٌ مفتاحها الكفرُ والتكذيب والشرك والنفاق والكبر والفسوق والعصيان، والجنَّة لها أبواب مفتاحها التوحيد والصلاة والصيام والبرُّ والإحسان وغير ذلك من الطاعات.

فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة، يا عبد الله هذا خير، فمَن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومَن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة. قال أبو بكر ﵁: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلِّها؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم»(٣).

---

(١) سورة الزمر، الآيات: (٧١ ـ ٧٤).

(٢) سورة الحجر، الآية: (٤٤).

(٣) صحيح البخاري (رقم: ١٨٩٧)، وصحيح مسلم (رقم: ١٠٢٧).

وفي الصحيحين عن سَهل بن سعد رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((في الجنة ثمانية أبواب، فيها بابٌ يُسَمَّى الريَّان لا يدخله إلاَّ الصائمون))[١].

وأوَّل مَن يَستفتِحُ بابَ الجنَّة نبيُّنا محمد ﷺ، روى مسلم في صحيحه عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: ((آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتحُ فيقول الخازنُ: مَن أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بكَ أُمرت لا أفتح لأحد قبلك))[٢].

وروى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنا أوَّلُ شفيع في الجنَّة))، وفي لفظ له: ((وأنا أوَّل مَن يقرعُ بابَ الجنَّة))[٣].

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ٣٢٥٧)، وصحيح مسلم (رقم: ١١٥٢).

(٢) صحيح مسلم (رقم: ١٩٧).

(٣) صحيح مسلم (رقم: ١٩٦).

فصل

وما من مطلوب إلاّ وله مفتاح به يُفتح، فمفتاح الجنَّة كما تقدَّم هو التوحيد، ومفتاح الصلاة الطَّهور، كما ثبت ذلك في الحديث، قال ابن القيم رحمه الله: ((وقد جعل الله سبحانه لكلِّ مَطلوبٍ مفتاحاً يُفتح به، فجعل مفتاحَ الصلاةِ الطهور، كما قال ﷺ: (مفتاح الصلاة الطهارة)[1]، ومفتاحَ الحج الإحرام، ومفتاحَ البِرِّ الصدق، ومفتاح الجنَّة التوحيدَ، ومفتاحَ العلم حُسنَ السؤال وحسنَ الإصغاء، ومفتاحَ النَّصر والظفر الصبرَ، ومفتاحَ المزيد الشكرَ، ومفتاحَ الولاية المحبةَ والذِّكرَ، ومفتاحَ الفلاح التقوى، ومفتاحَ التوفيق الرغبةَ والرهبةَ، ومفتاحَ الإجابة الدعاءَ، ومفتاحَ الرغبة في الآخرة الزهدَ في الدنيا، ومفتاحَ الإيمان التفكيرَ فيما دعا اللهُ عبادَه إلى التفكيرِ فيه، ومفتاحَ الدخول على الله إسلامَ القلبِ وسلامته له والإخلاصَ له في الحبِّ والبغض والفعل والتَّرك، ومفتاحَ حياة القلب تدبُّرَ القرآن والتضرُّعَ بالأسحار وتركَ الذنوب، ومفتاحَ حصول الرَّحمة الإحسانَ في عبادة الخالق والسعيَ في نفع عبيده، ومفتاحَ الرِّزق السعيَ مع الاستغفار والتقوى، ومفتاحَ العزِّ طاعةَ الله ورسوله، ومفتاحَ الاستعدادِ للآخرة قَصْرَ الأمل، ومفتاحَ كلِّ خَيرٍ الرغبةَ في الله والدار الآخرة، ومفتاحَ كلِّ شَرٍّ حُبَّ الدنيا وطولَ الأمل.

وهذا بابٌ عظيمٌ من أنفعِ أبواب العلم، وهو معرفةُ مفاتيح الخير والشر، لا يُوَفَّق لمعرفته ومراعاته إلاَّ مَن عَظُم حظُّه وتوفيقُه))[2].

وقد ورد عن السلف ـ رحمهم الله ـ في هذا المعنى جملة من الآثار أذكر منها ما يلي:

---

(١) رواه أبو داود (رقم: ٦١)، والترمذي (رقم: ٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٥٨٨٥).

(٢) الجواب الكافي (ص: ١٠٠).

قال عون بن عبد الله: ((اهتمامُ العبد بذنبه داعٍ إلى تركه، وندمُهُ عليه مفتاحٌ للتوبة، ولا يزالُ العبدُ يهتمُّ بالذنب يصيبه حتى يكون أنفعَ له من بعض حسناته))[١].

وقال سفيان بن عيينة: ((التفكُّر مفتاحُ الرحمة، ألاَ ترى أنَّه يتفكَّر فيتوب))[٢].

وقال وهب: ((الصَّمتُ فهمٌ للفكرة، والفكرةُ مفتاحٌ للمنطق، والقولُ بالحقِّ دليلٌ على الجنَّة))[٣].

وقال محمد بن علي لابنه: ((يا بُنيَّ، إيَّاك والكسلَ والضَّجَر، فإنَّهما مفتاحُ كلِّ شرٍّ، إنَّك إن كسلت لم تُؤدِّ حقًّا، وإن ضجرتَ لم تصبر على حقٍّ))[٤].

وقال الحسن: ((مفتاحُ البحار السُّفن، ومفتاحُ الأرض الطرق، ومفتاحُ السماء الدعاء))[٥].

وقال سهل بن عبد الله: ((ترك الهوى مفتاح الجنَّة لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٦]))[٧].

وقال سفيان: ((كان يُقال: طولُ الصمت مفتاحُ العبادة))[٨].

وقال رحمه الله في وصية جامعة له وموعظة بليغة كتبها لأحد إخوانه: "ومفتاح التوفيق الدعاء والتضرع والاستكانة والندامة على ما فرطت"[٩].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/٢٥١).

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة (رقم: ٣٩).

(٣) رواه أبو الشيخ في العظمة (رقم: ٥٥).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/١٨٣).

(٥) ذكره القرطبي في تفسيره (١٤/٥٣).

(٦) سورة النازعات، الآيتان: (٤٠، ٤١).

(٧) ذكره القرطبي في تفسيره (١٩/١٣٥).

(٨) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (رقم: ١٣٦).

(٩) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/٣٩١).

وقال شيخ الإسلام: ((فالصدقُ مفتاح كلِّ خير، كما أنَّ الكذبَ مفتاحُ كلِّ شرٍّ))[١].

وقال رحمه الله: ((الدعاءُ مفتاحُ كلِّ خير))[٢].

---

(١) الاستقامة (١/٤٦٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٦١).

فصل

وكما أنَّ لكلِّ باب من أبواب الخير مفتاحاً، فإنَّ الشرَّ كذلك لكلِّ باب منه مفتاح، وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ في شأن الخمر أنَّه مفتاحُ كلِّ شرٍّ، ففي سنن ابن ماجه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا تشرب الخمر؛ فإنَّها مفتاحُ كلِّ شرٍّ»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «فإنَّ الله سبحانه وتعالى جعل لكلِّ خيرٍ وشرٍّ مفتاحاً وباباً يُدخل منه إليه، كما جعل الشِّركَ والكِبرَ والإعراضَ عمَّا بعث اللهُ به رسولَه، والغفلةَ عن ذِكرِه والقيام بحقِّه مفتاحاً للنار، وكما جَعل الخمرَ مفتاحَ كلِّ إثمٍ، وجعلَ الغنى مفتاحَ الزنا، وجعل إطلاقَ النَّظَرِ في الصُّوَرِ مفتاحَ الطَّلَبِ والعِشقِ، وجعلَ الكَسلَ والراحةَ مفتاحَ الخيبَةِ والحِرمان، وجعل المعاصي مفتاحَ الكفرِ، وجعلَ الكذبَ مفتاحَ النِّفاق، وجعلَ الشُّحَّ والحرصَ مفتاحَ البخلِ وقطيعةِ الرَّحم وأخذِ المالِ مِن غير حِلِّه، وجعلَ الإعراضَ عمَّا جاء به الرسولُ مفتاحَ كلِّ بدعة وضلالةٍ، وهذه الأمورُ لا يصدِّق بها إلاَّ كلُّ مَن له بصيرة صحيحةٌ وعقلٌ يعرف به ما في نفسه وما في الوجود من الخيرِ والشَّرِّ، فينبغي للعبد أن يعتنِيَ كلَّ الاعتناء بمعرفة المفاتيح وما جُعلت المفاتيحُ له، والله من وراء توفيقه وعدله، له الملك وله الحمد وله النِّعمةُ والفضل، لا يُسألُ عما يفعل وهم يسألون»[2].



(١) سنن ابن ماجه (رقم: ٣٣٧١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٧٣٣٤).

(٢) الجواب الكافي (ص: ١٠٠).

فصل

والناسُ أنفسُهم منهم مَن هو مفتاحٌ للخيرِ مغلاقٌ للشرِّ، ومنهم مَن هو ـ والعياذ بالله ـ مفتاحٌ للشرِّ مغلاقٌ للخير، وذلك بحسب حالهم من الخير وحالهم من الشرِّ، وكلُّ إناء بما فيه ينضَح.

روى ابن ماجه في سننه وابن أبي عاصم في السنَّة وغيرُهما من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الناسِ ناساً مفاتيحاً للخير مغاليقاً للشرِّ، ومن الناس مفاتيحاً للشرِّ مغاليقاً للخير، فطوبى لِمَن جعل الله مفتاحَ الخير على يديه، وويلٌ لِمَن جعل مفتاحَ الشرِّ على يديه»، وهو حديث حسن[(١)].

فأئمَّة الهدى ودعاة السنَّة وأنصارُ الدِّين وحملة العلم الذين يدعون الناسَ إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويُحيون بكتاب الله الموتى ويُبصِّرون بنور الله أهلَ العمى هم مفاتيح الخير[(٢)]، ولهذا جاء بإسناد جيِّد عن أنس بن مالك ﷺ ـ راوي الحديث المتقدِّم ـ أنَّه قال: «إنَّ للخير مفاتيح، وإنَّ ثابتاً البُناني من مفاتيح الخير»[(٣)].

وثابتٌ ـ رحمه الله ـ وهو من أجلَّة التابعين كان من حملة العلم وأنصار السنَّة، فهو لذلك مفتاحٌ للخير، وهكذا الشأن في أئمَّة الدِّين وحملة السنَّة ودعاة الخير، جميعهم مفاتيح للخير مغاليق للشرِّ.

أمَّا دعاةُ الباطل وأنصار البدعة وأهل الأهواء على اختلاف مشاربهم وتعدُّد

---

(١) سنن ابن ماجه (رقم: ٢٣٧)، والسنة لابن أبي عاصم (رقم: ٢٩٧).

(٢) وفتح الخير الذي يكون هو ببيان الخير للناس ودعوتهم إليه وحثُّهم عليه وترغيبهم فيه ونحو ذلك، أمَّا فتح الخير الذي هو شرح الصدر للخير والتوفيق لقبوله فهذا أمر مختصٌّ بالله عزَّ وجلَّ، فالفتحُ فتحان؛ فتحٌ يكون من المخلوق وهو بالدعوة والدلالة والبيان، وفتحٌ لا يكون إلاَّ من الله، وهو بالهداية والتوفيق والإلهام.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٧/٢٤٠)، وأبو القاسم البغوي في الجعديات (رقم: ١٣٨٥).

طرائقهم وتباين اتجاهاتهم فهم مفاتيح للشرِّ، يُمزِّقون بأهوائهم صفوفَ المسلمين، ويُفرِّقون ببدعهم كلمةَ المؤمنين، ويَنشرون بينهم الإحَنَ والتقاطعَ والتدابرَ.

فأهل السنَّة مفتاحُ الاجتماع والاعتصام والائتلاف على الحقِّ والهُدى، وأهل البدعة مفتاح الاختلاف والانقسام والافتراق في الباطل والرَّدَى، فالسنَّة تجمعُ والبدعةُ تفرِّق.

قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في بيان أوصاف مفاتيح الخير: «فمِن أهمِّ ذلك تعليمُ العلوم النافعة وبثُّها، فإنَّها مفتاحُ الخيرات كلِّها، ومن ذلك الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر برفق ولين وحِلم وحكمة، ومن ذلك أن يَسُنَّ العبدُ سنَّةً حسنة، ويَشرَعَ مشروعاً طيِّباً نافعاً يتبعه الناسُ عليه، فكلُّ مَن سنَّ سنَّةً حسنةً فله أجرها وأجر مَن عمل بها، من غير أن ينقصَ من أجورهم شيءٌ، كما أنَّ مَن سنَّ سنَّة سيِّئةً فإنَّ عليه وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة.

ومن ذلك بذلُ النصيحة النافعة في الدِّين أو في الدنيا، فإنَّ النَّاصحين مفاتيح للخيرات مغاليق للشرِّ.

وينبغي للعبد عند اختلاطه ومعاشرته لهم ومعاملتهم أن ينتهز الفرصةَ في إشغالهم بالخير، وأن تكون مجالسُه لا تخلو من فائدة أو من تخفيف شرٍّ ودفعه بحسب مقدوره، فكم حصل للموفق من خيرات وخير وثواب، وكم اندفع به من شرور كثيرة، وعمادُ ذلك رغبة العبد في الخير وفي نفع العباد، فمتى كانت الرَّغبةُ في الخير نصبَ عينيه، ونيَّتُه مصمِّمةً على السعي بحسب إمكانه، واستعان بالله في ذلك، وأتى الأمورَ من أبوابها ومناسباتها، فإنَّه لا يزال يكسب خيراً ويغنم ثواباً».

ثمَّ قال ـ رحمه الله ـ في بيان أوصاف مفاتيح الشرِّ: «وضدُّ ذلك عدمُ رغبة العبد في الخير يُفوِّته خيراً كثيراً؛ فإن كان مع ذلك عادماً للنصح للعباد، لا يقصد نفعَهم بوجه من الوجوه، وربَّما قصد إضرارَهم وغِشَّهم لأغراض نفسية، أو عقائد

فاسدة، فقد أتى بالسبب الأعظم لحصول المضرَّات وتفويت الخيرات، وكان هذا الذي يصدق عليه أنَّه مفتاحٌ للشرِّ، مغلاقٌ للخير، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا))[(١)].

وقال ـ رحمه الله ـ في خطبة بليغة له عن مفاتيح الخير والشرِّ: ((فكونوا ـ رحمكم الله ـ مفاتيحَ للخيرات مغاليقَ للشرور والآفات، فمَن كان منكم مخلصاً لله، ناصحاً لعباد الله، ساعياً في الخير بحسب إمكانه، فذاك مفتاحٌ للخير حائزٌ للسعادة، ومَن كان بخلاف ذلك فهو مغلاقٌ للخير، وقد تحقَّقت له الشقاوةُ من الناس مَن إذا اجتمع بهم في مجالسهم حرصَ على إشغالهم فيماينفعهم في دينهم ودنياهم، ومنهم مَن يشغلُهم بما يضرُّ وما لا يعني، فهذا قد حرَمهم الخيرَ وأشقاهم، ومنهم مَن يسعى في تقريب القلوب وجمع الكلمة والائتلاف، ومنهم مَن يسعى في إثارة الفتن والشقاق والتنافر والخلاف، ومنهم مَن يجتهدُ في قلع ما في قلوبهم من البغضاء، ومنهم مَن يلهبُ في قلوبهم الشحناء، ومنهم مَن يحثُّ على الجُود والكرم والسماحة، ومنهم مَن يدعو إلى البُخل والشُّحِّ والوقاحة، ومنهم مَن يتنوَّع في فعل المعروف في بدنه وقوله وماله، ومنهم مَن لا يعرف المعروف ولو قلَّ فلا تسأل عن سوء حاله، ومنهم مَن مجالسُه مشغولةٌ بالغيبة والنميمة والوقيعة في الناس، ومنهم مَن يُنزِّه نفسَه عن ذلك ويُنزِّه الجلاَّسَ، ومنهم مَن تُذكِّرُ روايتُه بالله ويُعين العبادَ في مقالِه وحاله على طاعة الله، ويأمرُهم بالقيام بالحقوق الواجبة والمسنونة، ومنهم المُثبِّطُ عن الخير وأحوالُه غيرُ مأمونة، فتبارك الذي فاوتَ بين العباد هذا التفاوتَ العظيمَ، فهذا كريمٌ على الله وعلى خلقه، وهذا لئيمٌ، وهذا مباركٌ على من اتَّصل به، وهذا داعٍ إلى كلِّ خُلُقٍ ذميم، وهذا مفتاحٌ للبرِّ والتقوى وطرق الخيرات، وهذا مغلاقٌ لها ومفتاحٌ

---

(١) كتاب الرياض الناضرة ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفاته (١/ ٥١٢ ـ ٥١٣).

للشرور والآفات، وهذا مأمونٌ على النفوس والأعراض والأموال، وهذا خائنٌ لا يُوثَقُ به في حال من الأحوال، وهذا قد سلِمَ المسلمون من لسانِه ويده، وهذا لَم يسلَم منه أحدٌ، وربَّما سرَت أذيَّتُه على أهله وولده، أجارني اللهُ وإيَّاكم من منكرات الأعمال والأخلاق والأهوا، وعافانا من كلِّ شرٍّ قاصرٍ ومتعدٍّ ومن البلوى، ورزقنا الهُدى والتُّقى والعفافَ والغِنَى»[1].



(١) الفواكه الشهيَّة في الخطب المنبرية (ص: ١١٤ ـ ١١٥).

فصل

لقد أوتي رسول الله ﷺ فواتحَ الخير وجوامعَه، ففي المسند وسنن النسائي من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «إنَّ رسول الله ﷺ عُلِّم فواتح الخير وجوامعَه وخواتمه»[١].

وعليه فإنَّ مَن أراد جوامعَ الخير وفواتحَه وخواتمَه فليلزم السنَّة وليحذر أشدَّ الحَذر من البدعة، ومَن أراد جمعَ الناس وفتح أبواب الخير لهم فليُعلِّمهم السنَّةَ وليفقِّههم في دين الله، ففتحُ أبواب الخير لهم لا يكون إلاَّ بدعوتهم إلى سنَّة رسول الله ﷺ، فهي التي فيها جوامع الخير وفواتحه.

---

(١) مسند أحمد (رقم: ٤١٦٠)، وسنن النسائي (٢/٢٣٨).

فصل

ومن أراد لنفسه أن يكون من مفاتيح الخير مغاليق الشر أهل طوبى فعليه بما يلي:

١- الإخلاص لله في الأقوال والأفعال، فإنه أساس كل خير وينبوع كل فضيلة.

٢- الدعاء والإلحاح على الله بالتوفيق لذلك فإن الدعاء مفتاح كل خير، والله لا يرد عبداً دعاه ولا يخيب مؤمناً ناداه.

٣- الحرص على طلب العلم النافع وتحصيله فإن العلم داع إلى الفضائل والمكارم حاجزٌ عن الرذائل والعظائم.

٤- الإقبال على عبادة الله ولا سيما الفرائض وبخاصة الصلاة فإنها تنهىعن الفحشاء والمنكر.

٥- التحلي بمكارم الأخلاق ورفيعها، والبعد عن سفاسف الأخلاق ورديئها.

٦- مرافقة الأخيار ومجالسة الصالحين فإن مجالسهم تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة، والحذر من مجالسة الأشرار فإنها متنزل الشياطين.

٧- النصح للعباد حال معاشرتهم ومخالطتهم بشغلهم في الخير وصرفهم عن الشر.

٨- تذكر المعاد والوقوف بين يدي رب العالمين فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[الزلزلة: ٧، ٨].

٩- وعماد ذلك كله رغبة العبد في الخير وفي نفع العباد، فمتى كانت الرغبة قائمة والنية مصممة والعزم أكيداً واستعان بالله في ذلك وأتى الأمور من أبوابها كان -بإذن الله- من مفاتيح الخير مغاليق الشر.

والله يتولى عباده بتوفيقه ويفتح على من شاء بالحق وهو خير الفاتحين.

وختاماً أقول:

إنَّ من أنفع ما يكون للمسلم في هذه الحياة أن يُميِّز بين مفاتيح الخير ومفاتيح الشرِّ؛ ليكون في عبادته وعلمه وعمله ودعوته على بصيرة ونور من الله، وتصوَّروا ـ رحمكم الله ـ حالَ رجل أُوتِي داراً بها غرفات كثيرةٌ متعدِّدةُ المصالح فيها الحسنُ والقبيحُ، والجيِّد والرديء، والنافعُ والضارُّ، والمفرحُ والمحزن، ثم أُرشد إلى مفاتيح تلك الغرفات، فلم يُحسن معرفة تلك المفاتيح وما جعلت له، لا شكَّ أنَّ مَن كانت هذه حالُه سيتخبَّط في تلك الدار، وسيعرض نفسَه إلى جملة كبيرة من الأخطار والأضرار، وسيكون في أمر مريج لا يعرف ما ينفعه مِمَّا يضرُّه، ولا ما يسوؤه مِمَّا يفرحه.

فأين هذا مِمَّن ميَّز بين الحقِّ والباطل، والهُدى من الضلال، والسنَّة من البدعة، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، والأصيل من الدخيل ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

إنَّ هذين الصنفين من الناس في ميزان الحقِّ لا يستويان ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ﴾[2].

اللَّهمَّ ارزقنا الفقهَ في كتابك والاهتداءَ بسنَّة نبيِّك ﷺ، واجعلنا هُداةً مهتدين من الذين يقولون بالحقِّ وبه يعدلون، واجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشرِّ بمنِّك وكرمِك يا أكرم الأكرمين، ويا خير الفاتحين.

وبهذا تَمَّت هذه الرسالة، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين[3].

---

(١) سورة الرعد، الآية: (١٩).

(٢) سورة فاطر، الآيات: (١٩ ـ ٢٢).

(٣) أصل هذه الرسالة محاضرة أُلقيت مساء يوم الأحد الموافق (١٤٢٤/٢/٤هـ) بقاعة المحاضرات في الجامعة الإسلامية.





الرسالة الرابعة عشرة

تنبيهات على رسالة

محمد عادل عزيزة في الصفات

رد على كتابه: (عقيدة الإمام الحافظ ابن كثير من أئمة السلف الصالح - في آيات الصفات)



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأحد الصمد، له الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير، نحمده على أسمائه الحسنى وصفاته الكاملة العليا، ونُثني عليه الخيرَ كلَّه، لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، وبصفاته نؤمن، وبنعوت كماله نوحِّد، ولكتابه وسنَّة رسوله نحكِّم، وبحكمهما نرضى ونسلِّم، فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الرِّضا والتسليم.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فقد اطَّلعتُ على الرسالة التي جمعها محمد عادل عزيزة وعنوانها: ((عقيدة الإمام الحافظ ابن كثير ـ من أئمة السلف الصالح ـ في آيات الصفات))، فوجدتُ مؤلِّفَها قد سلك فيها مسلكاً ملتوياً، ونحا في جمعها منحاً غريباً، يخلُّ بالأمانة العلمية، ويُناقض النزاهة المطلوبة في التأليف، وإن كان قد قال في مقدِّمتها: ((فقد مسَّت الحاجة في أيَّامنا هذه لعرض منهج السلف الصالح الثقات في آيات الصفات عرضاً أميناً، كما نقله الأئمَّة الثقات العدول الذين شهدت لهم الأمَّة بعدالتهم ووثوقهم وصحَّة معتقدهم ليتبيَّن الرشد من الغيِّ، وليستبين الحقُّ من الباطل، وليكون نبراساً مضيئاً لكلِّ من يلتمس خطى السلف الصالح من الشباب المسلم)).

قلت: إلاَّ أنَّه ـ هداه الله ـ لَم يفِ بما وعد، ولم يُحقِّق ما قصد، لعدم التزامه بالأمانة العلمية في عرض النقول وتقرير المسائل، بل أخلَّ بذلك إخلالاً بيِّناً، ويُمكن إجمال ما أخلَّ به الكاتبُ في النقاط التالية:

أوَّلاً: ذكرَ في كتابه أموراً ليست من عقيدة أهل السنَّة والجماعة، مثل التفويض والتأويل، ثم كابر ونسبها إلى الحافظ ابن كثير وإلى أهل السنَّة والجماعة.

ثانياً: لم يلتزم في كتابه عرض العقيدة من خلال تفسير ابن كثير السلفي فحسب، كما ادَّعى ذلك في المقدمة، بل أدخل ضمن كلام ابن كثير أقوالاً لغيره مِمَّن هم ليسوا على رسم أهل السنَّة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، كالقرطبي وابن جماعة والفيروزآبادي وهم من الأشاعرة كما لا يخفى، وما نقله عنهم مخالفٌ لمعتقد أهل السنَّة والجماعة كما سيأتي بيانه.

ثالثاً: لم يجمع شتات أقوال ابن كثير في آيات الصفات كما ادَّعى ذلك، وإنَّما اختار مواضع من تفسيره، عرض من خلالها حاجة في نفسه، بل إنَّه أحياناً يبتر قول ابن كثير في تفسير الآية فيأخذ منه ويدَع.

رابعاً: لم يكن الكاتب أمينا في نقل الأقوال التي يوردها من المصادر بدقَّة ونزاهة علمية، من أمثلة ذلك ما نسبه للشيخ محمد بن جميل زينو في كتابه منهاج الفرقة الناجية، وهو ليس موجوداً فيه كما سيأتي إيضاحُ ذلك.

خامساً: ذكر ضمن ثنائه على ابن كثير أنَّه متأثرٌ بشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهذا يعني أنَّ الكاتب يرى أنَّ التتلمذ على شيخ الإسلام مفخرةٌ ومنقبة لِمن تحقق له ذلك، فهل يلتزم الكاتب بدعوة الناس إلى قراءة كتب ابن تيمية مثل العقيدة الواسطية والتدمرية والحموية ونقض التأسيس ودرء التعارض وغيرها من كتبه؟ فإن التزم بذلك ففيها بيان فساد وبطلان ما قرره من صحة التفويض والتأويل بأدلَّة رصينة وحُجج متينة سيأتي ذكرُ بعضها، أم يكون غير ملتزم لِمَا يلزمه متناقضاً فيما يأتي ويَذر، فيمدح ابن كثير لتتلمذه على ابن تيمية، ثم لا يدعو الناسَ إلى التتلمذ على كتب ابن تيمية رحمهما الله وجميع أئمَّة المسلمين.

فهذه بعضُ سمات هذا الكتاب العامة وملامحه المجملة ومجمل المؤاخذات عليه، فلمَّا وجدتُّ الكتاب بهذا الوصف وعلى هذه الحال رأيتُ أن أنبِّه على بعض ما فيه، وأكشف عن بعض خوافيه، دون تقصٍّ دقيق لكلِّ ما فيه، إذ بسط ذلك يطول،

والله المستعان.

وأنا أذكر أوَّلاً قول الكاتب بحروفه، ثم أتبعه بما لي عليه من تعقُّب وتنبيه، وأرجو الله الكريم أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، مطابقاً لسنَّة نبيِّه، وأن يهدي هـذا الكاتب إلى صـواب القـول، وأن يُعيـذه من المكابـرة وردِّ الحقِّ، والله مـن وراء القصد.

فصل

قال الكاتب (ص ٧): «ولقد قصدت بنشر هذا العمل تضييق شقة الخلاف بين المسلمين، وإماتة الحفائظ والأضغان بينهم، فقد بلينا في هذا العصر وأصاب كثيراً من علماء أهل السنة ما أصابهم من اتِّهام ونبز بالألقاب وافتراء وتضليل وتكفير ومسبَّة وغير ذلك لقولهم في آيات الصفات بقول مالك وأحمد والشافعي...».

قلت: وهنا وقفةٌ قد تطول.

أوَّلاً: إنَّ العملَ لتضييق الخلاف بين الأمَّة وإماتة الضغائن والأحقاد بينهم مطلبٌ نبيلٌ وهدفٌ جليل ـ ولا شك ـ يتمَّناه كلُّ مسلم ويرجوه كلُّ متَّبع، ولكن ذلك لا يتحقَّق إلاَّ بإعادة الأمَّة جميعها إلى التمسُّك بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله محمد ﷺ على نهج سلف الأمَّة، علماً وعملاً وتطبيقاً، ولا يكفي في هذا مجرَّد الاعتزاء للسلف الصالح قولاً بلا عمل ودعوى بلا تطبيق، فإنَّ هذا كذبٌ وبهتان، وأعظم من هذا كذباً وبُهتاناً أن يأتي خالف بأمور فاسدة ومعتقدات كاسدة ليس عليها السلف ولا عرفوها، وقضوا نحبهم وليس عندهم خبر عنها، ثم ينسب ذلك إليهم كذباً وزوراً ترويجاً للباطل ونشراً له، وإذا كان أهل الأهواء قد كذبوا على النبيِّ ﷺ أموراً وافتروها عليه لغرض نشر باطلهم وترويجه، فإنَّ غيرهم مِمَّن يشاركونهم في البدعة قد كذبوا على السلف ـ رحمهم الله ـ وألصقوا بهم أموراً هم منها براء؛ لأجل نشر بدعهم وترويجها، فقد كُذب على أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من الأئمَّة ـ رحمهم الله ـ ونُسب إليهم معتقدات لم يقولوها في أمور يضيق هذا المقام عن بسطها، ومن ذلك نسبة التفويض والتأويل الباطلين للسلف ـ رحمهم الله ـ فهذا كذبٌ عليهم وافتراءٌ عليهم وتقويل لهم ما لم يقولوا.

والخلاصة أنَّ جمع الأمَّة لا يكون إلاَّ بالعودة الصادقة إلى كتاب الله وسنَّة

رسوله ﷺ على نهج وطريقة السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ أمَّا محاولة جمع الناس على بدع حادثة وآراء زائفة واعتقادات ملفقة فهذا ليس سبيل جمع، وإنَّما هو سبيل تمزيق وتفريق، إذ البدعُ تفرِّق ولا تجمع، والذي يجمع هو الاتِّباع ولزوم الحق، ولهذا سُمِّي أهل السنَّة أهل الجماعة؛ لاجتماعهم على الحقِّ والتفافهم حوله، وسُمِّي أهلُ البدعة أهل فُرقة؛ لاختلافهم على الحقِّ وتفرُّقهم عليه، فالدعوة إلى جمع الناس على بدع وأهواء سبيل تفريق وليس سبيل جمع.

والكاتب ـ هداه الله ـ لَمَّا أراد جمعَ الناس أحسن في هدفه ومراده، إلاَّ أنَّه أخفق في طريقه ومنهاجه، فحاول جمع الناس على التأويل والتفويض الباطلين ونسبهما إلى سلف الأمَّة، وهذا فيه كذب على السلف وتغرير بالخلف، وسيأتي بيان ذلك.

ولهذا ننصح الكاتبَ قبل هذا بالعكوف على كتب السلف وقراءتها وفهمها مع التجرُّد الكامل؛ لتكون دعوتُه صحيحةً وطريقتُه قويمةً ومنهجُه سديداً.

ثانيا: هل يقصد الكاتب في كلامه المتقدِّم أنَّ عند ابن كثير من المعتقد ما ليس عند مالك والشافعي وأحمد، فقصد إلى جمع قوله في المعتقد لذلك، ومن المعلوم أنَّ معتقد ابن كثير هو معتقد هؤلاء الأئمة رحمهم الله؟

لكن هنا أمر لا بدَّ من بيانه، وهو أنَّ ابن كثير ـ رحمه الله ـ وغيره من أهل العلم بشرٌ يُخطئون ويُصيبون، والله جلَّ وعلا إنَّما أمر بالردِّ في النزاع إلى الكتاب والسنَّة، كما في قوله: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1]، فالأمَّة عند النزاع والفرقة تُعاد إلى الكتاب والسنَّة على نهج سلف الأمة، ليس إلاَّ.

قال أبو القاسم هبة الله اللالكائي في مقدمة كتابه العظيم شرح أصول اعتقاد

---

(١) النساء، آية ٥٩.

أهل السنة والجماعة: «فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدِّين، وما كلَّف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول وأوضح حجة ومعقول كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار المتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدِّين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مِمَّا أحدثه المضلون، فهذه الوصايا المأثورة المتبوعة، والآثار المحفوظة المنقولة، وطرائق الحقِّ المسلوكة، والدلائل اللائحة المشهورة، والحجج الباهرة المنصورة، التي عملت عليها الصحابة والتابعون ومن بعدهم من خاصة الناس وعامتهم من المسلمين واعتقدوها حجة فيما بينهم وبين الله ربِّ العالمين، ثم من اقتدى بهم من الأئمة المهتدين، واقتفى آثارهم من المتبعين، واجتهد في سلوك سبيل المتقين، وكان مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فمَن أخذ في مثل هذه المحجَّة وداوم بهذه الحجج على منهاج الشريعة أمن في دينه التَّبعة في العاجلة والآجلة، وتَمسَّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، واتقى بالجُنَّة التي يُتقَّى بمثلها ليتحصَّن بحمايتها ويستعجل بركتها، ويحمد عاقبتها في المعاد والمآل إن شاء الله ...»[(١)].

فهذه طريقة الأئمة المهديين والعلماء المرضيِّين؛ دعوة صادقة إلى الكتاب والسنَّة وسبيل سلف الأمة مع نبذ البدع واجتناب المحدثات التي أحدثها المضلون المبطلون.

ثالثاً: ذكر الكاتب في كلامه المتقدِّم ما أصاب كثيراً من علماء أهل السنة من اتِّهام ونبز بالألقاب وافتراء وتضليل وتكفير ومسبَّة وغير ذلك، لقولهم في آيات الصفات بقول مالك وأحمد والشافعي، قال ذلك محذِّراً من هذا المنهج الخبيث

---

(١) شرح الاعتقاد (١/٩، ١٠).

والأسلوب الشنيع، لكنه ـ هداه الله ـ وقع فيما حذَّر منه ونسي ما نهى عنه بعد صفحة واحدة من كلامه هذا، فقال في (ص ٨): «.. كما ذكر أحد الغلاة في رسالة: أنَّ التفويض هو عدم تفسير الاستواء مثلاً، وهو تعطيل لصفة العلو»، ثم قال في الهامش: «انظر منهاج الفرقة الناجية صفحة (١٦) لمؤلفه محمد بن جميل زينو الحلبي السوري معلم المدارس الابتدائية في حلب، يوزع مجانا في دبي، وقد تخبَّط مؤلفه فيه تخبطاً كثيراً وفي مواضع متعددة».

فتأمَّل ـ أخي القارئ ـ كيف يحذِّر من مسبَّة علماء أهل السنَّة والنيل منهم، ثم يقع فيما حذَّر منه على الفور فيقع في أحد علماء السنة المعاصرين المشهود لهم بالخير والصلاح.

والذي يجب أن يُقال هنا إحقاقاً للحقِّ وإرغاماً للباطل هو أنَّ كتابات الشيخ محمد بن جميل زينو ـ حفظه الله ونفع بعلمه ـ ليس فيها غلو ولا شطط، بل هي على رسم أهل السنَّة والجماعة وعلى طريقتهم، ومَن قرأ كتبَه عموماً وكتابه الذي أشار إليه الكاتب على الخصوص مع التجرُّد من الأهواء والبدع علم ذلك.

وقد شهد أجلَّة العلماء بحسن كتابات الشيخ محمد بن جميل زينو وعظيم فائدتها، وانظر شيئاً من ذلك في مقدمة كتاب الشيخ محمد بن جميل زينو «تنبيهات هامة على كتاب صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني».

أمَّا قول الكاتب عن كتاب «منهاج الفرقة الناجية والطائفة المنصورة على ضوء الكتاب والسنَّة» بأنَّ مؤلِّفَه تخبَّط فيه تخبُّطاً كثيراً وفي مواضع متعدِّدة، فهذا قول من لا يدري ما يقول، إذ المطالع لكتاب الشيخ هذا، بل ولسائر كتاباته يلمس فيها بوضوح جودة التصنيف وحسن العبارة ووضوح الحجِّة وسلامة المسلك، ولا يرى فيها شيئاً من التخبُّط الذي يشير إليه الكاتب، وما ذاك إلاَّ لأنَّ كتابَه مبنيٌّ على التمسُّك بالكتاب والسنَّة على طريقة السلف الصالح، ومن كان كذلك هُدي ـ بإذن

الله - إلى الصراط المستقيم، أمَّا مَن جعل طريقَه ومسلكَه في التأليف الاعتماد على الآراء المنطقية والفلسفة اليونانية والتقليد الأعمى والتعصُّب الأعوج ؛ فإنَّه يضطرب ويتناقض ويُكثر من التلوُّن في دين الله، ورحم الله الخليفة عمر بن عبد العزيز إذ يقول: ((مَن جَعَلَ دينَه غرضاً للخصومات أكثر التنقُّل)).

قال معن بن عيسى: ((انصرف مالك بن أنس يوماً من المسجد وهو متَّكئ على يدي، فلحقه رجلٌ يُقال له أبو الجويرية كان يُتَّهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبد الله اسمع منِّي شيئاً أكلِّمك به وأحاجُّك وأخبرك برأيي، قال: فإنْ غلبتَني؟ قال: فإن غلبتُك اتَّبعتني، قال: فإن جاء رجلٌ آخر فكلَّمنا فغلبنا؟ قال: نتَّبعه، فقال مالك: يا عبد الله، بعث الله محمداً ﷺ بدين واحد وأراك تنتقل من دين إلى دين، قال عمر ابن عبد العزيز: من جعل دينَه غرضاً للخصومات أكثر التنقُّل))[(١)].

فهذه حال التائهين في اعتقادهم ومنهاجهم في تخبُّط وتناقض واضطراب وتلوُّن، أمَّا المتمسِّكون بالكتاب والسنَّة ونهج سلف الأمَّة فطريقتهم مأمونة، وسبيلهم نيِّرة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾[(٢)].

ومن كلام الشيخ محمد بن جميل زينو في كتابه المذكور قوله: ((الفرقة الناجية تعود إلى كلام الله ورسوله حين التنازع والاختلاف؛ عملاً بقوله: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/٥٠٨).

(٢) النور، آية ٥٤.

(٣) النساء، آية ٥٩.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[(١)]».

ثم قال: «الفرقة الناجية لا تقدِّم كلامَ أحد على كلام الله ورسوله، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)]».

فهو داعية إلى التمسُّك بالكتاب والسنَّة والتحاكم إليهما، مع الحذر من تقديم قول أحد على ما جاء فيهما، وواضح في كتابه تطبيقه لما دعا إليه والتزامه بما نصح به، فقول الكاتب عنه بأنَّه تخبَّط تخبُّطاً كثيراً محضُ افتراء وتلبيس يقصد منه تزهيد الناس في هذا الكتاب القيِّم المشتمل على تقرير معتقد أهل السنَّة والجماعة، وفي هذا أيضاً تزهيد بمعتقد أهل السنَّة والجماعة نفسه.

ومع ذلك فنحن نطالب الكاتب أن يكشف عن حقيقة دعواه ويُبرهن على صدق قوله فيبيِّن شيئاً مِمَّا في كتاب الشيخ محمد بن جميل زينو من تخبُّط، لكن دون تزيُّد على الشيخ أو تقويل له ما لَم يقل كما فعل هنا الكاتب أصلحه الله.

وقول الكاتب المتقدِّم: «... ذكر أحد الغلاة في رسالة: أنَّ التفويض هو عدم تفسير الاستواء مثلاً وهو تعطيل لصفة العلو».

يقصد بأحد الغلاة الشيخ محمد بن جميل زينو ـ حفظه الله ـ وذكر من غلوِّه أنَّه ذكر في رسالته: «أنَّ التفويض هو عدم تفسير الاستواء مثلاً وهو تعطيل لصفة العلو».

قلت: وهذا كذب على الشيخ زينو، فهذه العبارة التي ذكر الكاتب لا وجود

---

(١) النساء، آية ٦٥.

(٢) الحجرات، آية ١.

لها في كتابه[١]، وإنِّي لأتعجَّب كثيراً من هذه الجرأة العجيبة على الكذب رغم أنَّ الكتاب منتشرٌ عند أكثر الناس، فهل يظنُّ الكاتب أنَّه بذلك يستطيع التلبيس على الناس وإخفاء الحقائق عنهم، أم ماذا يقصد بفعل هذا؟

والذي في كتاب الشيخ محمد بن جميل زينو حول هذه المسألة هو قوله: ((التفويض: مذهب السلف إثبات صفات الله بمعناها، فالتفويض عند السلف في الكيف لا في المعنى، فالاستواء مثلاً معناه العلو الذي لا يعلم كيفيته إلاَّ الله)).

هذا ما قاله الشيخ عن التفويض، وهو كلام صحيح لا غُبار عليه نصح فيه الشيخ وأحسن النصيحة، وأبان منهج أهل السنَّة والجماعة وأوضح طريقتهم، فلو أنَّ الكاتب نقل قوله هذا بحروفه ثم أبان للناس ما عليه من مؤاخذات لكان منصفاً، أمَّا أن يُحرِّف كلامه ويُغيِّر قوله ثم يوجِّه إليه الانتقاد، فهذا أمرٌ عجب، وهذا ولا شكَّ من طرق أهل البدع في كتبهم، يبترون نصوص أهل العلم أو يُحرِّفون أقوالهم ثم يوجِّهون إليها الانتقادات[٢]، وهو بعيد كلَّ البُعد عن النزاهة العلمية في نقل النصوص، فكان الجدير به ـ كما أسلفت ـ أن ينقل نص كلام الشيخ دون تحريف أو تزيُّد ثم يُبدي مؤاخذاته عليه بعد ذلك.

وكلام الشيخ زينو المتقدِّم صحيح لا غُبار عليه، فإنَّ السلفَ يفوِّضون كيفيات الصفات دون معانيها، فكيفية صفات الله سبحانه مجهولة إذ لا يَعلَمُ كيفية صفات الله غير الله، أمَّا معناها فمعلوم ظاهر من نصوص الكتاب والسنَّة، فأهل السنَّة

---

(١) وإن كان الكاتب اعتمد في ذلك على طبعة قديمة للكتاب، فإنَّه ليس من الإنصاف ترك المشهور المتداول والأخذ بعبارة غير محرَّرة في طبعة قديمة، وإن كنتُ لم أقف على شيء من ذلك.

(٢) انظر لزاماً كتاب الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ـ حفظه الله ـ (تحريف النصوص من مآخذ أهل الأهواء في الاستدلال).

والجماعة مثلاً يفهمون من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾[(١)] أنَّ الله مستوٍ على عرشه استواءً حقيقيًّا يليق به سبحانه لا يُشبه استواء المخلوقين، فهو سبحانه غنيٌّ حميد، والاستواء هو العلوُّ والارتفاع، فيُثبتون هذا المعنى لله على الوجه اللائق به، دون تشبيه له بخلقه المحتاجين الفقراء ـ تعالى الله عن ذلك ـ فالله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝﴾[(٢)] لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته، فكما أنَّ له ذاتاً لا تشبه الذوات فله صفاتٌ لا تشبه الصفات.

قال الشيخ محمد بن جميل زينو ـ حفظه الله ـ في كتابه الذكور (ص ٢٦) مبيِّناً عقيدة أهل السنَّة والجماعة في هذه المسألة تحت عنوان ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ ما نصُّه:

١ ـ إنَّ الرسول ﷺ قال في حجَّة الوداع: «وأنتم تُسألون عنِّي، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنَّك بلَّغت وأدَّيت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكبها (أي يميلها) إلى الناس: اللَّهمَّ اشهد، ثلاثاً» رواه مسلم.

٢ ـ نقل البخاري في كتاب التوحيد عن أبي العالية ومجاهد معنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: علا وارتفع.

٣ ـ قال المفسِّر الطبري في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ (أي: علا وارتفع).

وقيل لعبد الله بن المبارك: كيف نعرف ربَّنا؟ قال: إنَّه فوق السماء السابعة على العرش.

٤ ـ ولقد تكرَّر في القرآن الاستواء على العرش سبع مرَّات مِمَّا يدلُّ على أنَّ علوَّ

---

(١) طه، آية ٥.

(٢) الشورى، آية ١١.

الله على عرشه صفة كمال لله، لها أهميَّة عظيمة، ولَمَّا سئل الإمام مالك عن كيفية الاستواء قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب)، والمعنى أنَّ الاستواء معلوم معناه في اللغة وهو العلوُّ والارتفاع، لا يعلم كيفيته إلاَّ الله، والسؤال عن كيفيته بدعة.

٥ ـ لا يجوز تفسير (استوى) بمعنى (استولى) وما يستشهدون به من قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

فيقول ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير: (هذا الشعر لم يُعلم قائله، ولا يؤخذ به)، ولو فسرنا استوى بمعنى استولى، فمعنى ذلك أنَّ الله لم يكن مستولياً على عرشه قبل ذلك وكان بيد غيره، ثم استولى عليه، وهذا المعنى باطل يخالف الحقيقة، ولو جاز تفسير الشعر بالاستيلاء، لم يجز بالنسبة لله؛ لأنَّه لا يشبه المخلوقات.

لقد أمر الله اليهود أن يقولوا (حطة) فقالوا (حنطة) تحريفاً، وأخبرنا الله أنه استوى على العرش فقال المتأوِّلون (استولى) فانظر ما أشبه لامهم التي زادوها، بنون اليهود التي زادوها (قاله ابن القيم) ا.هـ كلامه.

وهذا الذي ذكره الشيخ هنا هو في الحقيقة خلاصة مفيدة لطريقة أهل السنة والجماعة في إثبات هذه الصفة وعلى هذا منهجهم في جميع الصفات، يثبتونها لله على الوجه اللائق به، ولا يشبهون الله بخلقه في شيء منها تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومعلوم أن هذه الصفات لله لا تثبت له على حد ما يثبت لمخلوق أصلاً، وهو سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا فرق بين إثبات الذات وإثبات الصفات، فإذا لم يكن في إثبات الذات إثبات مماثلة للذوات، لم يكن في إثبات الصفات إثبات مماثلة له

في ذلك))[1].

والمقصود أن السلف يثبتون الصفات لله عزَّ وجلَّ على الحقيقة مع نفي مشابهة الله للمخلوقات ، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2].

ولا يفوّضون المعاني ، ولا يأوِّلون النصوص ، وسيأتي مزيد بسط لهذا قريباً.

وقول الشيخ محمد بن جميل زينو المتقدم : ((مذهب السلف إثبات صفات الله بمعناها ، فالتفويض عند السلف في الكيف لا في المعنى ، فالاستواء مثلاً معناه العلو الذي لا يعلم كيفيته إلاَّ الله)) قولٌ لا غبار عليه ، بل هو تقريرٌ صحيح لمسلك أهل السنة والجماعة في التفويض بأنهم يفوِّضون الكيف دون المعنى ، وهو يشير بقوله هذا إلى أن التفويض نوعان :

الأول : تفويض في الكيف بمعنى أن يفوِّض العلم بكيفيات صفات الله إلى الله ، فيُقال عند السؤال عن كيفية الصفات : الكيف مجهول لا يعلمه إلاَّ الله ؛ لأنَّ من علم كيفية صفات الله أحاط علماً بالله ، والله جلَّ شأنه يعلم ما بين أيدي العباد وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ، ولأنَّ الله سبحانه أخبرنا في كتابه عن صفاته ولم يخبرنا عن كيفيتها ، ولا سبيل لنا إلى العلم بشيء عنه إلاَّ من خلال ما ورد.

ولهذا فإنَّ السلف رحمهم الله يُفوِّضون كيفية صفات الله إلى الله ، ومن ذلك قول الإمام مالك رحمه الله : ((والكيف مجهول)) أي : لا يعلمه إلاَّ الله.

الثاني : تفويض في المعنى ، وذلك باعتقاد أنَّ صفات الله مجهولة المعنى لا يعلم العباد معناها ، فيفوض معناها إلى الله ، ويكون بذلك قوله سبحانه : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠٠/٣).

(٢) الشورى ، آية ١١.

ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ و﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾، و﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ۝٣٩﴾، وقوله: ﴿صٓ﴾، و﴿قٓ﴾، و﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ كلٌّ ذلك مجهول المعنى لا يعلم معناه إلاّ الله، وهذا النوع من التفويض ليس من مذهب أهل السنَّة والجماعة، وإنَّما هو منهج أهل الأهواء والبدع كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

فصل

قال الكاتب (ص ٧، ٨): «كما أنَّ هذه الرسالة الصغيرة التي جمعت شتات أقوال الحافظ ابن كثير السلفي في آيات الصفات، تجعل المسلم المتحرر من ربقة العصبية والهوى أكثر اتِّزاناً وهدوءاً في حكمه على مَن قال بقول ابن كثير الذي شهدت له الأمَّة بسلامة المعتقد والعدالة ودقة النقل وسعة العلم وغزارته، وعندها لا يستطيع أن يعتقد أنَّ التأويل لبعض آيات الصفات ضلال ومروق من الدِّين، وقد قال به حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[1]، قال ابن كثير: قال ابن عباس: يكشف عن أمر عظيم.

كما لا يمكنه أن يعتقد أنَّ التفويضَ منهج أهل الضلال».

قلت: وهذا الذي ذكره الكاتب هنا هو بيت القصيد من هذه الرسالة، فهو يريد أن يصل إلى تقرير أمرين:

الأول: أنَّ التأويل لبعض آيات الصفات ليس ضلالاً، ثم ادَّعى أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما قال به.

الثاني: أنَّ التفويض لآيات الصفات ليس منهج أهل الضلال، ثم حاول نقل بعض النصوص عن ابن كثير ـ رحمه الله ـ للوصول إلى ذلك، مع تعسُّف في الفهم وإساءة في النقل.

ولذا لا بدَّ هنا من بيان فساد التأويل والتفويض وبطلانهما، وأنَّهما ليسا من أقوال السلف ـ رحمهم الله ـ بل من أقوال المتكلِّفين الخالفين.

لكن قبل ذلكم ينبغي أن يُعلَم أنَّ الكاتبَ ليس صادقاً في دعواه أنَّ هذه الرسالة الصغيرة جمعت شتات أقوال ابن كثير في آيات الصفات، فكم من النصوص

---

(١) القلم، آية ٤٢.

العظيمة والمواضع المهمَّة في تفسير ابن كثير وهي متعلِّقة بتوحيد الأسماء والصفات قد أهملها الكاتب، وأعرض عنها ولم يوردها في رسالته (الجامعة)!!

ولا يسع المقام هنا إيراد جميع ما أهمله الكاتب من أقوال ابن كثير المهمة في آيات الصفات، لذا فإنِّي أشير إلى بعض هذه المواضع دفعاً للإطالة وطلباً للاختصار:

١ ـ ذكر ابن كثير في تفسير سورة الفاتحة (١/٣٥، ٣٦) كلاماً مهمًّا حول أسماء الله الحسنى (الله، الرحمن، الرحيم) وقد أهمله الكاتب.

٢ ـ ذكر ابن كثير (١/٧٧، ٧٨، ٧٩) في تفسير قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1] من سورة البقرة كلاماً مطوَّلاً في معنى الاستهزاء الوارد في الآية، وذكر من تفسير السلف أنَّ هذا خبر عن الله أنَّه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا ـ يعني من عصمة دمائهم وأموالهم ـ خلاف الذي عنده في الآخرة ـ يعني من العذاب والنكال ـ ثم قال رحمه الله:

«ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأنَّ المكرَ والخداعَ والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عزَّ وجلَّ بالإجماع، وأمَّا على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع.

قال: وبنحو ما قلنا فيه رُوي الخبرُ عن ابن عباس، حدّثنا أبو كريب، حدَّثنا عثمان، حدَّثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ قال: يسخر بهم للنقمة منهم ...» إلخ كلامه رحمه الله.

وقد أهمل الكاتب هذا النصَّ رغم أهميَّته، ففيه إثبات ابن كثير للمكر والخداع والسخرية لله على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة، وأنَّ هذا غير ممتنع عليه سبحانه.

---

(١) البقرة، آية ١٥.

٣ ـ قال ابن كثير (٨/٤٢١) عند تفسيره لقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝﴾[1] ما نصُّه: «يخبر تعالى عمَّا يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال: ﴿كَلَّآ﴾ أي: حقًّا ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝﴾ أي: وطئت وهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربِّهم. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلُّهم يقول: لست بصاحب ذاك، حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فيقول: (أنا لها، أنا لها) فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء فيشفِّعه الله في ذلك، وهي أولى الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدَّم بيانه في سورة سبحان، فيجيء الربُّ تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكةُ يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً». اهـ.

فهذا نصٌّ عظيم لا ينبغي تركه فيه إثبات الإتيان والمجيء لله سبحانه كما يشاء.

وذكر نحواً من هذا أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝﴾[2] ونقل هناك جزءاً من حديث الصُّور وفيه إثبات نزول الجبار في ظلل من الغمام.

فهذه جملة من الصفات الفعلية أثبتها ابن كثير ـ رحمه الله ـ على طريقة السلف، فما بال الكاتب أعرض عن ذكرها ونقْلِها رغم أهميَّتها كما ترى.

٤ ـ ذكر ابن كثير في تفسيره (٦/٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝﴾[3]

---

(١) الفجر، آية ٢١، ٢٢.

(٢) البقرة، آية ٢١٠.

(٣) سبأ، آية ٢٣.

كلاماً مطوَّلاً حول إثبات القول والكلام لله عزَّ وجلَّ، قال في أوَّله:

«وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنَّه تعالى إذا تكلَّم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قال ابن مسعود ومسروق وغيرهما ...»، وذكر جملةً من الأحاديث من صحيح البخاري وغيره في إثبات الكلام لله وأنَّه كلام يُسمع، ومع أهميَّة هذا الموضوع فإنَّ الكاتبَ لَم يورده، وهو خلاف قول الأشعرية القائلين بالكلام النفسي.

ـ ذكر ابن كثير (٣/٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[1] كلاماً مطوَّلاً في إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة، وأنَّه لا تعارض بين قوله هذا وبين قوله في هذه الآية ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وذكر توجيه السلف لذلك، وذكر ابن كثير أيضاً كلاماً مطوَّلاً في رؤية الله جلَّ وعلا عند تفسيره لسورة النجم، وجميع ذلك قد أهمله الكاتب.

فهذه بعض المواضع التي أهملها الكاتب وهي متعلِّقة بكلام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في الصفات، وفي ذكر هذا القليل أوضح دلالة على عدم صحة دعوى الكاتب في قوله في رسالته أنَّ فيها جمعاً لشتات أقوال ابن كثير في آيات الصفات، فقد أهمل ـ كما ترى ـ نصوصاً مهمَّة وأقوالاً عظيمة لابن كثير في آيات الصفات، وهذا مدعاة للتساؤل ما سرُّ ترك الكاتب لهذه النقول العظيمة عن ابن كثير ـ رحمه الله ـ رغم أهميَّتها وتعلقها بتوحيد الأسماء والصفات؟

وجواب هذا نتركه للقارئ الفطِن!

---

(١) الأنعام، آية ١٠٣.

فصل

وأمَّا ما ادَّعاه الكاتب من أنَّ التأويل لبعض آيات الصفات ليس مروقاً ولا ضلالاً، وأنَّ ابن عباس حبر الأمَّة قال به، ومراده بذلك أنَّ التأويل قول للسلف وليس حدَثاً وبدعة.

فجواب ذلك هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه (٣٩٤/٦) حيث قال: «وأمَّا الذي أقوله الآن وأكتبه ـ وإن كنت لم أكتبه فيما تقدَّم من أجوبتي، وإنَّما أقوله في كثير من المجالس ـ إنَّ جميعَ ما في القرآن من آيات الصفات، فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها.

وقد طالعتُ التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم أجد ـ إلى ساعتي هذه ـ عن أحد من الصحابة أنَّه تأوَّل شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف، بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته، وبيان أنَّ ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأوِّلين ما لا يحصيه إلاَّ الله، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين شيء كثير.

وتمام هذا أنِّي لم أجدهم تنازعوا إلاَّ في مثل قوله ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[1]، فروي عن ابن عباس وطائفة أنَّ المراد به الشدَّة، إنَّ الله يكشف عن الشدَّة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنَّهم عدُّوها من آيات الصفات؛ للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين، ولا ريب أنَّ ظاهرَ القرآن [لا] يدل على أنَّ هذه من الصفات، فإنَّه قال ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ نكرة في الإثبات لم يُضفها إلى الله، ولم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنَّه من الصفات إلاَّ بدليل

---

(١) القلم، آية ٤٢.

آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنَّما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف، وكان كثير من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له، ثم يريدون صرفه عنه، ويجعلون هذا تأويلاً، وهذا خطأ من وجهين كما قدَّمناه غير مرَّة)) اهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: ((والصحابةُ متنازعون في تفسير الآية، هل المراد الكشف عن الشدَّة أو المراد بها أنَّ الربَّ تعالى يكشف عن ساقه، ولا يُحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيما يذكر أنَّه من الصفات أم لا في غير هذا الموضع، وليس في ظاهر القرآن ما يدلُّ على أنَّ ذلك صفة لله؛ لأنَّه سبحانه لم يُضف الساقَ إليه، وإنَّما ذكره مجرَّداً عن الإضافة منكَّراً، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والإصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن، وإنَّما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل، وفيه: (فيكشف الربُّ عن ساقه فيخرُّون له سُجَّداً)، ومَن حَمَل الآيةَ على ذلك قال: قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[1] مطابقٌ لقوله ﷺ: (فيكشف عن ساقه فيخرُّون له سجَّداً)، وتنكيره للتعظيم والتفخيم، كأنَّه قال: يكشف عن ساق عظيمة جلَّت عظمتُها، وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه، قالوا: وحَمْلُ الآية على الشدَّة لا يصحُّ بوجه، فإنَّ لغة القوم في مثل ذلك أن يُقال كُشِفَت الشدَّة عن القوم لا كَشَفَ عنها، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾[3]، فالعذاب والشدَّة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضاً فهناك تحدث الشدَّة وتشتدُّ ولا تزال إلاَّ بدخول الجنَّة، وهناك لا يُدعون

---

(١) القلم، آية ٤٢.

(٢) الزخرف، آية ٥٠.

(٣) المؤمنون، آية ٧٥.

إلى السجود، وإنَّما يدعون إليه أشدَّ ما كانت الشدَّة))[١].

وبهذا الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم ـ رحمهما الله ـ يتبيَّن فساد دعوى الكاتب في عدم بطلان التأويل واحتجاجه على ذلك بما رُوي عن ابن عباس ﷺ، وقد تقدَّم جزم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ وهو العالم الخبير المطلع على أقوال السلف ـ بأنَّ جميعَ ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها، وأنَّه طالع التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث ووقف من ذلك على ما شاء الله من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم يجد عن أحد من الصحابة أنَّه تأوَّل شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم.

وهذا كاف في نقض دعوى الكاتب المتقدِّمة، أضِفْ إلى ذلك ما ذكره أهل العلم من وجوه كثيرة في بيان فساد التأويل وشدَّة خطره وأنَّه تلاعب بالنصوص وانتهاك لحرماتها وتعطيل لحقائقها ومدلولاتها، وحَمْلٌ لها على وحشِ اللغات ومستكرَه التأويلات، واعتقادٌ بأنَّ ظواهرها ضلال وكفر وتشبيه وإلحاد، وفتحٌ لباب الضلال والانحراف في دين الله في جميع جوانبه.

يقول ابن القيم رحمه الله: ((والدِّين إذا أحيل على تأويلات المتأوِّلين انتقضت عراه كلُّها ولا تشاء طائفة من طوائف أهل الضلال أن تتأوَّل على مذاهبها إلاَّ وجدت السبيل إليه، وقالت لِمَن فتح لها باب التأويل إنّا تأوَّلنا كما تأوَّلتم والنصوص أخبرت بما تأولناه كما أخبرت بما تأولتموه، فما الذي جعلكم في تأويلكم مأجورين وجعلنا عليه مأزورين، والذي قادكم إلى التأويل ما تقولون إنَّه معقول، فمعنا نظيره أو أقوى منه أو دونه))[٢].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) الصواعق المرسلة (١/١٥٦، ١٥٧).

ومن هذا الباب وَلَج القرامطة والملاحدة والفلاسفة والرافضة والقدرية والجهمية وغيرهم في تقرير شُبههم وطرح باطلهم ونشر مبادئهم ومعتقداتهم، وكلٌّ من أراد النكاية بالدِّين أو فساد عقائد المسلمين أو تشتيت كلمتهم وجد في التأويل باباً مفتوحاً وسبيلاً سهلاً إلى ذلك، فإنَّه يحتمي من المسلمين بإقراره معهم بأصل التنزيل ويدخل نفسه في زمرة التأويل ثم بعد ذلك يقول ما شاء ويدعي ما أحبَّ ويتكلَّم بما يريد، ولا يستطيع أحد من هؤلاء منعه وردُّه، إلاَّ المتمسِّكون بالحقِّ والسلامة الملتزمون بمنهج أهل السنَّة والجماعة، جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم بمنِّه وكرمه.

وقد أوفى ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الموضوع وبسطه بسطاً لا مزيد عليه في أول كتابه «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» فطالعه تجد فيه ما يشفي الصدور، وتقر به العيون، ويقطع دابر المفسدين.

فصل

وأمَّا انتصار الكاتب للتفويض وجعله له من منهج السلف الصالح، وأنَّه ليس من منهج أهل الضلال، وعدُّه لِمَن قال إنَّ التفويضَ من منهج أهل الضلال غالياً، وقد تقدَّم كلامه في هذا لكن لا مانع من إعادته.

قال الكاتب: ((كما لا يمكنه أن يعتقد أنَّ التفويضَ منهج أهل الضلال، كما ذكر أحد الغلاة في رسالة: أنَّ التفويض هو عدم تفسير الاستواء مثلاً، وهو تعطيل لصفة العلو، وكان قد ذكر قبل أسطر من عبارته هذه أنَّ التعطيل من مناهج الفرق الضالة، فعند هذا الكاتب أنَّ من يقول أمرُّوها كما جاءت هو ضال ومعطِّل؛ لأنَّه قال بالتفويض ولم يفسِّر ويزعم أنَّه خالف منهج السلف، أقول: نعم إنَّ القول عند آيات الصفات أمروها كما جاءت ليس من منهج السلف الطالح بل من منهج السلف الصالح ...)). اهـ كلام الكاتب.

فأقول: قبل الشروع في بيان فساد هذا التفويض الذي يشير إليه الكاتب، وقبل إيضاح أنَّ هذا التفويض ليس من منهج السلف، لا بدَّ من الإشارة إلى كذب آخر وقع فيه الكاتب ـ أصلحه الله ـ وذلك في قوله: ((... فعند هذا الكاتب (أي الشيخ زينو) أنَّ من يقول أمرُّوها كما جاءت هو ضال معطِّل ..)) إلخ كلامه، فهذا كذب آخر على الشيخ، وتقوُّلٌ عليه، فأين في كلامه أنَّه من قال: ((من يقول أمرُّوها كما جاءت هو ضال معطِّل؛ لأنَّه قال بالتفويض ولم يفسِّر)).

ومن قرأ كتاب الشيخ المذكور لا يجد هذه العبارة فيه، بل وليست لازمة فيما ذكر، ومن كلام الشيخ زينو في كتاب آخر له قوله: ((ومذهب السلف إمرار هذه الصفة على حقيقتها من غير تأويل، وهي على ما تليق به بلا كيف، كما قال الإمام مالك لَمَّا سُئل عن قوله ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾ كيف استوى ...))[1] ثم

---

(١) تنبيهات مهمة (ص ٦).

ذكر قوله المشهور.

وكيف يقول ذلك وهي مقولة مشهورة عن غير واحد من سلف الأمَّة وأئمتها، لكن تعليل الكاتب بقوله: ((لأنَّه قال بالتفويض ولم يفسِّر)) يدلُّ على سوء فهمه لهذه الكلمة وعدم إدراكه لمراد السلف منها، فهو يظنُّ أنَّ مرادَهم بقولهم: ((أمرُّوها كما جاءت)) أي: قراءتها دون فهم لها وتفسير لمعناها المتبادر الظاهر منها، وهذا ـ لا شكَّ ـ جهل من الكاتب بمراد السلف، وقلَّة إدراك لمقصودهم من هذه الكلمة الجليلة، ولهذا الموضوع مزيد بسط يأتي قريباً بإذن الله.

وأمَّا الآن فأبيِّن فساد تفويض الخلف (تفويض المعاني) وأنَّه ليس من منهج السلف ولا على طريقتهم، بل من مناهج أهل البدع الخالفين، خلافاً لِمَا ادَّعاه الكاتب.

فتفويض المعاني الذي انتصر له الكاتب وظنَّه قولاً للسلف، هو في الحقيقة من أقوال أهل البدع والأهواء، ولم يقله أحدٌ من السلف مطلقاً، بل هو قول أبي المعالي الجويني وأتباعه من الأشاعرة، فقد كان في بداية أمره يقول بتأويل الصفات كما في كتابه الإرشاد، ثم صار بعد ذلك إلى القول بتفويض معاني الصفات إلى الله سبحانه كما في كتابه الرسالة النظامية، قال فيها: ((اختلفت مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضُهم تأويلها والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن، وذهب أئمَّة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله تعالى، والذي نرتضيه رأياً وندين به عقيدة، اتِّباع سلف الأمَّة للدليل القاطع على أنَّ إجماعَ الأمة حجَّة، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتماً لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع))[1].

---

(١) نقلاً عن فتح الباري لابن حجر (٤٠٧/١٣) وهو في الرسالة النظامية (ص ٣٢، ٣٣) وقد نقله الحافظ عنه باختصار.

قال شيخ الإسلام: ((وأبو المعالي وأتباعه نفوا هذه الصفات موافقة للمعتزلة والجهمية، ثم لهم قولان: أحدهما تأويل نصوصها، وهو أول قولي أبي المعالي، كما ذكره في الإرشاد، والثاني تفويض معانيها إلى الربِّ، وهو آخر قولي أبي المعالي كما ذكره في الرسالة النظامية، وذكر ما يدلُّ على أنَّ السلف كانوا مجمعين على أنَّ التأويل ليس بسائغ ولا واجب))[1].

وقول أبي المعالي عن أئمَّة السلف أنَّهم قالوا بتفويض معاني الصفات لله هو في الحقيقة غلط عليهم بل هو افتيات عليهم، وتقويل لهم ما لم يقولوا.

قال شيخ الإسلام: ((ومذهب السلف أنَّهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أنَّ ما وصف الله به نفسه من ذلك فهو حقٌّ ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يُعرف من حيث يُعرف مقصود المتكلِّم بكلامه لا سيما إذا كان المتكلِّم أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد، وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتيقَّن أنَّ الله سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكلُّ ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإنَّ الله منَزَّهٌ عنه حقيقة، فإنَّه سبحانه مستحقٌّ للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه واستلزام الحدوث سابقة العدم، ولافتقار المحدَث إلى محدِث ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى.

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه

---

(١) درء التعارض (٥/ ٢٤٩)، وانظر درء التعارض (٣/ ٣٨١).

به رسوله فيعطِّلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا، ويحرِّفوا الكلم عن مواضعه ويُلحدوا في أسماء الله وآياته»[(١)].

وقال رحمه الله: «... وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمَّة قد تكلَّموا في جميع نصوص القرآن ـ آيات الصفات وغيرها ـ وفسَّروها بما يُوافق دلالتها وبيانها، ورووا عن النَّبيِّ ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن، وأئمَّة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم، مثل عبد الله بن مسعود الذي كان يقول: لو أعلمُ أعلمَ بكتاب الله منِّي تبلغه آباط الإبل لأتيته، وعبد الله بن عباس الذي دعا له النَّبيُّ ﷺ وهو حبر الأمَّة وترجمان القرآن، كانا هما وأصحابُهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات وروايةً لها عن النَّبيِّ ﷺ، ومَن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا وما في التابعين أجلُّ من أصحاب هذين السيِّديْن، بل وثالثهما في عِلية التابعين من جنسهم أو قريب منهم ومثلهما في جلالته جلالة أصحاب زيد بن ثابت، لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصِّين به، بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس، ولو كان معاني هذه الآيات منفيًّا أو مسكوتاً عنه لم يكن ربَّانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنَّة أكثر كلاماً فيه ...»[(٢)].

قلت: وفي هذا الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية أوضح دلالة على فساد تفويض المعاني وبطلان نسبته إلى سلف الأمَّة، بل هم أجلُّ قدراً وأرفع منزلة من أن يُنسب إليهم الجهل بمعاني أسماء الله وصفاته، ومن نسب إليهم ذلك وقع في محاذير كثيرة أهمُّها:

١ ـ تجهيل السلف حيث نسبوا إليهم زوراً وبهتاناً الجهل بمعاني أسماء الله وصفاته.

---

(١) الحموية (ص ١٦، ١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٧، ٣٠٨).

٢ ـ الكذب على السلف حيث جعلوا تفويض المعاني قولاً لهم، وهم يقولون بخلاف ذلك.

٣ ـ الجهل بمذهب السلف القائم على أساس إثبات الصفات لله سبحانه على الوجه اللائق به، مع تنزيهه سبحانه عن مشابهة المخلوقات، وبهذا يتبيَّن فساد قول الكاتب بجعله التفويض (تفويض المعاني) مذهباً للسلف رحمهم الله.

أما تعلُّق الكاتب بقول السلف «أمرُّوها كما جاءت بلا كيف»، وبقول الإمام مالك «الاستواء معلوم والكيف مجهول»، واستدلاله بهما على ثبوت تفويض المعاني عن السلف، فهو تعلُّق فاسد واستدلال خاطىء، وهو ناتج عن قلَّة علم الكاتب بأقوال السلف وألفاظهم ومقاصدهم.

قال شيخ الإسلام: «... وروى أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن الأوزاعي قال: سئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث، فقالا: أمرُّوها كما جاءت. ورَوى أيضاً عن الوليد بن مسلم قال: سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث ابن سعد والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات، فقالوا: أمرُّوها كما جاءت، وفي رواية: فقالوا: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف.

فقولهم رضي الله عنهم: (أمرُّوها كما جاءت)، ردٌّ على المعطِّلة، وقولهم: (بلا كيف) ردٌّ على الممثلة، والزهري ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم، والأربعة الباقون أئمَّة الدنيا في عصر تابعي التابعين، ومن طبقتهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وأمثالهما ... وروى الخلال بإسناد كلهم أئمَّة ثقات عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ كيف استوى؟ قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق)، وهذا الكلام مرويٌّ عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبد الرحمن من غير وجه... -وأورد بعض هذه الوجوه ثم

قال-: فقول ربيعة ومالك: (الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب) موافق لقول الباقين (أمرُّوها كما جاءت بلا كيف) فإنَّما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرَّد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لَما قالوا: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، ولَما قالوا: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف، فإنَّ الاستواءَ حينئذ لا يكون معلوماً بل مجهولاً بمنزلة حروف المعجم، وأيضاً فإنَّه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، وإنَّما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات.

وأيضاً فإنَّ من ينفي الصفات الخبرية أو الصفات مطلقاً لا يحتاج إلى أن يقول (بلا كيف)، فمن قال: إنَّ الله ليس على العرش لا يحتاج أن يقول بلا كيف، فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لَما قالوا بلا كيف.

وأيضاً فقولهم (أمرُّوها كما جاءت) يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنَّها جاءت ألفاظاً دالَّةً على معاني، فلو كانت دلالتها منتفيةً لكان الواجب أن يُقال: أمرُّوا لفظها مع اعتقاد أنَّ المفهومَ منها غير مراد، أو أمرُّوا لفظها مع اعتقاد أنَّ الله لا يوصف بما دلَّت عليه حقيقة، وحينئذ فلا تكون قد أمرت كما جاءت، ولا يُقال حينئذ بلا كيف، إذ نفي الكيف عمَّا ليس بثابت لغوٌ من القول»[1].

وبهذا التقرير البيِّن يتَّضح مقصود السلف ومرادهم بالعبارتين المتقدِّمتين، خلافاً للفهم المنحرف الذي قرَّره الكاتب وغيره مِمَّن لم يفقه قول السلف، ولم يعرف طريقتَهم ولم يسلك منهجهم، ولهذا يلزم الكاتب الاطِّلاع الواسع والعناية التامَّة بكتب السلف وأقوالهم، مع حسن فهمها قبل نقلها للناس؛ ليكون النقل صائباً مأموناً صحيحاً.

---

(١) الفتاوى (٥/٣٩ - ٤٢)، وانظر: درء التعارض (١/٢٠٧)، والصواعق المرسلة لابن القيم (٣/٩٢٣).

ومن جنس هذا الغلط كذلك غلط بعض أهل الأهواء في فهم مقصود السلف ومرادهم من إطلاقهم عند ذكر نصوص الصفات القول بأنَّها (لا تفسَّر) أو (ما أدركنا أحداً يفسِّرها) أو (لا كيف ولا معنى) حيث ظنُّوا أنَّ مراد السلف بهذه الإطلاقات نفي معاني نصوص الصفات مطلقاً، وأنَّها مجهولة المعاني، وهذا غلط شنيع في فهم مراد السلف من قولهم؛ إذ هم كما أسلفت أنبل قدراً وأجلُّ مكانة من أن يُقال عنهم بأنَّهم جهلوا معاني نصوص الصفات، وإنَّما مرادهم بإطلاقهم المتقدِّم الردّ على الجهمية في تفسيراتهم المنحرفة وفهومهم المعوجة لنصوص الصفات.

قال شيخ الإسلام وقد ذكر قول أبي عبيد عندما ذكر نصوص الصفات: «هي عندنا حق، حملها الثقات بعضهم عن بعض، غير أنَّا إذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسِّرها، وما أدركنا أحداً يفسِّرها»، قال شيخ الإسلام: «فقد أخبر أنَّه ما أدرك أحداً من العلماء يفسِّرها تفسير الجهمية»[(١)].

فالسلف لا ينفون معاني نصوص الصفات، بل يُثبتون ظواهرها لله على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، ولا يُفسِّرون النصوص تفسيرات منحرفة وتأويلات مستكرهة باطلة، فمنهجهم يقوم على أساس الإثبات بلا تشبيه والتنزيه بلا تعطيل، وعمدتهم في ذلكم قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ۝﴾[(٢)].

---

(١) الحموية (ص ٣٠).

(٢) الشورى، آية ١١.

فصل

وقد نقل الكاتب (ص ١٨ وما بعدها) عن ابن كثير - رحمه الله - عدة نصوص أوهم بنقلها أنَّ ابن كثير أوَّل بعضَ صفات الله وصرفها عن ظواهرها، ومن هذه النصوص:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾[١]، قال ابن كثير: «الأمور كلُّها تحت تصريفه ...».

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[٢]، قال ابن كثير: «أي هو حاضر معهم ...».

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[٣]، قال ابن كثير: «بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء ...».

فأوهم بعمله هذا من كان غرًّا جاهلاً بمنهج أهل السنَّة والجماعة أنَّ التأويلَ سائغٌ غير منكر، وأنَّ ابن كثير واقع فيه ... وهذا مكرٌ وتلبيس.

فإنَّ مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾[٤] مشتملٌ على أمرين:

أحدهما: إثبات صفة اليد لله سبحانه على الوجه اللائق به.

الثاني: إثبات أنَّ الفضل بيده، والأمور تحت تصريفه لا شريك له.

فيقع التجوُّز عند بعض أهل العلم فيقتصرون في تفسير الآية على الأمر الثاني فقط، على اعتبار أنَّ الأمر الأول ظاهر متقرِّر، وهو ثبوت الصفة المذكورة لله على الوجه اللائق به.

---

(١) آل عمران، آية ٧٣.

(٢) الفتح، آية ١٠.

(٣) المائدة، آية ٦٤.

(٤) آل عمران، آية ٧٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن ذلك أنَّهم إذا قالوا بيده الملك أو عملته يداك، فهما شيئان:

أحدهما: إثبات اليد.

والثاني: إضافة الملك والعمل إليها.

والثاني يقع فيه التجوز كثيراً، أمَّا الأول فإنَّهم لا يُطلقون هذا الكلام إلاَّ لجنس له يد حقيقة، ولا يقولون: يد الهوى ولا يد الماء، فهب أنَّ قوله: بيده الملك قد علم منه أنَّ المراد بقدرته، لكن لا يتجوز بذلك إلاَّ لِمَن له يد حقيقة»[1].

ونحن نقول للكاتب: هب أنَّ المراد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾[2] أي: أنَّ الأمور تحت تصريفه، وبقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[3] أنَّ فضله واسع وعطاءَه جزيل، فإنَّ هذا لا يعني بحال أنَّ الصفة المذكورة في الآية منتفية عن الله غير ثابتة له؛ لأنَّه لا يتجوَّز بذلك إلاَّ لِمَن له يد حقيقة.

قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ يد القدرة والنعمة لا يُعرف استعمالها البتة إلاَّ في حقِّ من له يد حقيقة، فهذه موارد استعمالها من أولها إلى آخرها مطردة في ذلك، فلا يعرف العربي خلاف ذلك، فاليد المضافة إلى الحيِّ إمَّا أن تكون يداً حقيقة أو مستلزمة للحقيقة، وأمَّا أن تضاف إلى من ليس له يد حقيقة، وهو حيٌّ متَّصف بصفات الأحياء فهذا لا يُعرف البتة.

وسرُّ هذا أنَّ الأعمال والأخذ والعطاء والتصرف لَمَّا كان باليد وهي التي تباشره عبَّروا بها عن الغاية الحاصلة بها، وهذا يستلزم ثبوت أصل اليد حتى يصحَّ

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٠).

(٢) آل عمران، آية ٧٣.

(٣) المائدة، آية ٦٤.

استعمالها في مجرَّد القوة والنعمة والإعطاء، فإذا انتفت حقيقة اليد امتنع استعمالها فيها فيما يكون باليد، فثبوت هذا الاستعمال المجازي من أدلِّ الأشياء على ثبوت الحقيقة، فقوله تعالى في حقِّ اليهود ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾[(١)] هو دعاءٌ عليهم بغلِّ اليد المتضمِّن للجبن والبخل، وذلك لا ينفي ثبوت أيديهم حقيقة، وكذلك قوله في المنافقين ﴿ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ ﴾[(٢)] كناية عن البخل، ولا ينفي أن يكون لهم أيدٍ حقيقة، وكذلك قوله: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾[(٣)]، المراد به النهي عن البخل والتقتير والإسراف، وذلك مستلزم لحقيقة اليد، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ ﴾[(٤)] أي: يتولَّى عقدها، وهو إنَّما يعقدها بلسانه، ولكن لا يُقال ذلك إلاَّ لِمَن له يد حقيقة»[(٥)].

وبهذا يتبيَّن أنَّ من صار إلى المعنى الثاني المراد من الآية دون إثبات الأول يُعدُّ مؤوِّلاً ولا شك، أمَّا من أثبت الصفة لله سبحانه وتعالى سواء عند الآية المفسَّرة أو في موضع آخر، ثم فسَّر الآية بالمعنى الثاني، فلا يُعدُّ هذا تأويلاً بحال.

فتأمَّل هذا جيِّداً يظهر لك الفرق بين المثبتة والنفاة.

وابن كثير يثبت صفات الله له على الوجه اللائق به على طريقة سلف الأمة، واقتصاره في بعض المواضع على المعنى الثاني هو على سبيل التجوز في التفسير دون نفي منه ـ رحمه الله ـ للصفة الثابتة لله سبحانه.

---

(١) المائدة، آية ٦٤.

(٢) التوبة، آية ٦٧.

(٣) الإسراء، آية ٢٩.

(٤) البقرة، آية ٢٣٧.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (ص ٣٤١).

وهنا أمر لا بدَّ من بيانه، وهو أنَّ الكاتبَ لم يكن أميناً فيما نقله عن ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[1] فقد اقتصر الكاتب على نقل ما يتعلَّق بالمعنى الثاني، وحذف ما يتعلَّق بالمعنى الأول، وهو إثبات اليدين لله، وهذه خيانة من الكاتب أصلحه الله، ونصُّ ابن كثير بتمامه هو قوله:

((ثم قال تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[2]: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلاَّ عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كلَّ شيء مِمَّا نحتاج إليه في ليلنا ونهارنا، وحضَرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[3].

والآيات في هذا كثيرة، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنَّه لم يغض ما في يمينه، قال: وعرشه على الماء وفي يده الأخرى القبض، يرفع ويخفض)، وقال: يقول الله تعالى: (أنفق ينفق عليك) أخرجاه في الصحيحين البخاري في التوحيد عن علي بن المديني، ومسلم فيه عن محمد بن رافع، وكلاهما عن عبد الرزاق به)). اهـ.

هذا نصُّ ابن كثير بتمامه عند هذه الآية، أمَّا الكاتب فقد اقتصر في النقل إلى قوله: ((... وفي جميع أحوالنا)) وأهمل الباقي وفي هذا الشطر الذي أهمله الكاتب

---

(١) المائدة، آية ٦٤.

(٢) المائدة، آية ٦٤.

(٣) إبراهيم، آية ٣٤.

حديث أبي هريرة ﷺ المتفق على صحته، وفيه صراحة إثبات اليدين لله على الوجه اللائق به، ومن المعلوم من طريقة ابن كثير في تفسيره تفسير القرآن بالحديث، فأورد ـ رحمه الله ـ هذا الحديث الدال على ثبوت اليدين لله، إلاَّ أنَّ الكاتب حذفه لكونه لا يوافق مشربه وهواه، وهنا سؤال أطرحه للكاتب، وهو إن أوَّلت قوله ﷺ في هذا الحديث الذي حذفته «يمين الله ملأى» بقدرته ونعمته، فما أنت قائل في شطر الحديث الآخر، وهو قوله ﷺ «وفي يده الأخرى القبض يرفع ويخفض» هل يصح أن يكون المعنى بقدرته الأخرى أو بنعمته الأخرى؟!

ولقد «ورد لفظ اليد في القرآن والسنَّة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع وروداً متصرِّفاً فيه مقروناً بما يدلُّ على أنَّها يد حقيقة من الإمساك والطي، والقبض والبسط، والمصافحة والحثيات، والنضح باليد والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده، وتخمير طينة آدم بيده ووقوف العباد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله ﷺ يوم القيامة عن يمينه وتخيير آدم بين ما في يديه فقال: اخترت يمين ربي، وأخذ الصدقة بيمينه يربيها لصاحبها، وكتابته بيده على نفسه أنَّ رحمته تغلب غضبه، وأنَّه مسح ظهر آدم بيده ثم قال له ويداه مفتوحتان: اختر، فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يديه يمين مباركة، وأنَّ يمينه ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض، وأنَّه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وأنَّه يطوي السموات يوم القيامة، ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يطوي الأرض باليد الأخرى، وأنَّه خطَّ الألواح التي كتبها لموسى بيده»[1].

وغير ذلك كثير فما أنت قائل أيها الكاتب في هذه المواضع كلِّها؟ وكيف أنت صانع بها؟

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص ٣٤٨).

هل ستؤمن وترضى وتسلم؟ أم ستغير وتبدل وتحرِّف وتكذب؟

أمامك قاعدتان، الأولى سلفية، والثانية مريسية.

أمَّا القاعدة السلفية، فهي قول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «لا يوصف الله إلاَّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يُتجاوز القرآن والحديث»[1].

وأمَّا القاعدة المريسية، فهي قول بشر المريسي إمام المعطلة لتلاميذه: «إذا احتجوا عليكم بالقرآن فغالطوهم بالتأويل، وإذا احتجُّوا بالأخبار فادفعوها بالتكذيب»[2]، فاختر لنفسك أيَّ القاعدتين شئت، والله الموعد.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٦/٥).

(٢) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (١٠٣٨/٣).

فصل

وقال الكاتب (ص ٢٢): «(قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[1] قال ابن كثير: وقد قال عبد الله بن المبارك عن أسامة بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: هو يوم القيامة، يوم كرب وشدَّة ...».

قلت: وهذا تلبيس من الكاتب على القراء، فقد حذف الحديث الذي أورده ابن كثير في هذا الموضع، وفيه إثبات صفة الساق لله جلَّ وعلا على الوجه اللائق به.

فقد قال ابن كثير قبل الموضع الذي نقله الكاتب مباشرة ما نصُّه: «... وقد قال البخاري ههنا: حدَّثنا آدم، حدَّثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: (يكشف ربُّنا عن ساقه، فيسجد له كلُّ مؤمن ومؤمنة، ويبقى مَن كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً)»، وهذا الحديث مخرَّج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق، وله ألفاظ وهو حديث طويل مشهور.

وقد قال عبد الله بن المبارك ...» إلخ[2].

فهذا الحديث الذي أورده ابن كثير صريح في إثبات الساق صفة لله على ما يليق به؛ لإضافته في الحديث إلى الله، وهذا من إضافة الصفة إلى الموصوف.

ومن المعلوم أنَّ من منهج ابن كثير في تفسيره تفسير القرآن الكريم بالحديث، ويُعدُّ ذلك من أحسن طرق تفسير القرآن كما في مقدمة تفسيره.

فلِمَ حذف الكاتب هذا الحديث الصحيح الصريح الدال على ثبوت الساق صفةً

---

(١) القلم، آية ٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٢٤).

لله جلَّ وعلا على ما يليق بجلال الله وكماله.

وأين الأمانة العلمية في النقل ؛ إذ الأمانة تقتضي أن يورد كلام ابن كثير كلّه، فلِمَ بَتَرَه الكاتب وأخذ منه وترك؟

مع أنَّ الحديثَ مفسِّرٌ للآية موضح لها كما قال الشيخ المفسر صديق حسن خان في كتابه فتح البيان: «وقد أغنانا الله سبحانه وتعالى في تفسير هذه الآية بما صحَّ عن رسول الله ﷺ، فقد أخرج البخاري وغيرُه عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يكشف ربُّنا عن ساقه، فيسجد له كلُّ مؤمن ومؤمنة ...) الحديث، ثم قال: وإذا جاء نهر الله بطل نهل مَعْقل، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء ...».

فصل

قال الكاتب (ص ١٩): «وقال (أي ابن كثير) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾[(١)] أي: بقوة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد.

قلت: (والقائل الكاتب): الأيد جمع يد في لغة التنزيل، قال تعالى: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ﴾[(٢)]، قال الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط: اليد: الكف ...»، ثم أحال في الهامش إلى بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٥/٣٨١ ـ ٣٨٤).

قلت: وهذا تلبيس عجيب من الكاتب، أراد من خلاله أن يوهم القراء أنَّ ابن كثير أوَّل اليد بالقوة، فيكون شاهداً للكاتب في مشربه بصحة وسلامة التأويل.

وعلى كلٍّ فالأيد في لغة التنزيل هو القوة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾[(٣)]، ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾[(٤)].

ففي تهذيب اللغة للأزهري (١٤/٢٢٨) قال: «أبو عبيد عن الأصمعي: هو الأيد والآد للقوة، والتأييد مصدر أيَّدته، أي قويته، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾، وقُرئ ﴿إذ أَيَدْتُكَ﴾ أي: قويتك.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾[(٥)]، وقال

---

(١) الذاريات، آية ٤٧.

(٢) الأعراف، آية ١٩٥.

(٣) ص، آية ١٧.

(٤) المائدة، آية ١١٠.

(٥) الذاريات، آية ٤٧.

أبو الهيثم: آد يئيد إذا قوي، وأيد يؤيِّد إياداً إذا صار ذا أيد، وقد تأيد، وقد إدت أيداً أي قويت.

وقال الليث: وإياد كل شيء ما يقوى به من جانبه، وهما إياداه ...)).

بل يقول الفيروزآبادي نفسه ـ الذي نقل عنه الكاتب ـ ما نصُّه: ((آد يئيد أيداً: اشتدَّ وقوي، والآد: الصلب والقوة، كالأيد، وآيدته مؤايدة، وأيَّدته تأييداً، فهو مؤيِّد ومؤيَّد، قويته، وككتاب: ما أُيد به من شيء، والمعقل والستر ...))[١].

وقد اتَّضح بما تقدَّم أنَّ (أيد) في آية الذاريات مصدر للفعل آد بمعنى قوي، بخلاف (أيد) في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ فهي جمع يد.

وقد جعلهما الكاتب من باب واحد، وهذا لا شكَّ خلط وتلبيس ناتج عن قلَّة علم أو سوء قصد، والمراد منه كما أسلفت إيهام أنَّ ابن كثير قد أوَّل شيئاً من الصفات.

ورحم الله إمام الأئمَّة ابن خزيمة إذ يقول: ((وزعم بعض الجهمية أنَّ معنى قوله (خلق الله آدم بيديه) أي: بقوته، فزعم أنَّ اليد هي القوة، وهذا من التبديل أيضاً، وهو جهل بلغة العرب، والقوة إنَّما تُسمَّى الأَيْد في لغة العرب، لا اليَد، فمَن لم يُفرِّق بين اليَد والأيْد فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتاتيب أحوج منه إلى الترؤس والمناظرة ...))[٢].

---

(١) القاموس المحيط (ص ٣٣٩).

(٢) التوحيد (ص ٨٧).

فصل

قال الكاتب (ص ٩): «لهذا أردتُ أن أقدِّم منهج السلف الصالح في آيات الصفات، كما نقله إمام عظيم من أئمة السلف، وهو الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره القيم ...».

وقال عيسى المانع في تقديمه للكتاب (ص ٢): «وقام الشيخ محمد عادل عزيزة بتتبع آيات الصفات، ونقل ما قاله ابن كثير في تفسيره حولها بغير لبس أو غموض في رسالة موجزة ومستوعبة».

وقال وهبي غاوجي في تقديمه للكتاب (ص ٤): «ولقد نهض زميلنا الشيخ محمد عادل عزيزة الكيالي الحسيني بجمع كلام عَلَم من أعلام المسلمين مشهور بالعلم مشهود له بالفضل والاستقامة، أعني الحافظ إسماعيل بن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ فجمع في تفسيره أقوال السلف في صفات الله تعالى».

قلت: لقد أدخل الكاتب في رسالته رغم صغرها ووجازتها كثيراً من النصوص التي ليست من كلام ابن كثير، ولا من كلام السلف، بل هي من كلام أناس عُرفوا بالتأويل الباطل والتأثر ببعض المناهج الكلامية، ففي (ص ١٩ ـ ٢٠) نقل عن الفيروزآبادي، وفي (ص ٢٠ ـ ٢٢) نقل مطوَّل عن ابن جماعة، وفي (ص ٢٥ ـ ٢٦) نقل مطوَّل عن القرطبي، وفي (ص ٢٩) نقل عن القرطبي أيضاً، وكلام هؤلاء الذي نقله الكاتب عنهم، هو مِمَّا فارقوا فيه أهل السنَّة والجماعة، وباينوا في طريقتهم، حيث إنَّ مسلك أهل السنَّة والجماعة في الصفات هو الإثبات، بينا ما نقله الكاتب هنا عن هؤلاء كله من التأويل الباطل للصفات، فلست أدري لِمَ هذا التلبيس والتدليس، يعنون للكتاب بـ «عقيدة الإمام ابن كثير من أئمة السلف الصالح في آيات الصفات» ثم يُقحم في الكتاب نقولاً هي ليست من كلام ابن كثير ولا من

كلام السلف الصالح، بل وليست على منهجهم ولا على طريقتهم، ولست أدري لِمَ هذه المخادعة للقراء والتلاعب بهم، وهل هذا من الأمانة العلمية والنزاهة في التأليف، أم من اللبس والغموض والتدليس؟!

وإذا قيل إنَّ الكاتب غفل أو تغافل فما بال المقرِّظان له ساكتين مقرِّين؟ وعلى كلٍّ فما نقله الكاتب عن الفيروزآبادي وعن ابن جماعة وعن القرطبي مخالف لمعتقد ابن كثير ومعتقد أهل السنَّة والجماعة في الصفات، والمتمثل بإثباتها لله على الوجه اللائق به دون تعرض لها بتأويل أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

١ ـ فالفيروزآبادي نقل عنه الكاتب أنَّه قال: «اليد: الكف، وقيل: اليد من أطراف الأصابع إلى الكتف، وأصلها يدي، إنَّما قلنا أصلها يدي لأنَّهم يجمعونها على أيد، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] عبارة عن توليه لخلقه باختراعه الذي ليس إلاَّ له تعالى، وخصَّ لفظ اليد إذ هي أجلُّ الجوارح التي يتولى بها الفعل فيما بيننا؛ ليتصوَّر لنا اختصاص المعنى، لا لنتصوَّر منه تشبيهاً.

وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[3]، قيل: نعمته ونصرته وقوته.

وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[4] أي: يد نعمته ويد منَّته».

فهذا الذي نقله الكاتب هنا عن الفيروزآبادي هو على طريقة أهل البدع، حيث أوَّل اليدَ بالنعمة والقوة والنصرة، فأين هذا من طريقة أهل السنة والجماعة، وأين

---

(١) الأعراف، آية ١٩٥.

(٢) ص، آية ٧٥.

(٣) الفتح، آية ١٠.

(٤) المائدة، آية ٧٤.

هذا من طريقة ابن كثير الذي التزم الكاتب نقل معتقده؟!

٢ ـ وابن جماعة نقل عنه الكاتب قوله: «قوله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾: فله ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنَّ المراد مزيد العناية بنعمه عليه في خلقه وإيجاده وتكريمه، كما يُقال: خذ هذا الأمر بكلتا يديك.

الثاني: أنَّ المراد بيدي القدرة، وثُنِّيت مبالغة في عظم القدرة.

الثالث: أن يكون ذكر اليدين صلة لقصد التخصيص به تعالى ومعناه لما خلقت أنا دون غيري من الملائكة بأمري، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[(١)]، أي: بما قدَّمت أنت، فإن قيل: إن كان المراد (بخلقت بيدي) القدرة، لم يكن لآدم مزية؛ لأنَّ الخلق كلهم بقدرته؟

قلنا: المراد مزيته بالخلق في الإكرام بالأنواع التي ذكرنا، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾[(٢)]، فليس للأنعام مزيَّة على غيرها باعتبار الخلق وحده، بل باعتبار ما جعل في خلقها من المنافع المعدومة في غيرها.

فإن قيل: فالقدرة شيء واحد لا يُثَنَّى ولا يُجمع، وقد ثنيت وجمعت؟

قلنا: هذا غير ممنوع، فقد نطقت العرب بذلك بقولهم: مالك بذاك يدان، وفي الحديث عن يأجوج ومأجوج: (ما لأحد يدان بقتالهم)، فثنوا عند قصد المبالغة، وأيضاً فقد جاء: ﴿يَدُ اللَّهِ﴾، وجاء ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وجاء ﴿بِأَيْدِينَا﴾، وجاء ﴿بِأَيْيدٍ﴾ فلو لم يحمل على القدرة وحمل على الظاهر لزم من تصوير ذلك

(١) الحج، آية ١٠.

(٢) يس، آية ٧١.

ما يتعالى الله عنه)) اهـ.

وفي هذا الذي نقله الكاتب عن ابن جماعة ما في سابقه من تأويل النص وصرفه عن ظاهره بأوجه متعسِّفة، وطرق متكلَّفة تخالف طريقة السلف الصالح رحمهم الله، فما علاقة هذا النقل الباطل بمعتقد ابن كثير السلفي رحمه الله؟! ومَن مِن السلف وقع في هذه التأويلات الفاسدة والتخرصات الكاسدة في حمل كلام الله على معان بعيدة وفهوم متكلَّفة، فهل قال بهذا القول الأوزاعي أو مالك أو الشافعي أو أحمد أو غيرهم من أئمَّة السلف الذين ادَّعى الكاتب لزوم طريقهم وسلوك جادتهم.

٤ ـ والقرطبي نقل عنه الكاتب أنَّه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾(١) ما نصُّه: ((قال ابن عباس ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ إذا عصيتموه، وقيل: تقديره ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته، وخصَّ السماء وإن عمَّ ملكه تنبيهاً على أنَّ الإله الذي تنفذ قدرته في السماء لا من يعظمونه في الأرض، وقيل: هو إشارة إلى الملائكة، وقيل: إلى جبريل وهو الموكَّل بالعذاب الذي خسف بقرى سدوم من قوم لوط عليهم السلام.

ثم قال: وقال المحققون: أأمنتم من فوق السماء، كقوله: ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾(٢) أي: فوقها، لا بالمماسة والتحيز، لكن بالقهر والتدبير.

وقيل: معناه أأمنتم من على السماء، كقوله تعالى حكاية على لسان فرعون: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾(٣)، أي: عليها، ومعناه أنَّه مدبرها ومالكها، كما يُقال فلان على العراق والحجاز، أي: واليها وأميرها.

---

(١) الملك، آية ١٦.

(٢) التوبة، آية ٢.

(٣) طه، آية ٧١.

والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة، مشيرة إلى العلو، لا يدفعها إلاّ ملحد أو جاهل معاند، والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت، ووصفه بالعلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود؛ لأنَّها صفات الأجسام، وإنَّما نرفع الأيدي بالدعاء إلى السماء لأنَّ السماء مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحل القدس، وفوقها عرشه وجنته، كما جعل الله الكعبة قبلة الدعاء والصلاة، ولأنَّه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها، وكان في أزله قبل المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان)) اهـ.

فشتَّان بين هذا الذي نقله الكاتب عن القرطبي في فهم الآية ـ وغير خاف ما فيه من تعسف وتكلُّف ـ وبين ما نقله الكاتب عن ابن كثير رحمه الله، فقد نقل الكاتب عن ابن كثير في تفسير الآية قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾[1]: ((أي: هو إله من في السماء وإله من في الأرض، يعبده أهلهما وكلُّهم خاضعون له أذلاء بين يديه)) اهـ.

فهذا هو التفسير السديد للآية الموافق لمقتضى لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم، إذ الإله في اللغة هو المعبود، فمعنى الآية على هذا هو أنَّ الله معبود من في السماء ومن في الأرض، يعبده ويذل له من فيهما.

– نقل الكاتب أيضاً عن القرطبي أنَّه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[2]: ((قال الحسن: في طاعة الله، وقال الضحاك: أي في ذكر الله عزَّ وجلَّ، وقال: يعني القرآن والعمل به، وقال أبو عبيدة: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في ثواب الله، وقال الفراء: الجنب: القرب والجوار،

---

(١) الزخرف، آية ٨٤.

(٢) الزمر، آية ٥٦.

يُقال فلان يعيش في جنب فلان أي: في جواره، ومنه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾[1] أي: على ما فرَّطت في طلب جواره وقربه، وهو الجنة. وقال ابن عرفة: تركت من أمر الله، وكذا قال مجاهد: أي ضيَّعت من أمر الله)) اهـ.

والسؤال هنا: ما صلة هذه النقول عن القرطبي وغيره بذكر عقيدة ابن كثير في الصفات؟!

فكان واجباً على الكاتب وفاء بالأمانة والتزاماً بما وعد أن يتقيَّد بذكر كلام ابن كثير دون غيره، وإلاَّ فما الحاجة إلى عنونة الكتاب بـ ((عقيدة الإمام الحافظ ابن كثير)) إن كان سيقحم مع كلامه كلام غيره، ولو كان ما نقله عن غيره موافقاً لقوله ومعتقده لهان الخطب، لكن أن ينقل عن غيره ما يخالف معتقده، فهذا نوع تدليس وتلبيس ولا شك.

(١) النساء، آية ٣٦.

فصل

وقول الكاتب المتقدِّم في أول الكتاب: «ولقد قصدت بنشر هذا العمل تضييق شقة الخلاف بين المسلمين، وإماتة الحفائظ والأضغان، فقد بلينا في هذا العصر وأصاب كثيراً من علماء أهل السنة ما أصابهم من اتِّهام ونبز بالألقاب وافتراء وتضليل وتكفير ومسبَّة وغير ذلك لقولهم في آيات الصفات بقول مالك وأحمد والشافعي ...».

هو في الحقيقة ليس من كلامه، بل من كلام شيخه وهبي غاوجي في مقدمة تحقيقه لكتاب إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة[1]، فقد قال فيه غاوجي ما نصه: «ولا والله ما يقصد بنشر هذا العمل توسيع شقة الخلاف بين المسلمين أو إثارة الحفائظ والأضغان بينهم، فقد بلينا بها في هذا العصر وأصاب كثيراً من علماء أهل السنة ما أصابهم من اتِّهام ونبذ (كذا) وافتراء وتأويل ومسبة وغير ذلك من مخالفيهم ـ وهم إخوانهم من أهل السنة ـ ما أصابهم وإلى الله تعالى المشتكى» اهـ.

قلت: وهذه الكلمة في الواقع اعتاد هؤلاء وضعها دون تقيد أو التزام بما انطوت عليه، وإلاَّ فالحامل حقيقة لهذه الراية الهوجاء والضلالة النكراء ـ أعني: سب السلف والطعن فيهم ـ هو شيخهم الأول وأستاذهم المؤسس حامل راية التعطيل والتجهم في هذا العصر محمد زاهد الكوثري، الذي كثيراً ما يشيدون به ويشيرون إلى ما يسمونه بتحقيقاته[2]، ويصفونه بالشيخ العلامة المحقق الفاضل.

---

(١) (ص ٤).

(٢) انظر على سبيل المثال نقول وهبي غاوجي عن الكوثري في هامش الصفحات التالية من كتاب إيضاح الدليل: (ص ٣١، ٤٥، ٤٦، ٥١، ٥٦، ٧٢، ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٩٣، ١٠٠، ١٠٣، ١١٥، ١١٧، ١٢٤، ١٢٦، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٥، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٩، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٥)، فهذه النقول الكثيرة تدلُّ على الارتباط الوثيق بين الشيخ والتلاميذ.

فهذا الكوثري هو الحامل في الحقيقة لراية سب السلف والنيل منهم والطعن فيهم، وقد سوَّد كتاباته بركام هائل وزخم كبير من السبِّ والطعن واللعن، بل والتكفير لأئمَّة المسلمين وعلماء أهل السنة والجماعة إلى حدٍّ يقصر دونه الفسقة والسفهاء ومن لا دين عندهم ولا حياء!! ومن أمثلة طعونه في أئمة السلف ما يلي:

١ ـ قوله في الإمام الحجة عثمان بن سعيد الدارمي بأنَّه «المجسم المسكين»، «هذا الأخرق»، «صاحب العقل الوثني»!!

٢ ـ قوله في الإمام الدارقطني: «والدارقطني هو الذي يهذي ... وهو الأعمى المسكين بين عور، حيث ضلَّ في المعتقد تابع للهوى في الكلام على الأحاديث».

٣ ـ قوله في الإمام المحدِّث الحافظ أبي نصر السجزي صاحب الإبانة بأنَّه «المنافق الحاقد بجهله عن الحقائق»، و«اللعين الطريد المهين الشرير»، و«التيس»، و«الرذل الخسيس الأحقر»، و«الجاهل الغر المتمادي في الجهل»، وقال: «فعليه لعائن الله تترى واحدة بعد واحدة».

٤ ـ قوله في شيخ الإسلام الحراني: «صار كفره مجمعاً عليه»، «وقع الاتفاق على تضليله وتبديعه وزندقته»، «ليس من الفرق الثلاث والسبعين»، «الماجن المتجرئ»، «مارق»، «الخبيث»، «أفَّاك»، «مفتر»، وغير ذلك من صنوف السباب والشتائم.

٥ ـ قوله في الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ بأنَّه «مجسِّم اعتقاداً رغم تبريه منه»، «من الحشوية»، «عنده نزعة خارجية»، «لا يفهم من علم أصول الدين نقيراً ولا قطميراً».

٦ ـ قوله في الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كافر أو حمار»، «حمار أو تيس»، «الملحد»، «الملعون»، «الوسخ»، «النجس»، «الزائغ»، «بلغ من كفره مبلغاً لا يجوز السكوت عليه»، «لعنه الله»، «أخزاه الله»، إلى غير ذلك من السباب

والشتائم التي يقصر عنها السفهاء والفسقة، ويكفيك في ذلك النظر في كتابه «تبديد الظلام» لترى العجب العجاب!!

فمَن الحامل لراية سبِّ السلف أيُّها التلاميذ، ومَن الذي يفتري ويلعن ويضلل ويكفِّر أئمَّة الدِّين، أليس شيخكم وأستاذكم؟ وهل عهدتم مثل هذا اللسان السليط والقلم البذيء عند أحد غير هذا الشيخ؟ ألا تتقون الله؟!

فصل

وابن كثير الذي تنقلون معتقدَه هو تلميذ لشيخ الإسلام والعلَم الهمام ابن تيمية الحراني رحمه الله، وفي نظر شيخكم أنَّ ابن تيمية وتلاميذه مطعون فيهم وفي عدالتهم، غير موثوق بعلمهم، بل هم في نظره أعوان في هدم الإسلام والقضاء عليه.

قال شيخكم الكوثري في هامش السيف الصقيل (ص ١٤٠): «وكم أضلَّ من خلطائه ولهم معه موقف يوم القيامة لا يغبط عليه ...».

وقال أيضاً في هامش السيف الصقيل (ص ٣٩) في حقِّ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم: «كأنَّه وشيخه كانا يحاولان القضاء على البقية من الإسلام ومن علوم الإسلام، إتماماً لما لم يتم بأيدي المغول، لكنهما قضيَا على أنفسهما ومداركهما قبل أن يقضيا على السنَّة باسم السنة، وعلى عقول الناس باسم النظر، عاملهما الله سبحانه بعدله».

قلت: فهذا حال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه عند شيخكم الأول وهذه مكانتهم، وعلى هذا فأنتم بين أمرين لا مناص من أحدهما:

١ ـ إمَّا البراءة من ابن كثير ومن شيخه ابن تيمية وجميع تلاميذ هذه المدرسة، ومن جميع ما يعتقدونه؛ لأنَّهم أهلُ باطل ووثنيَّة وإلحاد وتجسيم وعقائد كفرية عند شيخكم الأول.

٢ ـ أو البراءة من شيخكم الأول، وإعلان النكير عليه في كلِّ واد، والتشريد به في كلِّ ناد، والتحذير من كتبه ومؤلفاته.

ولا شكَّ أنَّ اختياركم الثاني عود إلى رشد، وثوب إلى عدل، وهو ما نؤمِّله ونرجوه، والله وحده الموفِّق.

والحمد لله أوَّلاً وآخراً، والشكر له ظاهراً وباطناً، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضــــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
تحذير الكاتب وشيخه وهبي غاوجي من مسبة السلف، وبيان أنَّ الحامل لهذه الراية الهوجاء هو شيخهم وأستاذهم الكوثري	٦٢٤
احتفاء هؤلاء التلاميذ بالكوثري وإشادتهم به وكثرة نقولهم عنه...	٦٢٤
الإشارة إلى بعض الأمثلة من طعون الكوثري في أئمَّة السلف ومسبته لهم إلى حدٍّ يقصر عنه الفسقة والسفهاء ومن لا دين عندهم ولا حياء	٦٢٥
بيان أنَّ حال ابن تيمية وتلاميذه ومنهم ابن كثير في نظر شيخ هؤلاء الكوثري مطعون فيهم وفي عدالتهم وغير موثوق بعلمه	٦٢٧
إلزام هؤلاء التلاميذ بأحد أمرين: إمَّا البراءة من ابن كثير وشيخه ابن تيمية وجميع تلاميذ هذه المدرسة أو البراءة من شيخهم الأول وأستاذهم المؤسس محمد زاهد الكوثري	٦٢٧
فهرس الموضوعات	٦٢٩